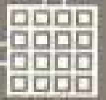
أعلام المسلمين
٤٠



خامس الخلفاء الراشدين

تأليف
عبد الستار الشيخ



دار القلم
دمشق

أعلام المسلمين

٤٠



تأليف

عبد الستار الشيخ

دار القلم

دمشق


عمر بن عبد العزيز
خامس الخلفاء الراشدين

الطبعة الثانية

١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

تُطلب جميع كتبنا من :

دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦

ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق

دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥

ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

هَـذا الرَّجُـل

* «ما صليتُ وراء إمام بعد رسول الله ﷺ أشبه صلاة برسول الله من إمامكم هذا ـ يعني عمر بن عبد العزيز ـ».

أنس بن مالك

* «لكل قوم نجيبة، وإن نجيبة بني أمية عمر بن عبد العزيز، وإنه يُبعث يوم القيامة أمة وَحْدَه».

الإمام أبو جعفر الباقر

* «ما كانت العلماء عند عمر بن عبد العزيز إلا تلامذة».

ميمون بن مِهْران

* «ما ورد علينا قطّ كتابُ عمر بن عبد العزيز إلا بإحياء سنّة، أو إماتة بدعة، أو ردّ مَظْلِمة».

الحسن البصري

* «الخلفاء الراشدون خمسة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعمر ابن عبد العزيز»

الإمامان سفيان الثوري والشافعي

* «يُروى في الحديث أن الله يبعث على رأس كل مائة عام من يجدِّد لهذه الأمة دينها، فنظرنا في المائة الأولى فإذا هو عمر بن عبد العزيز».

الإمام أحمد بن حنبل

* «كان واحد أمته في الفضل، ونجيب عشيرته في العدل، جمع زهداً وعفافاً، وورعاً وكفافاً، شغله آجل العيش عن عاجله، وألهاه إقامة العدل عن عاذله، كان للرعية أمناً وأماناً، وعلى مَنْ خالفه حجة وبرهاناً، كان مفوَّهاً عليماً، ومفهَّماً حكيماً».

الحافظ أبو نعيم الأصبهاني

* «وأجمعوا على جلالته وفضله، ووفور علمه وصلاحه، وزهده وورعه، وعدله وشفقته على المسلمين، وحسن سيرته فيهم، وبذل وسعه في الاجتهاد في طاعة الله، وحرصه على اتباع آثار رسول الله ﷺ، والاقتداء بسنّته وسنّة الخلفاء الراشدين».

الإمام النووي

* «الإمام الحافظ، العلامة المجتهد، الزاهد العابد السيد، أمير المؤمنين حقاً».

«وكان إماماً فقيهاً، مجتهداً، عارفاً بالسنن، كبير الشأن، ثبتاً حجة حافظاً، قانتاً لله أوّاهاً منيباً... يُعَدّ في حُسْن السيرة والقيام بالقسط مع جده لأمه عمر، وفي الزهد مع الحسن البصري، وفي العلم مع الزهري».

الحافظ الذهبي

* * *

المقـــدّمَة

الحمد لله على نعمائه، والشكر له على فيوض رحمته وآلائه، والصلاة والسلام على الـرحمة المهـداة، والنعمة المسـداة، سيدنـا محمد ﷺ وعلى صحبه وآله، وبعد:

فلو التقت أضداد الحياة ومتناقضاتها، فسيظل العدل والظلم ضدين لا يجتمعان، ونقيضين لا يلتقيان.

والظلم يوحي لفظه بالظلمات السود التي تحجب الحقائق، فبه وفيه تنقلب الأمور، وتُنتهك الحرمات، وتُسفك الدماء، وتُصادر الحريات، وتفشو الرذيلة، وتنتشر الموبقات المادية والأدبية، ويرتفع الـوضيع، وينخفض الرفيع، ويوسَّد الأمر إلى غير أهله، وتتكلم الرُّوَيْبِضَةُ بأمر الناس، ويؤخذ المال من غير وجهه، ويصرف في غير مواضعه، وتمسي الحياة غابة، الغَلبة فيها لمن مَلَكَ يداً أطول، وناباً أفتك، ومخلباً أعتى وأظلم.. وبكلمة واحدة: الظلم شرٌّ كله.

والعدل بخلاف ذلك كله، فهو والحق كالشيء وظلّه، فبالحق قامت السموات والأرض، وبالعدل توسَّد الأمور إلى أهلها، وينال كل ذي حق حقه، وتنتشر الحريات المضبوطة بالحق، وتعمّ الفضيلة، ويرتفع الأكفاء الأمناء فيتكلمون بأمر العامة، وتُحفظ الدماء والأعراض والأموال، وتصان البلاد والمقدسات، وترتفع الهامات فلا تخضع لغير الله، ويستخذي أعداء

الله، ويعم الدنيا الأمن والأمان، والسلام والرخاء، والحب والإخاء، والمودة والوفاء، ولا يأتي على الناس يوم إلا وتمنوا أن يمدّ الله في عُمُرِ الرجل العادل الذي حقق الله على يديه كل ذلك. وباختصار: العدل لا يأتي إلا بخير.

نقول هذا الكلام بين يدي حديثنا عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، الذي اقترن اسمه بالعدل، فما يُذكر عمر إلا وذُكر معه، وما يسمع الناس بكلمة «العدل» إلا قفزت إلى خواطرهم صورة ذلك الخليفة العظيم.

لقد كانت أيام خلافته المباركة ـ على قصرها ـ أنموذجاً حياً واقعياً لتطبيق الشريعة الإسلامية، بكل أجزائها وعلى شتى مستوياتها.

إن نبأه عجيب، وأعماله وإنجازاته والله أعجب يا رجال!! ولحسن حظنا ـ بل لحسن حظ الإسلام والبشرية جمعاء ـ أن أخباره التي نُقلت إلينا قد أجمع عليها المؤرخون الثقات، ووصلت إلينا في صدق تاريخي يرفض أدنى شك وكل تساؤل.

ولقد شغل عمر مكاناً في الذُّرا الشاهقة بين عظماء الرجال في الصدر الأول، واحتشدت في حياته الحقائق العظام التي تحكي لنا إعجاز مسلكه، ووفور علمه، وروعة بساطته، وتفوق ورعه، وسموّ عدله، ونبل روحه، وكريم شمائله، وعظمة أخلاقه، وشموخ تواضعه، وندرة أناته، وقوة حزمه وحسمه، وفصاحة منطقه، وسَبْق زهده وتبتله وتعبده!.

إنه الرجل الذي حاول أن ينقل عصر الوحي والنبوة بكل أخلاقه ومبادئه وفضائله ومُثُلِهِ إلى الناس في عصره؛ ليستظلوا بظلالها، ويستدفئوا برحمتها، فنجح أيَّما نجاح.

والذي جعل حياته كالأسطورة أنه لم يشغل الناسَ ويدهشهم بعبادته وتبتله، وعلمه وورعه، وعدله ورحمته وشفقته، وسماحة خلافته،

وحسب؛ بل إنه شغل التاريخ ـ كذلك ـ بذلك الانقلاب الرهيب الذي حدث له ساعة تسلّم الخلافة!!.

كان قبل أن يُستخلف من أعطر الناس، وأحسنهم لباساً، وألينهم طعاماً، وأكثرهم رفاهاً، وأوثرهم مركباً، وأهنئهم عيشاً؛ فهو ربيب بيت الخلافة، وابن القصور التي كان يعبّ فيها من النعيم عبّاً، ويدوس فوق المباهج والمناعم التي تأتي إليه طوعاً وكرهاً. وما إن تسلّم مقاليد الحكم وأصبح أمير المؤمنين؛ حتى انقلب إلى زاهد رهباني كأنما عاش في صومعة على كسرات خبز تسدّ جوعته، وأسمال ثياب تستر جسمه!!

إنه يتخلى عن كل تلك المطاعم والمناعم، والمباهج والملذات، ويرفض بساط الخلافة وسرادقات المُلك، ويقعد للناس على الأرض!

فالرجل الذي كان يلبس أبهى الحلل، ويضمِّخ نفسه بأغلى العطور، ويسكن أفخم القصور، ويمتطي الصافنات الجياد، هو هو ذلك الخليفة الذي ترك كل ذلك، وركب بغلته، ولبس المرقوع من الثياب، وأكل الخشن من الطعام، وكان مصروفه اليومي درهمين! وآلى على نفسه أن يبقى كذلك حتى يَستغني كل فقير، ويَشبع كل جائع، ويُداوى كل مريض، ويُنصف كل مظلوم، ويُجبر كل كسير، ويُقهر كل ظالم. فكان الذي أراد.

والعجيب في هذا الخليفة ـ وما أكثر العجائب في حياته ـ أنه لم يكن شيخاً طاعناً في السن، قد تأخرت عنه المطامح، وولّت شهوات نفسه، بل كان في فورة الشباب، ابن سبع وثلاثين، يملك نفساً توّاقة موّارة، لكن الفهم العميق لمسؤولية الحكم، وتمثُّلَ المساءلة بين يدي الله سبحانه، هو الذي قلب كيانه في اللحظة التي نودي فيها بـ «أمير المؤمنين»، وأطلق كلمته التي تشبه كلمة جده لأمه عمر الفاروق، فقال: «لو أن سخلة هلكت على شاطىء الفرات، لأُخِذَ بها عمر يوم القيامة»!!

وجوانب العظمة عند عمر بعيدة المدى، واسعة الأكناف، كثيرة الشعاب، إنه خليفة كان ـ بحق ـ نموذجاً من النماذج التي لا تُرى إلا مرة واحدة في القرون الطوال، وليس من أمثاله في التاريخ إلا آحاد! خليفة توافرت له أجمل الصفات، وتكاملت فيه أكمل السجايا والمزيات: من علم وفقه، وورع وخشية، وعبادة وصلاح، وطيب أصل، وحسن منبت، مع العقل الراجح، والفهم الثاقب، والشجاعة والصلابة في الحق، والكرم والوفاء، والرفق بالرعية، والصدق، والعفو والشكر، والأناة والحزم، والعفاف والحلم، والسكينة والوقار.

لقد كان الأُنْمُـوذَجَ الفذ الرفيع للحاكم المسلم، الصالح المصلح، وحقق في أيام خلافته المباركة معجزة بكل ما في هذه الكلمة من معانٍ وإيحاءات:

ففي اللحظة الأولى لخلافته أعلن أن الأمة هي صاحبة الحق في تعيين الخليفة؛ فخلع ولاية العهد، وخيَّر الناس، فاختاره أهل الحل والعقد، وبايعوه، ثم بايعه الناس بيعة العامة.

وأقام العدل ونشر راياته فوق كل رابية، وحارب الظلم ولاَحَقَهُ في كل جُحْر توارى فيه.

وردّ المظالم، ونزع الأموال من بين يدي بني أمية مما ليس لهم بحق، وأمر ولاته أن يفعلوا كذلك.

وأقام الحدود وأعطاها قداستها، وأعلن أنها كإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة.

واختار الولاة الأكفاء، وأمرهم بالعدل وإلغاء الحِجابة وفتح الأبواب لكل أحد.

وسلَّط الرعية على الأمراء، وقال لهم: من ظُلم فليأتني، ولا إذن له عليَّ.

ومنع الولاة من التجارة والأعمال الأخرى، حتى لا يستغلوا مناصبهم، فيعنتوا الناس.

واتبع معهم سياسة لا مركزية، فأعطاهم حرية العمل في شؤون البلاد، إلا أن يكون قتل نفس فلا بد من استشارته.

ورفع مكانة العلم، فدوّن الحديث، وفرض الرواتب للعلماء وطلبة العلم؛ ليتفرغوا لذلك.

وردّ للمال حرمته، ولبيت المال قداسته، فالمال لا يجبى إلا من وجه حق، ولا يصرف إلا في وجه مشروع.

وأعلن أن المال ليس للتخزين، بل لصلاح البلاد والعباد، ولما خشي أحد الولاة نفاد المال من «بيت المال»، قال له عمر: «املأه زبلاً»!!

وألغى أعمال الحَجَّاج والعمل بأحكامه الظالمة.

ووضع الجزية عمن أسلم، وساوى في العطاء بين العرب والموالي.

وفرض الأعطيات للناس، وكان مناديه في كل يوم ينادي: أين الغارمون؟ أين الناكحون؟ أين المساكين؟ أين اليتامى؟ حتى أغنى كل هؤلاء، فلم يَبْقَ محتاج، ولا مَنْ يقبل الصدقة.

وعيَّن خدماً للعميان والزمنى، والمُقْعَدين واليتامى.

وأصلح التجارة والزراعة والاقتصاد، ووحَّد المكيال، وجعل الدولة تتحكم في سياسة النقود.

ونشر الإسلام في أصقاع الأرض، حتى دخله البربر، وملوك الهند والسند ومن تابعهم.

وناقش أرباب المذاهب كالقدرية والخوارج، حتى ردّ معظمهم إلى

الصواب، وطواهم تحت جناحـه؛ فوحّد الأمة، وعاش الجميع في سلام ووئام.

وأصلح الله به بين الوحش والأنعام، فكانت ترعى جميعاً في مكان واحد!!

والذي يدهش حقاً أن كل تلك الأعمال العظام، والإنجازات الضخام، والإصلاحات الباهرة، لم تستغرق زمناً طويلاً، لا عشرين عاماً، ولا عشرة، ولا خمسة، بل استغرقت سنتين وخمسة أشهر وأياماً!!

إن الدول في زماننا هذا تضع «الخطط الخمسية، والعشرية» لإصلاحات جزئية في دولة صغيرة محدودة، فَيُنْجَز بعضها، أو لا يتحقق معظمها، لماذا؟!

إن أمير المؤمنين أبا حفص قد أصلح في أقل من ثلاثين شهراً دولة مترامية الأطراف، تمتد من الأندلس غرباً إلى الصين شرقاً! كيف؟! بالإسلام وحده.

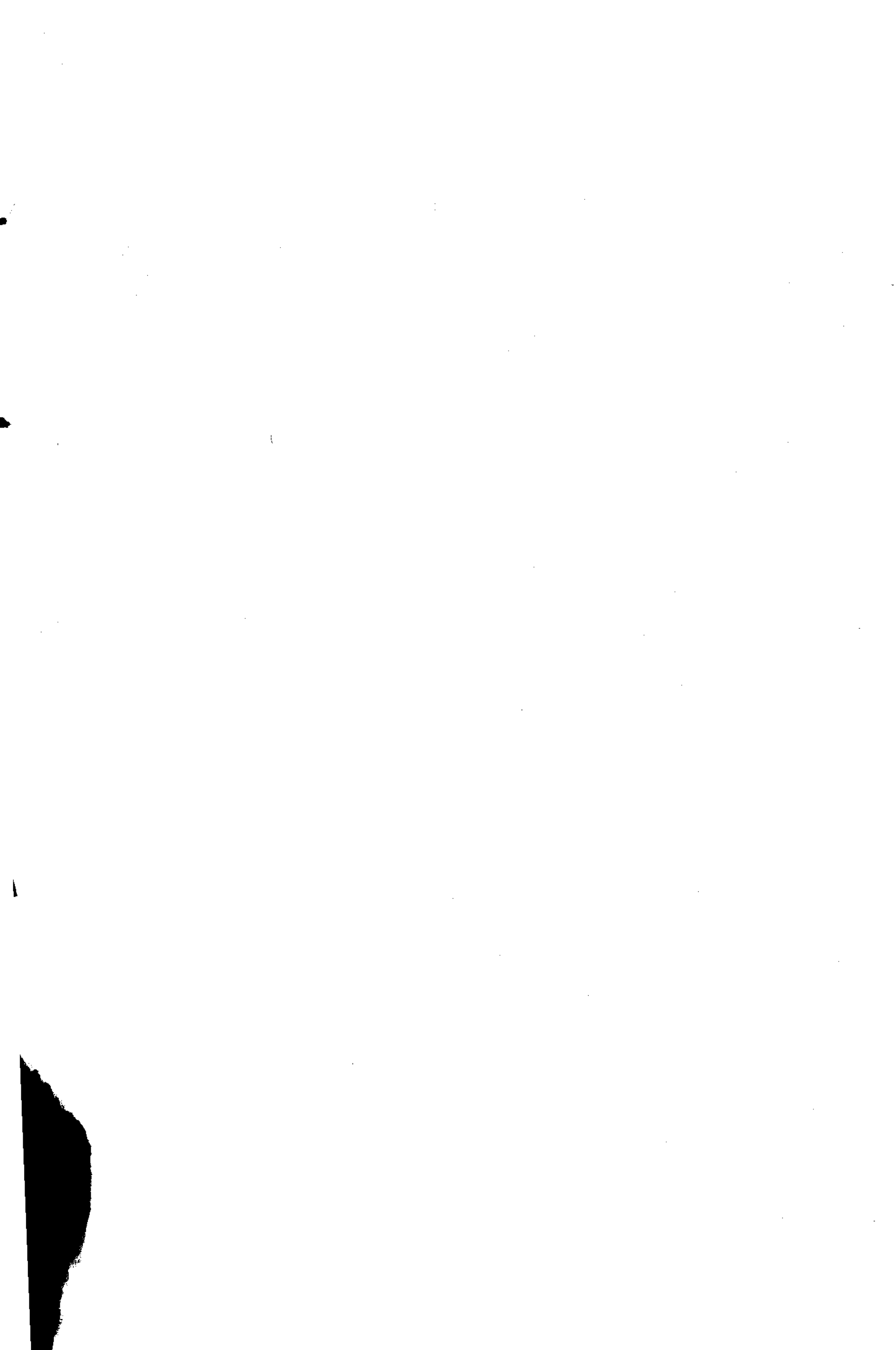
حقيقة أن عمر قد أحدث واحدة من معجزات التاريخ الباهرة النادرة، لكن أصل ذلك كله يرجع إلى الدين الذي استقى منه وأصّل عليه وحده منهجه القويم المستقيم.

إنه الإسلام العظيم، الذي إذا وجد الحاكم الصالح الصادق الكفء العليم، المخلص لربه وقرآنه ودينه ونبيّه وأمته؛ فسيحقق مثل الذي جاء به عمر. فابن عبد العزيز لم يكن معه ملائكة يؤيدون مسلكه ويحرسون خطاه! بل حمل هذه المعجزة الخالدة ـ القرآن ـ بيمينه، واندفع كالريح الرُّخاء، يعمل ويعمل، وينجز وينجز، حتى أسلم الراية وقد أدى الأمانة، ونصح للأمة، فرضي الله عنه وأرضاه، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

ويوم تثوب الأمة إلى رشدها، وتصحو من كبوتها، وتدرس ـ لتعمل ـ سِيَر رجالاتها، ويصدق الحكامُ ربَّهم، ويقومون بالأمانة المناطة بهم على وجهها؛ فعهد عمر بن عبد العزيز سيتكرر لا محالة. وهذه سيرته ومسيرة حياته، وخططه ومنهجه بين أيدينا؛ ليقتدي به مَنْ أقامهم الله على رقاب الناس.

﴿إِنَّ في ذَلِكَ لَذِكْرىٰ لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

عبد الستار الشيخ



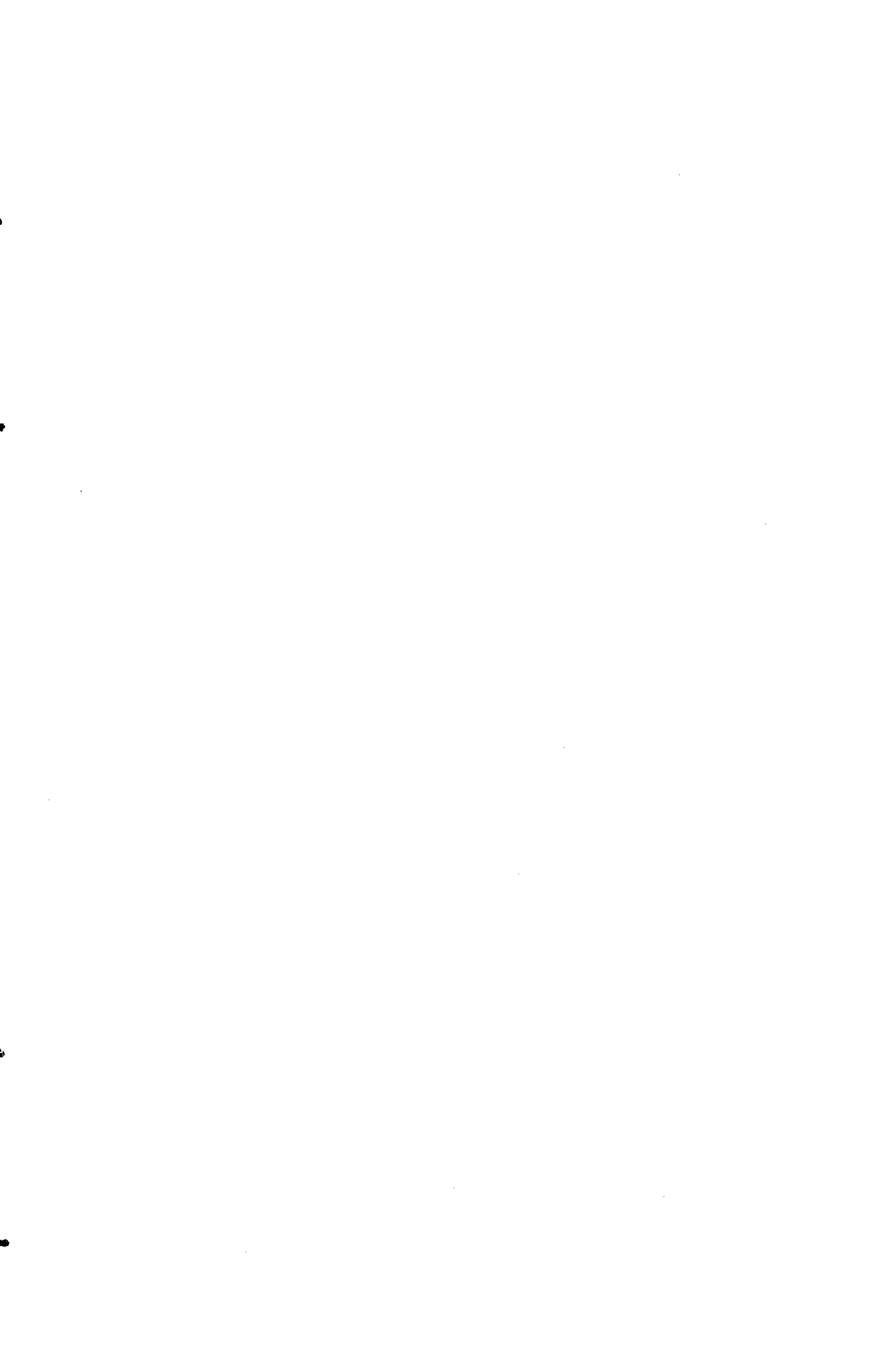
الباب الأول
مقومات شخصيته

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: أخباره الشخصية وحِلْيَتُه ونشأته.

الفصل الثاني: شخصيته العلمية: علمه وتدوينه العلم، وشذرات من فقهه ومروياته.

الفصل الثالث: عبادته وأخلاقه.



الفَصل الأول

أَخْبَارُهُ ٱلشَّخْصِيَّةُ وَحِلْيَتُهُ وَنَشْأَتُهُ

أصله الطيب:

في واحدة من الليالي المباركة، وقد أفلت الشمس، وزحف الليل وألقى بِكُتَل الظلام التي عمت الوجود، وأمست المدينة المنورة ساكنة ساجية، وأوى الناس إلى منازلهم ومضاجعهم، إلا رجلاً واحداً قد أفزعته مسؤولياته ـ وقد كانت دائماً تفزعه ـ خرج مع مولاه أسلم يعسّ في طرقات المدينة، فلعل هناك جائعاً أو مريضاً أو ابن سبيل، أو لعل هناك واحداً من شؤون الرعية قد غاب عنه، والله سائله عنه ومحاسبه عليه يوم القيامة! ذلكم هو الخليفة الراشد، العبقري الملهم، أبو حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه.

وطال تعسسه حتى أضناه التعب، ووخزه البرد، فأوى إلى جدار دار صغيرة، وجلس مع غلامه لينال قسطاً من الراحة، ليستأنف مهمته. وهناك سمع حواراً بين أم وابنتها، حول ذلك القدر الضئيل من اللبن الذي جاد به ضرع شاتهما، فقد دعت الأم ابنتها أن تخلط اللبن بالماء، حتى يزداد ويفي ثمنه بنفقات اليوم الجديد. وألقى أمير المؤمنين السمع إلى حوارهما، ويحدث أسلم عن ذلك فيقول:

«بينا أنا مع عمر بن الخطاب وهو يَعُسُّ بالمدينة، إذ أعيا، فاتكأ على جانب جدار في جوف الليل، فإذا امرأة تقول لابنتها: يا ابنتاه، قومي إلى

ذلك اللبن فامْذُقيه بالماء. فقالت لها: يا أمتاه، أَوَ ما علمت بما كان من عزمة أمير المؤمنين اليوم؟! فقالت: وما كان من عزمته يا بنية؟ قالت: إنه أمر مناديه فنادى أن لا يشاب اللبن بالماء. فقالت لها: يا بنتاه، قومي إلى اللبن فامذقيه بالماء، فإنك بموضع لا يرَاكِ عمر ولا منادي عمر. فقالت الصبيّة لأمها: يا أمتاه، والله ما كنت لأطيعه في الملأ وأعصيه في الخلاء! وعمر يسمع كل ذلك، فقال: يا أسلم، علِّم الباب، واعرف الموضع. ثم مضى في عسسه، فلما أصبح قال: يا أسلم، امضِ إلى ذلك الموضع فانظر من القائلة ومن المقول لها، وهل لهما من بعل. فأتيتُ ذلك الموضع، فنظرت، فإذا الجارية أيّم لا بعل لها، وإذا تيك أمها. وإذا ليس لهما رجل، فأتيت عمر بن الخطاب فأخبرته. فدعا عمر ولده فجمعهم، فقال: هل فيكم من يحتاج إلى امرأة أزوِّجه؟ ولو كان بأبيكم حركة إلى النساء ما سبقه أحد منكم إلى هذه الجارية. فقال عبد الله: لي زوجة. وقال عبد الرحمن: لي زوجة. وقال عاصم: يا أبتاه، لا زوجة لي فزوجني. فبعث إلى الجارية، فزوجها من عاصم، فولدت لعاصم بنتاً، وولدت البنت عمر بن عبد العزيز رحمه الله»[1].

وهكذا تزوج عاصم بن عمر بن الخطاب تلك الفتاة ـ وكانت من بني هلال ـ الفقيرة الشريفة، الورعة النبيلة، فأنجبت له فتاة سمّوها «ليلى»، وتكنى بأم عاصم. ودرجت أم عاصم هذه في شباب تقي نقي، حتى تزوجها عبد العزيز بن مروان، فولدت له الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز.

عن هذا الأصل تفرع عمر بن عبد العزيز.

وللنسب الطاهر والسلالة الطيبة الأصيلة تأثير كبير في صناعة الرجال،

---

(١) مناقب عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي: ص ١٠. يعس: يطوف بالليل، يحرس الناس، ويكشف أهل الريبة. امذقيه: اخلطيه.

وتكوين شخصياتهم، وعراقة النسب وأصالته تؤتي أكلها الطيب إذا توجهت بأوامر الإسلام، واستقامت على نهجه القويم، و(الناس معادن كمعادن الفضة والذهب، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام، إذا فَقُهُوا. . .)[1].

وقد اجتمع لعمر بن عبد العزيز من ذلك ما لم يجتمع إلا للقليل من الأفذاذ:

فجدّ أمه ـ ليلى ـ هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، الفاروق العادل، الذي ضرب الله الحق على قلبه ولسانه.

وخاله عبد الله بن عمر بن الخطاب، الصحابي الجليل، والعالم الكبير، والعابد التقي.

وأبوه عبد العزيز بن مروان، التقي الجواد، العالم النحوي، أمير مصر الشهير.

وجده مروان بن الحكم، شيخ بني أمية، التابعي الجليل، وكاتب عثمان بن عفان، وأمين سرّه، وهو من أقران عبد الله بن الزبير، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية.

وعمه الخليفة العظيم عبد الملك بن مروان، أحد كبار فقهاء المدينة.

ومن أبناء عمومته معاوية بن أبي سفيان، كاتب الوحي، وخال المؤمنين.

وجدته لأمه هي فتاة بني هلال التي أبت أن تغش اللبن بالماء، التقية النقية.

---

(١) رواه مسلم: ٤/٢٠٣١، وأحمد في مسنده، وانظر: صحيح الجامع الصغير، حديث رقم ٦٧٩٧.

وهكذا فعمر سليل الأتقياء الصالحين، والعلماء الفقهاء، والخلفاء والأمراء، والأماجد الكرام. فاختلط الدم الطاهر بـالمحتد الكـريم، والجوهر النقي بالأصل العريق؛ فتلك ذرية بعضها من بعض.

وقد أشار جرير إلى هذا الأصل الطيب، فقال[1]:

إليك رحلتُ يا عمر ابن ليلى	على ثقـةٍ أزورك واعتمـادَا
تعوَّد صالـحَ الأعمالِ، إني	رأيتُ المرءَ يلزمُ ما استعادَا
إلى الفاروقِ تُنسب يا ابن ليلى	ومـروانَ الذي رفـعَ العمادَا
فما كعب بن مَامَة وابن سعدى	بأكرم منك يا عمـر الجوادا

اسمه ونسبه وكنيته، وسنة ولادته ومكانها:

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحَكَم بن أبي العاص بن أمية ابن عبد شمس بن عبد مناف بن قُصَيّ بن كلاب، أمير المؤمنين، أبو حفص، القرشي الأُمَوي، المدني ثم الدمشقي.

ولد بالمدينة المنورة سنة ستين للهجرة، عام توفي معاوية رضي الله عنه، أو بعده بعام أي سنة (٦١ هـ)[2]. وذكرت بعض المصادر أنه ولد بمصر، وما ذكرناه هو الراجح؛ لأن أباه عبد العزيز لم يكن والياً عليها سنة (٦١ هـ)، إنما كان واليها مَسْلَمة بن مُخَلَّد، وتولى عبد العزيز إمرة مصر سنة (٦٥ هـ)[3].

---

(١) المناقب لابن الجوزي: ٣٣٣. وكعب بن مامة: هو الإيادي، كريم، جاهلي، صنو حاتم طيِّىء في الجود. وابن سعدى: هو أوس بن حارثة الطائي، وهو أحد من يضرب المثل بإيثاره وكرمه.

(٢) وذكر ابن سعد أنه ولد سنة (٦٣ هـ). انظر: الطبقات الكبرى ٥/٣٣٠، المناقب لابن الجوزي ٩، صفة الصفوة ٢/١١٣، سير أعلام النبلاء ٥/١١٤، ١١٥، تاريخ الإسلام١٨٧، ١٨٨، البداية والنهاية ٩/١٩٢.

(٣) انظر: تهذيب الأسماء واللغات ٢/١٩، تاريخ الخلفاء ٢٢٨، الأعلام للزركلي ٤/٢٨، ٧/٢٢٤.

أبوه[1] :

هو عبد العزيز بن مروان بن الحكم، وكان من خيار الأمراء، شجاعاً كريماً، جواداً ممدحاً.

روى عن أبيه وأبي هريرة وعبد الله بن الزبير وعُقْبة بن عامر، وغيرهم. وروى عنه ابنه عمر، والزهري وابن أبي مُلَيكة، وآخرون.

وثَّقه ابن سعد والنسائي، وله في سنن أبي داود حديث. ولّاه أبوه إمرة الديار المصرية.

كان يلحن في كلامه، وحدث أنه دخل عليه رجل يشكو خَتَنَه ـ وهو زوج ابنته ـ فقال له عبد العزيز: من خَتَنَك؟ فقال الرجل: ختنني الخاتن الذي يختن الناس! فقال لكاتبه: ويحك بماذا أجابني؟! فقال الكاتب: كان ينبغي أن تقول: من ختنُك!

فآلى على نفسه أن لا يخرج من منزله حتى يتعلم العربية، فأغلق عليه داره، وراح يتدارس قواعد اللغة مع نفر من النحاة، فأتقنها وأحسنها، فكان من أفصح الناس.

وكان يجزل عطاء من يعرب كلامه، وينقص عطاء من يلحن فيه؛ فتسارع الناس في زمانه إلى تعلم العربية.

وكانت نفسه توّاقة للتقوى، تخاف العقاب، وترجو الثواب، ولقد عبر عن ذلك بكلماته الخاشعة لما حضرته الوفاة، فقال: «والله لوددت أني لم أكن شيئاً مذكوراً، ولوددت أني دفقة في هذا الماء الجاري، أو نبتة بأرض الحجاز».

---

(١) الطبقات الكبرى ٥/٢٣٦، تهذيب الأسماء واللغات ١/٣٠٦، سير أعلام النبلاء ٤/٢٤٩، البداية والنهاية ٩/٥٧، تهذيب التهذيب ٦/٣١٧، شذرات الذهب ١/٩٥، الأعلام ٤/٢٨.

بقي أميراً لمصر عشرين سنة وزيادة، وقد بدأت ولايته لها استقلالاً سنة (٦٥ هـ)، حيث ولّاه عليها أبوه مروان، ورسم له المنهج الذي يسير عليه في وصية بليغة جامعة، يحدث عنها عبد العزيز نفسه فيقول:

«أوصاني مروان حين ودَّعته عند مخرجه من مصر إلى الشام، فقال: أوصيك بتقوى الله في سرّ أمرك وعلانيتك، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون. وأوصيك ألا تجعل لداعي الله عليك سبيلاً، فإن المؤذنين يدعون إلى فريضة افترضها الله عليك ﴿إنَّ الصلاةَ كانتْ عَلى المُؤْمِنينَ كِتاباً مَوْقُوتاً﴾. وأوصيك ألا تَعِدَ الناس موعداً إلا أنفذته، وإن حُمِلْتَ على الأسنَّة! وأوصيك ألا تعجل في شيء من الحكم حتى تستشير، فإن الله عز وجل لو أغنى أحداً عن ذلك لأغنى نبيه محمداً ﷺ عن ذلك بالوحي الذي يأتيه؛ قال الله عز وجل: ﴿وَشَاوِرْهُمْ في ٱلْأَمْرِ﴾».

وكان قد جعل موسى بن نُصير وزيراً له ومشيراً. فقام عبد العزيز بواجبه خير قيام، ونهض بشؤون الحكم، وأحدث نهضة عمرانية، واختط مدينة حلوان، وضرب الدنانير، وبنى دار الأضياف، وعاش معه الناس في رغد من الحياة، وكان ورعاً تقياً، يخاف الله، ويعظم شرعه، ويميز الخبيث من الطيب.

ولما مات ترك من الأموال والأثاث والدواب ـ من الخيل والبغال والإبل ـ ما يعجز عنه الوصف، مع جوده وكرمه وبذله وعطاياه الجزيلة؛ فإنه كان من أعطى الناس للجزيل. فقد كانت تنصب حول داره كل يوم ألف قصعة للاكلين، وتُحمل مائة قصعة على العجل إلى قبائل مصر، واستمر هذا إلى أن توفي.

ولم يكن عطاؤه للشعراء كي يتملَّقوه، بل لأولئك المحاويج والمعوزين، وشعاره في ذلك قوله: «عجبت لمؤمن يؤمن أن الله يرزقه ويخلف عليه، كيف يحبس ماله عن عظيم الأجر وحسن الثواب»؟!

وكان من تمام ورعه وصلاحه أنه لما أراد الزواج قال لقيِّمه: «اجمع لي أربعمائة دينار من طيب مالي، فإني أريد أن أتزوج إلى أهل بيت لهم صلاح». فتزوج أم عمر بن عبد العزيز[1].

لقد حدد عبد العزيز هدفه بأنه يريد زوجة من بيت صالح، ومنبت طاهر، فوفقته الأقدار الحكيمة إلى بيت أصيل في الطهر، عريق في التقوى والهدى، مغرق في الصلاح والورع؛ ذلكم هو بيت الفاروق عمر! فتزوج بأم عاصم ليلى، بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، وبنت الفتاة الهلالية التي أبت أن تغش اللبن بالماء!!

ولحق عبد العزيز بربه عام (٨٥ هـ)، رحمه الله تعالى.

أمه أم عاصم[2]:

هي أم عاصم «ليلى» بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وقد أنجبت لعبد العزيز: عاصماً، وأبا بكر، ومحمداً[3]، وعمر، وهو أشهر إخوته رضي الله عنه.

وقد تأثرت أم عاصم بأصولها، ورضعت من آل عمر بن الخطاب الخلال الحميدة، والخصال المجيدة؛ فشبَّت على الصلاح والتقوى، وتاقت نفسها للزهادة والإنابة، وولعت بالعبادة، فكانت لؤلؤة مشرقة في العقد العمري المضيء.

وقد ربّت أبناءها على أخلاق الإسلام الكريمة، وأرضعتهم مع لبنها

---

(١) الطبقات الكبرى ٥/٣٣١، المناقب لابن الجوزي ٩، صفة الصفوة ٢/١١٣، تهذيب الأسماء واللغات ٢/١٩.

(٢) الطبقات ٥/٣٣٠، المناقب ٩، سير أعلام النبلاء ٥/١١٥، تاريخ الإسلام ١٨٧، البداية والنهاية ٩/١٩٢، ١٩٦.

(٣) هؤلاء هم أشقاء عمر، وله جماعة من الإخوة لأبيه من زوجات أخريات، غير أم عاصم.

التقوى والإحسان، والصدق والورع، والنبل والمروءة، والجود والكرم. وحاولت جهدها أن تعلق أفئدتهم وأرواحهم بجدهم العظيم عمر الفاروق، فتجددت تلك الصفات العمرية كأوضح وأجلى ما تكون في عمر بن عبد العزيز سبط ابن الخطاب، ومن حِكَم القدر أنه اختار لابن عبد العزيز ذلك الأصل الطيب، بل حتى اسمه وكنيته قد وافقا اسم جده عمر وكنيته.

وهكذا اجتمع لعمر بن عبد العزيز طيب الأصل، وعراقة الأرومة، وطهر الأجداد، ونقاؤهم وتدينهم، من جهة أمه وأبيه، اللذين تفرعا من سلالة ابن الخطاب ومروان بن الحكم[1].

بشارة عمر بن الخطاب وابنه عبد الله بعمر بن عبد العزيز:

كان من صفات عمر بن الخطاب رضي الله عنه تلك التي حدثنا عنها الصادق المصدوق ﷺ بقوله: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس مُحَدَّثونَ، فإن يكُ في أمتي أحدٌ فإنه عمر»[2].

---

(١) وليس كما ادعى صاحب «خلفاء الرسول» - ص ٦٢٨ - من أن عمر بن عبد العزيز ينتمي للنقيضين الكبيرين «عمر بن الخطاب وسلالته التقية الورعة، والأمويين وسلالتهم المتقحمة المستهترة»! هكذا «الأمويون» عموماً! والرجل لا يتورع في الحط عليهم حتى على الصحابي الجليل معاوية رضي الله عنه. وقد سبقت لنا مع المؤلف وقفات في كتابَيْنا عن «عثمان وعلي». ولسنا نساوي بين عمر بن الخطاب ومروان، حاشى وكلا، بيد أننا لا نتهم مروان والأمويين، وإن الوقوع فيهم لا يخدم إلا أعداء الإسلام. ويكفي الأمويين فخرا وشرفا أنهم حملوا راية الجهاد ونشروا الإسلام، وأوصلوا دعوته إلى أقاصي الدنيا، حتى طرقت خيولهم جبال البرانس مصممة على فتح بلاد «الغال»، وهي ما يعرف بفرنسا الآن. وقد قدمنا قبل قليل طرفا من سيرة عبد العزيز ووصية أبيه له، فكيف يتهم المؤلف هذين الرجلين؟! ولماذا؟!

(٢) صحيح البخاري، مناقب عمر. و«محدَّثون»: جمع محدَّث، وهو الذي يجري الصواب على لسانه، أو يخطر بباله الشيء فيكون، بفضل من الله تعالى وتوفيق.

ومن ذلك أنه لما عَلِمَ من شأن الفتاة الهلالية ـ التي أبت أن تغش اللبن بالماء ـ ما عَلِم؛ قال لابنه عاصم: «اذهب يا بني فتزوجها، فما أحراها أن تأتي بفارس يسود العرب»!!

قال الليث بن سعد: «الفراسة فراسة عزيز مصر في يوسف النبي عليه السلام، حين قال: ﴿ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فلمَّا كلَّمَهُ قالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أمينٌ﴾. وفراسة عمر بن الخطاب في الهلالية حين قال لولده: «تزوَّجْها، والله ليوشكن أن تأتي بفارس يسود العرب». فأتت بعمر ابن عبد العزيز. وفراسة سليمان بن عبد الملك في عمر بن عبد العزيز حيث قال: «والله لأعقدن عقداً ليس للشيطان فيه نصيب». فعقد لعمر بن عبد العزيز»[1].

ويرى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ذات ليلة رؤيا، نهضٍ على أثرها من نومه مستبشراً ومتعجباً، وهو يقول: «ليت شعري مَنْ ذو الشِّينِ[2] من ولدي الذي يملؤها عدلاً، كما ملئت جَوْراً»!

بل إن عبد الله بن عمر كان كثيراً ما يقول: «من هذا الذي من ولد عمر، في وجهه علامة، يملأ الأرض عدلاً»!

وظلت نبوءة الفاروق تدوي بين أهله وذويه الذين راحوا يتلمسون تلك العلامة في وجوه أبنائهم، حتى وُلد لعبد الله بن عمر ابنه «بلال»، وكانت بوجهه شامة، فحسبوه المبشَّر الموعود، لكن تخطته الأقدار إلى أن جاء عمر بن عبد العزيز.

يقول عبد الله بن عمر: «يا آل عمر، كنا نتحدث أن الدنيا لا تنقضي حتى يلي رجل من آل عمر، يعمل مثل عمل عمر. قال: فكان بلال بن

---

(١) أي عَهِدَ له بالخلافة من بعده، وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله.
(٢) المرادُ بالشين كلمة أولها حرف الشين، مثل: شجة وشامة.

عبد الله بن عمر بوجهه شامة، وكانوا يرون أنه هو، حتى جاء الله بعمر بن عبد العزيز، أمه بنت عاصم بن عمر»[1].

أشجُّ بني أمية:

وانتقلت البشرى إلى عبد العزيز بن مروان الذي صاهر آل عمر بن الخطاب، ليشهد تحقق النبوءة في ولده المبارك عمر. فبينا عمر الطفل المتفتح يجري في مراتع «حلوان» بمصر ـ حيث أبوه واليها ـ حملته رجلاه إلى حظيرة الخيل فدخلها، فضربه جواد فشجَّه وأدماه. وهرع الأب ليمسح الدم عن وجه ابنه، ويضمد الشجَّة، وبينا هو كذلك إذ طوّفت بخاطره تلك «النبوءة العمرية» التي تبشر برجل من ولد عمر يملأ الأرض عدلاً؛ فزفَّها إلى زوجته، وخاطب ابنه الوديع قائلاً:

«إن كنت أشجَّ بني أمية إنك إذاً لسعيد»[2]!

صفاته الخِلْقية:

كان رضي الله عنه أبيض رقيق الوجه، مليحاً جميلاً، نحيف الجسم، حسن اللحية، غائر العينين، بجبهته أثر حافر دابة؛ فلذلك سمِّي «أشجَّ بني أمية»، قد وَخَطَهُ الشيبُ[3].

---

(١) الطبقات ٥/٣٣٠، ٣٣١، الحلية ٥/٢٥٤، المناقب ١١، الكامل في التاريخ ٤/١٦١، الطبري ٧/٤٧٠، سير أعلام النبلاء ٥/١١٦، ١٢١، ١٢٢، تاريخ الإسلام ١٩١، البداية والنهاية ٩/١٩٦، تاريخ الخلفاء ٢٢٩.

(٢) الطبقات، المناقب، سير أعلام النبلاء، الطبري: نفس المواضع. مختصر ابن عساكر ١٩/١٠٠، البداية والنهاية ٩/١٩٢، خلفاء الرسول ٦٢٤، ٦٢٥، ٦٢٧، ٦٢٨.

(٣) المناقب ١٧٣، مختصر ابن عساكر ١٩/٩٩، سير أعلام النبلاء ٥/١١٥، ١١٦، ١٤٤، تاريخ الإسلام ١٨٨، تهذيب التهذيب ٧/٤١٨، ٤١٩، البداية والنهاية ٩/٢١٢. وخطه الشيب: فشا فيه، أو استوى سوادُه وبياضه.

نشأته والعوامل التي أثرت في تكوين شخصيته

بداياته المبكرة وحفظه القرآن الكريم:

تفتحت عينا عمر الطفل في المدينة النبوية، وأخذت فضائله العالية ومواهبه وكفاياته تعبر عن نفسها، وتعلن عن وجودها، وهو لا يزال غضاً طرياً؛ فلقد استهوى قلبه ذلك النور المنبعث من «المسجد النبوي»، فأخذ يتردد عليه. وزاد من تعلقه به أن كبير أشياخه هو عبد الله بن عمر عم أمه - أم عاصم - فكان يتردد عليه، ويأخذ عنه الحديث النبوي. ولم يستطع أن يكبح جماح نفسه التوّاقة للمعالي عندما عاد ذات يوم وقال لأمه: «يا أماه، أنا أحب أن أكون مثل خالي - أي ابن عمر - »! فتجيبه أمه ببشاشة وغبطة: أنت تكون مثل خالك!! تكرر عليه ذلك غير مرة.

وأما ابن عمر فكان يقرأ في وجه الفتى الصغير ملامح النجابة، وأمارات النبوغ، فهو من سلالة عمر، ومن ذرية الفتاة الهلالية النبيلة، زاد على ذلك حبُّ الفتى لمجالس العلم. ولما جاء كتاب أمير مصر عبد العزيز ابن مروان إلى زوجته يطلب إليها أن تقدم عليه مصر مع ابنهما «عمر»، أقبلت المرأة إلى عمها عبد الله بن عمر تودعه، وتخبره بالأمر، وأنها راحلة إلى زوجها. فقال لها عبد الله: يا ابنة أخي، هو زوجك فالحقي به. ثم استدرك لما أرادت الخروج فقال لها: «خلّفي هذا الغلام عندنا - يريد عمر - فإنه أشبهكم بنا أهل البيت»! فخلّفته عنده. وسُرَّ عبد العزيز بذلك، وأوصى بابنه أخاه عبد الملك بن مروان، وأجرى عليه ألف دينار كل شهر.

ثم قدم عمر على أبيه بمصر، فأقام عنده ما شاء الله.

ففي «حلوان» سكن عبد العزيز مع أسرته، وبنى فيها الدور، وغرس النخيل والأعناب. وهناك قضى عمر فترة صباه.

وكان من عادة الخلفاء والأمراء أنهم يعتنون بأبنائهم؛ فيضعون لهم

المؤدِّبين والمعلمين، كي ينشؤوا على المكارم والفضائل وطلب المعالي، وأول ما كانوا يعتنون به كتاب الله الكريم. وقد رأى عبد العزيز على ابنه مخايل العظمة ودلائل الخشية والإنابة؛ فاختار له مربين من علماء مصر وقرائها، فحفظ القرآن في صغره، وأخذ عنهم شيئاً من علوم الإسلام.

وهناك جرى لعمر موقف فذ، أبان عن معدنه الكريم، وقلبه الخاشع، فعن أبي قبيل «أن عمر بن عبد العزيز بكى وهو غلام صغير قد جمع القرآن، فأرسلت إليه أمه، فقالت: ما يبكيك؟ قال: ذكرتُ الموت!! قال: فبكت أمه من ذلك»[1].

إلى المدينة المنورة ثم إلى الشام[2]:

وتاقت نفس الفتى إلى المدينة النبوية، فهي إحدى أكبر منارات العلم والتقوى في العالم الإسلامي، تضج بالعلماء، على مختلف تخصصاتهم، فهمس في أذن أبيه يلفت نظره إلى ما هو خير وأنفع لهما في الدنيا والآخرة: «ترحِّلني إلى المدينة، فأقعد إلى فقهاء أهلها، وأتأدب بآدابهم».

ووافقت هذه الأمنية هوىً في فؤاد عبد العزيز، فاختار لابنه أصلح الصلحاء، وأرسخ العلماء، وأزهد الأتقياء، وكان يتعاهده، ويسأل عنه، ويحمله على المعالي، ولا يتباطأ في الأخذ على يديه إذا ما قصّرت به همته في موقف ما، أو ألهته بعض الزخارف عن مهمات الأمور ومعاليها.

---

(١) المناقب ١٤، تاريخ الإسلام ١٨٨، تذكرة الحفاظ ٢/١١٨، البداية والنهاية ٩/١٩٢، تاريخ الخلفاء ٢٢٩، «سيرة عمر» لابن عبد الحكم، نقلاً عن «عمر» للزحيلي ١٨.

(٢) المناقب ١٣، ١٤، مختصر ابن عساكر ١٩/١٠٠، ١٠١، سير أعلام النبلاء ٥/١١٦، ١١٧، تاريخ الإسلام ١٨٨، ١٨٩، تهذيب التهذيب ٧/٤١٨، البداية والنهاية ٩/١٧٧، ١٩٢، ١٩٣، شذرات الذهب ١/١١٤، ١١٩، «عمر» للزحيلي ١٨، ٢١، ٣٠، ٣١. وغير ذلك.

وبعث به إلى المدينة يتأدب بها «وكتب إلى صالح بن كَيْسان، يتعاهده»، فتولى صالح تأديبه، وكان يلزمه الصلوات في المسجد.

وحدث أن عمر «تأخر عن الصلاة مع الجماعة يوماً، فقال صالح بن كيسان: ما شغلك؟ فقال: كانت مرجِّلَتي تُسَكِّنُ شعري. فقال له: قَدَّمْتَ ذلك على الصلاة؟! وكتب إلى أبيه ـ وهو على مصر ـ يعلمه بذلك. فبعث أبوه رسولاً إليه، فلم يكلِّمه حتى حلق رأسه»!

ولما حج عبد العزيز توجه إلى المدينة فسأل صالحاً عن ابنه، فقال صالح له: «ما خَبَرْتُ أحداً الله أعظمُ في صدره من هذا الغلام»!

وبلغ من حصافة عمر أنه: «قعد مع مشايخ قريش، وتجنب شبابهم، وما زال ذلك دأبه حتى اشتهر بالعلم والعقل، مع حداثة سنّه».

وكان من عِلْية أشياخه: أحد فقهاء المدينة السبعة، وهو عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، فأكثر عمر التردد إليه، والاستفادة منه، حتى قال العجلي عن عبيد الله أنه «هو معلِّم عمر بن عبد العزيز».

وكان عمر من المعجبين بشيخه هذا ـ وكان أعمى ـ لكثرة فوائده، وغزارة علمه، ورسوخ إيمانه وتقواه، حتى قال فيه: «لمجلس من الأعمى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أحب إليّ من ألف دينار».

بل كان عمر يصبر على ما في شيخه من جفوة خفيفة في التعليم والرواية؛ ليصل إلى ما عنده من علم واسع، فعن أبي الزناد قال: «رأيت عمر بن عبد العزيز يأتي عبيد الله يسأله عن علم ابن عباس، فربما أَذن له، وربما حجبه».

وبلغ عبيدَ الله أن عمر ينتقص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «فلما أتاه عمر أعرض عبيد الله عنه، وقام يصلي، فجلس عمر ينتظره، فلما سلّم أقبل على عمر مغضباً، وقال له: متى بلغك أن الله سخط على أهل

بدر بعد أن رضي عنهم؟! ففهمها عمر، وقال: معذرة إلى الله ثم إليك، والله لا أعود. فما سُمِعَ بعد ذلك يذكر علياً إلا بخير».

●● وهكذا أطال عمر الجلوس إلى الأشياخ وأعيان العلم في المدينة، وأخذ عن سيد التابعين سعيد بن المسَيِّب، ونبغ في العلم، مع التقوى والورع. وقد أثرت هذه البدايات المباركة في تكوين شخصيته، وأرست اللبنات الأولى القوية في بنائه العلمي، وتربيته الروحية، ووجهته إلى الجدية في الأمور، والحزم في المواقف، وإمعان الفكر وإدامة النظر في الكتاب الكريم والسّنة المطهرة.

ولما ماتَ عبد العزيز بن مروان ـ سنة ٨٥ هـ ـ بعث عبد الملك بن مروان إلى ابن أخيه عمر، فخلطه بوُلْدِه، وقدَّمه على كثير منهم، وزوَّجه بابنته فاطمة. وعاش عمر في كنف عمه عبد الملك ـ وكان أحد كبار فقهاء المدينة ـ فأخذ عنه العلم، وحضر مجالسه، وشهد فيها محاورات العلماء والفقهاء والشعراء، فنمّى معرفته، ووسَّع دائرة ثقافته، واكتسب فهم شؤون الحياة، وسياسة الرعية، وأمور الحكم. وهذا من تمام عناية الله بعمر؛ حيث هيأ له ـ في وقت مبكر ـ أسس القيام بأعباء الخلافة.

إرهاصاتُ شخصيته، ونشأتُه في النعيم[1]:

لقد هيأت الأقدار لعمر أسباب الخير والنبوغ والفضيلة والكمال، واختارت له الأصل الطاهر، والمحضن الطيب، والبيئة الراشدة التي كفلته وقامت على رعايته وتربيته وتأديبه وتثقيفه. وتجلّت في سنوات عمره الباكرة الناضرة عزيمة ماضية، وإرادة متوقدة، راحت تحرك دوافع الغلام، وتوجه

---

(١) الطبقات ٥/٣٣٢، ٣٧٣، ٣٧٤، ٣٩٦، ٤٠١، ٤٠٢، ٤٠٣، مختصر ابن عساكر ١٩/١٠١، ١٠٤، تهذيب الأسماء واللغات ٢/١٩ ـ ٢٠، المناقب ٤١، ٧٧، ٢٠٥، حلية الأولياء ٥/٣٤٣، سير أعلام النبلاء ٥/١١٧، ١٣٤، ١٣٥، تاريخ الإسلام ١٨٩، البداية والنهاية ٩/٥٨، ١٩٣، الأغاني ٩/٣٠٠، خلفاء الرسول ٦٤٠ ـ ٦٥١، «عمر» للزحيلي ٢٦ ـ ٢٩.

مكنوناته للتألق والتوهج على طريق الحق والخير والمكرمات، فاستطاعت طفولته أن تكون أنموذجاً متكامل الخصائص، متناسق القسمات، للتنشئة الصحيحة، وأساساً قوياً قويماً للسنوات الصعبة التي تنتظره، ليحمل على كاهله أعباء الخلافة الراشدة للدولة الإسلامية العظيمة.

ويحدثنا هو عن بدء إنابته، وأوائل الومضات المشرقة في حياته، فيما يرويه عبد الله بن كثير قال: «قيل لعمر بن عبد العزيز: ما كان بدو إنابتك؟ قال: أردت ضرب غلام لي، فقال لي: يا عمر، اذكر ليلة صبيحتها يوم القيامة»!

لقد كانت إرهاصات طفولته تغطي بشائرها كل مجال، وتوافرت على بناء شخصيته منذ نعومة أظافره عوامل عدة، تعاضدت وتكاملت في بناء الرجل المعجزة، وهيأته لدوره العظيم الذي ستفصح عن أعماله الكبار أيامُ خلافته القصيرة، بعد أقل من ثلاثة عقود من الزمان.

●● وأول هذه الإرهاصات تلك النبوءة التي أطلقها جده عمر، حين خاطب ابنه عاصماً، يحضه على الزواج بالفتاة الهلالية، وأنها ستأتي «بفارس يسود العرب». وزاد الأمر توكيداً ورسوخاً تلك الرؤيا التي امتزجت بالأمنية، بأن «الأشج» من ولده سيلي ويملأ الأرض عدلاً، فساقت الأقدار «عمر السبط» إلى «إصطبل الخيول»، حيث طبع على جبهته ذلك «الوسام» الذي عُرف به فيما بعد بأنه «أشجّ بني أمية».

●● على أن هذا الإرهاص له رديف آخر، يكمله ويتممه ولا ينفك عنه، وهو ذلك الأصل الطيب الذي تفرع عنه عمر، والمحضن الطاهر الذي ترعرع في كنفه. فابن عبد العزيز لم يكن واحداً من عامة الناس، فهو سليل الخلفاء والأمراء، حيث نظرت في نسبه تجد القادة والزعماء، الذين لعبوا دوراً بارزاً وحاسماً في التأثير على مجريات الأحداث وحركة التاريخ.

لقد نشأ في محضن الخلافة، ورضع من ثدييها، وتنفس في أجوائها منذ لحظات عمره الأولى.

●● وذانك النوعان من الإرهاص كانا يدوران خارج شخصية الطفل، ويديرهما القدر بحكمته في صناعة الخليفة الموعود. فلننظر نوعاً آخر من الإرهاص يعتبر مظهراً لجهد الطفل ونشاطه الذاتي في اكتشاف نفسه وبناء شخصيته. ويتمثل ذلك في هذا الموقف الذي يحدثنا عنه فيقول: «لقد رأيتُني بالمدينة، غلاماً مع الغلمان، ثم تاقت نفسي للعلم؛ فأصبت منه حاجتي». فأسرع الفتى فطلب إلى أبيه أن يرحّله إلى «المدينة»، فلبى الأب رغبة ابنه الألمعي، واختار له «ابن كيسان» مؤدباً؛ فأحسن وأجاد.

●● وتبهرنا طفولة عمر في اختياره القدوة والمثل الأعلى، حيث تجنب الشباب، وقعد إلى الشيوخ، فنهل منهم الورع والفقه والعلم والفهم. بل إنه ليرسل بصيرته الذكية إلى الآفاق البعيدة، ويعلّق قلبه برجل هو أروع وأورع، وأفقه وأعلم، وأعبد وأزهد، وأتقى وأنقى أهل زمانه؛ ذلكم هو عبد الله بن عمر بن الخطاب، الذي كان ابن عبد العزيز يدعوه بـ «خاله». فكان شديد الإعجاب به، كثير الإشادة بعلمه وورعه، يلوذ به ويلازمه، ويسير على خطاه، حتى وصل به الأمر أن داعبته أمنيات عظام، فقال لأمه: «يا أماه، أنا أحب أن أكون مثل خالي»!!

●● حقيقة إن الروح التي تسكن جوانح هذا الفتى هي أكبر مئات المرات من جسمه الغض! إنها روح كبيرة، وتطلعات شامخة، وأمنيات وثابة، حيث لم يتعلق بما يحيط به من ملوك وأمراء، ولا ركن إلى المباهج والزخارف التي كان يطؤها بقدميه. لقد كانت آماله أسمى، وطموحاته أعلى، وكأنه يضع الركائز الأولى في بنيان رجل الخلافة، الذي ادخره له القدر، ليأتي الناس على قدر!

فإقباله المبكر على القرآن العظيم، وحفظه له وهو لا يزال صغيراً.

وإنابته الخاشعة، وخوفه الشديد من الله تعالى، متمثلاً في بكائه عندما ذكر الموت، فبكت أمه لبكائه.

واضطرابه لما قال له غلامه: «يا عمر، اذكر ليلة صبيحتها يوم القيامة».

وإقباله على العلم بنهم وشغف.

وتعلقه بالأكابر، واقتداؤه بالأفذاذ، وجلوسه إلى الأشياخ.

وولعه بمعالي الأمور.

كل ذلك ـ لا ريب ـ يدل على نبوغ مبكر، وطموح نادر، وتطلّع باهر، حبكت خيوطه العناية الإلهية، لتعدّ الرجل للحظة الحاسمة.

●● وفي طفولته كذلك نرى أنه يأخذ نفسه بالعزائم، ويحملها على ما لا يقدر عليه إلا أولو العزم من الرجال، ويتطلع للسداد، فيتجنب الأخطاء صغيرها وكبيرها، ويواجه الرذائل بمقت شديد، ورفض أكيد. وقد تحدث عن نفسه حيال واحدة من تلك القبائح، فقال:

«ما كذبت كذبة منذ شددت عليًّ إزاري».

وقال: «ما كذبت منذ علمت أن الكذب شين على أهله».

ولما أخطأ في حق أمير المؤمنين علي، وعنَّفه شيخه ابن عتبة؛ بادر بالاعتذار إلى الله تعالى، ثم إلى شيخه، وقال: «والله لا أعود». فما سُمع عمر بعد ذلك يذكر علياً إلا بخير.

وعندما تأخر لبعض الوقت عن صلاة الجماعة، وأرسل أبوه مِن مصر مَنْ يجزّ لعمر شعره، فيفعل ذلك، وتزول عن عمر أنصع مظاهر أناقته وجماله؛ نراه يتلقى ذلك بغبطة وسرور، لأن فيه تكفيراً عما اجترحه من عمل أخَّره لبعض الوقت ـ لا كل الوقت ـ عن صلاة الجماعة، وعرف كيف

يمتثل لطاعة مؤدبه ومربيه، فيما فيه الخير والتقى، ثم الكمال لروحه، والسداد لتفكيره وسلوكه!

●● والأعجب من ذلك حقاً في شخصية عمر، والإرهاصات التي تبدت عليه وهو صغير، أنه ابن القصور، وسليل الأمراء، رضع الرفاه والمناعم مع كل ذرة هواء داعبت أحشاءه. فالصعب له مذلَّل، والبعيد منه قريب، والمستحيل سهل المنال عنده، لا يتمنى شيئاً إلا ناله، ولا يخطر بباله شيء إلا احتازه، ولا تتوق نفسه لأمر أو شهوة من طعام أو شراب وكساء وغيره؛ إلا أتته طائعة أو راغمة. فكان في طفولته وشبابه يخوض في النعيم خوضاً، ويعبّ من مناعم الحياة عباً، ويقطف من أطايبها ويأخذ من مباهجها بغير حساب.

ولقد ساعده على ذلك ـ إضافة إلى أنه من أسرة الأمراء ـ ما ورثه فيما بعد عن أبيه من تركة عظيمة، حتى قال ابن كثير: «وقد ورث عمر من أبيه من الأموال والمتاع والدواب هو وإخوته، ما لم يرثه غيره فيما نعلم»!

ذلك الرغد من العيش، والرفاهية والخصب والنعيم، الذي تقلّب فيه عمر، قد عبر عنه هو نفسه بقوله: «إن نفسي توّاقة، وإنها لم تُعْطَ من الدنيا شيئاً إلا تاقتْ إلى ما هو أفضل منه، فلما أُعطيت ما لا أفضلَ منه في الدنيا[1]، تاقت إلى ما هو أفضل منه. ـ يعني الجنة ـ».

ـ يحدث علي بن بَذيمة فيصف هيئة عمر ولباسه، فيقول: «رأيتُه بالمدينة وهو أحسن الناس لباساً، ومن أطيب الناس ريحاً، ومن أخيل الناس في مشيه. ثم رأيتُه بعدُ يمشي مشية الرهبان، فمن حدَّثك أن المشي سجيّة، فلا تصدّقه بعد عمر».

ويقول رجاء بن حَيْوة: «كان عمر بن عبد العزيز من أعطر الناس،

---

(١) يعني الخلافة.

وألبس الناس، وأخيلهم مشيةً، فلما استُخلف قوَّموا ثيابه باثني عشر درهماً من ثياب مصر».

ولما كان والياً على المدينة أمر من يشتري له ثياباً، فاشتُري له ثوب بأربعمائة درهم، فلمسه بيده وقال: «ما أخشنه وأغلظه»! فلما استُخلف أمر بشراء ثوب، فاشتروه بأربعة عشر درهماً، فلمسه وقال: «سبحان الله ما ألينه وأرقّه»!

ـ وكان يضمِّخ نفسه بأبهج عطور دنياه، وأغلاها ثمناً، حتى إنه ليعبر طريقاً ما، فيعبق الجو بأريجه الفواح، فيعلم الناس أنه عبر تلك الطريق.

بل إن الأمر بلغ حداً أكثر عجباً من ذلك، فعن هارون بن صالح عن أبيه قال: «كنا نعطي الغسَّالَ الدراهمَ الكثيرةَ حتى يغسلَ ثيابنا في أثرِ ثياب عمر بن عبد العزيز، من كثرة الطِّيب فيها، يعني المِسْك».

ـ ولقد كانت آثار النعيم تبدو عليه واضحة لكل من رآه، يحدث أحدهم فيقول: «رأيتُ عمر بن عبد العزيز قبل أن يُستخلف فكنتَ تعرف الخير في وجهه، فلما استُخلف رأيت الموت بين عينيه».

وقد حدا ذلك بحسّاده أن عابوه لإفراطه في التنعم، واختياله في مشيته، قال العُتبي: «وكان الذين يعيبون عمر ممن يحسده لا يعيبونه إلا بشيئين: بالإفراط في النعمة، والاختيال في المِشْية، ولو كانوا يجدون ثالثاً لجعلوه معهما».

قال الأحنف بن قيس: «الكامل من عُدَّت هفواته، ولا تُعَدّ إلا من قلة».

لكن ذلك التنعم والترفّه والتأنق من عمر كان منضبطاً بكلمة الشرع، فقد فقه تماماً قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾؟! وفلسفته في الأخذ من مناعم الدنيا ومباهجها أنه كان واحداً من الرعية، ليس محل القدوة أو الأسوة، فأعطى لنفسه ما تريده

ما دام مشروعاً وحلالاً، وما إن أصبح خليفة، حتى ترك ذلك كله، ولبس من أدنى ما يلبسه آحاد الرعية. حتى إن مشيته قد صارت مشية المُخْبِتين الأوابين، يحدث عمر بن مجاشع فيقول: «خرج عمر بن عبد العزيز يوماً إلى المسجد، فخطر خطرة بيده، ثم أمسك وبكى. قالوا: ما أبكاك يا أمير المؤمنين؟ قال: خطرتُ بيدي خطرةً خفتُ أن يَغُلّها الله في الآخرة»!

●● وعندما جاءه الشباب كانت فضائله وأخلاقه قد وضع أساسها في رسوخ وثبات هناك في المدينة المنورة مهبط الوحي، حيث عاش في كنف ابن عمر، وتأدب بأدب ابن كيسان، ونال من علم ابن عتبة وغيره. فتكاملت شخصيته على نسق فذ، وترفع عن الدنيا، وتعلّق بالمعالي، وساعده على ذلك نفسه الجياشة التي تمور وتتقد للوصول إلى قمم المكارم والمحاسن على نحو عجيب.

وكانت مواهبه تحلّق في الآفاق، وطموحاته تشخص إلى التفوق والنبوغ، ونفسه التواقة تتواثب إلى أقصى أمد؛ لكنها كلها كانت في قبضة فضائله تلك التي غرست في السنوات الباكرة المباركة على أعين الأماجد الأنقياء.

ولسوف نرى في أيامه القادمة أعجوبة الانقلاب الكبير، الذي حدث في حياة عمر المتأنق ذي النفس الذواقة التواقة لكل طيب وبهيج؛ كيف يضحي أستاذ الربّانِيِّين، ومعلم الزهد للزاهدين، عندما يصبح خليفة المسلمين. ليبرهن لنا أن زهده بالدنيا ومتاعها وزخارفها لم يكن مظهراً لطبيعة منطوية، وقصور يد، وحرمان وعدم استطاعة، بل كان ذلك نتيجة تفوق روحي خارق نادر على طبيعة موارة هادرة بالطاقة، تمور بالطموح موراً، قادرة على نوال كل ما تريد، فترك كل متاع لأنه لا يساوي شيئاً مما عند الله. وليكون قبل هذا وذاك ـ في سلوكه ـ سلوة لكل فقير ومسكين ومقهور ومكسور في الأمة.

سيأتي عليه اليوم الذي ينسلخ فيه من العطر الفواح، وملابس النعيم في القصور، والمطاعم والأطايب من كل مأكول ومشروب. ومتى يكون ذلك؟ عندما يتسنم خلافة المسلمين، وحين يمسي تحت تصرفه وإمرته أموال الدنيا وخزائنها! وهذه آية الإعجاز في شخصية عمر بن عبد العزيز. ولكن لا تعجبوا يا رجال، فالشاب سبط ابن الخطاب!!

زوجاته وأولاده

فاطمة بنت عبد الملك بن مروان[1]:

لقد كان من تمام نعمة الله على عمر بن عبد العزيز، وجميل توفيقه له، أنه لما مات أبوه عبد العزيز، بعث إليه عمه عبد الملك بن مروان، وخلطه بأولاده، وقدَّمه على كثير منهم، وأكرم مثواه، واعتنى به.

وكان عُمَرُ الشاب اليافع قد اكتمل نموه، وتكاملت شخصيته، ونمت فضائله، وازدادت معارفه، وزاد من ذلك حضوره مجالس عمه الخليفة الشهير عبد الملك.

وليس يخفى على عبد الملك أقدار الرجال وإمكاناتهم وخصائصهم، كيف وهو الخليفة المجرّب، والداهية المحنّك، والفقيه الكبير؟! فأخذ يتأمل تصرفات ابن أخيه عمر، ويتابع نظراته وأفكاره، ويجيل النظر، ويعمل الفكر في مواقفه وآرائه وتطلعاته؛ فأعجب به أيما إعجاب، وطمحت نفسه إلى أن يوثق الصلة بهذا الشاب الفذ.

---

(١) الطبقات ٥/٣٣٠، ٣٩٣، الحلية ٥/٢٦٨ - ٢٦٩، ٢٨٣، المناقب ٣٥، ٣٦، ١٢٧ - ١٢٨، ٢٢٣، ٢٢٤، مختصر ابن عساكر ١٠١، سير أعلام النبلاء ٥/١١٧، البداية والنهاية ٩/١٩٣، مع الرعيل الأول ٢١٨ - ٢١٩، «عمر» للشرقاوي ٢٣ - ٢٦.

وكانت لعبد الملك ابنة كريمة، بارعة الجمال، ذات عقل وكمال، وعفّة وصون وحياء، فلم يجد لها أكفأ من ابن عمها، في طهره ونقائه، وعلمه وتقاه، وحسبه ونسبه. وفي مجلسه الذي ضمّ عمر، حيث الفقهاء والشعراء والسمّار، سألهم عبد الملك عن خير زوج يتخيّره الأب لابنته، فقال كلٌّ ما عنده، إلا عمر فكأن القدر أسكته ليسمع رأي عمه الخليفة، حيث قال: «يعجبني قول الحسن البصري لما جاءه رجل يسأله: إن لي ابنة فمن ترى أن أزوجها؟ قال الحسن: زوِّجها مَنْ يتقي الله، فإن أحبها أكرمها، وإن أبغضها لم يهنها».

ثم التفت إلى عمر فقال: «قد زوَّجك أمير المؤمنين فاطمة بنت عبد الملك»!

فقال عمر: «وصلك الله يا أمير المؤمنين، قد أجزلت العطية، وكفيت المسألة».

فأعجب عبد الملك بمنطقه، فقال بعض أولاد عبد الملك: هذا كلام تعلَّمه فأداه! وأراد عبد الملك أن يبرهن لأبنائه على صحة فراسته، وصواب رأيه في تخيره عمر زوجاً لابنته، فذات يوم دخل عمر على عبد الملك، فقال له: «يا عمر، كيف نفقتك؟ فقال: الحسنة بين السيئتين يا أمير المؤمنين! قال: فما هما؟ قال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾. فقال عبد الملك: من علَّمه هذا»؟!

وجهَّز عبد الملك ابنته بأحسن الرياش، وأنعم الثياب، وشيّد لها قصراً منيفاً في حديقة غنّاء في بلدة «دابق»[1]، وأهداها جواهر نفيسة تقدر بمائة ألف دينار. ولما بنى بها عمر أسرج في مسارجه تلك الليلة: الغالية[2].

---

(١) من أرض قنّسرين، بين حلب ومعرَّة النّعمان.

(٢) الغَالِيَةُ: أخلاط من الطِّيب، كالمسك والعنبر.

ولقد بارك الله في هذا الزواج، ففاطمة امرأة حصيفة عاقلة، قد اختارها الله لتكون زوجاً للشاب التقي النقي، لتكون عوناً له في حمل أعبائه الجسام في الأيام القادمة. ولسوف تشهد لها السنوات التالية أنبل التصرفات، وأروع المواقف، فكانت بحق خير زوجة لعمر، وأحسن أم لأبنائه. وفيها يقول الشاعر:

بِنتُ الخليفةِ والخليفةُ جدُّها أختُ الخلائفِ والخليفةُ زَوْجُها

قال العلماء: فلم تكن امرأة تستحق هذا النسب غيرها.

ثم أوصى عبدُ الملك صهرَه بابنته فاطمة فقال: «قد علمتَ يا عمر مكان فاطمة من قلبي، وأني آثرتك بها على جميع آل مروان لفضلك وورعك، فكن عند ظني بك، ورجائي فيك، وقد علمتُ أنك غير مقصّر، ولا مضيِّع حقها، ولكن الله قد قضى أن الذكرى تنفع المؤمنين».

●● وكان من نعمة الله على فاطمة أن هيأ لها مثل هذا الزوج المبارك الميمون، الذي نفحها بما عنده من إيمان وتقوى، وورع وخشية. ولئن كان الصديق الصالح كبائع المسك، فكيف إذا كان زوجاً لا صديقاً؟! لن يكون منه إلا كل خير وحرص على الصلاح والفلاح، والسبق للمعالي، والنجاح في معترك الحياة الزاخرة بأنواع الابتلاء والامتحان.

مرّ عليها ذات يوم ـ وهو خليفة ـ فضرب على كتفها وقال لها: «يا فاطمة، لنحن ليالي دابق أنعمُ منا اليوم! فقالت: والله ما كنتَ على ذلك أقدرَ منك اليوم! فأدبر عنها وله حنين، وهو يقول: يا فاطمة، إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم»!! فما كان منها إلا السمع والطاعة وحسن التبعّل لزوجها الخليفة الكبير.

ولقد هيمنت روح الشاب الضارعة على زوجته بنت الخليفة وأخت الخلفاء، وربيبة القصور؛ فصارت وزوجها كأنهما في روح واحدة، وعقل واحد، وتفكير واحد، وأشواق واحدة. تأثرت بمواقفه، ولاذت بآرائه،

ودانت لتوجيهاته، حتى إن دموعها أصبحت على ميعاد مع دموعه تسيلان معاً. حتى إنها أصبحت تشفق عليه من ذلك الموقف المهول بين يدي الله تعالى، حين يقفه ليسأله عما استرعاه.

حدث مرة أن واعظاً أخذ يذكّر عمر بالقبر وأهواله، فشهق أمير المؤمنين شهقة، وخرّ مغشياً عليه. فقالت فاطمة لمولاه مزاحم: «يا مزاحم، ويحك! أخرج هذا الرجل عنا، فلقد نَغَّصَ على أمير المؤمنين الحياة منذ ولي، فليته لم يلِ. قال: فخرج الرجل، فجاءت فاطمة تصب على وجهه الماء وتبكي، حتى أفاق من غشيته، فرآها تبكي فقال: ما يبكيكِ يا فاطمة؟ قالت: يا أمير المؤمنين، رأيتُ مصرعك بين أيدينا فذكرت به مصرعك بين يدي الله للموت، وتخليك من الدنيا، وفراقك لنا؛ فذاك الذي أبكاني! فقال: حسبكِ يا فاطمة فلقد أبلغتِ. ثم مال ليسقط، فضمّته إلى نفسها، فقالت: بأبي أنت يا أمير المؤمنين، ما نستطيع أن نكلّمك بكل ما نجد لك في قلوبنا. فلم يزل على حاله تلك حتى حضرته الصلاة، فصبّت على وجهه ماء، ثم نادته: الصلاةَ يا أمير المؤمنين، فأفاق فزعاً»!!

بل إنها لتبكي بعد وفاته متأثرة بمواقفه الأوّاهة الخاشعة، كلما تذكرت بعضاً من تلك «المواقف العمرية».

يروي محمد بن أيوب الشامي فيقول: حدثني مولىً لنا فقال: «بكت فاطمة بنت عبد الملك حتى عَشي بصرها، فدخل عليها أخواها مسلمة وهشام ابنا عبد الملك، فقالا: ما هذا الأمر الذي قدمتِ عليه؟ أجزعكِ على بعلكِ، فأحقّ مَنْ جزع على مثله! أم على شيءٍ فاتكِ من الدنيا، فها نحن بين يديكِ، وأموالنا وأهلونا؟! فقالت: ما من كلٍّ جزعت، ولا على واحدة منها أسفت، ولكني والله رأيت منه ليلة منظراً، فعلمت أن الذي أخرجه إلى ذلك الذي رأيت منه هول عظيم، قد أسكن قلبه معرفته! قالا:

وما رأيت منه؟ قالت: رأيته ذات ليلة قائماً يصلي، فأتى على هذه الآية: ﴿يَوْمَ يَكونُ النّاسُ كَالْفَراشِ المَبْثُوثِ. وَتَكُونُ الجِبَالُ كَالْعِهْنِ المَنْفُوشِ﴾، فصاح: واسوء صباحاه! ثم وثب فسقط، فجعل يخور حتى ظننت أن نفسه ستخرج، ثم إنه هدأ، فظننت أنه قد قضى. ثم أفاق إفاقة، فنادى: يا سوء صباحاه! ثم وثب فجعل يجول في الدار، ويقول: ويلي من يوم يكون الناس فيه كالفراش المبثوث، وتكون الجبال كالعهن المنفوش! قالت: فلم يزل كذلك حتى طلع الفجر، ثم سقط كأنه ميت، حتى أتاه الأذان للصلاة. فوالله ما ذكرت ليلته تلك، إلا غلبتني عيناي، فلم أملك ردّ عبرتي».

ولهذا كانت شديدة الإعجاب بزوجها، دائمة البرّ به، حسنة الثناء عليه حتى بعد وفاته، تقول رحمها الله فيه: «والله ما كان بأكثر الناس صلاة، ولا أكثرهم صياماً، ولكن ـ والله ـ ما رأيت أحداً أخوف لله من عمر، لقد كان يذكر الله في فراشه، فينتفض انتفاض العصفور من شدة الخوف، حتى نقول: لَيُصْبِحَنَّ الناسُ ولا خليفة لهم».

ولأجل ذلك كله قامت بمهماتها الزوجية خير قيام، طاعة له، وقياماً بشؤونه، وتربية لبنيه، وعوناً له على أمور الخلافة، ووفاء له حتى بعد وفاته.

نظر ـ وهو خليفة ـ إلى حليها الذي جاءت به من بيت أبيها عبد الملك، فأراد تجريدها منه، فقال لها: «اختاري: إما أن تردي حليك إلى بيت المال، وإما أن تأذني لي في فراقك؛ فإني أكره أن أكون أنا وأنت وهو في بيت واحد. قالت: لا بل أختارك يا أمير المؤمنين عليه وعلى أضعافه لو كان لي. قال: فأمر به فحُمل حتى وضع في بيت مال المسلمين. فلما هلك عمر واستُخلف يزيد[1]، قال لفاطمة: إن شئت يردّونه عليك؟

(١) هو يزيد بن عبد الملك بن مروان، أخو فاطمة زوج عمر.

قالت: فإني لا أشاؤه، طبت عنه نفساً في حياة عمر وأرجع فيه بعد موته؟! لا والله أبداً».

قالت هذا وهي وأولادها أحوج الناس إلى هذا الحلي، لأن ما كان يملكه زوجها من ضياع وأملاك قد رده في بيت المال. فأرادت زوجته السَّريَّةُ النبيلة، الأصيلة الوفية، أن لا تكون أقل إيثاراً من زوجها، فآثرت أن تبقى أذناها وعنقها ويداها عاطلة من تلك الجواهر، طاعة ووفاء لزوجها حتى بعد وفاته! وهذه شيم الأصلاء الأكارم، النبلاء الأماجد، الذين ملأت أعينهم القناعة، وأعطوا الدنيا ما تستحقه من منزلة.

●● هذه امرأة جديرة ـ لا ريب ـ بأن تكون زوج الخليفة البار الراشد عمر بن عبد العزيز، وأماً لأولاده. ولقد كان له أزواج أخريات، بيد أن فاطمة أعظمهن على الإطلاق، وأكثرهن إشراقاً في حياته، وأعلاهنّ ذكراً في التاريخ.

وزوجاته الأخريات هنّ(١):

لميس بنت علي بن الحارث، وأم عثمان بن شعيب بن زبّان، وأم ولد.

وقد رزقه الله من هؤلاء النسوة الأربع عشرين ولداً: سبعة عشر ذكراً، وثلاث بنات.

وأولاده هم:

عبد الملك: وكان على قدم أبيه في الصلاح والتقوى، وأحد المعينين له على الاهتمام بشؤون الرعية، وكان وزيراً صالحاً وبطانة خير لأبيه. وسيأتي تفصيل بعض شأنه.

---

(١) الطبقات ٥/ ٣٣٠، المناقب ٢٩٧، ٣١١ ـ ٣١٥، سير أعلام النبلاء ٥/ ١٤٠، ١٤٧ ـ ١٤٨، تهذيب التهذيب ٦/ ٣١٢، الأعلام ٤/ ٢٣.

عبد العزيز: ولي الحرمين ـ مكة والمدينة ـ ليزيد بن الوليد سنة (١٢٦ هـ)، وأقرّه مروان بن محمد، ثم عزله. روى الحديث عن أبيه وصالح بن كيسان ونافع مولى ابن عمر ومجاهد ومكحول في آخرين. وروى عنه إبراهيم بن أبي عبلة، ويحيى بن سعيد الأنصاري وشعبة، وخلق سواهم.

عبد الله: وقد ولي العراق.

آدم، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، وموسى، وبكر، وحفص، وعبيد الله، وعاصم، وإصبغ، ويزيد، والوليد، وزبّان.

وأما البنات فهنّ: أمينة، وأم عمار، وأم عبد الله.

صفات أبنائه وتربيته لهم[١]:

●● حرص عمر على تربية أبنائه وتنشئتهم على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وَحَمَلَهم على أخلاق الإسلام، وفضائل الشيم والصفات، وبث فيهم من روحه الطاهرة الورَعَ والتقوى، والصدق واليقين، والمروءة والحياء، والمراقبة والإنابة.

وكان يغرس فيهم ذلك منذ الصغر، ويتعاهدهم بالرعاية وهم براعم قد تفتحت لتوّها على الحياة، فيتنسمون مع الهواء ترجيعات أبيهم الأوّاب، ويرضعون مع لبن الأم محاسن الخلال، ومكارم الخصال.

فها هو يعلّم ابنه عبد الملك ـ مذ أصبح يجيد الكلام ـ القراءة وبعض القرآن، قبل أن يدفع به إلى المعلمين. فقال له ابن عمه الوليد بن عبد الملك بن مروان: «يا أبا عبد الملك[٢]، دعه يرتع ويلعب، فما زال

(١) الحلية ٥/٢٧٥ ـ ٢٧٧، ٣٠٦، المناقب ٢٠٦، ٢٤٢، ٢٩٦ ـ ٢٩٩، ٣١٢ ـ ٣١٥، «عمر» للشرقاوي ٤٩.

(٢) يريد عمر.

طفلاً»! فنظر عمر إلى زوجته، وأخذ الصغير من خاله الوليد، وقال له: «يا بني، حاول أن تكون عالماً، فإذا لم تستطع فلتكن متعلماً»! ورمق الوليدُ ابنَ عمه عمر قائلاً: «ما أحسنك مربياً»!

●● ولما اطمأنّ إلى أن بنيه قد أخذوا حظهم من التربية المستقيمة في بيت الأبوّة القويمة العليمة، وأسست أخلاقهم على التقوى، وارتكزت فضائلهم على قواعد راسخة، اختار لهم مؤدباً عالماً، تقياً ورعاً، فبعث بهم إليه، ووضع بين يديه المعالم الكبرى التي يجب عليه مراعاتها ليكتمل بناء شخصية بنيه على نحو قويم، فكتب إليه يقول:

«من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى سهل مولاه، أما بعد: فإني اخترتك على علم مني بك لتأديب ولدي، فصرفتهم إليك عن غيرك من مواليّ وذوي الخاصّة بي، فحدّثهم بالجفاء فهو أمعن لإقدامهم، وترك الصحبة فإن عادتها تكسب الغفلة، وقلة الضحك فإن كثرته تميت القلب. وليكن أول ما يعتقدون من أدبك بغض الملاهي التي بدؤها من الشيطان وعاقبتها سخط الرحمن، فإنه بلغني عن الثقات من أهل العلم أن حضور المعازف، واستماع الأغاني واللهج بها؛ ينبت النفاق في القلب كما ينبت العشبَ الماءُ. ولعمري لَتَوَقّي ذلك، بترك حضور تلك المواطن، أيسر على ذي الذهن من الثبوت على النفاق في قلبه، وهو حين لا يفارقها لا يعتقد مما سمعت أذناه على شيء مما ينتفع به. وليفتتح كل غلام منهم بجزء من القرآن يتثبت في قراءته. فإذا فرغ تناول قوسه ونبله، وخرج إلى الغرض حافياً، فرمى سبعة أرشاق، ثم انصرف إلى القائلة، فإن ابن مسعود رضي الله عنه كان يقول: يا بني، قيلوا فإن الشياطين لا تقيل»[1].

●● وبقي رضي الله عنه يتابع أبناءه، ويتعاهدهم برعايته، ويكلؤهم

---

(١) وقد جاء هذا الحديث مرفوعاً، انظر: المقاصد الحسنة، أسنى المطالب، كشف الخفاء.

بأبوّته، ويسدّد خطاهم بتوجيهاته، ولم يرَ أنه باختيار المؤدب لهم قد قام بالمهمة المناطة به تجاههم، ولم ينس حقوقهم عليه في زحمة أعباء الخلافة وتبعاتها الجسام؛ لأنه يعلم حق العلم أن من أولويات المسؤولية أن ينطلق المرء من نفسه، ثم أسرته وأهل بيته، ومن ثم إلى عامة الناس، وقد قال ﷺ: «كفى بالمرء إثماً أن يضيِّع مَنْ يَقُوتُ»[1]. وأي تضييع أكبر وأقبح من أن يهمل الإنسان تربية أبنائه، ويتركهم للأهواء والشهوات والأصحاب الذين فيهم الصالح والطالح، ثم لمؤسسات المجتمع على اختلاف أنواعها، وتباين مشاربها؟! وليس التفريط بطعام الابن وصحته بأكبر ذنباً وأعظم إثماً من الإساءة إلى روحه وعقله وأخلاقه وسلوكه، تلك تنهك جسمه، وهذه تقتل قلبه وفكره، وضرر هذه ـ لا ريب ـ على المجتمع أشد وقعاً، وأسوأ عاقبة.

لذا فإن عين عمر لم تغفل عن بنيه ساعة، ولم يترك فرصة لتأديبهم وتوجيههم وتربيتهم إلا اهتبلها:

كتب إلى أحدهم يعظه فيقول: «يا بني، احذر الصرعة على الغفلة، حين لا تستجاب الدعوة، ولا سبيل إلى الرجعة. ولا تغترنّ بطول العافية، فإنما هو أجل ليس دونه فناء، ولا بعد أن تستكمله بقاء».

وقال لابنه عبد العزيز: «يا بني، إذا سمعت كلمة من امرىءٍ مسلم، فلا تحملها على شيءٍ من الشرّ، ما وجدت لها محملاً على الخير».

وبلغه أن ابناً له اتخذ خاتماً، واشترى له فصّاً بألف درهم، فكتب عمر إليه قائلاً: «أما بعد، فقد بلغني أنك اشتريت فصاً بألف درهم، فَبِعْه، وأشْبعْ به ألف جائع، واتخذ خاتماً من حديد صيني، واكتب عليه: رحم الله امرأً عرف قدر نفسه».

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والحاكم والبيهقي، وهو حديث حسن، انظر صحيح الجامع، حديث رقم ٤٤٨١.

وجاءه ـ وهو خليفة ـ ابنه عبد الله يستكسيه، فقال له: «يا أبتِ، اكسني. فقال: اذهب إلى الخيار بن رياح البصري فإن لي عنده ثياباً، فَخُذْ منها ما بدا لك. قال: فذهبت إلى الخيار بن رياح، فقلت: إني استكسيت أبي، فأرسلني إليك وقال: إن لي عند الخيار بن رياح ثياباً. فقال: صدق أمير المؤمنين، فأخرج إليه ثياباً سنبلانية أو قطرية، فقال: هذا ما لأمير المؤمنين عندي، فخذ منها ما بدا لك. قال عبد الله: ما هذا من ثيابي ولا من ثياب قومي! فقال: هذا ما لأمير المؤمنين عندي. فرجع عبد الله إلى أبيه عمر، فقال: يا أبتاه، استكسيتك فأرسلتني إلى الخيار بن رياح، فأخرج ثياباً ليست من ثيابي، ولا من ثياب قومي! قال: فذاك ما لنا عند الرجل. فانصرف عبد الله، حتى إذا كاد يخرج ناداه فقال: هل لك أن أسلفك من عطائك مائة درهم؟ قال: نعم يا أبتاه! فأسلفه مائة درهم، فلما خرج عطاؤه حوسب بها، فأُخذت منه»!!

إنه لم يرضَ لابنه أن يأخذ ما ليس له بحق، ولا أن يلبس فوق ما تلبسه الرعية، وإن كان لا بد له أن يتجمل بثياب تليق بالشبان، فلن يكون ثمن تلك الثياب إلا من راتبه المخصص له؛ لينال من هذا الموقف درساً في النزاهة والعفة والاعتماد على النفس، لا التواكل على عادات موروثة، وأنساب يُتفاخر بها، فليس لهذا ولا ذاك عند ابن عبد العزيز نصيب.

●● وتتجلى تلك التربية الربّانية التي نشّأ عُمر بنيه عليها، والأخلاق التي نفخها في أرواحهم، والفضائل التي حملهم على التزين بها ـ بتلك الوصية الغالية، والتوجيهات الرفيعة، التي هي أشبه ما تكون بمواعظ ناسك في محراب الزاهدين، وهي قَمِينة بأن تكون منهجاً لكلِ أب غيور على أبنائه، ولكل امرىءٍ استرعاه الله من أمور المسلمين شيئاً، مهما صغر أو كبر.

كتب في العام الذي استُخلف فيه إلى ابنه الصالح التقي عبد الملك ـ وهو إذ ذاك بالمدينة ـ يوصيه قائلاً:

«أما بعد: فإن أحق من تعاهدتُ بالوصية والنصيحة بعد نفسي أنت، وإن أحق من وعى ذلك وحفظه عني أنت، وإن الله تعالى له الحمد قد أحسن إلينا إحساناً كثيراً بالغاً في لطيف أمرنا وعامته، وعلى الله إتمام ما غبر من النعمة، وإياه نسأل العون على شكرها.

فاذكر فضل الله على أبيك وعليك، ثم أعِنْ أباك على ما قوي عليه، وعلى ما ظننتَ أن عنده فيه عجزاً عن العمل، فيما أنعم به عليه وعليك في ذلك. فراغ نفسك وشبابك وصحتك، وإن استطعت أن تكثر تحريك لسانك بذكرِ الله حمداً وتسبيحاً وتهليلاً؛ فافعل، فإن أحسنَ ما وصلت به حديثاً حسناً حمد الله وذكره، وإن أحسن ما قطعت به حديثاً سيئاً حمد الله وذكره.

ولا تفتتن فيما أنعم الله به عليك فيما عسيت أن تقرظ به أباك فيما ليس فيه، إن أباك كان بين ظهراني إخوته عند أبيه يُفضل عليه الكبير، ويُدني دونه الصغير، وإن كان الله ـ وله الحمد ـ قد رزقني من والدي حسباً جميلاً، كنت به راضياً، أرى أفضل الذي يبره ولده علي حقاً. حتى ولدتَ وولد طائفة من إخوتك، ولا أخرج بكم من المنزل الذي أنا فيه. فمن كان راغباً في الجنة، وهارباً من النار، فالآن في هذه الحالة والتوبة مقبولة، والذنب مغفور، قبل نفاد الأجل، وانقضاء العمل، وفراغ من الله للثقلين، ليدينهم بأعمالهم في موطن لا تقبل فيه الفدية، ولا تنفع فيه المعذرة، تبرز فيه الخفيات، وتبطل فيه الشفاعات، يَرِدُهُ الناس بأعمالهم، ويصدرون فيه أشتاتاً إلى منازلهم. فطوبى يومئذٍ لمن أطاع الله، وويل يومئذٍ لمن عصى الله.

فإن ابتلاك الله بغنى فاقتصد في غناك، وضع لله نفسك، وأدِّ إلى الله فرائض حقه في مالك وقل عند ذلك ما قال العبد الصالح: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾.

وإياك أن تفخر بقولك، وأن تعجب بنفسك، أو يخيل إليك أن ما رزقتَه لكرامة بك على ربك، وفضيلة على مَنْ لم يُرزق مثل غناك؛ فإذاً أنت أخطأتَ باب الشكر، ونزلت منازل أهل الفقر، وكنت ممن طغى للغنى وتعجّل طيباته في الحياة الدنيا.

فإني لأعظك بهذا وإني لكثير الإسراف على نفسي، غير محكم لكثير من أمري. ولو أن المرء لم يعظ أخاه حتى يُحْكم أمر نفسه؛ ويكمُل في الذي خُلق له من عبادة ربه؛ إذاً لتواكل الناس الخير، وإذاً لرُفع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واستُحلت المحارم، وقلَّ الواعظون والساعون لله بالنصيحة في الأرض. فلله الحمد رب السموات والأرض رب العالمين، وله الكبرياء في السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم».

ابنه عبد الملك كان وزيراً صالحاً له[1]:

وقد تمثلت ثمرة تلك التربية الصالحة، والرعاية القويمة، والتوجيه السليم، بابنه البار، الورع النبيل، الأواه الأواب، عبد الملك بن عمر رحمهما الله تعالى.

فقد حرص الأب على استقامة خلق ابنه، وسلامه سلوكه، ورشاد تصرفاته، يبين ذلك ما رواه سليمان بن حميد أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عبد الملك ابنه: «إنه ليس من أحد رشده وصلاحه أحب إليّ من رشدك وصلاحك، إلا أن يكون والي عصابة من المسلمين، أو من أهل العهد، يكون لهم في صلاحه ما لا يكون لهم في غيره، أو يكون عليهم من فساده ما لا يكون لهم من غيره».

---

(١) الحلية ٣٥٣/٥، ٣٥٤-٣٥٦، ٣٥٨-٣٥٩، المناقب ٣٢، ٢٩٧، ٢٩٩، ٣٠٠-٣٠٣، صفة الصفوة ١٢٧/٢، ١٢٨، ١٢٩، تهذيب الأسماء واللغات ١٩/٢، الكامل في التاريخ ١٦٤/٤، ١٦٥، البداية والنهاية ١٩١/٩.

ومن تمام تعاهده بابنه، ورعايته له، وحسن تأديبه إياه؛ أنه لما زُيِّن في عينه خشي أن تكون عاطفة الأبوّة وحنانها قد غلبت عليه، وخلّطت عليه الأمور، فأرسل لابنه من يمتحن عقله وأدبه! يحدث ميمون بن مِهْران فيقول: «قال لي عمر بن عبد العزيز: إن ابني عبد الملك قد زُيِّن في عيني، وقد أُعجبت به، وما أرى إلا الهوى قد غلب على علمي بفضله، وأحب أن تأتيه وتستشيره، فتنظر إلى عقله. قال: فأتيته، فاستأذنت عليه، فقعدت عنده ساعة، فأُعجبت به، إذ جاءه الغلام فقال: قد فرغنا مما أمرتنا به. قلت: وما ذاك؟ قال: الحمَّام، أمرته أن يخليه لي. قلت: آه آه، قد كنت أعجبت بك حتى سمعت هذا!! قال: وما ذاك يا عماه؟ قلت: أرأيت الحمام ملكاً لك؟ قال: لا. قلت: فما الذي يحملك على أن تصدّ عنه غاشيته، وتعطله على أهله؟! قال: أنا أعطيه غلّة يومه. قلت: وهذه نفقة كِبْرٍ خالطها إسراف، كأنك تريد بذلك الأبهة، وإنما أنت رجل من المسلمين كأحدهم، يجزيك أن تكون مثلهم! قال: فقال: والذي عظَّمَ حقك، ما يمنعني أن أدخل معهم إلا أني أرى قوماً رعاعاً بغير ميازر، وأكره أدبهم على الميازر، فيضعون ذلك على سلطاننا، خلّصنا الله منهم كفافاً. فقلت: تدخله ليلاً! قال: أفعل، ولولا برد بلادنا ما دخلته ليلاً ولا نهاراً»!!

وقد آتت هذه التربية الصالحة أكلها على أحسن وجه، فكان عبد الملك لؤلؤة في تاج بني أمية، وشامة بين الناس، بحلمه يضرب المثل، وبعبادته يقتدي الصالحون، وبحبه للحق وحرصه على مصالح المسلمين ومواقفه مع أبيه في ذلك ما يبهر الألباب.

●● ففي العبادة والطاعة لله تعالى والإنابة إليه، بلغ شأواً بعيداً حتى أثّر بأبيه! ويعبر عن ذلك بعض مشيخة أهل الشام فيقول: «كنا نرى أن عمر ابن عبد العزيز إنما أدخله في العبادة ما رآه من ابنه عبد الملك».

●● وكان في الحلم سيداً، ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً وسعة

صدر ورويّة، وأجمل ما يعبر عن ذلك ما رواه إسماعيل بن أبي حكيم قال: «غضب عمر بن عبد العزيز يوماً غضباً شديداً ـ وكان فيه حدة ـ وعبد الملك ابنه حاضر، فلما سكن غضبه قال: يا أمير المؤمنين، أنت في قدر نعمة الله عليك، وموضعك الذي وضعك به، وما ولّاك من أمر عباده، يبلغ بك الغضب ما أرى؟! قال: كيف قلت؟ فأعاد عليه كلامه. فقال: أما تغضب يا عبد الملك؟ قال: ما تغني سعةُ جوفي إن لم أردد فيه الغضب، حتى لا يظهر منه شيء أكرهه ـ قال: وكان بطيناً ـ».

وبمثل هذه الصفات استحق عبد الملك أن يكون وزيراً صالحاً وبطانة خير لأبيه. فكان يحضر «مجلس شورى» عمر مع الأشياخ والعلماء والفقهاء، ويدخل على أبيه في كل ساعة، ويحضه على الخير، ويشير عليه بما يصلح الرعية، ويعينه على القيام بشؤون الناس وقضاء حوائجهم.

●● كان يقول لأبيه: «يا أبتِ أقم الحق ولو ساعة من نهار».

●● وكان أمير المؤمنين يجلس للناس، ويطيل الجلوس بين أيديهم: يقضي حوائجهم، ويرفع عنهم الظلم، ويمسح بيده الحانية آلامهم، فيجبر الكسير، ويعين الفقير، ويساعد المسكين، وينصف المظلومين، ويرغم أنف الظالمين.

وذات يوم مكث في مجلسه ذاك حتى تعالى النهار، وناله من التعب ما ناله، فدخل بيته ليأخذ قسطاً من الراحة، ليخرج للناس نشيطاً ويتابع مهامه الجسام، فيكون لعبد الملك موقف رائع يحدث عنه ابن أبي عبلة فيقول: «جلس عمر يوماً للناس، فلما انتصف النهار ضجر وكلَّ وملّ، فقال للناس: مكانَكم حتى أنصرف إليكم. فدخل ليستريح ساعة، فجاء ابنه عبد الملك فسأل عنه، فقالوا: دخل. فاستأذن عليه، فأذن له، فلما دخل قال: يا أمير المؤمنين، ما أدخلك؟ قال: أردت أن أستريح ساعة. قال: أَوَ أمنتَ الموت أن يأتيك ورعيتك على بابك ينتظرونك وأنت

محتجب عنهم؟! فقام عمر من ساعته، وخرج إلى الناس».

●● ومن مواقف عبد الملك الرائعة مع أبيه رأيه بشأن المظالم[1] والإسراع في ردّها، إذ لم يتردد أن يقول لأبيه ـ وهو أمير المؤمنين ـ :

«أرى أن تردّها، فإن لم تفعل كنت شريكاً لمن أخذها»!!

يحدث هشام بن حسان فيقول: «قال عمر بن عبد العزيز لمولاه مزاحم: كم ترانا أصبنا من أموال المؤمنين؟ قال: قلت: يا أمير المؤمنين، أتدري ما عيالك؟ قال: نعم، الله لهم! فخرجت من عنده، فلقيت ابنه عبد الملك فقلت له: هل تدري ما قال أمير المؤمنين؟ قال: وما قال؟ قلت: قال: هل تدري ما أصبنا من أموال المؤمنين؟ قال: فما قلتَ له؟ قال: قلت: هل تدري ما عيالك؟ قال: نعم، الله لهم. قال عبد الملك: بئس الوزير أنت يا مزاحم! ثم جاء يستأذن على أبيه، فقال للآذن: استأذن لي عليه. فقال له الآذن: إنما لأبيك من الليل والنهار هذه الساعة! قال: ما بدٌّ من لقائه. فسمع عمر مقالتهما، فقال: من هذا؟ قال الآذن: عبد الملك. قال: ائذن له. قال: فدخل، فقال: ما جاء بك هذه الساعة؟ قال: شيء ذكره لي مزاحم. قال: نعم، فما رأيك؟ قال: رأيي أن تمضيه. قال: فإني أروح إلى الصلاة فأصعد المنبر فأردّه على رؤوس الناس. قال: ومَنْ لك أن تعيش إلى الصلاة؟! قال: فَمَهْ؟ قال: الساعة! قال: فخرج، فنودي في الناس: «الصلاة جامعة»، فصعد المنبر فردّه على رؤوس الناس».

ويضيف إسماعيل بن أبي حكيم فيقول: «كنا عند عمر بن عبد العزيز، فلما تفرقنا نادى مناديه: «الصلاة جامعة». قال: فجئت المسجد، فإذا عمر على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد؛ فإن هؤلاء أعطونا عطايا ما كان ينبغي لنا أن نأخذها، وما كان ينبغي لهم أن يعطونها، وإني قد

---

(١) سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله، ص ٢٥٤ ـ ٢٦٣، ٣١٥ ـ ٣٢١.

رأيت ذلك ليس عليَّ فيه دون الله محاسب، وإني قد بدأت بنفسي وأهل بيتي، اقرأ يا مزاحم. فجعل مزاحم يقرأ كتاباً كتاباً، ثم يأخذه عمر وبيده الجَلَم[1] فيقطعه، حتى نودي بالظهر».

وكان عمر يرفع يديه ويقول: «الحمد لله الذي جعل لي من ذريتي من يعينني على أمر ديني».

●● ولنصغِ إلى هذا الموقف الفذ، والكلام الذي يزلزل القلوب، والذي يحض فيه عبد الملك أباه على الاستمرار بالعدل، فيقول: «يا أبتِ، ما منعك أن تمضي لما تريد من العدل؟! فوالله ما كنت أبالي لو غلت بي وبك القدور في ذلك! قال: يا بني، إنما أنا أروِّض الناس رياضة الصعب، إني لأريد أن أحيي الأمر من العدل فأؤخر ذلك حتى أخرِج معه طمعاً من طمع الدنيا، فينفروا من هذه ويسكنوا لهذه».

واستمر عبد الملك مع أبيه ناصحاً أميناً، ومشيراً راشداً مرشداً، يحض أباه على نشر العدل وإماتة الظلم. ولكن القدر اختار الفتى وهو في شرخ الشباب، فها هو قد مَرِض مَرَضَ موته، فدخل عليه عمر فقال له: «يا بني، كيف تجدك؟ قال: أجدني في الحق. قال: يا بني، أن تكون في ميزاني أحبّ إليّ من أن أكون في ميزانك. فقال ابنه: يا أبتاه، لأن يكون ما تحبّ أحبّ إليّ من أن يكون ما أحب». فمات في مرضه ذلك.

واخترمته المنية من أمام عيني أبيه، فتوفي في خلافته، وعمره سبع عشرة سنة وستة أشهر، رحمه الله رحمة واسعة.

●● وصدق ميمون بن مهران إذ يقول: «ما رأيت ثلاثة في بيت أخير من: عمر بن عبد العزيز، وابنه عبد الملك، ومولاه مزاحم».

---

(١) الجَلم: ما يُجَزّ به.

وجاء الناس يعزون أمير المؤمنين بابنه، وقام أعرابي من بني كلاب، فعزّاه بقوله:

تَعَــزَّ أميـر المؤمنين فــإنـهُ لما قد ترى يُغذى الصغيرُ ويُولدُ
هلِ ابنكَ إلا من سلالةِ آدمٍ لكلٍّ على حوضِ المنيّةِ موردُ؟

فما وقعت منه تعزية أحد ما وقعت منه تعزية هذا الأعرابي.

* * *

وهكذا كانت البشائر تومىء بمستقبل باهر للرجل الموعود عمر بن عبد العزيز، فولد في بيت الخلفاء والأمراء، وتعلق قلبه بالأهداف العالية، وسبحت روحه في الآفاق الرحيبة، وجلس إلى العلماء، وخالط الأشياخ وتجنب الشباب؛ فنشأ نشأة طيبة صالحة، وأنجب ذرية طاهرة سارت على خطاه.

فلننظر في ثمرة تلك الأيام التي قضاها في حلقات العلم، ولنتناول ببعض من التفصيل شخصية عمر العلمية، ومكانته بين العلماء.

الفَصلُ الثاني
شَخصِيَّتُهُ العِلْمِيَّةُ
عِلْمُهُ، وَتَدْوِيْنُهُ العِلْم، وَشَذَرَاتٌ مِنْ فِقْهِهِ وَمَرْوِيَّاتِهِ

نشأته العلمية:

كان من توفيق الله تعالى لعمر بن عبد العزيز أن حبب إليه العلم منذ الصغر، وتطلّعت نفسه إلى منارات العلم ومجالس العلماء، مما حدا به أن يقول لأبيه: «ترحّلني إلى المدينة، فأقعد إلى فقهائها، وأتأدب بآدابهم». فكان له ما أراد، فتجنب الشباب من أترابه، حيث لا يجد عندهم كبير فائدة، وهمُّ أكثرهم الانصراف إلى اللهو وهدر الوقت. ويمَّمَ شطر منابع الحكمة، حيث عِلْية القوم، وأعيان الفقهاء، ورؤوس العلماء، بنفسه التواقة المتطلعة إلى المعالي في كل شيء. يقول رضي الله عنه: «لقد رأيتني وأنا بالمدينة غلام مع الغلمان، ثم تاقت نفسي إلى العلم، إلى العربية فالشعر، فأصبت منه حاجتي»[1].

كذلك أطال الجلوس في حلقات الفقهاء، ومجالس المحدثين، فنهل من معينهم، وأودعه عقله البصير المستنير. وساعده على ذلك محافظته على الوقت، فلا تذهب ساعة دونما قراءة، أو كتابة، أو مذاكرة، أو مناظرة، أو تلقٍ عن العلماء.

---

(١) المناقب: ص ١٤. وانظر ماسبق في هذا الكتاب: ص ٢٧ ـ ٣٠.

والنفس التواقة للعلم، والعقل المتفتح المستبصر، والحرص على الـوقت، والعيش في رحاب الأئمـة المخلصين والعلماء العـاملين، والجلوس إليهم في حِلَق العلم، وقاعات المساجد الطاهرة، هناك في أرض الهجرة ومهبط الوحي ـ ذلك المزيج الطيب الزكي، قام بتثقيف عقل الغلام، وتوجيه فكره، وإنضاج توجّهاته؛ فأنجب شخصية فذة متكاملة متزنة، عاقلة عالمة، باصرة مستبصرة، فتفجرت منه ينابيع الحكمة والفقه لأحكام الشريعة وأهدافها وأسرارها.

أشياخه وبعض أعيانهم:

أسند رضي الله عنه عن عدة من الصحابة وكبار التابعين:

فمن الصحابة: أنس بن مالك، وسمع منه، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وعمـر بن أبي سلمة المخزومي، والسائب بن يزيد، ويوسف بن عبد الله بن سلام. وأرسل عن عبادة بـن الصامت، وعقبة بن عامر، وعائشة، وخولة بنت حكيم، وغيرهم.

وروى عن جماعة من كبار التابعين، منهم: ابن المسيب، وأبو بكر ابن عبد الرحمن بن الحارث، وسالم بن عبد الله بن عمر، وعروة بن الزبير، وأبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، وعامر بن سعد بن أبي وقاص، وخارجة بن زيد بن ثابت، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وأبو بردة بن أبي موسى، وابن شهاب الزهري. وخلق سواهم[1].

وقد صنف الإمام الحافظ البَاغَنْدي ـ ت ٣١٢ هـ ـ أحاديث عمر في «مسنده» الشهير، جمع فيه ما انتهى إليه علمه من مرويات أمير المؤمنين

---

(١) الحلية ٥/٣٥٩، صفة الصفوة ٢/١٢٦ ـ ١٢٧، سير أعلام النبلاء ٥/١١٤، تاريخ الإسلام ١٨٧ ـ ١٨٨، تذكرة الحفاظ ١/١١٨، البداية والنهاية ٩/١٩٢، تهذيب التهذيب ٧/ ٤١٨.

ابن عبد العزيز، وقد بلغ عدد شيوخ عمر فيه ثلاثة وثلاثين شيخاً، ثمانية منهم من الصحابة، وخمسة وعشرون من التابعين[1].

ومن أعيان شيوخه:

عبد الله بن عمر بن الخطاب[2] (١٠ ق. هـ - ٧٣ هـ):

هو الصحابي الجليل، المؤتسي برسول الله ﷺ، الإمام القدوة، العابد الناسك، العالم المجاهد، الجريء الجهير، الورع التقي، شيخ الإسلام. أحد الأعلام في العلم والعمل، وكان ممن يصلح للخلافة.

مكث ستين سنة يفتي الناس، وكان إذا فاتته العشاء في جماعة أحيى ليلته! وكان شديد الاقتداء بالنبي ﷺ، يتتبع آثاره وأفعاله. وكان أشبه أولاد عمر بعمر رضي الله عنهما.

قال فيه رسول الله ﷺ: «إن عبد الله رجل صالح، لو كان يقوم الليل». فكان بعد يقوم الليل.

أعتق الرقاب الكثيرة، فما مات حتى أعتق ألف رقبة، كثير الصدقة، وربما تصدق في المجلس الواحد بثلاثين ألفاً!

قال جابر بن عبد الله: ما منا أحد أدرك الدنيا إلا مالت به ومال بها، إلا ابن عمر.

روى عن النبي ﷺ (٢٦٣٠) حديثاً، وهو آخر من توفي من الصحابة بمكة.

فلا عجب أن أُعجب عمر بن عبد العزيز بابن عمر، فلزمه ونهل من فيض علمه، واقتفى أثره، وتاقت نفسه وهمته العالية أن يكون مثله فقال لأمه: «أنا أحب أن أكون مثل خالي - أي: ابن عمر - ». وقد حقق الله هذه الأمنية فكان عمر على سيرة شيخ الصحابة الأجلّ ابن عمر.

---

(١) المسند ٣٣.

(٢) طبقات ابن سعد ٤/١٤٢، سير أعلام النبلاء ٣/٢٠٣، تذكرة الحفاظ ١/٣٧، البداية والنهاية ٩/٤، تهذيب التهذيب ٥/٢٨٧.

أنس بن مالك[1] (١٠ ق. هـ - ٩٣ هـ):

هو الصحابي العَلَم، خادم رسول الله ﷺ، الإمام المفتي، المقرئ المحدث، راوية الإسلام، أبو حمزة الأنصاري الخزرجي النجّاري المدني.

له صحبة طويلة، وحديث كثير، وملازمة للنبي ﷺ منذ هاجر إلى أن مات ﷺ، وغزا معه غير مرة، وبايع تحت الشجرة.

دعا له النبي ﷺ، فيما رواه أنس نفسه فقال: «دعا لي رسول الله ﷺ فقال: «اللهم أكْثِرْ مالَهُ وَوَلَدَهُ وأَطِلْ حياتَه». فالله أكثر مالي حتى إن لي كرماً لتحمل في السنة مرتين، وولد لصلبي مائة وستة».

كان يصلي حتى تتفطر قدماه دماً، مما يطيل القيام رضي الله عنه.

روى عن النبي ﷺ (٢٢٨٦) حديثاً، وهو آخر الصحابة موتاً بالبصرة.

وقد سمع عمر بن عبد العزيز منه، حتى عندما صار والياً على المدينة للوليد، فعن حفص بن عمر بن أبي طلحة الأنصاري قال: «لما أراد عمر بن عبد العزيز أن يحج من المدينة - وهو واليها في خلافة الوليد ابن عبد الملك - دخل عليه أنس بن مالك وهو يومئذٍ بالمدينة، فقال: يا أبا حمزة، ألا تخبرنا عن خُطَب النبي ﷺ؟ فقال: خَطَبَ رسول الله ﷺ بمكة قبل التروية بيوم، وخطب بعَرَفَة يوم عرفة، وخطب بِمنىً الغد من يوم النحر، والغد من يوم النفر».

عُبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود[2] (... - ٩٨ هـ):

الإمام الفقيه، مفتي المدينة وعالمها، وأحد الفقهاء السبعة، أبو عبد الله، الهذلي، المدني، الأعمى. جده عتبة هو أخو عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما.

---

(١) الطبقات ٥/٣٣١، سير أعلام النبلاء ٣/٣٩٥، تذكرة الحفاظ ١/٤٤.

(٢) الطبقات ٥/٢٥٠، سير أعلام النبلاء ٤/٤٧٥، تذكرة الحفاظ ١/٧٨، تهذيب التهذيب ٧/٢٢، المناقب ١٣، ١٤، ١٧، مقدمة المسند ٩، ١٠.

كان إماماً ثقة، مأموناً، فقيهاً، عالماً، صالحاً، جامعاً للعلم، كثير الحديث والعلم بالشعر.

قال الإمام الزهري: «ما جالست أحداً من العلماء إلا وأرى أني قد أتيت على ما عنده، وقد كنت أختلف إلى عروة بن الزبير حتى ما كنت أسمع منه إلا مُعاداً، ما خلا عبيد الله؛ فإني لم آته إلا وجدت عنده علماً طريفاً».

وقال فيه أيضاً: «كنت أحسب أني قد أصبت من العلم، فلما لقيت عبيد الله كأنما كنت أفجِّر بحراً»!

وقال ابن عبد البر: «كان أحد الفقهاء العشرة، ثم السبعة الذين تدور عليهم الفتوى، وكان عالماً فاضلاً، مقدَّماً في الفقه، تقياً، شاعراً محسناً، لم يكن بعد الصحابة إلى يومنا هذا ـ فيما علمت ـ فقيه أشعر منه، ولا شاعر أفقه منه».

إلى هذا الإمام جلس عمر بن عبد العزيز، ونهل من علمه، وتأدب بأدبه، فأكثر من ذلك حتى قال العلماء عن عبيد الله: «هو معلِّم عمر بن عبد العزيز».

كتب مرة إلى عمر شعراً قال فيه:

بسمِ الذي أُنْزِلَتْ من عندهِ السُّوَرُ	والحمدُ للهِ أمّا بعدُ يا عُمَـرُ
إنْ كنتَ تعلَمُ ما تأْتي وما تَذَرُ	فَكُنْ على حذرٍ قد يَنْفَعُ الحَذَرُ
واصْبرْ عَلَى القَدَرِ المَحتُومِ وَارْضَ بهِ	وإنْ أتاكَ بما لَا تَشتهي القَدَرُ
فما صَفَا لامْرئٍ عيشٌ يُسَرُّ بهِ	إلاَّ سَيَتبَعُ يَوْمـاً صَفْوَهُ كَـدَرُ

لذا أكثر عمر من ملازمة مجلسه، والتردد عليه، حتى وهو أمير المدينة. ولربما كان يحجبه فيمن يحجب من التلاميذ، فلا يغضّ ذلك من منزلة عمر ـ وهو الوالي ـ فيرجع راضياً غير ناقم، ويباكر في اليوم التالي ليعوض ما فاته.

حدّث ابن أبي الزناد عن أبيه قال: «ربما كنت أرى عمر بن عبد العزيز في إمارته[1] يأتي عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، فربما حجبه، وربما أذن له»!

ولقد عبّر عمر عن إعجابه بأستاذه، وكثرة ما كان يستفيده من علمه الغزير؛ فقال: «لمجلس من الأعمى: عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، أحبّ إليّ من ألف دينار».

ولمعرفته بما عند شيخه من علم غزير، ورأي مشرق منير، وإشارة سديدة حصيفة؛ كان يقول في أيام خلافته: «لو كان عبيد الله حياً ما صدرت إلا عن رأيه، ولوددت أن لي بيوم واحد من عبيد الله كذا وكذا».
وقال: «لو أدركني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة إذ وقعتُ فيما وقعت فيه؛ لَهَانَ عليَّ ما أنا فيه»!

وقد روى عنه علماً جماً، عبر عنه قائلاً: «لَمَا رويتُ عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أكثر مما رويت عن جميع الناس».

سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب[2] (ت ١٠٦ هـ):

الإمام الزاهد، الحافظ، الفقيه، الحجة، مفتي المدينة، وأحد فقهائها السبعة، كان كثير الحديث، عالياً من الرجال، ورعاً، أحد من جمع بين العلم والعمل، والزهد والشرف.

حدَّث عن أبيه فجوَّد وأكثر، قال يحيى بن سعيد: قلت لسالم في حديث: أسمعتَه من ابن عمر؟ فقال: مرة واحدة! أكثر من مائة مرة!!

يشبه أباه في الهَدْي والسَّمْت، قال ابن المسيب: «كان أشبهَ ولد عمرَ بعمرَ عبدُ الله، وأشبهَ ولد عبدِ الله بعبدِ الله سالمٌ».

---

(١) أي على المدينة.
(٢) الطبقات ٥/١٩٥، الحلية ٢/١٩٣، سير أعلام النبلاء ٤/٤٥٧، تذكرة الحفاظ ١/٨٨، البداية والنهاية ٩/٢٣٤.

كان أبوه عبد الله معجباً به، ويحبه كثيراً، حتى لاموه في ذلك، فقال:

يَلُومونني في سالمٍ وألومهم   وجلدةُ بينَ العَينِ والأنفِ سالِمُ

وكانت الخلفاء تعظّمه وتجلّه، دخل مرة على سليمان بن عبد الملك، فلم يزل سليمان يرحب به ويرفعه، حتى أقعده معه على سريره!

قال الإمام مالك: لم يكن أحد في زمانه أشبه منه بمن مضى من الصالحين في الزهد والفضل.

صالح بن كَيْسان[1] (ت ١٤٠ هـ):

الإمام الحافظ الثقة، أحد علماء المدينة. كان من أئمة الأثر، جامعاً من الحديث والفقه والمروءة.

سئل عنه الإمام أحمد، فقال: «بخٍ بخٍ». وقال ابن حبان: كان من فقهاء المدينة، والجامعين للحديث والفقه، من ذوي الهيئة والمروءة. وقال ابن عبد البر: كان كثير الحديث، ثقة، حجة فيما حمل.

تولى تأديب عمر في صغره، فلقي منه كل رعاية وخير وتوجيه طيب نحو الفضائل والمكرمات. ولما أصبح عمر والي المدينة ضمّه إلى نفسه، وأخذ عنه، واختاره مؤدِّباً لأولاده.

على هؤلاء العلماء الأجلّة وأمثالهم تتلمذ عمر، فأخذ عنهم العمل والعلم، والفقه والورع، فاقتفى أثرهم، ونسج على منوالهم.

ومما أثر في بناء شخصيته العلمية وإثراء ثقافته:

●● أنه تولّع بالشعر، وأقبل عليه، فأصبح حافظاً له وناقداً. وكان

(١) سير أعلام النبلاء ٥/٤٥٤، تذكرة الحفاظ ١/١٤٨، تهذيب التهذيب ٤/٣٥٠، شذرات الذهب ١/٢٠٨.

الشعر من أوضح سمات المجتمع الإسلامي آنذاك، تعقد له الندوات، ويتبارى فرسانه في حلبة الفصاحة والغوص على المعاني والأهداف السامية.

وفي العصر الذي عاشه عمر كان للشعر دويّ كدويّ النحل، فقد لمع فيه ثلاثة من الفحول: جرير والفرزدق والأخطل، فكانوا يملؤون الدنيا ويشغلون الناس. فتأثر عمر بذلك إلى حد كبير.

كذلك حضر مجالس الشعراء عند أبيه في مصر، حيث كانوا يأتونها لينالوا الجوائز من أميرها الجواد عبد العزيز بن مروان. ومن هؤلاء: الأحوص، وجرير، وكُثَيِّر عزَّة، ونُصَيْب بن رباح. فاختلط بهم، وأفاد منهم، وحفظ من ديوان العرب الشيء الكثير. وللشعر دوره الكبير في استقامة اللغة، وبالتالي، فهم كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ.

●● كذلك فإن عمر لما مات أبوه، ضمّه إليه عمه عبد الملك بن مروان، الخليفة الفقيه، الذي قال فيه ابن عمر: «إن لمروان ابناً فقيهاً فسلوه». وقال أيضاً: «ولد الناس أبناء، وولد مروان أباً»! وقال أبو الزناد: «فقهاء المدينة: سعيد بن المسيب، وعبد الملك، وعروة، وقبيصة بن ذؤيب». وقال الشعبي: «ما جالست أحداً إلا وجدت لي عليه الفضل، إلا عبد الملك».

وكان ـ رحمه الله وغفر له ـ من رجال الدهر، ودهاة الرجال، معدوداً مع كبار الفقهاء، طويل الباعِ في الشعر.

وهكذا فإن عمر بن عبد العزيز عاش في كنف عمه العلامة الفقيه تحت سقف واحد، مما أثر فيه، ودفعه دفعاً قوياً ليضارع هذا العم المتفوق في الفقه؛ فكان له ذلك.

●● وقد أدرك عمر أن مذاكرة العلم حياته، والانقطاع عنه إماتة له، لذا فقد تابع سؤاله عن العلم، وسؤال العلماء، حتى في زحمة أعماله،

وكثرة أعبائه، عندما كان والياً على المدينة، أو لما أضحى أميراً للمؤمنين.

من ذلك أنه سأل أنس بن مالك عن «خُطَب النبي ﷺ في الحج» لما حج عمر من المدينة وهو واليها.

وبعثَ المراكب لتحمل إليه أحد التابعين ليسمع منه «حديث الحوض»، فعن العباس بن سالم اللخمي قال: «بعث عمر بن عبد العزيز إلى أبي سلاّم الحبشي يُحمل على البريد، فلما قدم عليه قال: لقد شقَّ عليَّ. قال عمر: ما أردنا ذلك، ولكنه بلغني عنك حديث ثوبان في الحوض، فأحببت أن أشافهك به! فقال: سمعت ثوبان يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن حوضي من عدن إلى عمّان البلقاء، ماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، وأكوابه عدد نجوم السماء، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً، أول الناس وروداً عليه فقراء المهاجرين)»[1].

سعة علمه:

وقد آتت تلك السنوات الطويلة في المدينة النبوية، بين يدي أجلّة العلماء، وكبار المحدثين والفقهاء، أكلها، فأثمرت أطيب الثمار، وأنتجت عالماً فذاً يضارع مشاهير الأئمة في زمانه. وعبر عمر نفسه عن ذلك ـ متحدثاً بنعمة الله عليه ـ فقال واصفاً حاله عند خروجه من المدينة:

«خرجتُ من المدينة وما مِنْ رجلٍ أعلمُ مني، فلما قدمتُ الشامَ نسيتُ»[2].

يقول هذا مع أنه ترك فيها سعيد بن المسيب ونظراءه!

وهذا هو الزهري ـ الإمام العَلَم، حافظ زمانه ـ يسمر ليلة مع عمر،

---

(١) المناقب ٣٢ ـ ٣٣، ١٧٨.

(٢) سير أعلام النبلاء ٥/١٢١، تذكرة الحفاظ ١/١١٩، البداية والنهاية ٩/١٩٥.

فيحدِّثه، فيقول له عمر: «كل ما حدَّثتَه الليلة فقد سمعتُه، ولكنك حفظتَ ونسينا»[1].

وهذا يبين رسوخ قدمه في العلم، وسعة اطلاعه، وكثرة مروياته، حتى يقول للإمام الزهري ـ وهو من عرفتَ ـ بأنه سمع كل ما حدث به.

ومن الدلائل الواضحة على سعة علمه:

ـ أنه ما من كتاب من كتب السنة أو الفقه الاستدلالي، إلا وفيه ذكر لعمر بن عبد العزيز، من حديث أو رأي، أو أمر، أو قضاء، ونحو ذلك.

بل إن كبار العلماء الأقدمين قد أوردوا رأي عمر على سبيل الاحتجاج لرأيهم بقوله وفعله، من ذلك الرسالة الشهيرة التي بعث بها الليث بن سعد إلى الإمام مالك، وفيها يحتج الإمام الليث غير مرة لصحة قوله بقول عمر على مالك فيما ذهب إليه في بعض مسائله.

ـ كذلك يرد ذكره في كتب المذاهب الأربعة، على سبيل الاحتجاج به. حتى إن الحنفية جعلوا له وصفاً متميزاً به، وهو «عمر الصغير» تمييزاً له عن جده الفاروق رضي الله عنهما. والإمام مالك ذكره في «الموطأ» في زيادة على عشرين موضعاً، وأصحابه من بعده قد أكثروا من ذكر عمر في كتبهم. وكذلك فعل الشافعية، وقد ترجم له النووي في «تهذيب الأسماء واللغات»، وقال في مقدمة ترجمته: «تكرر في المختصر والمهذب». وأما الحنابلة فيكفي للدلالة على شأنه الكبير عندهم والاحتجاج بقوله، ما قاله إمام المذهب رحمه الله تعالى: «لا أدري قول أحد من التابعين حجةً إلا قول عمر بن عبد العزيز»[2].

ـ ورسالته الطويلة العظيمة في الرد على القدرية[3]، وحججه القوية

---

(١) الطبقات ٥/٣٨٥، المناقب ٣٧، تاريخ الإسلام ١٩٠، سير أعلام النبلاء ٥/١٢١، البداية والنهاية ٩/١٩٥.

(٢) مقدمة المسند ١٠ ـ ١٢.

(٣) انظرها في: الحلية ٥/٣٤٦ ـ ٣٥٣، المناقب ٨٥ ـ ٨٦.

فيها، وتفنيد آرائهم، شاهد واضح، ودليل ناصع، على غزارة علمه، وكبير شأنه. كذلك حجاجه للخوارج، ومحاققته لهم، وكشفه زيوف آرائهم، حيث ناظرهم فما ترك لهم حجة إلا كسرها، بمنطق قويم، ودليل قوي، وحجة غالبة، ورأي قاهر[1].

أقوال العلماء في علمه:

أطبقت آراء الأئمة وشهاداتهم على أن عمر بن عبد العزيز أحد الأفراد من العلماء الراسخين، ومن أبرز علماء زمانه المليء بكبار التابعين. وهذه شذرات من أقوالهم:

عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله قال: «كانت العلماء عند عمر ابن عبد العزيز تلامذة»[2]. وهذه شهادة عظيمة من أستاذه وخاصة شيوخه، ابن عتبة.

وقال مجاهد ـ وهو هو ـ : «أتينا عمر بن عبد العزيز ونحن نرى أنه سيحتاج إلينا، فما خرجنا من عنده حتى احتجنا إليه». وقال أيضاً: «أتينا عمر نعلّمه، فما برحنا حتى تعلمنا منه»[3].

وقال مَيْمون بن مِهْران: «كان عمر بن عبد العزيز معلم العلماء».
وقال أيضاً: «أتينا عمر بن عبد العزيز ونحن نرى أنه يحتاجُ إلينا، فما كنا معه إلا تلامذةً»[4].

---

(١) انظر: الحلية ٥/٣٠٩ ـ ٣١٠، المناقب ٩٥ ـ ٩٦، وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله.

(٢) الحلية ٥/٣٣٩، ومثلها جاء عن ميمون بن مهران، انظر: تذكرة الحفاظ ١/١١٩، تاريخ الإسلام ١٩٠، البداية والنهاية ٩/١٩٤.

(٣) الطبقات ٥/٣٩٨، تهذيب الأسماء واللغات ٢/٢٣، الحلية ٥/٣٤٠، تذكرة الحفاظ ١/١١٩، البداية والنهاية ٩/١٩٤، تهذيب التهذيب ٧/٤١٩، مختصر ابن عساكر ١٠٤.

(٤) الطبقات ٥/٣٦٨، الحلية ٥/٣٣٩ ـ ٣٤٠، تهذيب الأسماء واللغات ٢/٢٢، المناقب ٣٥، سير أعلام النبلاء ٥/١٢٠.

وقال فيه سيد العلماء أيوب السّخْتِياني ـ وكفى به ـ : «لا نعلم أحداً ممن أدركنا كان آخَذَ عن النبي ﷺ منه»[1].

وقال الإمامان مالك وابن عيينة: «عمر بن عبد العزيز إمام»[2].

وقال الحافظ ابن سعد: «كان ثقة مأموناً، له فِقه وعلم ووَرَعٌ، وروى حديثاً كثيراً، وكان إمامَ عدلٍ، رحمه الله ورضي عنه»[3].

ووصفه الحافظ ابن عبد البر بأنه: «كان أحد الراسخين في العلم»[4].

وقال فيه الإمام الذهبي: «وكان إماماً فقيهاً مجتهداً، عارفاً بالسنن، كبير الشأن، ثَبْتاً، حجة، حافظاً»[5].

وهذه كلمة إجماع من هؤلاء الأئمة الثقات، وبذلك أصبح عمر موئل العلماء، وقبلة الطالبين، روى الحديث فأكثر، ونظر في النصوص فاجتهد واستنبط، فأخذ عنه الفقهاء، واعتبروا رأيه حجة.

قال الليث: حدثني رجل كان صحب ابن عمر وابن عباس، وكان عمر بن عبد العزيز يستعمله على الجزيرة، فقال: «ما التمسنا علم شيء إلا وجدنا عمر بن عبد العزيز أعلمَ الناس بأصله وفرعه، وما كان العلماء عند عمر بن عبد العزيز إلا تلامذة»[6].

---

(١) تهذيب التهذيب ٧/٤١٩.
(٢) تهذيب التهذيب ٧/٤٢٠.
(٣) سير أعلام النبلاء ٥/١١٥، مختصر ابن عساكر ٩٩.
(٤) جامع بيان العلم ٢/١٣٠.
(٥) تذكرة الحفاظ ١/١١٨، سير أعلام النبلاء ٥/١١٤.
(٦) البداية والنهاية ٩/١٩٤.

تلامذته ومن روى عنه[1]:

روى الحديثَ عن عمر جمعٌ من العلماء والأئمة، منهم:

أبو سَلَمَة بن عبد الرحمن ـ وهو من شيوخه ـ وعبد الله وعبد العزيز ابنا عمر بن عبد العزيز، وأخوه زبَّان بن عبد العزيز، وابن عمه مسلمة بن عبد الملك، وأبو بكر بن محمد بن عَمْرو بن حَزْم، ورجاء بن حَيْوة، والزهري، ويحيى بن سعيد الأنصاري، وعنبسة بن سعيد بن العاص، وحميد الطويل، ومحمد بن المنكدر، وتمام بن نجيح، وتَوْبة العنبري، وعمرو بن مهاجر، وغَيْلان بن أنس، وليث بن أبي رُقَيَة الثقفي ـ كاتبه ـ، ومحمد بن قيس ـ قاصّه ـ، والنضر بن عربي، ونعيم بن عبد الله القَيْني، وهلال أبو طعمة مولى عمر بن عبد العزيز، ويعقوب بنُ عُتبة بن المغيرة بن الأخنس، ومحمد بن الزبير الحنظلي، وأيوب السختياني، وإبراهيم بن أبي عبلة، وصالح بن محمد بن زائدة الليثي، وصخر بن عبد الله بن حَرْمَلة، وعثمان بن داود الخولاني، وأخوه سليمان بن داود، وعمير بن هانىء العنسي، وعيسى بن أبي عطاء الكاتب، وأبو هاشم مالك بن زياد، ومحمد بن أبي سويد الثقفي، ومروان بن جناح، وآخرون.

لماذا لم ينتشر علمه:

وإذا كان عمر بهذه المثابة في غزارة العلم، والإمامة فيه، حتى يُعدل بالإمام الزهري، والعلماء عنده تلامذة؛ فلماذا لم يشتهر بالعلم بما يناسب تلك المنزلة التي تبوأها؟ ولِمَ لَمْ يُنقل عنه من الرواية والفقه مثل الذي نقل عن الأئمة غيره كالزهري ومالك وابن المسيب ونظرائهم؟

---

(١) تهذيب التهذيب ٧/٤١٨، سير أعلام النبلاء ٥/١١٤ ـ ١١٥، تذكرة الحفاظ ١/١١٨، تاريخ الإسلام ١٨٨، تهذيب الأسماء ٢/١٧، طبقات الحفاظ ٥٣.

ومرجع ذلك في رأينا إلى أمرين:

أولهما ـ وهو الأهم ـ : أن عمر رضي الله عنه لم تسنح له الفرصة الكافية ليَبُثَّ ما في خزائن علمه الفياض:

فهو بعد أن تخرج بكبار فقهاء المدينة، وغادرها ولم يترك فيها مثلَه في العلم، عاد إليها أميراً عليها، ثم ضمت إليه معها إمارة مكة، فأصبح أمير الحرمين. وفي الإمارة ما يشغله عن بث العلم، والجلوس لروايته وتحديث الناس به، وتخريج تلامذة من حلقته.

وبعد عزله عن ولاية الحرمين، كان مشيراً على الخلفاء، وناصحاً لهم، ثم وزيراً لسليمان.

وبعد ذلك عُهد إليه بالخلافة العظمى، فأصبح أمير المؤمنين لدولة عظيمة مترامية الأطراف، فنهض للقيام بـالأعباء الجسـام، وتصحيح المسار، وردّه إلى ما كان عليه الأمر في عصر النبوة والراشدين. وهو حمل ينوء بالعصبة أولي القوة من الرجال في زمن طويل، فلم يكن لديه لحظة من وقت ليتفرغ لأداء العلم، وعقد حلقاته! بل ليس عنده إلا أويقات ينام فيها ليتابع العمل الدؤوب المتواصل.

ومثل هذا حدث للصحابي الكبير أول خلفاء الإسلام أبي بكر الصديق رضي الله عنه؛ فقد لازم النبي ﷺ طيلة سني الدعوة، فكان أطول الصحابة ملازمة له، وكان من كبار علمائهم، لكنه ما روي عنه إلا القليل، مما لا يكافىء جلالته ومنزلته العلمية. وسبب ذلك قصر المدة التي عاشها بعد رسول الله ﷺ، ثم ـ وهو الأهم ـ انهماكه بشؤون الخلافة، وخاصة حروب الردة والقضاء على نائرتها.

وكذلك عبد الملك بن مروان وأبو جعفر المنصور وغيرهما، شغلتهم أمور الخلافة وسياسة الرعية عن نشر العلم.

والأمر الثاني: هو تعجل موت عمر رضي الله عنه، حيث توفي ولم يكمل الأربعين[1].

جهوده في نشر العلم وتدوينه:

إذا كان أمير المؤمنين عمر لم يجلس في حلقات العلم ليبث فيها ما عنده، ولم يتصدر المجالس للإفتاء ونشر الفقه؛ بيد أن له سابقة عظيمة، ودوراً أكبر خطراً، وأعظم أثراً، وأكثر نفعاً للمسلمين، في هذا المجال، ذلكم هو جهده العظيم في تدوين الحديث النبوي، وتسيير العلماء والفقهاء لتعليم الناس وتثقيفهم وإرشادهم.

ونجمل القول في هذا في الأمور التالية:

أولاً ـ نشره العلم في الأمصار:

من واجبات الدولة أن تسهّل تحصيل العلم لجميع القادرين على تحصيله، وهو من فروض الكفايات التي يجب على الدولة القيام به، وتمكين الناس من الوصول إليه[2].

وقد قام عمر بهذا العبء خير قيام، فأرسل العلماء إلى الأمصار بل والبوادي، ليعلّموا أهلها شرع الله، ويفقهوهم فيه.

●● فبعث إلى مصر الإمامَ المفتي الثّبْت، عالمَ المدينة «نافعاً» مولى ابن عمر، وراويته.

قال عبيد الله بن عمر: «بعث عُمر بن عبد العزيز نافعاً مولى ابن عمر إلى أهل مصر يعلّمهم السُّنَن»[3].

---

(١) انظر: المناقب ١٨، تذكرة الحفاظ ١/١١٩، مقدمة المسند ١٢ ـ ١٣.
(٢) نظام الإسلام ١١٤.
(٣) سير أعلام النبلاء ٥/٩٧، تذكرة الحفاظ ١/١٠٠.

●● وأرسل عشرة من فقهاء مصر من رجال التابعين إلى إفريقية، ليفقهوا أهلها ويعلموهم، وينشروا بينهم حديث رسول الله ﷺ، لينالهم من الخير مثل الذي عمّ إخوانهم من أهل الحجاز والشام والعراق، وكانت معاقل العلم، فلم يحتج عمر أن يسير لها العلماء، بل تطلّع إلى أقاصي دولته، فأرسل العلماء إليها.

وهؤلاء العشرة هم:

- أبو ثُمامة بكر بن سَوَادة الجُذامي المصري: قال الحافظ ابن حجر: «أرسله عمر بن عبد العزيز إلى أهل إفريقية ليفقههم». وكان ثقة فقيهاً مفتياً[1].

- عبد الرحمن بن رافع التَّنُوخي: قال الحافظ: «كان أحد الفقهاء العشرة الذين أرسلهم عمر بن عبد العزيز ليفقهوا أهل إفريقية». وكان قاضي إفريقية[2].

- عبد الله بن يزيد المعافري، أبو عبد الرحمن الحُبُلّي: قال الحافظ: «بعثه عمر بن عبد العزيز إلى إفريقية ليُفقِّهَهُم، فبثّ فيها علماً كثيراً». وكان ثقة صالحاً فاضلاً[3].

- طَلْق بن جعبان: قال الحافظ ابن ماكولا: «كان أحد النفر الذين بعث بهم عمر بن عبد العزيز من فقهاء مصر إلى المغرب ليفقهوهم»[4].

- سعد بن مسعود التُّجيبي: سكن القيروان، وبثَّ فيها علماً كثيراً[5].

---

(١) تهذيب التهذيب ١/٤٢٤، تقريب التهذيب ١/١٠٦.
(٢) تهذيب التهذيب ٦/١٥٣، تقريب التهذيب ١/٤٧٩، وذكر فيه أنه ضعيف. وإنما تُكلِّم فيه من قبل بعض الرواة عنه، انظر: ميزان الاعتدال ٢/٥٦٠.
(٣) تهذيب التهذيب ٦/٧٤، تقريب التهذيب ١/٤٦٢.
(٤) و(٥): مقدمة المسند ١٥.

ـ إسماعيل بن عبيد الله الأنصاري ولاءً: سكن القيروان، وانتفع به خلق كثير من أهلها وغيرهم، وهو الذي بنى المسجد الكبير بالقيروان الذي يعرف الآن «بمسجد الزيتونة». ويعرف بتاجر الله، وإنما لُقِّب بذلك لأنه جعل ثلث كَسْبِهِ لله عز وجل، يصرفه في وجوه الخير! غرق في البحر فمات وهو معانق المصحف الشريف سنة (١٠٧ هـ)[1].

ـ إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر: مولى بني مخزوم، كان إماماً كبيراً، من الثقات العلماء. استعمله عمر على أهل إفريقية ليحكم بينهم ويفقههم في الدين، فكان حسن السيرة وكان خير وال وخير أمير، بثّ بين الناس من فقهه، وأسلم عامة البربر في ولايته. توفي سنة ١٣٢ هـ[2].

ـ أبو سعيد جُعْثُل بن هَاعَان الرُّعَيْني ثم القِتْباني المصري: قال فيه الحافظ ابن حجر: «قال ابن يونس: كان عمر بن عبد العزيز بعثه إلى المغرب ليقرئهم القرآن، وكان أحد القراء الفقهاء»[3].

ـ حِبّان بن أبي جَبَلة القرشي مولاهم، المصري: سكن القيروان وانتفع به أهلها[4].

ـ مَوْهَب بن حَيّ المعافري: سكن القيروان وبث فيها العلم[5].

●● بل إنه أرسل الفقهاء إلى البدو ليعلموا الناس في مضاربهم، ويفقهوهم في دينهم.

روى أبو عُبيد القاسم بن سلاَّم وابن الجوزي وغيرهما عن ابن أبي

---

(١) مقدمة المسند ١٥.

(٢) سير أعلام النبلاء ٥/٢١٣، تهذيب التهذيب ١/٢٧٧، الأعلام ١/٣١٩.

(٣) تهذيب التهذيب ٢/٦٨، تقريب التهذيب ١/١٢٨.

(٤) تهذيب التهذيب ٢/١٤٩، تقريب التهذيب ١/١٤٧.

(٥) مقدمة المسند ١٦.

غيلان قال: «بعث عمر بن عبد العزيز يزيدَ بن أبي مالك الدمشقي والحارث بن يَمْجُد الأشعري يفقهان الناس في البدو، وأجرى عليهما رزقاً. فأما يزيد فَقَبِل [1]، وأما الحارث فأبى أن يقبل، فكُتِب إلى عمر بن عبد العزيز بذلك، فكتب عمر: إنا لا نعلم بما صنع يزيدُ بأساً، وأكْثَرَ اللهُ فينا مثلَ الحارث بن يمجُد» [2].

●● كذلك كان يرسل الكتب إلى الأمصار الإسلامية في دولته الكبيرة، يعلمهم فيها السنن والفقه، ويأمرهم بإحياء ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته، والالتزام بالشرع، وترك ما خالفه. وكانت الكتب توجّه إلى الولاة والأمراء ليعملوا بها، ويحملوا الناس على التزام ما جاء فيها. وإذا أشكل على عمر أمر بعث إلى المدينة يسألهم عن ذلك.

يقول الإمام مالك: «كان عمر بن عبد العزيز يكتب إلى الأمصار يعلمهم السنن والفقه، ويكتب إلى المدينة يسألهم عما مضى، وأن يعملوا بما عندهم» [3].

ويقول الحسن البصري: «ما ورد علينا قط كتاب عمر بن عبد العزيز إلا بإحياء سنة، أو إماتة بدعة، أو ردّ مَظْلِمَة» [4].

وقد أمر ـ رضي الله عنه ـ بإفشاء العلم، وذمَّ كتمانه، وذلك واضح في كتابه إلى أبي بكر بن حزم: «ولْتُفْشوا العلم، ولْتَجْلِسوا حتى يُعَلَّمَ مَنْ لا يَعْلَم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً» [5].

وقد ساعده على نشر العلم ثلاثة أمور:

●● أولها ـ وهو أهمها ـ: فرضه المرتبات للعلماء، ولكل من نصب نفسه للعلم وحبسها عليه:

---

(١) أي قَبِلَ الراتب الذي فُرض له. (٢) الأموال ١١٣، المناقب ٩٢.

(٣) مقدمة المسند ١٧. (٤) مقدمة المسند ٦، وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله.

(٥) فتح الباري ١/١٩٤.

فقارئ القرآن الذي حفظه وقام يقرئه للناس ويعلمهم أحكامه، والمحدث الذي يعقد مجالس الإملاء وينشر الحديث النبوي، والفقيه الذي ينظر في الكتب ويستنبط منها ويعلم الناس أمور دينهم ليعبدوا الله على بصيرة، والطالب الذي يتفرغ للعلم أو البحث والدرس؛ كل أولئك قد يشغلهم أمر ذويهم وأبنائهم وسدّ حاجاتهم وتدبير أمور معاشهم، فقام عمر بقطع هذا الهاجس عنهم، وكفل لهم ولمن يعولون ما يعيشون به حياة كريمة، تتكفل به الدولة، ويؤخذ من بيت المال. ونِعِمَّا فعل رضي الله عنه، فبذلك شجع كل من وجد في نفسه الإمكانية لنشر العلم وخدمة الدين والأمة.

روى الإمام الثقة الحجة الخطيب البغدادي، وذكره ابن الجوزي، عن أبي بكر بن أبي مريم قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى والي حمص: «مُرْ لأهل الصلاح من بيت المال بما يُغْنيهم، لئلا يشغلهم شيء عن تلاوة القرآن وما حملوا من الأحاديث»[(١)].

وذكر ابن الجوزي عن ابن أبي مريم قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى والي حمص: «انظروا إلى القوم الذين نصبوا أنفسهم للفقه، وحبسوها في المسجد عن طلب الدنيا، فأعطِ كل رجل منهم مائة دينار، يستعينون بها على ماهم عليه، من بيت مال المسلمين، حين يأتيك كتابي هذا، وإن خير الخير أعجله. والسلام عليك»[(٢)].

بل إنه فرض الرزق لمن يحدث الناس بمغازي رسول الله ﷺ ومناقب أصحابه، وللقصّاص والواعظين كذلك.

قال ابن سعد: «وفد عاصم[(٣)] بن عمر على عمر بن عبد العزيز في

---

(١) المناقب ١٢٣، أصول الحديث ١٧٨.

(٢) المناقب ١١٥، البداية والنهاية ٩/٢٠٧.

(٣) هو عاصم بن عمر بن قتادة بن النعمان، وجده قتادة من فضلاء الصحابة، وعاصم =

خلافته في دَيْن لزمه، فقضاه عنه عمر، وأمر له بعد ذلك بمعونة، وأمره أن يجلس في جامع دمشق فيحدث الناس بمغازي رسول الله ﷺ، ومناقب أصحابه، وقال له: إن بني مروان كانوا يكرهون هذا وينهون عنه، فاجلس فحدِّث الناس بذلك. ففعل»[1].

وذكر ابن شبّة «أن عمر بن عبد العزيز أمر رجلاً ـ وهو بالمدينة ـ أن يقصّ على الناس، وجعل له دينارين كل شهر. فلما قدم هشام بن عبد الملك جعل له ستة دنانير كل سنة»[2].

ومما جاء في كتبه بشأن إجراء الرزق على طلبة العلم لينقطعوا عن الشواغل، ما ذكره ابن عبد البر عن يحيى بن أبي كثير قال: «كتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله: أن أجْرُوا على طلبة العلم الرزق، وفرِّغوهم للطلب»[3].

●● ثانيها: حضّ العلماء على نشر العلم وعلنيته، واتخاذ المساجد مراكز لتعليم الناس أمور دينهم، وإقراء طلبة العلم وإسماعهم، وإملاء الحديث النبوي، وإحياء السنة.

قال عكرمة بن عمار ـ وهو من أهل اليمن ـ : سمعت كتاب عمر بن عبد العزيز يقول: «أما بعد: فأمُرْ أهلَ العلم أن ينشروا العلم في مساجدهم، فإن السنة كانت قد أُميتتْ»[4].

وأسند ابن عبد البر عن جعفر بن بُرْقَان الرَّقي ـ نسبة إلى الرقة شمال شرقي سورية ـ قال: كتب إلينا عمر بن عبد العزيز: «أما بعد: فَمُرْ أهل

= راوية للعلم، وله علم بالمغازي والسيرة، وكان ثقة كثير الحديث.

(١) مقدمة المسند ١٨، الطبقات ٥/٣٤٩، تهذيب التهذيب ٥/٤٧.

(٢) أخبار المدينة النبوية، نقلاً عن مقدمة المسند ١٨.

(٣) جامع بيان العلم ١/٢٢٨.

(٤) المناقب ١١٣، أصول الحديث ١٧٨.

الفقه والعلم من عندك فلينشروا ما علمهم الله في مجالسهم ومساجدهم. والسلام»[1].

●● ثالثها: حث جميع الناس على العلم والسعي في طلبه، والجلوس في حِلَقه، والاستماع إلى المحدثين والفقهاء والوعاظ والقصّاص. وفي ذلك يقول: «إن استطعت فكن عالماً، فإن لم تستطع فكن متعلماً، فإن لم تستطع فأحبهم، فإن لم تستطع فلا تبغضهم. ثم قال: لقد جعل الله له مخرجاً إن قبل»[2].

ثانياً ـ تدوينه العلم وأمره بذلك:

●● نهى رسول الله ﷺ عن كتابة غير القرآن في أول الأمر، مخافة اختلاط غير القرآن به، واشتغال الناس عن كتاب ربهم بغيره. ثم جاء بعد ذلك الإذن النبوي بالكتابة والإباحة المطلقة لتدوين الحديث الشريف، فَنَسَخَ النهيَ، وصار الأمر إلى الجواز[3].

قال الخطيب البغدادي: «إن كراهة الكتاب في الصدر الأول إنما هي لئلا يضاهى بكتاب الله تعالى غيره، أو يشتغل عن القرآن بسواه.. ونهى عن كتب العلم في صدر الإسلام وجدته، لقلة الفقهاء في ذلك الوقت، والمميزين بين الوحي وغيره، لأن أكثر الأعراب لم يكونوا فقهوا في الدين، ولا جالسوا العلماء العارفين؛ فلم يؤمَنْ أن يلحقوا ما يجدون من الصحف بالقرآن، ويعتقدوا أن ما اشتملتْ عليه كلامُ الرحمن».

ولقد همَّ عمر بن الخطاب بجمع السنة، وفكر طويلاً، ثم لم يلبث أن عدل عن ذلك، فعن عروة بن الزبير «أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه

---

(١) جامع بيان العلم ١٤٩/١.
(٢) ابن عبد الحكم، نقلاً عن «عمر» للزحيلي ٧٤.
(٣) انظر بالتفصيل: أصول الحديث ١٤٧ ـ ١٧٦، جامع بيان العلم ٧٦/١ ـ ٩٣.

أراد أن يكتب السنن، فاستفتى أصحاب النبي ﷺ في ذلك، فأشاروا عليه أن يكتبها، فطفق عمر يستخير الله فيها شهراً، ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له، فقال: إني أريد أن أكتب السنن، وإني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله، وإني والله لا أشوب كتاب الله بشيء أبداً».

ولما أُمن ذلك ودعت الحاجة لمُ تُكره كتابة العلم، وثبت أن كثيراً من الصحابة قد أباحوا تدوين الحديث، وكتبوه لأنفسهم، وكتب طلابهم بين أيديهم، وأصبحوا يتواصون بكتابة الحديث وحفظه.

قال ابن الصلاح: «ثم إنه زال ذلك الخلاف، وأجمع المسلمون على تسويغ ذلك وإباحته، ولولا تدوينه في الكتب لَدَرَسَ في الأعصر الآخرة».

ويقول الرَّامَهُرْمُزي: «والحديث لا يضبط إلا بالكتاب، ثم بالمقابلة والمدارسة، والتعهد والتحفظ، والمذاكرة والسؤال، والفحص عن الناقلين، والتفقه بما نقلوه...».

وقام الجهابذة من أهل العلم، والغيورون من المسلمين، بجهود جبارة لتدوين السنة الطاهرة، وجمع الحديث النبوي، وتنقيته من شوائب الوضع، وبذلوا في ذلك مهجهم وأوقاتهم، فأسهروا ليلهم، وضربوا في الأرض نهارهم، وأصّلوا لذلك أصولاً، وقعَّدوا قواعد، حتى أثمرت تلك الجهود المباركة هذه الدواوين العظيمة، التي يعكف المسلمون على قراءتها وحفظها والعمل بها. والفضل كل الفضل لأولئك البررة الذين كانوا السبب في جمعها، وليس لهم مكافأة أعظم من أجر الله الجزيل الذي ينتظرهم يوم الدين إن شاء الله تعالى.

●● ولعل طلائع «التدوين الرسمي» للحديث النبوي، الذي قامت به جهة مسؤولة في الدولة الإسلامية، كان على يدي عبد العزيز بن مروان

ـ والد عمر ـ عندما كان أميراً على مصر، فقد ذكر ابن سعد عن الليث بن سعد قال: «حدثني يزيد بن أبي حبيب أن عبد العزيز بن مروان كتب إلى كثير بن مُرَّة الحضرمي ـ وكان قد أدرك بحمص سبعين بَدْرِياً من أصحاب رسول الله ﷺ ـ قال ليث: وكان يسمَّى الجند المقدَّم، قال: فكتبَ إليه أن يكتب إليه بما سمع من أصحاب رسول الله ﷺ من أحاديثهم، إلا حديث أبي هريرة فإنه عندنا».

وكان هذا الطلب من أمير مصر إلى عالم حمص، سنة (٧٥ هـ) على وجه التقريب، حيث إن كثير بن مرة توفي بين سنتي (٧٥ و ٨٠ هـ)[1].

●● بيد أن التدوين الذي آتى ثماره هو ما قام به أمير المؤمنين عمر ابن عبد العزيز، وقد تجلى ذلك في إرشاداته لكتابة العلم وتدوين الحديث، وأوامره للخاصة والعامة بذلك.

فمن إرشاداته قوله: «أيها الناس، قيدوا النعم بالشكر، وقيدوا العلم بالكتاب»[2].

ـ لكن أمير المؤمنين عمر لم يكتفِ بهذا الإرشاد العام والحض على حفظ العلم بكتابته؛ بل سعى ـ بحكمه خليفة المسلمين ـ إلى إصدار أوامره إلى بعض الأئمة العلماء بجمع سنن وأحاديث رسول الله ﷺ.

وقد حمله على ذلك ما رآه عند كثير من التابعين في إباحة كتابة الحديث، وهم قد حملوا علماً كثيراً، فخشي عمر على ضياعه، خاصة وأنه ليس دائماً تتوفر الحفظة الواعون لنقله، دونما احتياج إلى كتابة الكتب والرجوع إليها للاستذكار.

---

(١) الطبقات ٧/٤٤٨، أصول الحديث ١٧٦، ٢١٨ ـ ٢١٩.
(٢) المناقب ٢٧٦.

وثمة سبب آخر يضاهي سابقه في الأهمية، وهو فشوّ الوضع، ودسّ الأحاديث المكذوبة، وخلطها بالصحيح من كلام النبي ﷺ، بسبب الخلافات المذهبية والسياسية. وإلى هذا يشير كلام الإمام الزهري: «لولا أحاديث تأتينا من قبل المشرق ننكرها لا نعرفها؛ ما كتبت حديثاً، ولا أذنت في كتابه».

ورأي الزهري هذا كان رأيَ كثير من أئمة ذلك العصر، حيث خافوا على الحديث النبوي من الضياع، واختلاطه بالمكذوب، مما حفز العلماء على حفظ السنة بتدوينها.

وجاء رأي السلطة العليا ممثلاً بالخليفة الورع العالم المجتهد أمير المؤمنين عمر؛ فاتخذ خطوة حازمة حاسمة بتدوين سنن رسول الله ﷺ، وجعل من مسؤوليات الدولة حفظ السنة المطهرة[1].

١ ـ فكتب إلى الإمام الثبت، أمير المدينة، وأعلم أهل زمانه بالقضاء، أبي بكر بن حَزْمٍ، يأمره بذلك. ففي صحيح البخاري: «وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم: انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء، ولا تقبل إلا حديث النبي ﷺ. ولتفشوا العلم، ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً»[2].

وروى الدارمي عن عبد الله بن دينار قال: «كتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن اكتب إليَّ بما ثبت عندك من الحديث عن رسول الله ﷺ، وبحديث عمر، فإني قد خشيت دَرْسَ العلم وذهابه»[3].

---

(١) أصول الحديث ١٧٦ ـ ١٧٧، ١٨٦.

(٢) فتح الباري ١/ ١٩٤ ـ ١٩٥، ودروس العلم: ذهاب أثره.

(٣) سنن الدارمي ١/ ١٣٧.

وعند ابن سعد عن عبد الله بن دينار قال: «كتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ، أو سنّة ماضية، أو حديث عَمْرة بنت عبد الرحمن؛ فاكتبه، فإني خِفْتُ دروسَ العلم وذهابَ أهله»[1].

٢ ـ كذلك وجه كتاباً بهذا الشأن إلى الإمام الحجة ابن شهاب الزهري. فقد ذكر ابن عبد البر عن ابن شهاب قال: «أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنن، فكتبناها دفتراً دفتراً، فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفتراً»[2].

وروى أبو عبيد أن عمر أمر ابن شهاب أن يكتب له السنّة في مصارف الزكاة الثمانية، فلبى الزهري أمره، وكتب له كتاباً مطولاً يوضح ذلك بالتفصيل[3].

ومن هنا قال الحافظ ابن حجر: «وأول من دون الحديث ابن شهاب الزهري على رأس المائة بأمر عمر بن عبد العزيز، ثم كثر التدوين ثم التصنيف، وحصل بذلك خير كثير، فلله الحمد»[4].

---

(١) الطبقات ٢/٣٨٧، أصول الحديث ١٧٧ ـ ١٧٩ وفي هذه الرواية «عمرة»، وفي السابقة «عمر» أي ابن الخطاب، ونحن نرجح أنه طلب الأمرين كليهما؛ أما حديث عمر: فلأنه في خلافته كرر الطلب إلى ابن حزم في كتابة «سيرة عمر في الصدقات»، فقد كان معجباً بهَدْي جده، حتى نهج على منواله. وأما حديث عمرة: فلعلمها الغزير وخاصة بحديث عائشة.

(٢) جامع بيان العلم ١/٩١ ـ ٩٢.

(٣) الأموال ٢٣١ ـ ٢٣٢.

(٤) فتح الباري ١/٢٠٨، وانظر أصول الحديث ١٧٨، ١٨٠، مقدمة المسند ص ٢٠ ـ ٢١. وأولية ابن شهاب تأتي من أنه أحد أبرز علماء المدينة الذين توجه الأمر إليهم بالجمع، وقد أثمرت جهودُه تلك الدفاترَ التي وزعها عمر على الأمصار، بينما اخترمت المنية عمر قبل أن يرى ما جمعه ابن حزم.

٣ ـ بل إن عمر وجه أوامره إلى أهل المدينة جميعاً يأمرهم ويحثهم على جمع حديث رسول الله ﷺ، ليشارك في هذا كل من لديه علم، ولو كان بضعة أحاديث.

عن عبد الله بن دينار قال: «كتب عمر بن عبد العزيز إلى أهل المدينة: أن انظروا حديث رسول الله ﷺ فاكتبوه، فإني قد خفتُ دروسَ العلم وذهابَ أهله»(١).

٤ ـ ولم يقف عمر عند ذلك، بل عمَّـمَ أوامره إلى جميع الأمصار في الدولة الإسلامية، ليقوم كل عالم بجمع وتدوين ما عنده من حديث رسول الله ﷺ، وما سمعه من أصحابه الكرام.

روى أبو نعيم في «تاريخ أصبهان» فقال: «كتب عمر بن عبد العزيز إلى الآفاق: انظروا حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه واحفظوه، فإني أخاف دروسَ العلم وذهابَ العلماء»(٢).

●● كذلك فإن عمر رضي الله عنه اهتم باللغة العربية: فشجع أهل البلاد المفتوحة على تعلّمها وإتقانها، وكان يغدق عليهم ـ لذلك ـ العطايا، كما أنه يعاقب من يلحن بالعربية وينقص من عطائه، لما يعلم من أهمية العربية في فهم كتاب الله تعالى والسنة الشريفة(٣).

ثالثاً ـ منهجه وطريقته في التدوين:

اتبع عمر في جمع الحديث النبوي وتدوينه منهجاً سديداً قويماً، وسلك فيه شروطاً صارمة، ووضع له أبعاداً هادفة مفيدة. ويتجلى ذلك في أربعة أمور:

---

(١) سنن الدارمي ١/١٣٧، وكذلك رواه الرامهرمزي في «المحدث الفاصل»، والخطيب في «تقييد العلم»، انظر: مقدمة المسند ٢٠.
(٢) فتح الباري ١/١٩٥، أصول الحديث ١٧٨.
(٣) «عمر» للشرقاوي ١٧٨.

●● الأول ـ حسن اختياره للقائمين بهذا الأمر:

فأبو بكر بن حزم هو أحد أوعية العلم، ومن أعلام عصره، قال فيه الإمام مالك: «ما رأيت مثل ابن حزم أعظمَ مروءةً ولا أتمَّ حالاً، ولا رأيتُ من أوتي مثل ما أوتي: ولاية المدينة، والقضاء، والموسم». وقال: «كان رجل صدق، كثير الحديث». وقال ابن سعد: «كان ثقة عالماً كثير الحديث»[1]. توفي سنة (١٢٠ هـ).

وأما الزهري[2]: فهو الإمام العَلَم، حافظ زمانه، وشهرته ملأت الآفاق. قال فيه الليث بن سعد: «ما رأيت عالماً قط أجمع من ابن شهاب: يحدث في الترغيب والترهيب، فتقول: لا يُحسن إلا هذا. وإن حدّث عن العرب والأنساب، قلتَ: لا يحسن إلا هذا. وإن حدّث عن القرآن والسنة، كان حديثَه».

وقال عمر بن عبد العزيز: «عليكم بابن شهاب، فإنه ما بقي أحد أعلم بسنّة ماضية منه».

وقيل لمكحول: «مَنْ أعلم من لقيت؟ قال: ابن شهاب. قال: ثم من؟ قال: ابن شهاب».

وكان آية في الحفظ، حتى إنه حفظ القرآن في ثمانين ليلة!

●● الثاني ـ أنه طلب ممن يدوّن له السنة جمع الأحاديث مطلقاً وتدوينها، وتتبُّعَ أحاديث أناس مخصوصين لما امتازوا به، وتدوين أحاديث معينة لأهميتها:

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥/٣١٣ ـ ٣١٤، وغيره من كتب التراجم. وقوله «الموسم» يعني إمارة الحج.

(٢) سير أعلام النبلاء ٥/٣٢٦، تهذيب التهذيب ٩/٣٩٥، تذكرة الحفاظ ١/١٠٨، البداية والنهاية ٩/٣٤٠.

فقد أمر ابن حزم بتدوين حديث عَمْرة بنت عبد الرحمن لأنها من أثبت الناس بأم المؤمنين عائشة، والسيدة عائشة هي أعلم الناس بأحوال سيدنا رسول الله ﷺ وشؤونه الخاصة داخل بيته ومع أهله.

وعمرة هذه هي[1]: عمرة بنت عبد الرحمن بن سَعْد بن زُرَارة الأنصارية النجّاريّة، المدنية الفقيهة، تربيةُ عائشة وتلميذتها. وجدُّها سعد من قدماء الصحابة، وهو أخو النقيب الكبير أسعد بن زرارة.

ذكرها ابن المديني ففخّم أمرها وقال: «عمرة أحد الثقات العلماء بعائشة، الأثبات فيها».

وقال الزهري: «أتيتها فوجدتُها بحراً لا يُنْزَف». توفيت سنة (٩٨) هـ، وقيل (١٠٦) هـ.

وذكرت إحدى الروايات أنه أمر ابن حزم بجمع وتدوين حديث «عمر ابن الخطاب»، وذلك لما يقصده ابن عبد العزيز من تتبع سيرة الفاروق، وأقضيته وسياسته في الصدقات، وكتبه إلى عماله فيها. وقد طلب عمر ذلك أيضاً من سالم بن عبد الله بن عمر. وكل ذلك واضح من النهج الذي سلكه عمر بن عبد العزيز في الاقتداء بجده رضي الله عنهما.

كذلك كتب إلى آل عمرو بن حزم أن ينسخوا له كتاب النبي ﷺ لهم في الصدقات، كي يسير عليه في خلافته، وفي تسيير أمور رعيته[2].

●● الثالث: أنه ألزم من يدوّن السنة النبوية أن يميز الصحيح من السقيم، ويتحرى الثابت من الحديث، وذلك واضح في رواية الدارمي، حيث يقول عمر لابن حزم: «اكتب إليَّ بما ثبت عندك من الحديث عن

---

(١) الطبقات ٢/٣٨٧، سير أعلام النبلاء ٤/٥٠٧، تهذيب التهذيب ١٢/٤٦٦.
(٢) وسيأتي ذلك مفصلاً إن شاء الله.

رسول الله ﷺ وبحديث عمر». وعند الإمام أحمد في «العلل»: «اكتب إلي من الحديث بما ثبت عندك عن رسول الله ﷺ وحديث عَمْرَة»[1].

وهذه نقطة عظيمة الأهمية في تأسيس منهج التدوين على أسس راسخة، ثابتة صحيحة، قويمة مستقيمة.

●● الرابع ـ تثبته من صحة الحديث والتحديث:

فعمر من كبار العلماء، وليس بأقل شأناً في العلم ممن أمرهم بالتدوين، لذلك قام بمشاركة العلماء في مناقشة بعض ما جمعوه، زيادة في التثبت.

من ذلك ما رواه أبو الزناد عبد الله بن ذكوان القرشي قال: «رأيت عمر بن عبد العزيز جمع الفقهاء، فجمعوا له أشياء من السنن، فإذا جاء الشيء الذي ليس العمل عليه قال: هذه زيادة ليس العمل عليها»[2].

رابعاً ـ ثمرة هذا التدوين:

لقد آتت هذه الجهود الباكرة المباركة بعض أكلها، وتمثل ذلك بتلك الدفاتر التي جمعها الإمام الزهري، فأمر عمر بن عبد العزيز بنسخها عدة نسخ، ثم أرسل إلى كل بلد في دولته الكبيرة دفتراً منها.

ويلاحظ أن كثيراً من العلماء جمع لنفسه مسموعاته، ليعود إليها كلما وجد في نفسه الحاجة إلى إتقان حفظها. أما التدوين الرسمي الذي تولّته الدولة، وعممت ثمرته على الأمصار؛ فكان بأمر عمر بن عبد العزيز.

ومن الثمرات الطيبة ـ أيضاً ـ ذلك المنهج السديد الذي اتبعه أمير المؤمنين عمر، بوضع الأسس والنقاط الهامة أثناء التدوين، فكانت نواة لمنهج واسع متكامل جاء بعده.

---

(١) نقلاً عن مقدمة المسند ٢٠ و٢٣.

(٢) أصول الحديث ١٧٩.

وهذا كله ناتج من دقة فهمه، وغزارة علمه، ونفاذ بصيرته، وقبل ذلك وبعده توفيق الله تعالى له.

ولئن كان عمر بن الخطاب قد أشار على الصديق بجمع القرآن، ففعل، فكان لهما الفضل الكبير على الأمة. ثم جاء عثمان فجمع الناس على مصحف واحد، وحرف واحد، ولهجة واحدة هي لهجة قريش ـ فإن الله سبحانه قد ادّخر لعمر بن عبد العزيز تلك المنقبة العظيمة، والمكرمة الجليلة، في إصدار أوامر الخلافة بجمع السنة وتنقيحها وتدوينها. وجعل من واجبات الدولة حماية السنة التي هي المصدر الثاني للتشريع.

وهي سنة حسنة له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، فلولا التدوين لضاع الكثير من الحديث النبوي، خاصة في الأعصر الآخرة، بعد أن قلّ الحفظ والرواية والسماع، بل حتى الاهتمام بالحديث الشريف.

ولعمرَ بذلك منة عظيمة على الأمة، فجزاه الله عن الإسلام والسنّة والمسلمين خير الجزاء وأثابه أعظم الثواب.

وهذا من توفيق الله للعظماء وكبار المصلحين، عندما تخلص سرائرهم، يوفقهم الله للحق، ويدلّهم على الخيرات، ويسدّد خطواتهم، ويهيىء لهم من أمرهم رشداً.

ويعتبر «التدوين الرسمي» بحق أحد الأعمال العظيمة والإنجازات الكبيرة التي تحققت في عصر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وأرضاه.

قطوف من مروياته:

روت كتب السنة أحاديث كثيرة لعمر، ونسوق فيما يلي طرفاً منها، في موضوعات مختلفة، إتماماً لهذا الفصل، ولتتكامل الصورة حول شخصيته العلمية رحمه الله.

١ ـ عن عمر بن عبد العزيز عن عبد الله بن إبراهيم بن قارظ وابن

المسيّب، عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا قلتَ لصاحبكَ يوم الجمعة: أنصتْ ـ والإمام يخطب ـ فقد لَغَوْتَ»[1].

٢ ـ وعن عمر بن عبد العزيز عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، عن أبي هريرة قال: «سجدنا مع رسول الله ﷺ في: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾»[2].

٣ ـ وعن عمر بن عبد العزيز عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «مَنْ وَجَدَ متاعَه عند رجل قد أفلسَ بعينِه؛ فهو أحقُّ به».

وفي رواية أخرى: «مَنْ وجد عَيْنَ ماله بيدِ رجلٍ قد أفلسَ؛ فهو أحقُّ به ممن سواه من الغُرماء»[3].

٤ ـ وعنه أيضاً عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها «أن النبي ﷺ كان يُقَبِّلُها وهو صائم»[4].

٥ ـ وعنه ـ أيضاً ـ حدثني الربيع بن سَبْرَة الجُهَني عن أبيه أن رسول الله ﷺ نهى عن المُتْعَة، وقال: «ألا إنها حرامٌ من يومكم هذا إلى يوم القيامة، ومن كان أعطى شيئاً فلا يأخُذْه»[5].

---

(١) المسند: حديث رقم ٢١ ص ٧٤، والمناقب ٢٣. والحديث رواه مسلم والنسائي.

(٢) المسند: حديث رقم ٣١ ص ٩١، ٦٧ ص ١٢٩، ٦٩ ـ ٧٠ ص ١٣٢ ـ ١٣٤، والمناقب ص ٢٦. والحديث رواه مسلم وأصله في البخاري، ورواه أصحاب السنن الأربعة وغيرهم.

(٣) المسند: رقم ٣٢ ص ٩٢، ٤٣ ص ٩٧، وله طرق أخرى من رقم ٣٢ حتى ٤٧. والمناقب ٢٤. والحديث رواه الستة وغيرهم.

(٤) المسند: حديث رقم ٥١ ص ١٠٣ ـ ١٠٤. والحديث رواه مسلم والدارمي. ورواه أصحاب الكتب الستة وغيرهم من غير ذكر عمر بن عبد العزيز.

(٥) المسند: حديث رقم ٨٩ ص ١٧٣ ـ ١٧٤. والحديث رواه بهذا اللفظ مسلم والبيهقي. وقد كتب الحافظ في «الفتح» و«التلخيص الحبير» بحثاً قيماً وافياً في «تحريم نكاح المتعة».

٦ ـ وعن ابن الهادِ أن زياد بن أبي زياد ـ مولى ابن عيّاش ـ حدثه عن عِرَاكِ بن مالك سمعته يحدِّثُ عمَر بن عبد العزيز عن عائشة أنها قالت: جاءتني مسكينةٌ تحمل ابنتين لها، فأطعمتُها ثلاثَ تمراتٍ، فأعطتْ كلَّ واحدة منهما تمرةً، ورفعتْ إلى فيها تمرةً لتأكلَها، فاسْتَطْعَمَتْها ابنتَاها، فشقّتِ التمرة التي كانت تريد أن تأكلَها بينهما، فأعجبني شأنُها، فذكرتُ الذي صنعتْ لرسول الله ﷺ، فقال: «إنَّ الله قد أوجبَ لها بها بالجنةَ، أو أعْتَقَها بها من النار»[١].

٧ ـ وعن شيبة الحضرمي قال: «كنا عند عمر بن عبد العزيز، فحدَّثَنا عروةُ بن الزبير عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثٌ أحلفُ عليهنّ: لا يجعلُ الله ـ عز وجل ـ مَنْ له سهمٌ في الإسلام كمن لا سهم له، فأسهمُ الإسلام ثلاثة: الصلاة والصوم والزكاة. ولا يتولَّى اللهُ ـ عز وجل ـ عبداً في الدنيا فيوليَه غيرَه يوم القيامة. ولا يحبُّ رجلٌ قوماً إلا جعله الله ـ عز وجل ـ معهم. والرابعة لو حلفتُ عليها رجوت أنْ لا آثَمَ: لا يستر الله ـ عز وجل ـ عبداً في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة».

فقال عمر بن عبد العزيز: «إذا سمعتم مثلَ هذا الحديث من مثلِ عروةَ يرويه عن عائشة عن النبي ﷺ؛ فاحفظوه»[٢].

٨ ـ وعن عمر بن عبد العزيز عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، عن أم سلمة، عن خديجة بنت خويلد أنها قالت: «قلت لرسول الله ﷺ: يا ابن العم، أتستطيع إذا جاءك هذا الذي يأتيك أن

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ٢٠٢٧/٤، وأحمد في مسنده. وانظر تكملة المسند: حديث رقم ٢٨ ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

(٢) تكملة المسند: حديث رقم ٢٩ ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦. والحديث رواه الإمام أحمد في مسنده، وذكره المنذري في «ترغيبه» وقال: رواه أحمد بإسناد جيد، والهيثمي في «مجمع الزوائد» وقال: رجاله ثقات.

تخبرني به؟ فقال رسول الله ﷺ: (نعم). قالت خديجة: فجاءه جبرئيل عليه السلام ذات يوم وأنا عنده، فقال: (يا خديجة، هذا صاحبي الذي يأتيني قد جاء). فقلت له: قمْ فاجلسْ على فخذي، فجلس عليها، فقلت: هل تراه؟ قال: (نعم). فقلت: تحوَّلْ فاجلسْ على فخذي اليسرى، فجلس، فقلت: هل تراه؟ قال: (نعم). قالت خديجة: فتحسَّرتُ فطرحتُ خماري، فقلت: هل تراه؟ قال: (لا)! فقلت: هذا والله مَلَكٌ كريم، لا والله ما هذا شيطان»[1].

٩ ـ وعن عمر بن عبد العزيز عن أبيه عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا خشيَ أحدُكم نسيانَ القرآن فليقلْ: اللهم ارحمني بترك المعاصي أبداً ما أَبْقَيْتَني، وارحمني بترك ما لا يَعْنيني، وارزُقْني حسنَ النظر فيما يرضيكَ عني، وأَلْزِمْ قلبي حفظَ كتابك كما علَّمتني، ونوِّرْ به بصري، واشرحْ به صدري، واجعلْني أتلوه كما يُرضيكَ عني، وافتحْ به قلبي، وأَطْلِقْ به لساني»[2].

نماذج من فقهه وفتاويه:

كان فقه عمر ـ وهو التابعي الجليل ـ يتجه إلى فهم روح التشريع العامة، وإدراك علل الأحكام، ومقاصد الشرع، والتزام ما أرشد إليه القرآن والسنّة، وحمل الناس على ذلك، وكل ذلك واضح من هَدْيه وسيرته وكتبه إلى أمراء الأمصار.

---

(١) تكملة المسند: حديث رقم ٥٢ ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ والحديث رواه أبو نعيم في «دلائل النبوة» وفي آخره شعر لورقة بن نوفل، وذكره الهيثمي ـ عدا الشعر ـ في «مجمع الزوائد» وقال: رواه الطبراني في الأوسط، وإسناده حسن.

(٢) هكذا ذكره ابن الجوزي في «مناقب عمر» ص ٣٠ ـ ٣١، وهو جزء من حديث دعاء حفظ القرآن الذي رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم . وانظر تكملة المسند: حديث رقم ٦٧ ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤ .

من ذلك ما رواه الدارمي بسنده عن الأوزاعي قال: «كَتَبَ عمر بن عبد العزيز أنه لا رأيَ لأحدٍ في كتاب الله، وإنما رأيُ الأئمة فيما لم يَنزلْ فيه كتابٌ ولم تمضِ به سنّةٌ من رسول الله ﷺ. ولا رأيَ لأحدٍ في سنّة سنّها رسولُ الله ﷺ».

وعند الدارمي ـ أيضاً ـ أن عمر بن عبد العزيز خطب فقال: «يا أيها الناس، إن الله لم يبعث بعد نبيّكم نبياً، ولم يُنْزِلْ بعد هذا الكتاب الذي أنزله عليه كتاباً. فما أحلَّ الله على لسانِ نبيِّه فهو حلالٌ إلى يومِ القيامة، وما حَرَّم على لسان نبيه فهو حرام إلى يوم القيامة. ألا وإني لستُ بقاضٍ ولكني منفّذ، ولستُ بمبتدع ولكني متَّبِعٌ، ولستُ بخير منكم غير أني أثْقَلُكُمْ حِمْلاً. ألا وإنه ليس لأحدٍ من خلقِ الله أن يُطاع في معصية الله. ألاَ هلْ أَسْمَعْتُ»[1].

وأما في فقه الفروع: فكان دقيق الفهم فيه، خبيراً باستنباطه من مصادره، بارعاً في معرفة مدلولاته، حتى وُصِف بأنه «إمام مجتهد».

ومن آرائه الفقهية:

١ ـ نهيه عن الطِّلاء، وهو النبيد المسكِر المتخذ من غير العنب[2]:

قال ابن عَوْن: «كان ابن سيرين إذا سُئِلَ عن الطِّلاء، قال: نهى عنه إمامُ هدىً. يعني عمرَ بن عبد العزيز».

وقد قال عمر في ذلك: «ثم إن الطلاء لا خير فيه للمسلمين، وإنما هو الخمر يكنى باسم الطلاء، قد جعل الله عنه مندوحة وأشربة كثيرة طيبة.... ونرى أن يتنزه المسلمون عنه عامة، وأن يحرّموه، فإنه من

---

(١) سنن الدارمي ١/١٢٥ ـ ١٢٦، الفضل المبين ٢٣٨.
(٢) الحلية ٥/٢٥٧، المناقب ٧٤، سير أعلام النبلاء ٥/١٣٠، تاريخ الإسلام ١٩٧، ابن عبد الحكم، نقلاً عن «عمر» للزحيلي ٧٢.

أجمع الأبواب للخطايا وأخوفها عندي أن تصيب المسلمين منه جائحة تعمهم».

٢ ـ لا يجهر بالبسملة في الصلاة:

عن عبد الحكيم بن عبد الله بن أبي فَرْوة قال: «كان عمر بن عبد العزيز يؤمّنا بالمدينة، فلا يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم»[١].

٣ ـ سجود السهو بعد السلام:

عن محمد بن مهاجر «أنه سمع الزهري يقول لعمر بن عبد العزيز ـ يعني في سجدتي السهو ـ: هما قبل السلام. قال: فأبى عمر، وقال: أخبرَنا ذلك يا ابن شهاب أبو سلمة بن عبد الرحمن. يعني في سجدتي السهو».

وفي رواية أخرى: عن محمد بن المهاجر عن أخيه عمرو بن المهاجر أن الزهري قال لعمر بن عبد العزيز: «السجدتان قبل السلام. فقال له: أبى ذلك علينا أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف»[٢].

وهذا من تمام التزام عمر بما سمعه من الثقات، ومن كمال فقهه إذ يصرّ على مخالفة الزهري وهو من هو!

٤ ـ عَظْم الميتة نجس:

عن أم ولد عمر بن عبد العزيز قالت: «سألني عمر دهناً، فأتيته به وبمشط من عظام الفيل، فردّه وقال: هذه ميتة. قلتُ: وما جعله ميتة؟ قال: ويحك! من ذبح الفيل»[٣]؟

---

(١) الطبقات ٥/٣٣٥.

(٢) المسند: حديث رقم ٦٨ ص ١٣١ ـ ١٣٢ مع الهوامش. وقد صح عن النبي ﷺ السجود للسهو قبل التسليم أو بعده، انظر مثلاً: الدراية في تخريج أحاديث الهداية ١/٢٠٦ ـ ٢٠٨، التلخيص الحبير ٢/٣ ـ ٧، فقه السنة ١/٢٢٥.

(٣) الطبقات ٥/٤٠١. وهذه مسألة خلافية، قال الزهري في عِظام الموتى ـ نحوَ الفيل =

٥ ـ استئلافه بالمال على الإسلام:

عن عيسى بن أبي عطاء ـ رجل من أهل الشام كان على ديوان أهل المدينة ـ عن عمر بن عبد العزيز أنه ربما أعطى المال من يُسْتَأْلف على الإسلام.

وقد أعطى بِطْريقاً ألف دينار استألفه على الإسلام[1].

٦ ـ استتابة المرتد:

عن ربيعة بن عطاء عن عمر بن عبد العزيز قال: «يُسْتَتاب المرتدُّ ثلاثةَ أيامٍ، فإن تابَ وإلّا ضُربت عنقه»[2].

٧ ـ نكاح امرأة الأسير:

روى ابن سعد بسنده عن عمر بن عبد العزيز قال: «لا تُنْكَحُ امرأةُ الأسيرِ أبداً ما دام أسيراً»[3].

٨ ـ ليس في العسل زكاة:

قال البخاري: «ولم ير عمر بن عبد العزيز في العسل شيئاً».

وقد رواه مالك في «الموطأ» عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم قال: «جاء كتاب من عمر بن عبد العزيز إلى أبي ـ وهو بمنىً ـ ألا تأخذ من الخيل ولا من العسل صدقة».

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد الرزاق بإسناد صحيح إلى نافع مولى ابن عمر قال: «بعثني عمر بن عبد العزيز على اليمن، فأردت أن آخذ من

= وغيره ـ : «أدركتُ ناساً من سَلَفِ العلماء يَمْتَشطون بها، ويدّهِنُونَ فيها، لا يَرونَ به بأساً». رواه البخاري، انظر بالتفصيل: الفتح ١/٣٤٢ ـ ٣٤٣، فقه السنة ١/٢٤.

(١) الطبقات ٥/٣٥٠.

(٢) الطبقات ٥/٣٥١، وانظر أقوال الأئمة في ذلك في فقه السنة ٢/٤٥٧ ـ ٤٥٩.

(٣) الطبقات ٥/٣٥١.

العسل العشر، فقال مغيرة بن حكيم الصنعاني: ليس فيه شيء. فكتبت إلى عمر بن عبد العزيز، فقال: صدق، هو عدل رضا، ليس فيه شيء»[1].

٩ ـ يرى الزكاة في الحمص والعدس والقطاني:

عن يحيى بن سعيد عن عمر بن عبد العزيز أنه كتب «أن يؤخذ من الحمص والعدس الزكاة».

وعن يزيد بن أبي مالك عن أبيه عن عمر بن عبد العزيز «أنه كان في سجله: ويؤخذ من القَطَانيّ على نحو مما يؤخذ من القمح والشعير والسُّلْت»[2].

١٠ ـ ربح التاجر لا زكاة فيه حتى يحول عليه الحَوْل:

عن قطن بن فلان قال: «مررت بواسط زمن عمر بن عبد العزيز فقالوا: قرىء علينا كتاب أمير المؤمنين: أن لا تأخذوا من أرباح التجار شيئاً، حتى يحول عليها الحول».

وعن ابن عون قال: «أتيت المسجدَ، وقد قرىء الكتاب، فقال صاحب لي: لو شهدت كتاب عمر بن عبد العزيز في أرباح التجار أن لا يعرضَ لها حتى يحول عليها الحول»[3].

---

(١) فتح الباري ٣/ ٣٤٧ ـ ٣٤٨، الأموال ٢٠٠. وذكر الحافظ خبراً آخر فيه «أن عمر يرى في العسل العشر»، وضعَّف إسناده، وذكر أن الثابت عن عمر أنه لا زكاة فيه. وانظر للمزيد: فقه السنة ١/٣٦٢ ـ ٣٦٣.

(٢) الأموال ١٩١. وانظر ١٩٠ وفقه السنة ١/٣٤٧ ـ ٣٦١، للمزيد من التفصيل وآراء الأئمة الآخرين. والسُّلْت: ضرب من الشعير ليس له قشر، يشبه الحنطة. والقَطَانيّ: جمع، مفرده قُطْنِيَّة، وهو ما يُدَّخَر في البيت من الحبوب ويطبخ، كالعدس.

(٣) ورأي الإمام مالك أن يضم الربح إلى أصل المال. قال أبو عبيد: «وهو عندنا على ما قال عمر بن عبد العزيز: أن لا زكاة في الربح أيضاً، حتى يحول عليه الحول، وقد =

١١ ـ صدقة الجواميس:

عن ابن شهاب أن عمر بن عبد العزيز كتب: «أن تؤخذ صدقة الجواميس كما تؤخذ صدقة البقر»[(١)].

١٢ ـ سهم الرسول والبريد والوكيل:

روى ابن سعد بسنده عن عمر بن عبد العزيز قال: «الرسول والبريد والوكيل يُبْعَثون من العسكر يُجْرى لهم سهامهم مع المسلمين»[(٢)].

١٣ ـ إسقاط الجزية عن الذمي إذا أسلم قبيل استحقاقها:

عن عمرو بن المهاجر عن عمر بن عبد العزيز في الذمِّي يُسْلِمُ قبل السنة بيوم، قال: «لا تُؤْخذ منه الجزية». وعن سُويد بن حُصَين عن عمر ابن عبد العزيز أنه كتبَ: «إذا أسلمَ والجزية في كفَّةِ الميزان فلا تُؤْخَذ منه»[(٣)].

قضاؤه وأحكامه:

لقد كانت رواية عمر للأحاديث قائمة على حفظ متونها وفقه معانيها، وكان فقهه بعيد الغور، عميق النظر محاطاً بالورع والتقوى

= كان الليث يقول نحو هذا».

وأما التاجر الذي «يستفيد الشيء بعد الشيء في الأيام من الأرباح أو غيرها، فيأتي عليه الحول وهو لا يحصي ما مضى من فوائده، ولا يقف على أوقاتها؛ فهذا الذي يضم بعض ماله إلى بعض، ثم يزكيه كله، لأنه لا يقدر على زكاة المال الأول إلا بهذا الفعل، فأُمِرَ أن يأخذ في ذلك بالاحتياط، فيزكيه أجمع. فأما من تبين له مال أفاده بعينه قبل الحول، وعلم مبلغه ووقته؛ فما بال هذا يضيفه إلى الأول؟ وإنما السنة أن لا زكاة في مال إلا بعد الحول». باختصار من «الأموال» ص ١٦٩.

(١) الأموال ١٥٨. قال أبو عبيد: «فإذا خالطت البقرَ جواميس فسنَّتها واحدة». أي إذا كانت من الصنفين ضُمَّ أحدهما إلى الآخر في العدد، ثم أخذت الزكاة منهما.

(٢) الطبقات ٥/٣٥٣.

(٣) الطبقات ٥/٣٥٦، وانظر الأموال ٢٨.

والالتزام، مبنياً على فهم روح الشريعة وأغراضها وغاياتها. وقد نتج عن ذلك رأي سديد في الأحكام، وصواب في القضاء وفضّ الخصومات والفصل بين الناس.

وليس أبلغ دلالة على ذلك من هذه الرواية التي رواها الإمام الليث ابن سعد، قال: «حدثني قادِمٌ البربري أنه ذاكر ربيعة بن أبي عبد الرحمن شيئاً من قضاء عمر بن عبد العزيز إذ كان بالمدينة، فقال ربيعة: كأنك تقول: أخطأ، والذي نفسي بيده ما أخطأ قط»[1]!

وهذه شهادة عظيمة من الإمام المجتهد الحافظ ربيعة الرأي[2] رحمه الله تعالى.

ـ ومن كمال فقهه وتمام ورعه وتحوطه في قضائه، ما ذكره الإمام الأوزاعي «أن عمر بن عبد العزيز كان إذا أراد أن يُعاقِبَ رجلاً حبسه ثلاثة أيام ثم عاقبه، كراهية أن يَعْجَلَ في أول غضبه»[3].

ـ وكان متواضعاً في ذلك، يسهل عليه التراجع عن الخطأ، إذا استبان له وجه الحق.

عن عبد الرحمن بن الحسن بن القاسم الأزرقي، عن أبيه أنه كان عند عمر بن عبد العزيز ونفر من قريش يختصمون إليه، فقال المقضيّ عليه: أصلحك الله، إن لي بيِّنة غائبة. فقال عمر: إني لا أؤخّر القضاء بعد أن رأيتُ الحقَّ لصاحبه، ولكن انطلق أنت فإن أتيتَني ببيِّنة وحقّ هو أحقّ من حقّهم؛ فأنا أول مَنْ ردَّ قضاءه على نفسه»[4].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥/١١٨، البداية والنهاية ٩/١٩٤.

(٢) هو الإمام الفقيه، مفتي المدينة، وأحد أوعية العلم وأئمة الاجتهاد، مشهور بربيعة الرأي. انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ٦/٨٩، وغيره.

(٣) مختصر ابن عساكر ١١٦، سير أعلام النبلاء ٥/١٣٣، تاريخ الإسلام ١٩٨، تاريخ الخلفاء ٢٣٦.

(٤) الطبقات ٥/٣٨٦.

وروى مالك عن يحيى بن سعيد وربيعة بن أبي عبد الرحمن قالا: «كان عمر بن عبد العزيز يقول: ما من طينةٍ أهون علي فتّاً، ولا من كتاب أيسر عليَّ رَدّاً، من كتابٍ قضيتُ به ثم أبصرتُ أن الحق في غيره؛ فَفَتَتُّها»[1].

ـ ومن أمثلة ذلك ما رواه الإمام الشافعي بسنده عن مَخْلَد بن خُفاف قال: «ابتعتُ غلاماً فاسْتَغْلَلْتُه، ثم ظهرتُ منه على عيب، فخاصمتُ فيه إلى عمر بن عبد العزيز، فقَضَى لي بردِّه، وقضى عليَّ بردِّ غَلَّته. فأتيتُ عروة فأخبرتُه، فقال: أروحُ إليه العشيّة، فأخبره أن عائشة أخبرتني أن رسول الله ﷺ قضى في مثلِ هذا: أن الخَرَاجَ بالضَّمان. فعجلتُ إلى عمر، فأخبرتُه ما أخبرني عروةُ، عن عائشة عن النبي، فقال عمر: فما أيْسَرَ عليّ من قضاء قضيْتُه، اللهُ يعلم أني لم أُرِدْ فيه إلا الحق، فبلغَتْني فيه سنة عن رسول الله، فأردُّ قضاءَ عمَر، وأُنَفِّذُ فيه سنة رسول الله. فراح إليه عروة، فقضى لي أن آخذَ الخَراجَ من الذي قضى به عليَّ له»[2].

علمه بالشعر ونماذج من شعره:

لقد عاصر ابن عبد العزيز فحول شعراء العصر الأموي، وجلس إليهم، واستمع لهم، وكانت لا تفوته المطارحات الشعرية في مجلس عمه عبد الملك، كما اطلع على أدب العرب وأشعارهم، فتخيَّر منها ما يرضى به الشرع، ويناسب طبيعته الأوابة التقية. فحفظ الكثير ونبغ في ذلك حتى صار شاعراً مرموقاً، ولقد قال عن نفسه: «ثم تاقت نفسي إلى العلم بالعربية والشعر؛ فأصبت منه حاجتي».

---

(١) المناقب ٩٣.

(٢) رواه الإمام الشافعي في «الرسالة»، والبيقهي في «سننه» من طريق الشافعي، ورواه أصحاب السنن وغيرهم من غير ذكر عمر بن عبد العزيز فيه. وهو حديث صحيح. انظر: تكملة المسند: حديث رقم ٥ ص ١٩٣، وتعليق العلامة أحمد شاكر على «الرسالة».

وقد ذكرتْ له كتب الأدب والتراجم أشعاراً رائقة رائعة ذائعة، غاية في المروءة والتعفف والنبل وكرم الأخلاق، تدور حول مواضيع سامية، وذات أغراض تربوية هادفة: في النفس، والأخلاق، والعمل الصالح، والاستعداد للآخرة، والرثاء الصادق الذي لا مبالغة فيه.

ـ ففي الأخلاق ينعى على من تخيَّر بعض الخلال القبيحة، فيقول[1]:

كأنْ قد شهدتَ الناسَ يوم تقسَّمت ... خلائقُهم فاخترتَ منهنَّ أربعَا

إعارةَ سمعٍ كلَّ مغتابِ صاحبٍ ... وتأبى لعيبِ الناسِ إلا تَتَبُّعَا

وأعجبُ من هاتينِ أنكَ تدَّعي السَّـ ... ـلامةَ من عيبِ الخلائقِ أجمعَا

وأنكَ لو حاولتَ فعلَ إساءةٍ ... وكُوفئتَ إحساناً، جحدتَهما معا

ـ وفي منح الصفاء للأصدقاء يقول[2]:

إنّى لأمنحُ مَنْ يُواصِلُني ... منّي صفاءً ليس بالمَذْقِ

وإذا أخٌ لي حالَ عن خُلُقٍ ... داويتُ منه ذاكَ بالرِّفقِ

والمرءُ يصنعُ نفسَه ومتى ... ما تَبْلُهُ يَرْجعْ إلى العِرْقِ

ـ ويقول في الازدجار عن الغي واتباع الهوى[3]:

إنْهَ الفؤادَ عن الصِّبا ... وعنِ انقيادٍ للهَوى

ولعمرُ ربِّكَ إنَّ في ... شيبِ المفارقِ واللِّحى

لَكَ واعظاً إن كنتَ تَتَّـ ... ـعِظُ اتعاظَ أُولي النُّهى

حتّى متى لا تَرْعَوي؟ ... حتّى متى، وإلى مَتى؟!

(١) مختصر ابن عساكر ١٢٤، المناقب ٢٦٦.
(٢) مختصر ابن عساكر ١٢٤، المناقب ٢٦٧.
(٣) المناقب ٢٦٧ ـ ٢٦٨، تاريخ الخلفاء ٢٤٤.

مـــا بعـــد مـــا سُمِّيت كَهْـ ـلًا واستُلِبْتَ اسمَ الـفَتـى؟
بَـلِيَ الـشـبـــابُ وأنـتَ إنْ عُـــمِّـرتَ؛ رهْـنٌ لـــلبِـــلى
وَكَـــفـــى بــذلـــكَ زاجِـراً لـلمـــرءِ عن غـيٍّ، كَـفـى!

- ويبين أن الموت غاية كل حي، في بيتين رقيقين عَـذْبَيْن، فيقول [1]:

أنا ميتٌ وعزّ مَنْ لا يمـوتُ قــد تَيقّنْتُ أنّني سـأمــوتُ
ليسَ ملكٌ يزيلُهُ الموتُ مُلْكاً إِنّما المُلْكُ مُلْكُ مَنْ لا يموتُ

- ويذكّر الذين أَلِفوا النعيم والظلال بمثواهم في القبر؛ يحضهم على العمل لذلك المنزل والاستعداد لما بعده، فيقول[2]:

مَنْ كانَ حينَ تُصيبُ الشمسُ جبهتَهُ أو الغبارُ يخافُ الشَّيْنَ والشَّعَثا
ويألَفُ الظِّلَ كي تبقى بَشَاشَتُهُ فسوفَ يسكنُ يوماً راغِماً جَدَثا
في قَعْرِ مُظْلِمَـةٍ غبراءَ مـوحِشَةٍ يطيلُ في قعرِها تحتَ الثَّرى اللَّبَثَا
تجهَّــزي بجهـازٍ تَبْلُغِـينَ بــهِ يا نفسُ قبلَ الرَّدى، لمْ تُخْلَقِي عَبَثا

- ويؤكد أن هذه الدنيا ليست بدار قرار، بل هي إلى زوال، فيقول[3]:

وَلَا خَيْـرَ في عيشِ امْرىءٍ لم يكـنْ لهُ مـنَ اللهِ في دارِ القـرَارِ نَصِيـبُ
فإِنْ تُعْجِـبِ الدّنـيا أُناساً فإِنّها مَتَـاعٌ قليـلٌ، والـزَّوَالُ قـريـبُ

- لذا تراه يدعو إلى التيقظ وعدم الغفلة، ويحض على استباق

---

(١) المناقب ٢٧٠، البداية والنهاية ٩/٢٠٦.
(٢) سير أعلام النبلاء ٥/١٣٨، المناقب ٢٦٢ - ٢٦٣.
(٣) المرجعان السابقان: نفس الموضع، مختصر ابن عساكر ١٢٣.

الخيرات، في الليل والنهار، وما أجمل تعبيره عن ذلك إذ يقول[1]:

أَيَقْظَانُ أنتَ اليومَ، أمْ أنتَ نائمُ؟ وكيفَ يطيقُ النومَ حَيْرانُ هائمُ؟
فلَوْ كنتَ يقظانَ الغداةَ لخرَّقَتْ مدامعَ عينيكَ الدموعُ السَّوَاجِمُ
تُسَرُّ بمَا يَبْلَى وتفرحُ بالمُنى كَما اغترَّ باللذَّاتِ في النوم حالِمُ
نهارُكَ يا مَغْرُورُ سَهْوٌ وغَفْلَةٌ ولَيْلُكَ نومٌ والرَّدى لكَ لازِمُ
وسَعْيُكَ فيما سوف تكرهُ غِبَّهُ كذلكَ في الدنيا تعيشُ البَهَائِمُ!

ومما تمثّل به من الشعر:

- لما انصرف عمر عن قبر سليمان بن عبد الملك، صفَّت له مراكب سليمان، فقال متمثِّلاً[2]:

فَلَوْلَا التُّقى ثم النُّهى خشيةَ الرَّدى لَعَاصَيْتُ في حبِّ الصِّبا كلَّ زاجرِ
قَضى ما قَضى فيما مَضى، ثم لا تُرَى لهُ صَبْوَةٌ أُخرى الليالي الغَوَابِرِ

- وذات مرة كان الإمام الشعبي واقفاً على رأس عمر، فأطال الوقوف، فقال: إنك لواقف يا شعبي؟ فقال: إني لواقف. فقال عمر: خذ إليك يا شعبي، فقال[3]:

هبِ الدُّنيا تُزَفُّ إليكَ زَفّا زفافَ عرائسٍ باكرنَ قَصْفا
وقد مُلِّكْتَها شرْقاً وغَرْباً حويتَ بجمعها برّاً وطَفّا[4]

---

(١) مختصر ابن عساكر ١٢٣، سير أعلام النبلاء ٥/١٣٨، الحلية ٥/٣١٩-٣٢٠، المناقب ٢٦١، البداية والنهاية ٩/٢٠٦. وغب الشي: عاقبته.
(٢) الطبقات ٥/٣٤٠، المناقب ٢٦٨، سير أعلام النبلاء ٥/١٢٧، تاريخ الإسلام ١٩٤.
(٣) المناقب ٢٦٩.
(٤) الطفّ: الشاطىء.

يجئْنَ بـألفِ ألفٍ كل يـومٍ ... ويتبـعُ ألفهـا سبعــونَ ألْفـا
إذا عـاديتَ قـومـاً في بـلادٍ ... أتيتَ على جميعِ الناسِ عَسْفَا
ألستَ مُـلاقياً لا شـكَّ فيـه ... ـ وإن عُمِّرتَ طولَ الدّهْرِ ـ حَتْفَا
فمـا تَرْجُـو بدارٍ قـد تَراهـا ... بكـلِّ سُـرورهـا أبـداً تكَفّـا[1]

ـ ولنختم هذا الفصل بهذه الأبيات في البِشْر وطلاقة الوجه، التي كان يتمثل بها رحمه الله[2]:

الْقَ بالبِشْرِ مَنْ لقيتَ من النـ ... ـاس جميعاً، وَلاَقِهِمْ بالطَّلاَقَهْ
تَحْـو منهمْ بـهِ جنـاءَ ثمـارٍ ... طيِّبـاً طعْمُهُ لـذيذَ المَـذَاقَـهْ
وَ دَعِ التِّيهَ والعبوسَ على النّـ ... ـاس فإنَّ العبوسَ رأسُ الحَمَاقَهْ
كلَّما شئتَ أن تُعادي عادَيْـ ... ـتَ صدِيقاً وقدْ تَعُزُّ الصَّدَاقَهْ

* * *

ذلكم هو الرجل في نشأته العلمية، وطلبه العلم، ونبوغه فيه، ومن ثم قيامه بنشره وتدوينه.

وتلكم هي بعض الإيماءات والإشراقات في شخصيته العلمية، وبعض الملامح عن غزارة علمه، وفقهه، وبراعته في الشعر.

فأين هو بين الربانيين والصديقين، والعباد والزهاد؟ وكيف كانت عبادته لربه، وأخلاقه ومعاملته للناس، وغاياته وأهدافه؟

لنتابع السير مع هذا الرجل الكبير، في حياته الحافلة المليئة بالدروس والعبر، ولننظر في جانب آخر من شخصيته الفذة، ألا وهو «عبادته وأخلاقه».

---

(١) تكفّا ـ بتسهيل الهمزة لضرورة الشعر ـ أي تكفَّأ: تنقلب وتتغير.
(٢) المناقب ٢٧١.

الفَصل الثالث
عِبَادَتُهُ وَأَخْلاقُهُ

أصالة أخلاقه وفضائله:

كان مفتاح شخصية عمر تلك «النفس التوّاقة» التي كانت دائمة التطلع والسعي إلى أوج المكارم والفضائل، فما تبلغ منزلة إلا تاقت إلى ما هو خير منها، وأعلى مكاناً، وأحسن رئياً. ولقد عبر هو عن نفسه فقال: «كانت لي نفس توّاقة، فكنت لا أنال شيئاً إلا تاقت إلى ماهو أعظم منه، فلما بلغت نفسي الغاية، تاقت إلى الآخرة». وعن سعيد بن عامر عن جويرية بن أسماء قال: قال عمر: «إن نفسي هذه توّاقة، لم تعطَ من الدنيا شيئاً إلا تاقت إلى ماهو أفضل منه، فلما أعطيت الخلافة التي لا شيء أفضل منها، تاقت إلى ماهو أفضل منها». قال سعيد: الجنة أفضل من الخلافة(١).

لقد نشأ عمر نشأة طاهرة صالحة، فلما جاءه الشباب، ومن بعد الشباب الرجولة، كانت أخلاقه وفضائله العالية قد وُضع أساسها في رسوخ وثبات على تقوى من الله.

وفي فترة الشباب ـ بما فيها من طموح ـ تؤثر الكفايات والمواهب أن تنطلق لتعبر عن نفسها، بعيداً عن تأثير الفضائل التي تحاول الأخذ

---

(١) الحلية ٥/٣٣١، المناقب ٨١، سير أعلام النبلاء ٥/١٣٤، تاريخ الإسلام ١٩٩، شذرات الذهب ١/١٢٠.

بزمامها، وكبح جماحها. لكن ابن عبد العزيز كان من طراز فريد، فمواهبه التي تتقد في نفسه وتمور موراً؛ كانت في قبضة فضائله، توجهها الوجهة الصحيحة السليمة المستقيمة، ذلك أن شخصيته أسست على أصول راسخة، وتكاملت على نسق فذ. إن فضائله التي تفتحت براعمها في طفولته، أخذت الآن تغادر تلك البراعم لتفوح بعبيرها، وتملأ ساحة الشباب الواسعة العريضة، فتوسعت آفاقها وتعبيراتها وانعكاساتها في حياة الشاب والرجل والخليفة.

وتلك الفضائل والمكارم لم تكن أسيرة جوّ معين موقّت، ولا ردة فعل عن رغبات مكبوتة، ولا مظاهر عارضة تعصف بها عوارض الأيام، وتغشّيها زخارف النعيم ومباهج الحياة؛ لا، بل إنها كانت تنبع من معين لا ينضب، وتتفجر من أصول ممتدة تتصل بابن الخطاب بسبب وثيق، وترضع من تقوى الفتاة الهلالية، وتنمو على عين شيخ الصحابة الأجل ابن عمر!

لقد كان رجلاً فَرْداً تكاملت فيه عناصر الرجولة الحقة، والتدين القويم، والأخلاق العالية الكريمة، التي تربت على كتاب الله منذ الصغر، ونهلت من معين السنّة، وعاشت في كنف العلماء الأتقياء، والزهاد العباد. فتوثقت بين عمر وبين هذه العوامل أواصر الحب والاقتداء، وتنامت وشائج الصلة معها؛ فجمع بين العلم والعمل.

كان بحقّ إنساناً ربانياً في شبابه وكهولته، عندما كان واحداً من المسلمين، وإبان ولايته للحرمين، وحين أضحى خليفة المسلمين.

وكان صارماً في اتباع منهج الله تعالى، ملتزماً الحق في تطبيقه على نفسه وأهله وأقاربه والناس أجمعين.

تلك هي الأخلاق الأصيلة التي لا تتغير بتغيير الأطوار، ولا تتلوّن حسب الزمان والمكان، ولا تضطرب موازينها بين حين وآخر، أو موقف وآخر.

وإن شوقنا لرؤية تلك الأخلاق ليكاد يقفز بنا، لكن علينا أن نستأني، ونصابر أشواقنا؛ حتى لا تغيب عنا بعض معالم شخصيته، ولا يفوتنا بعض ملامح الصورة المتكاملة لهذا الرجل العظيم.

صلاته:

كان في صلاته على قدم الصحابة خشوعاً وخضوعاً، قراءة وقياماً وقعوداً، وإتماماً للركوع والسجود، حتى كان يُشَبَّه برسول الله ﷺ، شهد له بذلك الصحابي الجليل أنس بن مالك، وقد صلى وراء عمر عندما كان أميراً على المدينة.

عن زيد بن أسلم قال: قال أنس رضي الله عنه: «ما صلَّيتُ وراء إمامٍ بعدَ رسول الله ﷺ أشبه صلاةً برسول الله من هذا الفتى، يعني عمَر ابن عبد العزيز، وكان عمر أميراً على المدينة. قال زيد بن أسلم: فكان يُتِمُّ الركوعَ والسجودَ، ويُخفِّفُ القيامَ والقعودَ»[1].

ويصف الضحاك بن عثمان صلاة عمر فيقول: «فكنت أصلي وراءه، فيُطيل الأوَّلتين من الظهر ويخفِّف الآخرتين، ويُخِفّ العصر، ويقرأ في المغرب بقصار المُفَصَّل، ويقرأ في العشاء بوسط المفصَّل، ويقرأ في الصبح بطوال المفصَّل»[2].

وصحَّ عنه أنه كان يسبّح في الركوع والسجود عشراً عشراً[3]. وقد ذكر ابن الجوزي مسنداً عن سعيد بن جبير قال: «سمعت أنساً يقول: ما رأيت أحداً أشبه صلاة برسول الله ﷺ من هذا الغلام ـ يعني عمر بن عبد

---

(١) أخرجه النسائي والبيهقي. انظر سير أعلام النبلاء ٥/١١٩، تاريخ الإسلام ١٩٠، تهذيب التهذيب ٧/٤١٩، مختصر ابن عساكر ١٠٣، الطبقات ٥/٣٣٢، المناقب ٣٤ ـ ٣٥.

(٢) الطبقات ٥/٣٣٢. والمفصل: من سورة (ق) إلى آخر المصحف الشريف.

(٣) البداية والنهاية ٩/١٩٤.

العزيز ـ . فحرَّرنا عشر تسبيحات في ركوعه، وعشـر تسبيحات في سجوده»[1].

وكان يحرص على الصلاة لوقتها، ولا يؤخرها، متبعاً في ذلك سنة رسول الله ﷺ. فعن سليمان بن موسى قال: «رأيت مؤذن عمر بن عبد العزيز ـ وهو خليفة ـ بخُناصرة يسلِّم على بابه: السلام عليك أمير المؤمنين ورحمة الله. فما يَقْضي سلامه حتى يخرج عمر إلى الصلاة»[2].

وعن الأوزاعي قال: «كان لعمر بن عبد العزيز خَوْخَة مما يلي المغرب، فكان إذا أبطأ عليه المؤذن للمغرب، بعث إليه أن: أذِّن، فقد حضر الوقت»[3].

ـ وأما عن خشوعه في صلاته، فيكفي للتعبير عنه ما ذكره ابن الجوزي قال: «لما رفع عمر بن عبد العزيز رأسه من السجود، خلف المقام، نظروا إلى موضع سجوده مبتلاً من دموعه»[4].

قيامه الليل:

الليل له وقعه على النفوس والأرواح، والسَّحَـر له إيحـاءات وتأثيرات، خَبَرَهَا الصالحون، وتذوق حلاوتها العبَّاد والربانيون؛ فأحيوها وأكثروا الجلوس والعبادة والاستغفار فيها. وقد لفت القرآن العظيم الأنظار إليها، وحضّ على شهودها واكتساب الخيرات منها، فقال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ ﴿كَانُوا قَليلاً مِنَ الَّليلِ ما يَهْجَعُونَ. وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

---

(١) المناقب ٣٥.
(٢) الطبقات ٥/٣٥٩.
(٣) المناقب ٢١١. الخَوْخَة: كوَّة في البيت تؤدِّي إليه الضوء. أو باب صغير كالنافذة الكبيرة، وتكون بين بيتين يُنصب عليها باب.
(٤) المناقب ٢١٨.

فكان عمر بن عبد العزيز واحداً من أولئك الربانيين الذين فقهوا ما لتلك الساعات من مكانة، وما فيها من بركات ونعماء وفيوضات؛ فرتع في روضاتها، وأكثر من القيام في رياضها، وذرف الدموع السواجم في أنوارها، حتى قال علي بن زيد: «ما رأيت رجلين كأن النار لم تخلق إلا لهما، مثل الحسن وعمر بن عبد العزيز»[1].

ويفتتح ليله بقراءة آيات تذكره بالقيام والتهجد، كتلك التي تحذر من الغفلة عن الله. روى ابن سعد ـ بسنده ـ عن أبي سِنان قال: «كان عمر بن عبد العزيز إذا قدم بيت المقدس نزل الدار التي أنا فيها، ثم قال: يا أبا سنان، لا يطبخنَّ أحد من أهل الدار حتى أخرج. وكان إذا أوى إلى فراشه قرأ بصوت له حسن حزين: ﴿إنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الّـذي خَلَقَ السموات والْأَرْضَ﴾ إلى آخر الآية، ثم يقرأ: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ القرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وهُمْ نائِمونَ. أو أَمِنَ أهلُ القُرى أنْ يَأْتِيَهُمْ بأسُنَا ضُحىً وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾. ويتتبع نحو هذه الآيات»[2].

ـ ويحدّث المُغيرة بن حكيم فيقول: قالت لي فاطمةُ بنت عبد الملك امرأة عمر بن عبد العزيز: «يا مغيرة، إنه يكون في الناس مَنْ هو أكثر صلاةً وصياماً من عمر بن عبد العزيز، وما رأيتُ أحداً قطّ أشدَّ فَرَقاً من ربّه من عمر، كان إذا صلى العشاءَ قعد في مسجده، ثم يرفعُ يديه، فلم يزل يبكي حتى تغلبه عينُه، ثم ينتبهُ، فلا يزالُ يدعو رافعاً يديه يبكي حتى تغلبه عينُه. يفعل ذلك ليلَه أجمعَ»[3].

ـ وروى أبو نعيم ـ بسنده ـ عن صالح بن سعيد المؤذّن قال: «بينا أنا

---

(١) مختصر ابن عساكر ١٢٢، البداية والنهاية ٩/٢٠٥.

(٢) الطبقات ٥/٣٧٩، وانظر البداية والنهاية ٩/٢٠٥.

(٣) الطبقات ٥/٣٦٧، الحلية ٥/٢٦٠، المناقب ٢٢٢، سير أعلام النبلاء ٥/١٣٧، تاريخ الإسلام ٢٠١، مختصر ابن عساكر ١٢١.

وعمر بن عبد العزيز بالسويداء، فأذَّنتُ للعشاء الآخرة، فصلّى، ثم دخل القصر، فقلّما لبث أن خرج، فصلى ركعتين خفيفتين، ثم جلس فاحتبى، فاستفتح «الأنفال»، فما زال يردِّدها ويقرأ، كلما مرَّ بآية تخويف تضرّع، وكلما مرَّ بآية رحمة دعا، حتى أذَّنْتُ للفجر»[1].

ـ وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: «كان لعمر بن عبد العزيز سَفَطٌ فيه دُرَّاعةٌ من شعر وغُلٌّ، وكان له بيت في جوف بيت يصلي فيه، لا يدخل فيه أحد، فإذا كان في آخر الليل فتح ذلك السَّفَط، ولبس تلك الدراعة، ووضع الغل في عنقه، فلا يزال يناجي ربه ويبكي، حتى يطلع الفجر. ثم يعيده في السفط»[2].

ـ ويروي سعيد بن عبد الملك ـ أخو فاطمة زوج عمر ـ واحدة من تلك الليالي العمرية فيقول: «بِت عند أختي فاطمة ـ امرأة عمر بن عبد العزيز ـ فلما أمسينا دخل البيت، وفي البيت تابوت، قال: ففتحه، فأخرج ثوبَيْ شعر، ووضع ثيابه، ثم لبسها، ثم قام يصلي»[3].

قراءته القرآن، وشدة تأثره به:

تلاوة القرآن آناء الليل وأطراف النهار هي سنة سيد المرسلين، ودأب الصالحين السائرين على منهج الأبرار والصديقين، وهي تبعث الطمأنينة في القلب، وتنمي الإيمان فيه، وتبارك العمر وتزكيه، وتستنزل السكينة، وتبعث في الفؤاد الراحة واليقين، وتشفي النفوس من عللها، وتذهِب أوضارها وأسقامها، وتحمل على الأمل، وتشحذ الهمم، وتؤسي

---

(١) الحلية ٥/٣٢٤، المناقب ٢١١. والسويداء أرض على بعد ليلتين من المدينة على طريق الشام، كان يملكها عمر.

(٢) الحلية ٥/٢٩١، المناقب ٢١٠، البداية والنهاية ٩/٢٠٩. والسَّفَط: وعاء كالقُفَّة. والدُّرَّاعة: الجُبَّة. والغُلّ: طوق من حديد أو جلد.

(٣) المناقب ٢١٠.

الجراح؛ بما تعرضه من سير الأنبياء والصالحين، والطغاة والمتجبرين، وسنّة الله تعالى السائرة المطّردة في كلا الفريقين، المتقدمين منهم والمتأخرين.

وكلام الله تعالى له سحره في القلوب الواعية، ووقعه على الأفئدة المستنيرة، والأرواح الحاضرة المؤمنة المستيقنة، إذا ما تفاعلت مع الآي الكريم المعجز المبين. ولقد تذوق حلاوته الصالحون، من لدن الصحابة فمن بعدهم، لذا رأيتَ منهم العجائب حينما يتلون آياته: فبعضهم يصعق من آية، وآخر يخرّ مغشياً عليه، وثالث تذرف عيناه الدموع حتى تخضلّ لحيته، وفريق يستعذب آية فلا يزال يردِّدها حتى يبرق الفجر، وآخرون يستولي عليهم مشهد يتلونه فترفرف أرواحهم لتنال أشواقها... وغير ذلك من الصور التي نقرؤها أو نشاهدها.

وما ذلك إلا لتأثير هذا البيان الإلهي في النفوس، وتفاعل تلك القلوب مع كلام الله تعالى تفاعلاً ينقلها وراء الحواجز المادية، ويتجاوز بها الكتلة الطينية التي خلق منها البشر؛ فيستولي على الروح، فتتفاعل معه على نحو مثير عجيب.

وعمر بن عبد العزيز واحد من ذلك الطراز الفذ، الذي أحب القرآن العظيم، وَعَقَلَ معانيه السامية، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ العُلَمَاءُ﴾[1]، وقال: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾[2]. فكانت له مواقف وحالات فيها عبرة للمستبصرين.

ولم يكن همه كثرة القراءة، وعدد الصفحات التي يتلوها، بل همّه التدّبر والامتثال، والتفكر والاعتبار، والاتعاظ والادِّكار، والعمل بما يقرأ،

---

(١) سورة فاطر: الآية ٢٨.
(٢) سورة العنكبوت: الآية ٤٣.

كما هو نهج الصحابة رضي الله عنهم. فكان لا يطيل القراءةَ[1]، لكنه لم يكُ يهجر المصحف يوماً، بل هو دائم الصلة به، مستمر التلاوة لآيه، كما حدث كاتبه إسماعيل بن أبي حكيم، فقال: «كان عمر بن عبد العزيز لا يدع النظر في المصحف كل يوم، ولكنه لا يكثر»[2].

- روى ابن الجوزي عن مقاتل بن حيان قال: «صليت خلف عمر بن عبد العزيز، فقرأ: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ﴾، فجعل يكررها لا يستطيع أن يجاوزها - يعني من البكاء -»[3].

- وقرأ ذات يوم: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ...﴾، فبكى بكاء شديداً حتى سمعه أهل الدار، فجاءت فاطمة، فجلست تبكي لبكائه، وبكى أهل الدار لبكائهما. فجاء عبد الملك، فدخل عليهم وهم على تلك الحال يبكون، فقال: يا أبَهْ، ما يبكيك؟ قال: خير يا بني، ودَّ أبوك أنه لم يعرِف الدنيا ولم تعرفه. والله يا بني لقد خشيت أن أهلك. والله يا بني لقد خشيت أن أكون من أهل النار»[4]!

- ويروي أحدهم مشهداً من تلك المشاهد التي تصور مدى تأثر عمر بالقرآن، فيقول: «شهدت رجلاً يقرأ عند عمر بن عبد العزيز، فلما انتهى إلى هذه الآية: ﴿فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾، بكى عمر حتى اشتد بكاؤه، ثم ازداد بكاء، فلم يزل يبكي حتى غشي عليه»[5].

- وعن بحدل الشامي عن أبيه - وكان صاحباً لعمر - قال: «رأيت

---

(1) البداية والنهاية ٩/٢٠٢، المناقب ٢١٢.
(2) المناقب ٢١١.
(3) المناقب ٢١٧، ٢٢٦، البداية والنهاية ٩/٢٠٤. والآية من سورة الصافات رقم ٢٤.
(4) المناقب ٢١٧، البداية والنهاية ٩/٢١٧، والآية من سورة يونس رقم ٦١.
(5) المناقب ٢١٣، والآية من سورة الطور رقم ٢٧.

عمر بن عبد العزيز يتلو على المنبر هذه الآية: ﴿وَنَضَعُ المَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ حتى ختمها، فمالَ على أحد شقيه، يريد أن يقع»[1].

- وإذا تلا أحد الناس القرآن في مجلسه، ألقى إليه سمعه، وأعمل عقله، واستحضر ما تفيض به الآيات الحكيمة من مواعظ وعبر، وتهديد ووعيد، وترغيب وترهيب. فهو في كلتا الحالتين - سواء كان قارئاً أم مستمعاً - خاشع متبتل، أواه منيب.

قال محمد بن الحسين: حدثني من شهد عمر بن عبد العزيز - وهو أمير المؤمنين - وقرأ عنده رجل: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِين دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً﴾، فبكى عمر حتى غلبه البكاء، وعلا نشيجه، فقام من مجلسه، فدخل بيته، وتفرق الناس».

وكان يكثر أن يقول: اللهم سلِّم سلِّم[2].

وعن سعيد بن أبي عروبة «أن عمر بن عبد العزيز قال لابنه: اِقرأ. قال: ما أقرأ؟ قال: اقرأ سورة «ق». فقرأ حتى إذا بلغ ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ المَوْتِ بالحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾، بكى، ثم قال: اِقرأ، اِقرأ يا بني! قال: ما أقرأ؟ قال: اِقرأ سورة «ق». فقرأ حتى إذا بلغ ذكر الموت، بكى - أيضاً - بكاءً شديداً، يفعل ذلك مراراً»[3].

صيامه:

لقد أخذ عمر عن أشياخه - من الصحابة والتابعين - العمل مع العلم، فكان في صلاته وقيامه وصيامه على هدي النبوة وتوجيهاتها.

فعن حماد بن زيد حدثنا يحيى: «أن عمر بن عبد العزيز كان يصوم الاثنين والخميس».

---

(١) المناقب ٢٣٦، والآية من سورة الأنبياء رقم ٤٧.
(٢) المناقب ٢١٦، البداية والنهاية ٢٠٩/٩، والآية من سورة الفرقان رقم ١٣.
(٣) المناقب ٢١٧.

وعن عمرو بن مهاجر: «عن عمر بن عبد العزيز أنه كان يصوم الاثنين والخميس، والعشر، وعاشوراء وعرفة»[1].

وروى ابن سعد ـ بسنده ـ : «كان عمر بن عبد العزيز في خلافته أعجل الناس فطراً، وكان يستحب تأخير السحور، وكان إذا شك في الفجر أمسك عن الطعام والشراب»[2].

حجه:

تولى عمر إمارة الحرمين من سنة (٨٦ هـ) حتى (٩٣ هـ)، وإبّان إمارته تلك أقام للناس الحج عدة سنوات، فكان أمير الموسم سنة (٨٩ هـ)، وسنة (٩٠ هـ)، وحج الوليد بن عبد الملك بالناس سنة (٩١ هـ)، ثم حج عمر بالناس سنة (٩٢ هـ) أو (٩٣ هـ)[3].

فكان يؤدي المناسك على وجهها، ويحمل الناس على ذلك، ويعظهم ويعلّمهم، ويدلّهم على هدي رسول الله ﷺ في ذلك. بل إن مواعظه تعدت عامة الناس حتى وصلت إلى أكبر مسؤول في الدولة وهو أمير المؤمنين آنذاك.

عن يحيى بن يحيى الغساني قال: «حج سليمان بن عبد الملك ومعه عمر بن عبد العزيز، فلما أشرف على عقبة «عُسْفَان» نظر سليمان إلى عسكره، فأعجبه ما رأى من حُجَرِه وأبنيته، فقال: كيف ترى ما ها هنا يا عمر؟ قال: أرى ـ يا أمير المؤمنين ـ دنيا يأكل بعضها بعضاً، أنت المسؤول عنها، والمأخوذ بها! فطار غراب من حجرة سليمان يَنْعَبُ، في منقاره كسرة، فقال سليمان: ما ترى هذا الغراب يقول؟ قال: أظنه يقول: من أين دخلت هذه الكسرة، وكيف خرجت؟ قال: إنك لتجيء بالعجب يا عمر!

---

(١) الطبقات ٥/٣٣٣، المناقب ٢١١.
(٢) الطبقات ٥/٣٦٣.
(٣) البداية والنهاية ٩/١٩٤.

فقال: إن أردتَ أن أخبرك بأعجب من هذا، أخبرتك. قال: فأخبرني. قال: مَنْ عرف الله فعصاه، ومن عرف الشيطان فأطاعه، ومن رأى الدنيا وتقلُّبها بأهلها ثم اطمأن إليها! قال سليمان: غَثَّثْتَ علينا ما نحن فيه يا عمر، وضرب دابته وسار. فأقبل عمر حتى نزل عن دابته، فأمسك برأسها ـ وذلك أنه سبق ثَقَلَه ـ فرأى الناس كل من قَدَّمَ شيئاً قَدِمَ عليه، فبكى عمر، فقال سليمان: ما يبكيك؟ قال: هكذا يوم القيامة، من قدَّمَ شيئاً قَدِمَ عليه، ومن لم يقدِّمْ شيئاً قَدِمَ على غير شيء»[1]!!

ويحدث أحد مَنْ حجَّ مع عمر عن دعائه، فيقول: «حججت عاماً، فلما كان عشية عرفة قلت: لأتفرغنَّ اليوم فأستمع دعاء عمر بن عبد العزيز. قال: فوالله، ما كان له من الدعاء من حين وقف حتى دَفَعَ الناسُ إلا أن يقول: اللهم سلِّم لي ديني، ومُنَّ عليَّ بطاعتك ورضاك عني، وترك ما لا يعنيني. يردِّدها حتى غربت الشمس»[2].

ـ وأما في خلافته فإنه لم يحج، لأنه كان مشغولاً بأمور الخلافة، ورفع المظالم، وردِّ الحقوق، والقيام على شؤون الرعية والدولة الإسلامية. ولكنه كان يُبْرِدُ البريدَ إلى المدينة فيقول: «سلِّم على رسول الله ﷺ عني»[3].

وكان يؤمِّر على الحج عامله على المدينة الإمامَ الفقيه أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم.

صدقته وكرمه:

ومن أخلاقه الفاضلة، وشمائله الحميدة، كرمه وسخاؤه، فكان ينفق في ذات الله على العلماء والفقراء، والمساكين والمحتاجين، يبتغي

(١) المناقب ٢٣٥. وغثثتَ: أفسدتَ.
(٢) المناقب ٢٣٠.
(٣) البداية والنهاية ٩/١٨٩.

بذلك وجه الله، ولا يرى لنفسه في ذلك فضلاً، ولا يستكثر نفقة مهما عظمت. وفي ذلك يقول رضي الله عنه: «ما أُعطيتُ أحداً مالاً إلاّ وأنا أستقلُّه، وإني لأستحي من الله - عز وجل - أن أسألَ الجنة لأخ من إخواني، وأبخل عليه بالدنيا، فإذا كان يوم القيامة قيل لي: لو كانت الجنة بيدك كنتَ بها أبخلَ»[1].

وكان يحرِّر الغلمان والعبيد، ومن ذلك ما يرويه ابن سعد بسنده: «احتبس عمر بن عبد العزيز غلاماً له، يحتطب عليه ويلقط له البَعْر. فقال له الغلام: الناس كلهم بخير، غيري وغيرك! قال: فاذهب فأنت حرٌّ»[2].

كما كان يكرم العلماء، ويرفع منازلهم، ويعطيهم دونما مسألة منهم له، فعن مجاهد قال: «قدمتُ على عمر بن عبد العزيز، فأعطاني ثلاثين درهماً، وقال: يا مجاهد، هذه من عطائي»[3].

بل بلغ به الأمر أكثر من ذلك، حدّث رجاء بن حَيْوَة فقال: «ذكر عمر ابن عبد العزيز الموت يوماً، فقال - يتمثل -:

ألم تَرَ أن الموتَ أدركَ مَنْ مضى ... فلمْ ينجُ منه ذو جناح ولا ظُفْرِ؟!

ثم دعا بسبعة دنانير، فتصدق بها، ثم قال: نستقرض على الله حتى يأتي العطاء»[4].

خشيته العظيمة من الله تعالى:

ولقد بدت على عمر أمارات التقوى، وعلامات الإحسان، وهو لايزال صغيراً. وأخذ يترقى في منازل الخشية، ويزداد صعوداً في مدارجها

---

(١) المناقب ١٨٧. (٢) الطبقات ٥/٤٠٠.
(٣) الطبقات ٥/٣٩٩، الحلية ٥/٣٣١، المناقب ٢٧٨.
(٤) الحلية ٥/٣١٩.

يوماً بعد يوم، وحيناً بعد آخر. وقد ساعده على ذلك شدة مراقبته لربه، والاستماع إلى نصائح الصادقين، ومواعظ الزاهدين، واجتماعه بالعلماء العاملين لتذكر الموت، والوقوف بين يدي الله تعالى، وتذكر الجنة والنار، واستعراض أعماله التي يراها قليلة، وذنوبه التي يخافها ويخشى على نفسه منها.

●● عن أبي قَبيل «أن عمر بن عبد العزيز بكى وهو غلام صغير، فأرسلت إليه أمُّهُ، وقالت: ما يُبْكِيكَ؟ قال: ذكرتُ الموتَ ـ قال: وكان يومئذ قد جمع القرآن ـ فبكتْ أمه حين بلغها ذلك»[١].

وروى أبو نعيم ـ بسنده ـ عن أبي الأعين قال: «كنت في صحن بيت المقدس مع خالد بن يزيد بن معاوية، إذْ أقبل فتى شاب، فسلَّم على خالد، فأقبلِ عليه خالد، فقال الفتى لخالد: هل علينا من عَيْن؟ قال: فبدرتُ فقلتُ: نعم، عليكما من الله عين سميعة بصيرة! فترورقت عينا الفتى، ونزع يده من يد خالد، ثم ولَّى. فقلت لخالد: من هذا؟ قال: أَمَا تعرف هذا؟! هذا عمر بن عبد العزيز ـ ابن أخي أمير المؤمنين ـ ولئن طالت بك وبه حياة؛ لتراه إمام هدىً»[٢].

تلك المراقبة الدائمة لله كانت تستولي على مشاعره، حتى كان يقول: «يا معشر المستترين، اعلموا أن عند الله مسألة فاضحة، قال الله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. عمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٣]».

●● وكان إذا ذكر الموت اضطربت أوصاله، وانتفض انتفاض الطير، وبكى حتى تجري دموعه على لحيته.

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١٦/٥، تاريخ الإسلام ١٨٨، البداية والنهاية ١٩٢/٩.
(٢) الحلية ٢٥٦/٥، البداية والنهاية ١٩٧/٩.
(٣) الحلية ٢٨٨/٥، المناقب ٢٣٦، ٣١٠، والآيتان من سورة الحِجْر رقم ٩٢، ٩٣.

وكان يقول: «لولا أن تكون بدعة لَحَلَفْتُ أن لا أفرحَ من الدنيا بشيء أبداً، حتى أعلمَ ما في وجوهِ رُسُلِ ربي إليَّ عند الموت، وما أحبّ أن يهوّن عليّ الموت لأنه آخر ما يؤجر عليه المؤمن»(١).

وروى أبو نعيم ـ بسنده ـ عن أبي سريع الشامي قال: «قال عمر بن عبد العزيز لرجل من جلسائه: أبا فلان، لقد أرقتُ الليلة تفكّراً. قال: فيمَ يا أمير المؤمنين؟ قال: في القبر وساكنه، إنكَ لو رأيتَ الميت بعد ثالثةٍ في قبره لاستوحشتَ من قربهِ بعد طول الأُنْس منك بناحيته، ولرأيتَ بيتاً تجول فيه الهوام، ويجري فيه الصديد، وتخترقه الديدان، مع تغيّر الريح وبلى الأكفان، بعد حُسْنِ الهيئة، وطيب الريح، ونقاء الثوب، ثم شهق شهقة وخرّ مغشياً عليه»(٢).

●● وفي خلافته «كان يجمع كلَّ ليلة الفقهاء، فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة، ثم يبكون، حتى كأن بين أيديهم جنازة»(٣).

وكان لا يقرّب إليه إلا الصالحين والأتقياء، والأئمة العلماء، فيستمع إلى مواعظهم، ويصغي إلى رقائقهم ونصائحهم. من ذلك ما يحدث به ميمون بن مِهْران فيقول: «قال لي عمر بن عبد العزيز: حدِّثْني يا ميمون. قال: فحدَّثْته حديثاً بكى منه بكاء شديداً. فقلتُ: يا أمير المؤمنين، لو علمتُ أنك تبكي هذا البكاء، لحدثتكَ بحديث ألْيَنَ من هذا! فقال: يا ميمون، إنا نأكلُ هذه الشجرةَ العَدَسَ، وهي ـ ما علمتَ ـ مُرِقَّةٌ للقلب، مُغْزِرَةٌ للدّمعةِ، مُذِلَّةٌ للجسد»(٤).

---

(١) الحلية ٣١٦/٥، المناقب ٢١٥، سير أعلام النبلاء ١٣٨/٥، تاريخ الإسلام ٢٠٢.

(٢) الحلية ٢٦٨/٥، المناقب ٢٢١، مختصر ابن عساكر ١٢١.

(٣) المناقب ٢١٥، سير أعلام النبلاء ١٣٨/٥، تاريخ الإسلام ٢٠٢، البداية والنهاية ٢٠٥/٩.

(٤) المناقب ٢١٩، سير أعلام النبلاء ١٣٧/٥، تاريخ الإسلام ٢٠٢.

وعن إبراهيم بن عبيد بن رفاعة قال: «شهدتُ عمر بن عبد العزيز، ومحمد بن قيس يحدِّثه، فرأيتُ عمر يبكي حتى اختلفَتْ أضلاعه»[1].

ودخل الشاعر سابق البربري على عمر، فقال له: «عظني يا سابق وأوجز. قال: نعم يا أمير المؤمنين، وأبلغ إن شاء الله. قال: هات. فأنشده:

إذا أنتَ لم ترحلْ بزادٍ من التُّقَى ... ووافيتَ بعد الموتِ مَنْ قد تزوَّدا
ندمتَ على أنْ لا تكونَ شَرِكْتَهُ ... وأرصدتَ قبلَ الموتِ ما كانَ أرصَدَا

فبكى عمر حتى سقط مغشياً عليه[2].

●● وإذا ما ذكر وقوفه بين يدي الله، وتمثّلت أمامه مسؤولياته الكثيرة عن الرعية، وشؤون الدولة؛ عَظُمَ ذلك عليه، وبكى من هول الموقف، ولربما خَرَّ مغشياً عليه.

بكى مرة، فبكت زوجته فاطمة، فبكى أهل الدار، لا يدري هؤلاء ما أبكى هؤلاء! فلما تجلَّت عنهم العَبْرَةُ، قالت له فاطمة: بأبي أنت يا أمير المؤمنين، ممَّ بكيتَ؟ قال: ذكرت ـ يا فاطمة ـ منصرفَ القوم من بين يدي الله عز وجل، فريق في الجنة وفريق في السعير. ثم صرخ وغَشِيَ عليه[3].

ويحدث مولى لعمر عن واحدة من ليالي أمير المؤمنين، فيقول: «استيقظ ذات ليلة باكياً، فلم يزل يبكي حتى استيقظتُ. قال: وكنت أبيت معه، وربما منعني النومَ كثرةُ بكائه. قال: فأكثر ليلتئذٍ البكاء جداً، فلما أصبح دعاني فقال: أي بني، ليس الخير أن يُسمع لك ويُطاع، إنما الخير أن تكون قد عقلتَ عن ربك ثم أطعتَه. يا بني، لا تأذن اليوم لأحد عليَّ

---

(1) المناقب ٢١٣.
(2) المناقب ١٧٢.
(3) الحلية ٥/٢٦٩، المناقب ٢١٣ ـ ٢١٤، صفة الصفوة ٢/١٢١.

حتى أصبح ويرتفع النهار؛ فإني أخاف أن لا أعقل عن الناس ولا يفهمون عني! قلت: بأبي أنت يا أمير المؤمنين، رأيتُك الليلة بكيتَ بكاء ما رأيتك بكيتَ مثله؟! قال: فبكى ثم بكى، ثم قال: يا بني، إني ـ والله ـ ذكرتُ الوقوفَ بين يدي الله! قال: ثم أُغمي عليه، فلم يفق حتى علا النهار. قال: فما رأيته بعد ذلك مبتسماً، حتى مات»[1].

●● وكان يطيل الوقوف عند القبور، ويذكر نفسه بالمصير المحتوم، ويعظ الناس، وينبههم إلى ماهم صائرون إليه. وللقبر رهبته، وفيه مواعظ وعبر لمن أراد أن يتعظ وَيذَّكِر.

وأكثر ما كان يقف أمام قبور بني أمية، ممن حكموا العباد، ودانت لهم البلاد، ثم طوتهم القبور ـ كما طوت مَنْ قبلهم، وستطوي من بعدهم ـ لم تميز بين كبير وصغير، أو بين غني وفقير، أو بين عزيز وحقير.

روى أبو نعيم ـ بسنده ـ عن أبي قرة قال: «خرج عمر بن عبد العزيز على بعض جنائز بني مروان، فلما صلى عليها وفرغ، قال لأصحابه: توقفوا، فوقفوا. فضرب بطن فرسه، حتى أمعن في القبور وتوارى عنهم. فاستبطأه الناس حتى ظنوا، فجاء وقد احمرَّتْ عيناه، وانتفخت أوداجُه! قالوا: يا أمير المؤمنين، أبطأتَ علينا؟ قال: أتيتُ قبورِ الأحبة، قبور بني آبائي، فسلَّمتُ عليهم فلم يردوا السلام! فلما ذهبت أقفِّي ناداني القبر من خلفي: يا عمر بن عبد العزيز، ألا تسألني ما صنعت بالأحبة؟ قلت: بلى! قال: خرَّقتُ الأكفانَ، ومزّقت الأبدانَ، ومصصتُ الدمَ، وأكلتُ اللحم. ألا تسألني: ما صنعت بالأوصال؟ قلتُ: بلى! قال: نزعتُ الكفين من الذراعين، والذراعين من العضدين، والعضدين من الكتفين، والوركين من الفخذين، والفخذين من الركبتين، والركبتين من الساقين، والساقين من القدمين. ثم بكى عمر فقال:

(١) المناقب ٢١٦.

ألا إن الدنيا بقاؤها قليل، وعزيزها ذليل، وغنيها فقير، وشبابها يهرم، وحيُّها يموت، فلا يغرنَّكُمْ إقبالها مع معرفتكم بسرعة إدبارها، والمغرورُ من اغترَّ بها. أين سكانها الذين بنوا مدائنها، وشققوا أنهارها، وغرسوا أشجارها، وأقاموا فيها أياماً يسيرة، غرَّتهم بصحتهم، وغرُّوا بنشاطهم، فركبوا المعاصي. إنهم كانوا ـ والله ـ في الدنيا مغبوطين بالأموال على كثرة المنع عليه، محسودين على جمعه. ما صنع التراب بأبدانهم، والرمل بأجسادهم، والديدان بعظامهم وأوصالهم؟! كانوا في الدنيا على أسرَّة ممهَّدة، وفُرُشٍ منضّدة، بين خَدَمٍ يخدمون، وأهل يكرمون، وجيران يعضدون. فإذا مررتَ فنادهم إن كنتَ منادياً، وادعهم إن كنتَ لا بد داعياً، ومُرَّ بعسكرهم، وانظر إلى تقارب منازلهم التي كان بها عيشهم، وَسَلْ غنيهم ما بقي من غناه، وَسَلْ فقيرهم ما بقي من فقره! وَسَلْهُمْ عن الألسن التي كانوا بها يتكلمون، وعن الأعين التي كانت إلى اللذات بها ينظرون، وَسَلْهُمْ عن الجلود الرقيقة، والوجوه الحسنة، والأجساد الناعمة، ما صنع بها الديدان؟! مَحَتِ الألوان، وأكلتِ اللحمان، وعفّرت الوجوه، ومحت المحاسن، وكسرتِ الفقار، وأبانت الأعضاء، ومزقت الأشلاء! وأين حجالهم وقبابهم، وأين خدمهم وعبيدهم، وجمعهم ومكنوزهم؟! والله ما زوَّدوهم فراشاً، وَلَا وَضَعُوا هناك متَّكأً، ولا غرسوا لهم شجراً، ولا أنزلوهم من اللحد قراراً!! أليسوا في منازل الخلوات والفلوات؟ أليس الليل والنهار عليهم سواء؟ أليس هم في مدلهمَّة ظلماء؟ قد حِيلَ بينهم وبين العمل، وفارقوا الأحبة. فكم من ناعمٍ وناعمةٍ أصبحوا ووجوههم بالية، وأجسادهم من أعناقهم نائية، وأوصالهم ممزَّقة، قد سالت الحدق على الوجنات، وامتلأت الأفواه دماً وصديداً، ودبَّتْ دوابّ الأرض في أجسادهم، ففرَّقت أعضاءهم، ثم لم يلبثوا ـ والله ـ إلا يسيراً حتى عادت العظام رميماً. قد فارقوا الحدائق، فصاروا بعد السَّعَةِ إلى المضايق، قد تزوّجت نساؤهم، وتردَّدت في الطرق أبناؤهم، وتوزعت

القرابات ديارهم وتراثهم، فمنهم ـ والله ـ الموسع له في قبره، الغض الناضر فيه، المتنعم بلذته.

يا ساكن القبر غداً ما الذي غرَّك من الدنيا؟ هل تعلم أنك تبقى أو تبقى لك؟ أين دارك الفيحاء، ونهرك المطرد؟ وأين ثمرك الناضر ينعه، وأين رقاق ثيابك؟ وأين طِيبك، وأين بخورك، وأين كسوتك لصيفك وشتائك؟! أما رأيته قد نزل به الأمر، فما يدفع عن نفسه وجلاً، وهو يرشح عرقاً، ويتلمظ عطشاً! يتقلب في سكرات الموت وغمراته، جاء الأمر من السماء، وجاء غالب القدر والقضاء، جاء من الأمر والأجل ما لا تمتنع منه!

هيهات هيهات! يا مغمض الوالد والأخ والولد وغاسله، يا مكفِّن الميت وحامله، يا مخليه في القبر وراجعاً عنه! ليتَ شِعري، كيف كنتَ على خشونة الثرى؟! يا ليتَ شِعري، بأي خديك بدأ البِلَى؟! يا مجاور الهلكات صرتَ في محلَّةِ الموتى! ليتَ شِعري، ما الذي يلقاني به مَلَكُ الموت عند خروجي من الدنيا، وما يأتيني به من رسالة ربي؟!

ثم تمثل:

تُسَرُّ بما يَفْنى وتشغل بالصِّبا ... كما اغترَّ باللَّذاتِ في النومِ حالمُ
نهارُكَ يا مغرورُ سَهْوٌ وغفلةٌ ... وليلُكَ نومٌ، والرَّدى لكَ لازمُ
وتعملُ فيما سوفَ تكره غِبَّهُ ... كذلكَ في الدُّنيا تعيشُ البهائمُ

ثم انصرف فما بقي بعد ذلك إلا جمعة»[1].

●● ولقد كان يخشى الله حق خشيته ويقدره حق قدره، ويعلم ما في البرزخ والآخرة من أهوال، حتى أدخله الخوف في المرض. ولما مرض جيء بطبيب إليه، فقال: «بهِ داءٌ ليسَ له دواءٌ، غَلَبَ الخوفُ على قلبه»[2].

---

(١) الحلية ٥/٢٦١ ـ ٢٦٤، المناقب ٢٥٥ ـ ٢٥٧.
(٢) مختصر ابن عساكر ١٢٢، سير أعلام النبلاء ٥/١٣٧.

رجاؤه ودعواته:

ومع ذلك كله كان ـ رضي الله عنه ـ يخاف من ذنوبه، ويرجو رحمة ربه، ويلوم نفسه حتى تبقى تسعى إلى المعالي، ولا تغتر بما هي عليه.

قال له رجل: «يا أمير المؤمنين، كيف أصبحتَ؟ قال: أصبحتُ بطيئاً بطيناً، متلوثاً في الخطايا، أتمنى على الله الأماني».

وضرب بيده على بطنه، ثم قال: «بطني بطيء عن عبادة ربي، متلوث بالذنوب والخطايا، يتمنى على الله منازل الأبرار، ويعمل خلاف أعمالهم»[1]!

وكان يطمع بمغفرة الله ورحمته، ويقول: «اللهم إن لم أكن أهلاً أن أبلغ رحمتك، فإن رحمتك أهل أن تبلغني، فإن رحمتك وسعت كل شيء، وأنا شيء، فلْتَسَعْني رحمتُك يا أرحم الراحمين. اللهم إنك خلقت قوماً فأطاعوك فيما أمرتهم به، وعملوا في الذي خلقتهم له، فرحمتك إياهم كانت قبل طاعتهم لك، يا أرحم الراحمين»[2].

ومن دعواته الجامعة قوله: «اللهم إني أطعتك في أحب الأشياء إليك، وهو التوحيد، ولم أعصك في أبغض الأشياء إليك، وهو الكفر، فاغفر لي ما بينهما»[3].

ويحدث ابنه عبد الله فيقول: «ما قلَّب عمر بن عبد العزيز نظره إلى نعمة أنعم الله ـ عز وجل ـ بها عليه، إلا قال: اللهم إني أعوذ بك أن أبدِّل نعمة الله كفراً، أو أن أكفرها بعد معرفتها، أو أن أنساها فلا أثني عليك بها»[4].

وكان يكثر أن يقول: «اللهم سلِّم سلِّم»[5].

---

(١) الحلية ٥/٢٨٧، المناقب ٢٠٥، البداية والنهاية ٩/٢٠٣.

(٢) المناقب ٢٢٩، الحلية ٥/٢٩٩، البداية والنهاية ٩/٢٠٣.

(٣، ٤) المناقب ٢٣٠.

(٥) المناقب ٢٢٤، ٢٣٠.

زهده وقناعته:

ولقد تولّد من هاتيك الأخلاق الكريمة الفاضلة، والنظرة الصحيحة للدنيا؛ زهد من طراز فريد، هو الزهد الذي يرتضيه الإسلام ويحضّ عليه. لا زهد التقشف والقلة، والفقر والمسكنة، والانكماش عن الدنيا، والهروب من الحياة، والانزواء في الظل - بل زهد القادرين الذين يملكون المال الوفير، والثراء العريض، وتحت أيديهم واردات أقطار الإسلام في المشرق والمغرب؛ ذلكم هو زهد سيد الأرض في زمانه، وعظيم الدنيا آنذاك: عمر بن عبد العزيز.

زهد حمله على أن يعيش مع أسرته عيشة الكفاف والقناعة، بأقل ما تقوم به الحياة، وآثر إخوانه ورعيته حتى بجواهر زوجته التي أهداها لها أبوها في ليلة الزفاف؛ فوضعها عمر في بيت المال، زهداً منه فيها، وإيثاراً للبطون الجائعة، والفقراء والمحاويج. فاستعلى على الدنيا بنفسه الكبيرة التي سرت في شرايينها سجايا وأخلاق وخلال الدين الحنيف[1].

- كان قبل الخلافة يؤتى بالقميص الناعم اللين جداً، فيقول: ما أحسن هذا لولا خشونة فيه! ويلبس الحلة بألف دينار. فلما ولي الخلافة، وأصبح على خزائن الأرض، لبس القميص الغليظ المرقوع، وهو يقول: ما أحسنه لولا لِينُه. وما ثمنه أكثر من عشرة دراهم[2]!!

بل قال ميمون بن مهران: «أقمت عند عمر بن عبد العزيز ستة أشهر، ما رأيته غيَّر رداءه، كان يغسل من الجمعة إلى الجمعة، ويبين بشيء من زعفران»[3].

- وكان يأكل أطايب الطعام عندما كان شاباً، فلما استُخلف كانت

---

(١) انظر: مع الرعيل الأول ٢١٦ - ٢١٧. (٢) البداية والنهاية ٢٠٨/٩.
(٣) سير أعلام النبلاء ١٣٢/٥. وسيأتي مزيد لذلك.

نفقته كل يوم درهمين، ويكثر من أكل العدس، ويأكل الغليظ من الطعام، ولا يبالي بشيء من النعيم، ولا يتبعه نفسه، ولا يوده.

أتى يوماً بعض أهله، فقرَّب إليه طعاماً كثيراً، فقال عمر: «ويحك يا فلان، دون هذا ما يسدّ الجوعة، ويذهِب سَوْرَةَ النفس، وتقدِّم فضل ذلك ليوم فقرك وفاقتك! فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله قد أوسع وأحسن. فقال عمر بن عبد العزيز: فعند ذلك وجب عليك الشكر. ثم نهض»[1].

ودخل منزله يوماً فقال: «هل عندكم من طعام؟ فأصاب تمراً، وشرب ماءً، وقال: مَنْ أدخله بطنه النار فأبعده الله»[2].

- وكان عنده سرير النبي ﷺ وعصاه، وقدح وجفنة ووسادة حشوها ليف، وقطيفة ورداء، فكان إذا دخل عليه النفر من قريش قال: «هذا ميراث مَنْ أكرمكم الله به، ونصركم به، وأعزّكم به، وفعل وفعل»[3].

- ويحث الناس على القناعة والإجمال في الطلب، والرضا بما قسم الله، بعد استنفاد جهد الطاقة، فكان يخطب الناس قائلاً: «اتقوا الله أيها الناس، وأجْمِلوا في الطلب، فإنه إن كان لأحدكم رزق في رأس جبل، أو حَضيضِ أرضٍ؛ يأتِهِ»[4].

- ولقد شهد لعمر بالزهد أشياخ الزهد وأربابه، من ذلك قول مالك ابن دينار - عَلَم العلماء الأبرار - : «الناس يقولون: مالك زاهد. أيُّ زهد عندي؟ إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز، أتته الدنيا فاغرة فاها، فتركها»[5].

ويقول عالم أهل الشام مَكْحُول الدمشقي: «لو حلفتُ لصدقتُ، ما

---

(١) المناقب ٢٤٥.
(٢) المناقب ١٨٤.
(٣) الحلية ٥/٣٢٦ - ٣٢٧.
(٤) تاريخ الخلفاء ٢٤١.
(٥) الحلية ٥/٢٥٧، مختصر ابن عساكر ١١٦، المناقب ١٨٤، سير أعلام النبلاء ٥/١٣٤، تاريخ الإسلام ١٩٩، البداية والنهاية ٩/٢٠٢، ٢٠٨.

رأيتُ أزهدَ ولا أخوفَ لله من عمَر بن عبد العزيز»[1].

ويقول زاهد العصر الإمام الكبير[2] أبو سليمان الداراني: «كان عمر ابن عبد العزيز أزهدَ من أُوَيْس القَرَني[3]، لأن عمر مَلَكَ الدنيا بحذافيرها وَزَهِدَ فيها، ولا ندري حالَ أويسٍ لو مَلَكَ ما مَلَكَهُ عمر كيف يكون؟ ليس من جرَّب كمن لم يجرِّب»[4].

ـ لقد كانت نظرة عمر للدنيا تتلخص في قوله: «إنما خلقتم للأبد، ولكنكم تُنقلون من دار إلى دار»[5]. وفي قوله ـ عندما قرأ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ. حتىّ زُرْتُمُ المَقَابِرَ﴾ ـ: «ما أرى القبر إلا زيارة، ولا بد للزائر أن يرجع إلى منزله ـ يعني إلى الجنة أو النار ـ»[6].

إن الآخرة هي الغاية، لكنه لم ينس الدنيا، كما أنه لم يتعلق بها، بل عاش وهي في يده، يضعها حيث أراد لها الإسلام، وتعالى عليها عندما ألقت بكنوزها بين يديه، فراح يصرف تلك الكنوز في صالح الإسلام والرعية، ولم ينكمش في زاوية، ولا طلق الدنيا، بل جعلها جسراً قوياً عبره بأمته إلى الآخرة. وتلك هي الطريقة القويمة المستقيمة.

رضاه بالقضاء والقدر:

من حقائق الإيمان الكبيرة، وأركانه الأصيلة، أن يرضى الإنسان بقضاء الله وقدره، يعمل ويجدّ ويجتهد، ويطلب المعالي في كل شيء

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥/١٢٠، تاريخ الإسلام ٢٠٢، تاريخ الخلفاء ٢٣٨.
(٢) بهذا وصفه الذهبي في سير أعلام النبلاء ١٠/١٨٢.
(٣) هو سيد التابعين في زمانه، قال فيه رسول الله ﷺ: «إنّ خيرَ التابعين رَجُلٌ يُقال له أُوَيْس...». انظر: سير أعلام النبلاء ٤/١٩، وغيره من كتب التراجم.
(٤) البداية والنهاية ٩/٢٠٨، المناقب ١٨٤ وفيها مناظرة.
(٥) الحلية ٥/٢٨٧، المناقب ٢٤٠. (٦) الحلية ٣١٧، المناقب ٢١٩، ٢٧٥.

ـ فالمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير ـ ويضرب في الأرض ويسعى في مناكبها، ويدافع عن نفسه الشرور والظلم والعسف والعدوان والنكبات، ثم بعد ذلك يسلِّم راضياً لما يقع عليه مما قدره الله تعالى، وليس للإنسان حياله حَوْلٌ ولا طَوْل، ولا يَدَ له بمدافعته وردّه.

ولقد كان عمر مثالاً فذاً، وأنموذجاً يحتذى في هذا المجال الصعب المرتقى. وشهدت أيام حياته ـ وخاصة خلافته ـ أموراً شديدة الوطأة على نفسه، فما ازداد إلا جلداً ومصابرة، وترقياً في مدارج الإيمان بقضاء الله وقدره.

ـ مَرِضَ ابنه التقي النبيل عبد الملك مَرَضَ الوفاة، فدخل عمر عليه، فقال له: «كيف تجدك يا بني؟ قال: أجدني في الحق، والله لأن يكون ما تحب أحبّ إليّ مما أحب. فلما هلك عبد الملك قال عمر: يا بني، لقد كنت في الدنيا كما قال الله جل ثناؤه: ﴿المَالُ والبَنُونَ زِينَةُ الحياةِ الدُّنْيَا﴾[1]، ولقد كنتَ أفضلَ زينتها، وإني لأرجو أن تكون اليوم من الباقيات الصالحات التي هي خير ثواباً وخير أملاً، والله ما سرّني أني دعوتك فأجبتني» وعزّاه الناس.

وكتب عمر في وفاة ابنه هذا: «أما بعد، فإن الله تعالى كتب على خلقه حين خلقهم، فجعل مصيرهم إليه، فقال ـ جلّ ثناؤه ـ فيما أنزل في كتابه الصادق الذي حفظه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ ومَنْ عَلَيْها وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾[2]. وقال لنبيه ﷺ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الخَالِدُونَ﴾[3]؟! وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ﴾[4]. وقال

---

(١) سورة الكهف: الآية ٤٦.
(٢) سورة مريم: الآية ٤٠.
(٣) سورة الأنبياء: الآية ٣٤.
(٤) سورة الأنبياء: الآية ٣٥.

عز وجل: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرَى﴾[1].
فالموت سبيل الناس في الدنيا، لم يكتب الله لمحسن ولا لمسيء فيها خلوداً، ولم يرضَ ما أعجب أهلها ثواباً لأهل طاعته، ولم يرضَ ببلائها عقوبة لأهل معصيته. . . . . ثم إن عبد الملك ابن أمير المؤمنين، كان عبداً لله، أحسنَ الله إليه، وأحسن إلى أبيه فيه، أعاشه ماأحب أن يعيشه، ثم قبضه حين أحب أن يقبضه، وهو ـ فيما علمتُ ـ بالموت مغتبط، يرجو من الله فيه رجاءً حسناً. وأعوذ بالله أن تكون لي محبة في شيء من الأمور تخالف محبة الله تعالى؛ فإن ذلك لا يصلح لي في بلائه عندي، ولا إحسانه إليّ، ولا نعمته عليَّ. وقد قلتُ ما رجوت به ثواب الله الحسن، وموعوده الصادق من المغفرة: إنا لله وإنا إليه راجعون. ثم لم أجد في نفسي بعد ذلك ـ والحمد لله ـ إلا خيراً، مِن رضىً بقضاء الله تعالى، واحتساب لما كان من المصيبة؛ فحمدت الله على ما مضى، وعلى ما بقي، وعلى كل حال من أمر الدنيا والآخرة. أحببتُ أن أعلمكم بذلك، وأكتب إليكم به، فلا أَعْرِفَنَّ مما أُنيح عليه في شيء مما قِبَلِكم، ولا يجتمع على ذلك أحد من الناس، ولا رخصت فيه لقريب من الناس ولا بعيد. والسلام»[2].

وتتابع عليه موت ثلاثة من أحبائه: ابنه وأخيه ومولاه، فما كان منه إلا تمام الرضى بما كتب الله عليه. روى أبو نعيم وابن الجوزي قالا: «لما هلك عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز، وسهل بن عبد العزيز، ومزاحم مولى عمر، في أيام متتابعة؛ دخل الربيع بن سبرة عليه وقال: أَعْظَمَ الله أجرك يا أمير المؤمنين، فما رأيت أحداً أصيب بأعظم من مصيبتك في أيام متتابعة. والله ما رأيت مثل ابنك ابناً، ولا مثل أخيك أخاً، ولا مثل مولاك

---

(١) سورة طه: الآية ٥٥.

(٢) المناقب ٣٠٦ ـ ٣٠٨، وانظر: ٣٠٣ ـ ٣٠٤، ٣٠٨ ـ ٣١٠، صفة الصفوة ٢/١٢٩ ـ ١٣٠، الحلية ٥/٣٥٦ ـ ٣٥٨.

مولى قط! فطأطأ عمر رأسه، فقال لي رجل معي على الوسادة: لقد هيّجت عليه! قال: ثم رفع رأسه، فقال: كيف قلتَ الآن يا ربيع؟ فأعدت عليه ما قلت أولاً. قال: لا والذي قضى عليهم بالموت، ما أحب أن شيئاً من ذلك كان لم يكن».

وعند ابن الجوزي: «قام عمر بن عبد العزيز إلى مصلّاه، فذكر سهل بن عبد العزيز، وعبد الملك، ومزاحماً، فقال: اللهم إنك قد علمت ما كان من عونهم ومعونتهم، فأخذتَهم، فلم يزدني ذلك إلا حبّاً، ولا إلى ما عندك إلا شوقاً. ثم رجع إلى مجلسه»[1].

ـ ولما خشي الناسُ عليه القتلَ غيلةً، طلبوا إليه أن يتحفظ في طعامه وشرابه من السمّ، وفي خروجه بحرس كعادة مَنْ قبله، فقال: وأين هم؟! فلما أكثروا عليه قال: «اللهم إن كنتَ تعلم أني أخاف يوماً دون يوم القيامة فلا تؤمن خوفي»[2].

ـ وكان يقول: «ما كنتُ على حالة من حالات الدنيا فَسَرَّني أني على غيرها».

«ما لي في الأمور هوىً، سوى مواقع قضاء الله فيها»[3].

وكثيراً ما كان يدعو: «اللهم رضِّني بقضائك، وباركْ لي في قدرك، حتى لا أحب تعجيل شيء أخَّرتَه، ولا تأخير شيء عَجَّلْتَه». ولما حضرته الوفاة أخذ يدعو بهذه الدعوات، فلا زال يقول ذلك حتى مات[4].

---

(١) الحلية ٥/٣٣٠، المناقب ٣٠٤، ٣٠٥، مختصر ابن عساكر ١٢٠ ـ ١٢١، البداية والنهاية ٩/٢٠٨.
(٢) تهذيب الأسماء واللغات ٢/٢٣، مختصر ابن عساكر ١٢٤، تاريخ الإسلام ٢٠٢.
(٣) المناقب ٣١٠ ـ ٣١١.
(٤) المناقب ٢٣٠، البداية والنهاية ٩/٢١٥.

تواضعه:

ومن أخلاقه العظيمة تواضعه الجمّ، فيخفض الجناح للمؤمنين، ولا يتكبر على أحد من عباد الله. لم تزده الخلافة إلا تواضعاً ورأفة ورحمة، ولم يحمله المنصب إلا على الإخبات والخضوع لسلطان الحق. يصلح سراجه بنفسه، ويجلس بين يدي الناس على الأرض، ويأبى أن يسير الحراس والشُّرَط بين يديه، ويعنف من يعظّمه أو يخصّه بسلام من بين الجالسين، ويتأبى أن يتميز على الناس بمركب، أو مأكل، أو ملبس، أو مشرب.

- عن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز قال: قال لي رجاء بن حَيْوَة: «ما أكمل مروءة أبيك، سَمَرْتُ معه ذات ليلة فَعَشِيَ السِّراجُ، فقال لي: ما ترى السراج قد عشي؟ قلتُ بلى. وإلى جانبه وَصِيف راقد. قال: قلت: أفلا أُنَبِّهُهُ؟ قال: لا، دَعْه يرقد. قلت: أفلا أقوم أنا؟ قال: لا، ليس من مروءة الرجل استخدام ضيفه. قال: فوضع رداءَه، ثم قام إلى بَطَّةِ زيت معلَّقة فأخذها، فأصلح السراجَ، ثم ردّها في موضعها، ثم رجع وقال: قمتُ وأنا عمر بن عبد العزيز، ورجعتُ وأنا عمر بن عبد العزيز»[1].

- ودخل عليه رجل فقال له: «يا أمير المؤمنين، إن من كان قبلك كانت الخلافة لهم زيناً، وأنت زَيْنُ الخلافة، وإنما مثلك كما قال الشاعر:

وإذا الـدرُّ زانَ حُسْنَ وُجُوهٍ ... كانَ للدرِّ حُسْنُ وَجْهِكَ زَيْنَا

فأعرض عنه»[2].

---

(١) الحلية ٥/٣٣٢، المناقب ٢٠٣، مختصر ابن عساكر ١١٩ - ١٢٠، سير أعلام النبلاء ٥/١٣٦، تاريخ الإسلام ٢٠١، البداية والنهاية ٩/٢٠٣. والوَصِيفُ: الخادم. والبطة: إناء على شكل البطة يوضع فيه الدهن.

(٢) الحلية ٥/٣٢٩، المناقب ١١٣، ٢٠٥، سير أعلام النبلاء ٥/١٣٦، البداية والنهاية ٩/٢٠٣.

وقال له رجل: جزاك الله عن الإسلام خيراً. فقال: لا بل جزى الله الإسلام عني خيراً[1].

وعن طلحة بن يحيى قال: «كنتُ جالساً عند عمر بن عبد العزيز، فدخلَ عليه عبد الأعلى بن هلال، فقال: أبقاكَ الله يا أمير المؤمنين ما دام البقاء خيراً لك. قال: قد فُرِغَ من ذلك يا أبا النضر، ولكن قلْ: أحياكَ الله حياة طيبة، وتوفاك مع الأبرار»[2].

- ودخل عليه رجل، وهو في ملأ من الناس، فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين. فقال: عُمَّ بسلامك[3].

وكان يأمر الحرس ألا يقوموا له إذا خرج عليهم، ويقول لهم: «لا تبتدئوني بالسلام إنما السلام علينا لكم»[4].

- بل إنه ليمتنع عن كثرة الكلام - وهو العالم الفصيح المفوّه - خشية على نفسه من المباهاة بما عنده، أو أن يظن الناس به ذلك. فكان يقول: «إنه لَيَمْنَعُني من كثير من الكلام مخافةُ المباهاة»[5].

وروى ابن الجوزي - بسنده - قال: «كان عمر بن عبد العزيز إذا خطب على المنبر فخاف عليه العجب؛ قطع. وإذا كتب كتاباً فخاف فيه العجب؛ مزقه. ويقول: اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي»[6].

---

(١) الحلية ٥/٣٣١، المناقب ٢٠٦، سير أعلام النبلاء ٥/١٤٧، البداية والنهاية ٩/٢٠٣.

(٢) الحلية ٥/٣٢٤، ٣٣٠، الطبقات ٥/٣٨١، المناقب ٢٧٧، البداية والنهاية ٩/٢٠٣.

(٣) الطبقات: ٥/٣٨٤.

(٤) ابن عبد الحكم، نقلاً عن «عمر» للزحيلي ١٠٦.

(٥) الطبقات ٥/٣٦٨، الحلية ٥/٣٤٠، المناقب ١٩٥، سير أعلام النبلاء ٥/١٣٧، تاريخ الإسلام ٢٠١.

(٦) المناقب ٧٧ - ٧٨.

وأعجب من ذلك ما حدث له مع ابنة أسامة بن زيد، الفتاة الصغيرة، فيما يحدث به الأوزاعي فيقول: «كان عمر بن عبد العزيز يجلس إلى قاصّ العامة بعد الصلاة، ويرفع يديه إذا رفع. ودخلت عليه ابنة أسامة بن زيد، ومعها مولاة لها تمسك بيدها، فقام لها عمر، ومشى إليها حتى جعل يده في يدها، ويداه في ثيابه، ومشى بها حتى أجلسها في مجلسه، وجلس بين يديها، وما ترك لها حاجة إلا قضاها».

وقال يوماً لجارية له: «يا جارية، روِّحيني. فأقبلت تروِّحه، فغلبتها عينها فنامت، فأخذ المِرْوَحة وأقبل يُرَوِّحها، فانتبهت فصاحت! فقال لها عمر: إنما أنت بشر مثلي، أصابك من الحر ما أصابني، وأحببت أن أروحك مثل الذي روحتيني»[1]!

ولما حاول صاحب الشرطة أن يمشي بين يدي عمر بالحربة ـ كما كان شأنه مع الخلفاء السابقين ـ انتهره عمر، وقال له: «ما لي ومالك؟! تَنَحَّ عني، فإنما أنا رجل من المسلمين»!!

حلمه:

التثبت والتروّي، والتمهل والتفكّر، والحلم والأناة، والابتعاد عن الغضب ـ إلا إذا انتهكت محارم الله ـ صفات كريمة، أخذ عمر منها بنصيب وافر، وله فيها القدح المعلى.

ـ لما ولي الخلافة بدابق «خرج ذات ليلة ومعه حرسيّ، فدخل المسجد، فمرَّ في الظلمة برجل نائم، فعثر به، فرفع رأسه إليه فقال: أمجنون أنت ؟! قال: لا! فهمَّ به الحرسيُّ، فقال له عمر: مَهْ، إنما سألني: أمجنون أنت، فقلتُ: لا»[2].

ـ وعن قيس بن عبد الملك قال: «قام عمر بن عبد العزيز إلى

---

(1) المناقب ٢٠٢.

(2) الطبقات ٥/٣٩٧، المناقب ٢٠٨ ـ ٢٠٩.

قائلته، وعرض له رجل بيده طُومار[1]، قال: فظن القوم أنه يريد أمير المؤمنين، فخاف أن يحبس دونه[2]، فرماه بالطومار، فالتفت أمير المؤمنين، فأصابه في وجهه فشجَّه، فنظرت إلى الدماء تسيل على وجهه وهو في الشمس. فقرأ الكتاب، وأمر له بحاجته، وخلّى سبيله»[3]!!

ـ وخرج ابن له ذات يوم ليلعب مع أترابه من الصبيان، فَشَجَّه أحدهم، فصفح عنه عمر، لأن الغلام كان يتيماً، وقد أفزعه الناس الذين خافوا على ابن أمير المؤمنين! روى ذلك ابن الجوزي فقال: «كان لعمر ابن عبد العزيز ابن من فاطمة، فخرج يلعب مع الغلمان، فشجَّه غلام، فاحتملوا ابن عمر والذي شجه، فأدخلوهما على فاطمة، فسمع عمر الجَلَبَة وهو في بيت آخر، فخرج، وجاءت مُريئة فقالت: هو ابني، وهو يتيم. فقال: له عطاء؟ قالت: لا. قال: اكتبوه في الذرية. قالت فاطمة: فعل الله به وفعل، إن لم يشجه مرة أخرى! قال: إنكم أفزعتموه»[4]!

ـ وعن إبراهيم بن أبي عبلة قال: «غضب عمر بن عبد العزيز يوماً على رجل غضباً شديداً فبعث إليه فجرَّده ومدّه في الحبال، ثم عاد بالسياط، حتى إذا قلنا: هو ضاربه، قال: خلوا سبيله، أما إني لولا أني غضبان لسؤتك. وقرأ: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ والْعَافِينَ عَنِ النّاس واللهُ يحبُّ المُحْسِنِينَ﴾»[5].

وكلّمه رجل يوماً حتى أغضبه، فهمَّ به عمر، ثم أمسك نفسه، ثم قال للرجل: «أردتَ أن يستفزَّني الشيطانُ بعزَّة السلطان، فأنال منك اليوم ما تناله مني غداً؟! قمْ عافاكَ الله، لا حاجة لنا في مقاولتك»[6].

---

(١) الطُّومار: الصحيفة. (٢) أي خاف أن يُمنع من الوصول إلى أمير المؤمنين.

(٣) الحلية ٥/٣١١، المناقب ٢٠٧ ـ ٢٠٨. (٤) المناقب ٢٠٧.

(٥) المناقب ٢٠٧، والآية من سورة آل عمران، رقم ١٣٤.

(٦) البداية والنهاية ٩/٢٠١، المناقب ٢٠٩.

ومن أخلاقه وآدابه العامة:

ـ أنه كان يمقت الكذب وينفر منه، فلقد علم أن الكذب من مساوىء الأخلاق، وهو لا يليق بعاقل، فكيف بالنبلاء الأكارم، خاصة ممن ولّاهم الله أمر العباد؟! فنشأ على الصدق، وما اجترح كذبة منذ أصبح يميز الخطأ من الصواب، وفي ذلك يقول: «ما كذبتُ كذبةً مذ شددتُ عليَّ إزاري». ويقول أيضاً: «ما كذبتُ منذ علمت أن الكذب يَشِينُ صاحبَه»[1].

ـ وكان يتجنب الخنا، والفاحش من القول، بل إنه ليتخير ألفاظه حتى فيما فيه مندوحة، ولا لوم عليه فيه. عن العلاء بن هارون قال: «كان عمر بن عبد العزيز يتحفظ في منطقه، لا يتكلم بشيء من الخنا، فخرج به خُرَاج في إبطه، فقالوا: أي شيء عسى أن يقول الآن؟ فقالوا: يا أبا حفص، أين خرج منك هذا الخُرَاج؟ قال: في باطن يدي»[2]!!

ـ ودخل على أناس، فجلس إليهم، ونسي السلام، فذكر أنه لم يسلّم، فقام قائماً ثم سلّم عليهم، ثم جلس[3].

* * *

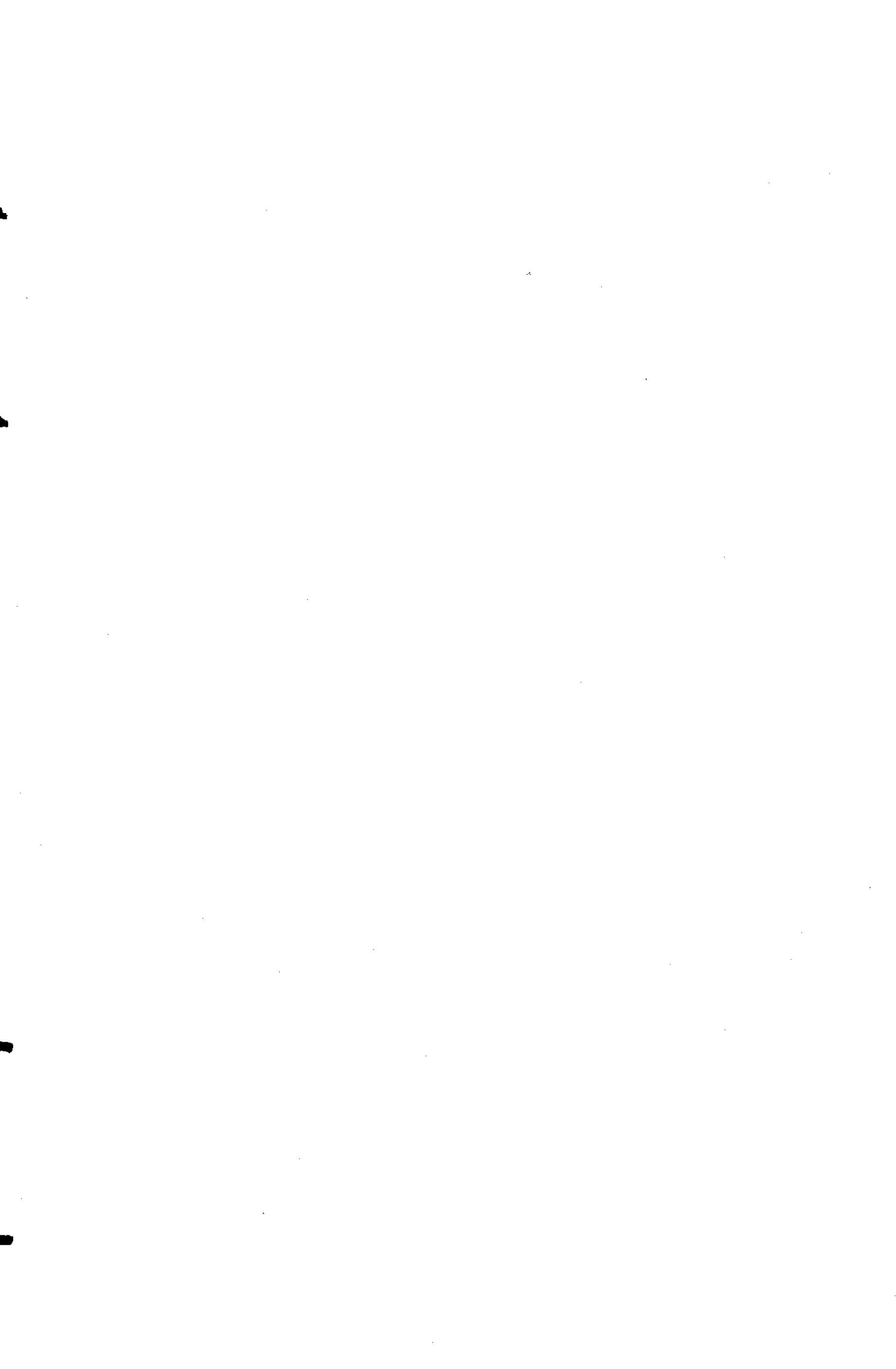
ذلكم هو الأصل الطيب الذي انحدر منه عمر، وتلكم هي النشأة الصالحة التي نشأ عليها، وهذا هو علمه الغزير العميم، وهذه هي أخلاقه الرفيعة، وخلاله الحميدة، وشمائله الفريدة.

فأين كان عمر من الخلفاء الذين عاصرهم، وما هي مواقفه معهم، وأين كانت منزلته التي أنزلوه بها؟

---

(١) الطبقات ٥/٣٩٩، الحلية ٥/٣٤٣، المناقب ٤٦، ٤٧، ٧٧، سير أعلام النبلاء ٥/١٢١، الكامل ٤/١٦٣.

(٢، ٣) المناقب ٧٨.



الباب الثاني

ما قبل الخلافة

وفيه ثلاثة فصول



الفَصلُ الأوَّل
العَهْدُ ٱلَّذِي سَبَقَ خِلَافَةَ عُمَرَ وَمَظَاهِرُهُ

مفهوم الحكم في الإسلام:

لقد أقام رسول الله ﷺ دولة، وأسَّسها على أصول ثابتة راسخة، وكان هو ﷺ بالإضافة إلى صفة النبوة إمامَ المسلمين في عهده، وأميرَهم ورئيسَ دولتهم، يولي الولاة ويعين القضاة، ويعقد الألوية، ويجيِّش الجيوش، ويجمع الزكاة والغنائم ويوزعها في مصارفها، ويقيم الحدود، ويعقد العهود، ويرسل الرسل والوفود إلى حكام الدنيا.

وهذه الأعمال كلها من اختصاص السلطة والحكم، فعلها الرسول ﷺ لأن الإسلام لا يقوم إلا بها وعليها. وعلى كل حاكم مسلم يأتي بعد النبي ﷺ أن ينهض بهذه الأعباء. ولما جاء أبو بكر بعده ﷺ سمِّيَ خليفةَ رسول الله ﷺ، وكل إمام شرعي يسمى كذلك؛ لأنه يخلف محمداً ﷺ من هذه الجهة وفي هذه الصفة فحسب، لا من جهة النبوة وصفة الرسالة، لأنه ﷺ خاتم النبيِّين. واختير لفظ «الإمام» و«الخليفة» و«أمير المؤمنين»، ابتعاداً بالإسلام عن كل مفاهيم الأرض التي عاصرها أو ستأتي من بعده، فكما تميز بأنه من الله، فليتفرد في المصطلحات والمفاهيم كذلك.

فكلمة الخلافة لا تعني إلا قيام رئيس للمسلمين يكون أميرهم وحاكمهم، وقيام نظام سياسي إسلامي، على الطريقة النبوية، لا على النهج الكسروي أو القيصري أو ما شابههما. فهو نظام ديني يستند إلى الشورى، ويسلِّم السلطان إلى فرد ينتخبه أهل الحل والعقد. وغايته حراسة الدين وسياسة الدنيا، وصلاح الأمة فيهما جميعاً.

ونظام الخلافة أو نظام الحكم الإسلامي إنما يعني ـ إذا أُطلق ـ مجموع المبادىء الأساسية التي جاء بها الإسلام في مصدريه الأساسيين: القرآن والسنة، واستنبطه علماء المسلمين في كل عصر، في ميدان الحكم والدولة[١].

ويتحكم في تعيين الحاكم المسلم قاعدتان: إحداهما: تحديد شروط موضوعية وصفات مؤهّلة يجب تحققها فيه. ثانيتهما: اعتبار رأي الأمة أساساً في اختياره، أولاً من قبل أهل الحل والعقد (مجلس الشورى الإسلامي)، وثانياً إعلان قبول حكمه والرضى به من قبل الناس، وذلك بالبيعة العامة[٢].

ويشترط في «أمير المؤمنين» أمور يجب أن تتحقق فيه، هي: أولاً: الإسلام، وهو العقيدة التي تقوم الدولة على أساسها ولحمايتها. ثانياً: العلم الواسع، والثقافة العالية. ثالثاً: الخبرة السياسية والإدارية. رابعاً: الأخلاق الفاضلة، وهو ما يسمّى في الاصطلاح الإسلامي بالعدالة. خامساً: الصفات النفسية والجسمية، فمن الأولى: الشجاعة والنجدة، ومن الثانية: سلامة الحواس والأعضاء. سادساً: الذكورة[٣].

---

(١) انظر: الأحكام السلطانية للماوردي: ص ٥٠، نظام الإسلام للمبارك: ١٦، ٥٥ ـ ٥٩، الدولة الأموية للعش ١٤ ـ ١٥، ٣١.

(٢) نظام الإسلام ٣٠.

(٣) الأحكام السلطانية ٣١ ـ ٣٢، نظام الإسلام ٦١ ـ ٧١. وذكروا شرطاً سابعاً وهو أن =

وطريقة تعيين الإمام أو رئيس الدولة تتم ـ أولاً ـ باختيار جمهور «أهل الحل والعقد» وأصحاب الرأي في المجتمع لمن يرونه أهلاً لمنصب الخلافة، ومبايعتهم له، وترشيحه من قِبَل الخليفة القائم بالحكم لولاية العهد، ولكنها لا تنعقد بهذا العهد بل بعهد المسلمين بعد موت الخليفة الذي عهد لمن بعده. ثم بيعة جمهور المسلمين للخليفة المرشح، ورضاهم به وقبولهم بخلافته، واجتماع جمهرتهم عليه[1].

والبيعة العامة تتحقق فيها مشاركة جمهور الأمة في تعيين الخليفة. والبيعة في جوهرها عقد وميثاق بين طرفين هما: الخليفة أو رئيس الدولة، والجمهور. أما هو فيبايع على الحكم بالكتاب والسنة والنصح للمسلمين، وأما الجمهور فعلى الطاعة في حدود طاعة الله ورسوله[2].

وقاعدة الحكم الإسلامي هي الشورى، فالإسلام أقر «مبدأ الشورى» في الحكم، وألزم به، ومنع الاستبداد والتصرف الفردي. فعلى الحاكم أن يرجع إلى أهل الاختصاص من العلماء، وأهل الرأي والخبرة في التشريع الاجتهادي، والتصرفات ذات الصفة العامة، كالتصرفات السياسية: كإعلان الحرب، أو الهدنة، أو عقد المعاهدات، أو قطع العلاقات. وكالتصرفات المالية: كوضع الميزانية، وتخصيص النفقات لجهات معينة، وغير ذلك. وبذلك يتم تقييد الحاكم بقيدين: الشريعة والشورى، أي بحكم الله، ورأي الأمة[3].

وبهذا يختلف الحكم في الإسلام عن نظام الحكم المطلق، وعن النظام الديمقراطي كذلك، وعن الأنظمة الحديثة القائمة على الحزب

= يكون الحاكم قرشياً، وقد ناقش الأستاذ المبارك هذا الشرط، وبيّن أنه ليس من المبادىء العامة الثابتة، بدليل إجماع علماء المسلمين عبر التاريخ الطويل على إقرار ولاية غير القرشيين.

(١) الأحكام السلطانية ٣٣ ـ ٣٧، نظام الإسلام ٧١ ـ ٧٣.

(٢) نظام الإسلام ٣٠.

(٣) نظام الإسلام ٣٤ ـ ٣٦.

الواحد، حيث يكون الفرد أو الحزب هو المرجع المطلق في التشريع في هذه الأنظمة الثلاثة، وهو السلطة التي يكون لها الخضوع والطاعة المطلقة، وهذا في نظر الإسلام ضرب من الشرك بإحلال أحد هذه الثلاثة محل الإله!

ويجب الحذر الشديد من التورط فيما وقع فيه عدد من المؤلفين والباحثين من اعتبار النظم الديمقراطية، والانتخابات النيابية، والاستفتاءات؛ هي بعينها الشورى الإسلامية! لا شك أن في هذا خطأً وتلفيقاً كبيرين. فمن الخطأ الشديد أن نشبِّه الشورى الإسلامية بنظم أرضية يستغل أصحابها غفلة الجماهير، ويتملَّقونهم، ويزيفون، ويغشون، ويشترون الأصوات، وغير ذلك من المساوىء. إن الأسس المبدئية والعقائدية للنظامين مختلفة، والظروف التاريخية والاجتماعية مختلفة كذلك. وَلْنُبْقِ على «الشورى» اسمها القرآني الذي أمر الله فيه رسوله ﷺ فقال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[1]، ووصف المسلمين بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُم﴾[2].

وللأمة الحق في مراقبة الحاكم وانتقاده ومحاسبته، ويتجلى ذلك في واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة. وإنَّ تَدَخُّلَ أفراد الشعب في عمل الحكام، وعلى رأسهم رئيس الدولة نفسه، وفي سيرتهم وتصرفاتهم ـ كان أمراً مألوفاً لدى جمهور الشعب المسلم، بل كان واقعاً بالفعل، فكانت المراقبة للسلطة، والنقد وحرية إبداء الرأي في مجال الحكم، والمحاسبة للحكام مالياً وسياسياً؛ مبادىء دستورية معترفاً بها، ومنصوصاً عليها في الكتاب والسنة، وعرفاً من الأعراف السياسية في صدر الإسلام.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.
(٢) سورة الشورى: الآية ٣٨. انظر: نظام الإسلام ٣٢، ٧٨.

وبقي التسليم النظري لهذه المبادىء مستمراً لدى المسلمين خاصتهم وعامتهم حتى الآن، ولكن التطبيق العملي أخذ بالضعف ابتداءً بالعصر الأموي، وكاد يهمل فيما بعد من جهة الحكام، بل ويأخذ طابعاً عكسياً من الاضطهاد والتنكيل، والعسف والظلم[1].

إن من حق الأمة، بل من واجبها، أن تحاسب الحاكم، وتراقب تصرفاته، وتلزمه بمبدأ الشورى، وأن تبتعد عن تقديس أو تعظيم حزب أو فئة أو فرد، في صورة زعيم أو ملك أو بطل. ومن الخطورة بمكان أن يشعر الفرد بالهوان في جنب القائد المُلْهَم، أو الزعيم الأوحد، أو الملِك المقدس، أو الطائفة الحاكمة، أو الحزب المستعلي، أو ما يشبه ذلك من أنواع الوثنيات، وما يتخذ لها من شعائر مثيرة كشعائر العبادات[2]!!

إن الحاكم ـ في نظر الإسلام ـ واحد من أفراد الأمة، لا يتميز عنها إلا بأنه أكثر الناسِ مسؤولية أمام الله والناس، والأمة عندما اختارته إنما فعلت ذلك لينفذ شرع الله وعقيدة الأمة، لا ليتسلط عليها!

والحاكم مسؤول حيال تصرفاته الخاصة والعامة:

فللحاكم تصرفات خاصة تتعلق بأموره الخاصة وعلاقاته الشخصية، وهو في هذا المجال مسؤول كسائر الناس، وليس له حصانة خاصة، فيمكن أن يكون مدعياً ومدعى عليه، ويتحمل نتائج أعماله وتصرفاته في الدنيا والآخرة.

وله تصرفات تتعلق بولايته ولها صفة الوظيفة والعموم، وهو مسؤول عنها نوعين من المسؤولية:

فهو مسؤول أمام الله مسؤولية يلقى نتائجها يوم الحساب: فإن نصح للأمة، وعدل فيها، وأدى ما عليه من واجبات، وانتصف للمظلومين،

---

(١) نظام الإسلام ٣٨ ـ ٤٠.

(٢) نظام الإسلام ٤٢ ـ ٤٣.

ودافع عن حوزة المسلمين، وحمى بيضة الدين؛ جازاه الله أحسن الجزاء، ونال ما لا يناله العُبَّاد الصائمون المعتكفون . وإن غش وظلم وأساء؛ ناله من النكال ما لا ينال مثله المجرمون من السارقين والقَتَلة والفاسقين.

ومسؤول كذلك مسؤولية دنيوية أمام الأمة والناس: ذلك أن الناس ائتمنوه على أنفسهم وأموالهم ودينهم وديارهم، واختاروه لإدارة أمورهم، ثم بايعوه على الطاعة، مقابل تعهده بإقامة العدل وتنفيذ الشريعة، ولكل منهم حق النصح، وواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فكما أن الأمة اختارته بواسطة أهل الحل والعقد منها، وتمت مشروعية حكمه بمبايعتها؛ فلها كذلك أن تخلعه إذا اختلت الشروط الأساسية التي أهَّلته للحكم. ولها الخروج عن طاعته إذا أمر بمنكر أو بظلم، ولها أن تحاسبه على ما ينفق من أموال بيت المال، أي الخزينة العامة[١].

ومهمات الحاكم المسلم وواجباته تدور حول «حراسة الدين وسياسة الدنيا»، فهو يقوم بجميع وظائف الدولة، ويستعين بمن يعينهم من وزراء وأمراء وعمال (موظفين وولاة) وقضاة، وغيرهم. وتتلخص وظائفه وواجباته في:

حفظ الأمن الداخلي، والدفاع عن الدولة أرضاً وشعباً، وحماية الدين نفسه، وحماية دعوته في الداخل والخارج، ومنع كل زيغ وانحراف وتشويه، وتنفيذ أحكام الإسلام وشريعته: بإقامة العدل، ومنع الظلم، ومعاقبة المجرمين والمعتدين على حقوق الله أو حقوق الناس، وكفاية المحتاجين، وجباية ما يوجبه أو يسمح به الشرع من الأموال، وحفظها وإنفاقها لتحقيق هذه المقاصد وبلوغ هذه الأهداف، وتولية الأكفاء الأمناء ليقوموا بجميع هذه الأعمال[٢].

---

(١) نظام الإسلام ٣٦ ـ ٣٨.
(٢) الأحكام السلطانية ٢٩، ٥١ ـ ٥٣، نظام الإسلام ٦٠، ٨٦ ـ ٩٥، الدولة الأموية =

ولاية العهد:

ولاية العهد من قِبَل الخليفة القائم بالسلطة إنما هو حق ترشيح فحسب، وليس حقاً بتعيين الإمام رئيس الدولة الذي سيأتي بعده.

قال أبو يعلى الحنبلي: «لأن الإمامة لا تنعقد للمعهود إليه بنفس العهد، وإنما تنعقد بعهد المسلمين». وقال أيضاً: «إن إمامة المعهود إليه تنعقد بعد موته ـ أي الخليفة الذي عهد ـ باختيار أهل الوقت»[1].

فالعبرة ـ إذن ـ في تعيين خليفة المسلمين إنما هو في اختيار أهل الحل والعقد ومبايعتهم له، وليس في ولاية العهد، ولو أنهم خالفوا الرأي في ولي العهد واختاروا غيره لكان لهم ذلك.

فتعيين الخليفة تحدده الأمة ابتداءً بأهل الحل والعقد والرأي، وثانياً ببيعة العامة، وليست ولاية العهد بلازمة للمسلمين إلا برضاهم، لأنها حق يتعلق بهم. والذي فعله أبو بكر الصديق عندما عهد بالخلافة إلى عمر بن الخطاب ليس من جنس ما هو معروف عن ولاية العهد، إذ إن أبا بكر كتب كتاباً جاء فيه: «أما بعد، فإني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، ولم آلُكُمْ خيراً». وأمر أن يجتمع الناس ويقرأ عليهم، فكان ذلك، وأشرف أبو بكر عليهم وقال: «أترضون بمن أستخلف عليكم فإني ما استخلفت عليكم ذا قرابة، وإني قد استخلفت عليكم عمر، فاسمعوا له وأطيعوا». فقال الناس: سمعنا وأطعنا.

فهو لم يولِّ ابناً له ولا أخاً، ثم إنه أعلن على الناس اسمه

= ١٦. وهذه مقدمة وضعناها بين يدي البحث؛ لنرى ما كان عليه الحكم قبل عمر بن عبد العزيز، وكيف أن عمر أعاد الأمر إلى نصابه وسار على نهج الخلفاء الراشدين في الحكم.

(١) الأحكام السلطانية لأبي يعلى، نقلاً عن نظام الإسلام ٧٥ ـ ٧٦. وإلى هذا جنح شيخ الإسلام ابن تيمية.

واستشارهم، فرضوا به في حياة الصدّيق، وما خالفوا ذلك بعد موته.

وكذلك فعل عمر في «الستة أصحاب الشورى»، وعهده إليهم أن يختاروا أحدهم؛ ليس من باب ولاية العهد المألوفة، فقد بايع المسلمون عثمان، واستشير فيه كل الناس، حتى العذارى المخدَّرات في البيوت[1].

●● معاوية وولاية العهد:

بعد أن انتهى الخلاف بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، وآلَ الحكم إلى معاوية في «عام الجماعة»؛ أصبح هو رئيس الدولة الإسلامية الكبيرة، وكانت قد تنامت خلال الأحداث، ومع مرور الأيام، آراء مذهبية، ونزعات سياسية، واتجاهات وجماعات، منها المحقّ، ومنها المبطل. فهناك نزعة أهل الحجاز وعلى رأسهم عبد الله بن الزبير، وهناك الشيعة، والخوارج، والأعراب الذين يحركهم كل ناعق.

وكان معاوية بحسن سياسته وكياسته، وذكائه وفطنته، وحلمه وعبقريته؛ يداوي تلك الجراح بيد حانية، ويهدِّىء من جيشانها. وكان ينظر إلى ذلك الاصطراع نظرة مستقبلية؛ فرأى أنه عندما سيموت ستتفجر تلك الثورات، وتتبارز للفوز بالحكم، إذ كل منها يرى أنه الأصلح والأحق في حكم المسلمين. وإن فتح باب الشورى في انتخاب من سيخلفه؛ سَيُحْدِثُ في الأمة مجزرة لا ترقأ فيها الدماء، إلا بفناء كل ذي أهلية في قريش وغيرها. ومعاوية أحصف من أن يخفى عليه أن المزايا موزعة بين عدد من الأفذاذ آنذاك! فهداه عقله إلى أن يقطع الطريق أمام ثورات وحروب، بتعيين حاكم للمسلمين يخلفه من بعده، وبذلك يقضي على مجرد التفكير بالحكم من قبل أي جماعة أو مذهب معين، فاختار ابنه يزيد لذلك؛

---

(١) انظر: الأحكام السلطانية للماوردي ٣٩ ـ ٤٤، مع الهوامش.

فكانت فكرة ولاية العهد وتأسيس نظام الحكم الوراثي على يد معاوية رضي الله عنه[١].

ولسنا في معرض تصويب رأي معاوية ـ رضي الله عنه ـ أو تخطئته، فهو مجتهد ومأجور على كل حال إن شاء الله تعالى، بيد أن نظرة معاوية للأمر قد تطورت وتغيرت عند من تلاه، واتجهت اتجاهاً غير حميد.

وأيّاً ما كان الأمر فإن «ولاية العهد» ليست طريقة رسول الله ﷺ، ولا خلفائه الراشدين، إنها طريقة في الحكم تمنع الأصلح، وتعطي الأمر لغير اللائق، وتحجبه عن الأكفأ، وكفى بذلك مفسدة.

وبنظرة إنصاف واعتبار بالتاريخ والواقع ـ الماضي والحاضر ـ نجد أن نظام ولاية العهد للورثة قد أدى إلى مفاسد عظيمة، ومساوىء كثيرة، ليس أقلها أن يتعجل بعض الورثة الخلافة، فيقتل الأخ أخاه. ومحاربة من يرفض هذا النهج من الحكم، ويدعو إلى سياسة الخلفاء الراشدين. وكذلك قيام الثورات، وانتشار المظالم التي يمارسها أقارب الحاكم؛ لأنهم من الأسرة الحاكمة! والأهم من ذلك إهمال رأي أهل الحل والعقد، والأمة كلها التي هي صاحبة الحق أولاً وأخيراً في اختيار من يسوسها ويحكّم شرع الله فيها[٢].

من عهد معاوية حتى مروان بن الحكم:

●● كان لمعاوية بن أبي سفيان خبرة طويلة في سياسة الناس ورعايتهم، من خلال إمارته للشام زهاء عشرين سنة، ولما أصبح حاكماً عامّاً للمسلمين، توسعت رقعة دولته، وبقي فيها على سيرته. فهو

---

(١) انظر: الدولة الأموية ١٥٩ ـ ١٦٤، العواصم من القواصم ٢٢٢ ـ ٢٢٣ هوامش، ٢٢٨ ـ ٢٢٩.

(٢) الدولة الأموية ٢٠٧ ـ ٢٠٨، «عمر» للزحيلي ٤٢، ١٣٥.

الصحابي الذي يمتاز بحبه للإسلام والمسلمين، والدفاع عن حوزة الدين، وإيثار مصلحة الإسلام والمسلمين على كل مصلحة، هذا مع بُعْدِ نظره، وحنكته، وحكمته في إدارة البلاد، وسياسة العباد. فأحسنَ سياسة الناس، ونشر بينهم العدل والأمن، ونظم الدواوين فأصبح لها أختام. كما نظم البريد وجعله يسير في قوافل منتظمة، فتأتيه الرسائل من الأمصار بانتظام. وأنشأ المصانع والمرافق العامة في الطرقات، فارتبطت أجزاء دولته ربطاً محكماً. وأَوْلى الفتوحَ اهتماماً كبيراً: ففي الغرب وصلت جيوشه إلى تونس، وفي الشرق حارب الأتراك وانتصر عليهم، وكذلك فعل في جبهة الروم. وأسس أسطولاً بحرياً ضخماً دقّ أبواب القسطنطينية[1].

●● وولي معاوية بالعهد لابنه يزيد ليكون حاكماً من بعده، وكان يزيد بن معاوية هذا على رأس الحملة التي توجهت إلى فتح القسطنطينية.

ولما مات معاوية كان يزيد غائباً عن الشام، فلما وصل دمشق جددت له البيعة، ثم جمع الناس في الجامع، وخطب فيهم خطبة تدل على تقواه، فقال ـ بعد حمد الله والثناء عليه ـ :

«أيها الناس، إن معاوية كان عبداً من عَبيد الله، أنعم عليه، ثم قبضه إليه، وهو خير مَنْ بعده ودون مَنْ قبله! ولا أزكيه على الله عز وجل، فإنه أعلم به، إن عفا عنه فبرحمته، وإن عاقبه فبذنبه. وقد وليت الأمر من بعده، ولست آسى على طلب، ولا أعتذر من تفريط، وإذا أراد الله شيئاً كان».

وقد نسبت الرافضة ليزيد أنه كان ماجناً خماراً، وقد ردّ ذلك الإمام المحقق ابن العربي، ونقل عن إمام مصر الليث بن سعد قوله: «توفي أمير

---

(١) الدولة الأموية ١٥٦ ـ ١٥٨، «المرتضى» للندوي ١٨٨ ـ ١٩٠.

المؤمنين يزيد في تاريخ كذا»، فسمّاه الليث أميرَ المؤمنين بعد ذهاب ملكهم وانقراض دولتهم، ولولا كونه عنده كذلك ما قال إلا «توفي يزيد».

بل إن محمد بن علي بن أبي طالب ـ الشهير بابن الحنفية ـ شهد له بما هو أعظم من ذلك، فعندما جاء عبد الله بن مطيع ـ داعية ابن الزبير ـ مشى في المدينة هو وأصحابه إلى ابن الحنفية، وأرادوه على خلع يزيد، فأبى عليهم، فقال ابن مطيع: إن يزيد يشرب الخمر، ويترك الصلاة، ويتعدى حكم الكتاب. فقال لهم: ما رأيت ما تذكرون! وقد حضرته وأقمت عنده، فرأيته مواظباً على الصلاة، متحرياً للخير، يسأل عن الفقه، ملازماً للسنّة!! قالوا: فإن ذلك كان منه تصنُّعاً لك. فقال: وما الذي خاف مني أو رجا حتى يظهر إليَّ الخشوع؟! أَفَأَطْلَعَكُمْ على ما تذكرون من شرب الخمر؟ فلئن كان أطلعكم على ذلك؛ إنكم لشركاؤه، وإن لم يكن أطلعكم، فما يحل لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا. قال: إنه عندنا لحقّ وإن لم نكن رأيناه. فقال لهم: أبى الله ذلك على أهل الشهادة؛ فقال: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[١]. ولست من أمركم في شيء.

ولسنا ندعي أن يزيد كان مثل أبيه، أو قريباً من الخلفاء الراشدين، بل له حسنات وسيئات يغفرها الله له إن شاء، لكننا نرفض أقاويل وسخافات الإخباريين والأدباء، ودسّهم على يزيد، باتهامه بشرب الخمور وعشق النهود وأنه مات بين العاشقات[٢]. وهذه طعون يتوصل بها أعداء الإسلام إلى الطعن في الخلفاء والصحابة حملة الإسلام، ورافعي راية الجهاد والحق، وهم يريدون من وراء ذلك الطعن على الإسلام نفسه، فما قيمة دين لم ينشىء رجالاً على تراخي العصور، أو أنشأ رجالاً سرعان ما

(١) سورة الزخرف: الآية ٨٦.
(٢) كما افترى ذلك عليه الأصفهاني في كتابه «الأغاني»، فعليه من الله ما يستحق، بافترائه وكذبه على رجال الإسلام. وليس المسعودي بأقل دساً من الأصفهاني.

انقلبوا عليه؟!! وعلى المسلم الاقتداء بأهل العلم والأئمة الأخيار وفقهاء الأمصار، ورفض تلك الخرافات والحماقات[1].

بيد أنه حدثت في عهد يزيد حوادث دامية مؤلمة، من أشهرها مقتل الحسين بن علي رضي الله عنهما ووقعة الحرة في المدينة المنورة، حيث خلع أهلها الخليفة يزيد، وحصروا بني مروان، فأرسل يزيد لهم جيشاً، فكانت معركة ضارية، قُتل فيها من القرشيين والأنصار ثلاثمائة وستة رجال.

والمسؤول عن هذه الأمور ثلاث جهات: الأولى طبيعة نظام الحكم الذي ساد في العصر الأموي، وهو إطلاق يد الولاة وأمراء الأمصار وقواد الجيش، وحريتهم في التصرف. والجهة الثانية: هي الخليفة يزيد، الذي كان رجلَ حرب أكثر منه رجل سياسة، فلم تكن عنده صفات أبيه في استيعات الخصوم، ومداراة المخالفين في الرأي ومجاملتهم، بل يسرع في اللجوء للسيف. والجهة الثالثة: هم الخصوم الذين خرجوا على الحاكم، ولم يتروَّوْا في العواقب الوخيمة لذلك، سواء كانوا أهل العراق أم أهل المدينة[2].

●● وبعد موت يزيد استُخلف ابنه معاوية بن يزيد، الشهير بمعاوية الثاني، وكان فتىً في العشرين من عمره، وكان عازفاً عن السياسة ولا يحب الخصام، فلم يَطُلْ به الحكم، بل استمر عشرين يوماً، ثم خلع نفسه أمام الناس، ولم يعيِّن خلفاً له، وبقي منصب الخلافة شاغراً.

●● وبايعت العراق ومصر ابنَ الزبير، وكانت الحجاز قد بايعته كذلك، ولم يبقَ إلا الشام، التي استطاع مروان بن الحكم أن يأخذ البيعة

---

(١) انظر بالتفصيل: العواصم من القواصم ٢٢١ ـ ٢٤٧، ٢٦١، البداية والنهاية ٨/١٤٣، ٢٣٣.

(٢) الدولة الأموية ١٦٥ ـ ١٨٣.

منها لنفسه، وانتصر على خصومه فيها، وتوجه إلى مصر ثم فلسطين، فبايعه الناس كذلك. وأرسل عبيد الله بن زياد إلى العراق ليقلِّص نفوذ ابن الزبير فيها، فكان ذلك. ولبث مروان في الحكم عشرة شهور[1].

عهد عبد الملك بن مروان وأبنائه:

●● وقبل أن يموت مروان عهد إلى ابنه عبد الملك، وقد بويع له بالخلافة في حياة أبيه، ثم جددت له البيعة بدمشق ومصر وأعمالهما، واستمرت خلافته إحدى وعشرين سنة.

وكان عبد الملك عالماً فقيهاً من أقران ابن المسيب، ومتعبداً ناسكاً متهجداً كثير الصلاة، ثم تغير بعد الحكم! وهو الذي وطَّد الحكم الأموي، وأقامه على أسس تفصيلية منظمة، وضبط الأمور بشخصيته الفذة. وكان له إقدام على سفك الدماء، وتفرَّد بالحكم انفراداً فيه الاستبداد بالرأي والتسلط، مظهِراً سيادة الدولة والخليفة في ذلك. واعتمد في تسيير أمور البلاد على بنِي أمية من إخوانه وأقاربه، فأمَّرهم على الأمصار، لكنه لم يطلق أيديهم فيها، بل احتبسه في يده، واعتمد في ذلك على رجال أشداء مثل الحجاج[2].

●● وجاء بعد عبد الملك ابنه الوليد، الذي كان من طراز أبيه في الحكم، فيه عَسْفٌ وجبروت. ولما رجع من دفن أبيه قام فخطب الناس، فكان مما قال:

«إنا لله وإنا إليه راجعون، والله المستعان على مصيبتنا في أمير المؤمنين، والحمد لله على ما أنعم علينا من الخلافة، قوموا فبايعوا».

---

(١) الدولة الأموية ١٨٤ ـ ١٩١، البداية والنهاية ٨/٢٣٧ ـ ٢٦٠.
(٢) البداية والنهاية ٨/٢٦٠ ـ ٣٤٧، ٩/٢ ـ ٦٩، سير أعلام النبلاء ٤/٢٤٦ ـ ٢٤٩، الدولة الأموية ٢١٠ ـ ٢٤٠.

قال ابن كثير: «كان صيِّناً في نفسه، حازماً في رأيه، يقال إنه لا تُعرف له صبوة».

وكان يختم القرآن في رمضان سبع عشرة مرة!! وكانت خلافته تسع سنين وثمانية أشهر.

قام الوليد بإصلاحات واسعة في الدولة، ووجه عنايته للمساجد، فأصدر أوامره بتوسعة المسجد النبوي، وعهد بذلك إلى عمر بن عبد العزيز، وكتب إلى الولاة بأن يوسِّعوا المساجد في الأمصار، وبنى الجامع الشهير بـ «الجامع الأموي».

وعمد إلى تحسين حال العاجزين، حتى وضع مع كل أعمى قائداً يقوده، ولكل مُقْعَد خادماً يخدمه، وأطلق الأموال للفقراء، وحسن أحوال الناس، وأصلح الطرقات في كل البلدان خاصة دمشق، ووضع الآبار للمياه، ومنع التسول، ونشَّط الاقتصاد، حتى كان عصره عصر تقدم الحضارة والمدنية والعمران والاقتصاد والزراعة والإدارة.

وأهم أعماله سياسته في الفتوح، حيث اتسعت رقعتها، وبلغت أقصى ما بلغت إليه الفتوح في عهد المسلمين، فاتجهت جيوشهم نحو السند، وما وراء النهر، وفي شمال الشام اتجهت نحو القفقاس وأرمينية وبلاد الروم، ونحو بلاد المغرب حتى الأندلس؛ فكانت الجيوش لا تقف إلا حيث تعوقها صحراء أو بحار أو مانع طبيعي[1].

●● وبعد موت الوليد بويع لأخيه سليمان بن عبد الملك، وكان ولي العهد من بعد أخيه، عن وصية أبيهما عبد الملك.

وأول ما تكلم به حين ولي الخلافة أنه قال: «الحمد لله الذي ما شاء

---

(١) الدولة الأموية ٢٤١ ـ ٢٥١، الطبري ٧/٣٢٢ ـ ٤٠٥، البداية والنهاية ٩/٧٠ ـ ١٦٦، سير أعلام النبلاء ٤/٣٤٧ ـ ٣٤٨. «ما وراء النهر»: البلاد التي تقع في شرقي نهر «جيحون» بخراسان.

صنع، وما شاء رفع، وما شاء وضع، ومَنْ شاء أعطى، ومن شاء منع. إن الدنيا دار غرور، ومنزل باطل، وزينة تقلّب، تُضْحِكُ باكياً، وتُبكي ضاحكاً، وتُخيف آمناً، وتُؤمن خائفاً، تفقِر مثريها، وتُثْري فقيرها، ميّالة لاعبة بأهلها. يا عباد الله اتخذوا كتاب الله إماماً، وارضوا به حكماً، واجعلوه لكم قائداً، فإنه ناسخ لما قبله، ولن ينسخه كتاب بعده. اعلموا - عباد الله - أن هذا القرآن يجلو كيد الشيطان وضغائنه كما يجلو ضوءُ الصبح إذا تنفس إدبارَ الليل إذا عسعس». وكان يقول: «فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه».

وكان آخر كلامه قوله: «أسألك منقلباً كريماً». ثم قضى. وكانت خلافته سنتين وثمانية أشهر، ومات عن خمس وأربعين سنة. وكان رحمه الله محباً للحياة حباً جماً، مقبلاً عليها، معجباً بنفسه. بيد أنه كان ديِّناً فصيحاً مفوَّهاً، عادلاً، محباً للغزو. وكان نقش خاتمه: «أومن بالله مخلصاً».

وبالجملة فقد كان عصره مقدمة لعصر عمر بن عبد العزيز في التدين وتطبيق الشرع. وكان يكره الحجاج وسياسته في الرعية، فلما تولى الخلافة - وكان الحجاج قد مات قبل ذلك - عزل عمال الحجاج ومن كان على مثل سيرته.

وكانت لسليمانَ بطانة صالحة صادقة، متمثلة في وزيريه الصالحَيْن: عمر بن عبد العزيز، ورجاء بن حَيْوَة. وكان لعمر الدور الكبير في تسيير سياسة الدولة؛ يبين ذلك قول سليمان له: «يا أبا حفص، إنا قد ولينا ما ترى، ولم يكن لنا بتدبيره علم؛ فما رأيت من مصلحة العامة فَمُرْ به».

وهكذا أطلق سليمان لعمر اليد، فقام بإصلاحات كبيرة: أطلق الأسرى في العراق، وأخلى السجون، وأعاد الصلاة إلى أوقاتها - وكانت تؤخر بعض التأخير عن مواعيدها - وأَحْسَنَ معاملة عامة الناس، ورفع الجور، وأقام العدل.

وكان سليمان يشتط في سياسته أحياناً، ويتخذ تدابير لا يقرّها عمر، لكن عمر كان راجح القوة، واضح المنهج والسلوك في خلافة سليمان.

قال ابن سيرين: «يرحم الله سليمان، افتتح خلافته بإحياء الصلاة، واختتمها باستخلافه عمر».

وتابع سياسة أخيه ـ الوليد ـ في الفتوح، وبعث بجيوشه لذلك، ومنها جيش طرق أبواب القسطنطينية من جديد، لكنها لم تُفتح لهم[١].

رأي مجمل[٢]:

●● اتخذ الحكم في العصر الأموي شكل الحكم الوراثي، منعاً للفتن والثورات وقتل الخلفاء، وهيمنة الأعراب المحاربين، وأصحاب النزعات الجامحة. ولعلهم في ذلك استفادوا من مقتل الخليفتين الراشدين عثمان وعلي. وكان الخليفة المستقبلي يعرف قبل وفاة الخليفة الحالي، منعاً للخلاف والشقاق بين المسلمين، وإبقاء على الدولة وسلطتها وهيمنتها. والمال كانت تتصرف فيه الدولة لمصحلة الدولة، وهو ـ أي المال ـ إسلامي النزعة من حيث الجمع والتوزيع، لكنه ليس خاضعاً لحق معين مبيّن، فحق المجاهدين يأخذونه، والباقي يتصرف فيه الخليفة فيما يراه من مصلحة الدولة. وكانت للخليفة عصبيّة تُقَدَّم على غيرها، وهي من أهل الشام ـ خاصة بني أمية ـ الذين قامت عليهم الدولة؛ وهم مقدَّمون على مَنْ سواهم، ويأتي بعدهم عرب الأقطار الأخرى، أما الأعاجم والموالي فليس لهم من الأمر شيء!

---

(١) البداية والنهاية ١٦٦/٩ ـ ١٨٤، سير أعلام النبلاء ١١١/٥ ـ ١١٣، الشذرات ١١٢/١ ـ ١١٨، الدولة الأموية ٢٥٢ ـ ٢٥٧.

(٢) ويستثنى مما سنذكره عمر بن عبد العزيز وعهده.

●● بيد أن الدين الإسلامي كان حجر الزاوية في حكم بني أمية، وكان ولاؤهم للإسلام، وهو شعارهم المرفوع، ومنطلقهم المعلن، وملاذهم عند المفاخرة والمنافرة. وما عرف عن شخص منهم أنه تزندق أو كفر، بل كانوا يلاحقون الكفر والزندقة والبدع. فالحاكم يقيم شعائر الدين، ويحمي بيضة الإسلام، ويسير مع الإسلام، ويحاسب نفسه، بَيْدَ أنه ليس من حق الشعب ـ حسب رأيهم!! ـ أن يحاسب الخليفة حتى لا تتكرر فتنة عثمان ثانية.

●● كان الأمويون معتزين بدينهم كل الاعتزاز، وحرصوا على تطبيق الإسلام، وإقامة معالمه، وحراسة حدوده، ورفع رايته في كل مكان، فنشروه إلى أبعد الأصقاع، وقاموا بالجهاد خير قيام، وكان في مقدمة الجيوش فتيانٌ بني أمية. وهي أعمال مجيدة لها عند الله الثواب الكبير، ونرجو أن يكفِّر بها الخطايا والزلات.

●● كما كانت لهم أعمال عظيمة في الحضارة والمدنية، وبناء الدولة ومؤسساتها: فالتأليف والأدب والترجمة، والمدارس والكتاتيب، وتشجيع العلماء على ذلك. وفي ميدان التنظيم: أحدثوا البريد بمراحله وفنادقه وخيوله السريعة، ووضعوا نظام الأوقاف والأحباس، ودواوين الملك ومراسيمه، ونظام الحسبة، وأنظمة القضاء وسجلاته. وفي التنظيم الحربي بلغوا الأوج، وأوجدوا نظام الكراديس، واستولى أسطولهم على البحر المتوسط، فكان فيه سيداً. وعنوا بالاقتصاد، وخاصة الزراعة، ففتحوا الأقنية، وبنوا السدود، وأصلحوا الأرض البور. وفي مجال البناء والفن المعماري كانوا مبدعين، والجامع الأموي خير مثال على ذلك، فهو من معجزات الفن التي لا تبارى.

●● وكان لهذه الدولة أعداء وخصوم، كأهلِ الحجاز والموالي والشيعة والخوارج والزنادقة، فكانت ثورتهم بين مدٍّ وجزر، تخبو تارة

وتلتهب أخرى، يستعملون معها الشدة كل مرة، والدهاء مع الشدة أكثر الأحايين[1].

مظاهر التركة التي تحملها عمر ممن قبله:

يمكن أن نحدد المعالم الرئيسية والنقاط البارزة في التركة القاتلة التي خلَّفتها العصور المتلاحقة، من بعد عهد معاوية وحتى نهاية عصر سليمان، بما يلي:

- الانحراف عن الطريق الإسلامي الصحيح في أصول الحكم، حيث أصبح وراثياً، واختفت الشورى - غالباً - وتفرَّد الخليفة بأمور الدولة. والاستبداد السياسي ظلم، وكبت الرأي الآخر جريمة، واستغناء الحاكم بنفسه وحاشيته فتنة كبرى وفساد عريض. والعوج الفقهي الذي جاء به أولئك الخلفاء الملوك قد ترك آثاراً غير حميدة ولا صالحة.

- القسوة والظلم الناجمان عن بسط سلطان الدولة وإخماد الثورات والاضطرابات، وحرمان الموالي من حقوقهم، وإسكات العلماء الناصحين. وأعمال الحجاج خير شاهد على ذلك.

- امتلاء السجون، وتعالي صيحات المعذبين المظلومين، وكثرة الهاربين من بعض الأمصار، إلى حيث يأمنون على أنفسهم، كأولئك الذين هربوا من سيف الحجاج، إلى الحجاز حيث كان أميرها عمر بن عبد العزيز.

- الفساد الأخلاقي: الذي يتمثل في الترف الفظيع لبعض فئات الأمة وحرمان فئات أخرى، وكثرة الجواري والتلهي بالملذات، وشيوع مجالس اللهو والغناء في بلاط بعض الحكام، ودور الشعراء في قلب الحقائق، والتزلف إلى الحكام، وقلَّ من الشعراء من يضع الأمور في نصابها، - وقد

---

(١) انظر: الدولة الأموية ٢٤١ - ٢٤٣، ٣٣٨ - ٣٥٤.

نعى القرآن ذلك عليهم ـ وكانوا مكرمين في تلك العهود، ومقرَّبين أيضاً.

ـ الانحراف في سياسة المال: حيث كان يُغدق على المقربين، ومن يقوم بترسيخ أركان الدولة، مما أدى إلى تكدسه، في يد فئة وحرمان الكثيرين من أصحاب الحقوق، وهذا ما عرف في عهد عمر «بالمظالم» التي أخذها من بني أمية ـ خاصة ـ ومن غيرهم، وردَّها إلى مكانها الصحيح.

ـ الثورات والاضطرابات والفتن التي يلتهب سعيرها بين حين وآخر، فتخمد بقوة وعنف.

●● بَيْدَ أن الأمر لم يصل إلى الحد الذي يصوّره أحد «الكتّاب» من أن المظلومين والمقهورين أخذوا يتطلعون إلى السماء في انتظار من يضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم؛ كما كان «الحنفاء» في الجاهلية يقلِّبون وجوههم في السماء، باحثين عن النبي المنتظر، يخرجهم من الظلمات إلى النور[1]!!

هكذا ـ أيها الكاتب ـ الناس يعيشون في ظلمات الجاهلية، وتقديس الأوثان، ومساوىء الأخلاق كوأد البنات والثأر والزنى والفواحش؟!

فأين ـ إذن ـ عهد معاوية رضي الله عنه الذي دام عشرين سنة، والذي قال فيه سعد بن أبي وقاص: «ما رأيت أحداً بعد عثمان أقضى بحق من صاحب هذا الباب» يعني معاوية. وقال فيه شيخ الإسلام ابن تيمية: «كانت سيرة معاوية مع رعيته من خيار سير الولاة، وقد كانت رعيته يحبونه، وقد ثبت في صحيح مسلم قول النبي ﷺ: «خيار أئمتكم الذين

---

(١) كما ادَّعى ذلك صاحب «خلفاء الرسول» ص ٦٧١. وانظر كتابه هذا ص ٦٧٠ ـ ٦٨١، مثلاً، ففيه من القبائح الشيء الفظيع! وكذلك «عمر بن عبد العزيز» للشرقاوي: مثلاً: ص ٧٧، ١٨٥، حيث اتهم الأمويين بأنهم بدَّلوا الشرائع وسنن النبي ﷺ!!

تحبونهم ويحبونكم، ويصلون عليكم وتصلّون عليهم»!! وقال الأعمش ـ وكان يسمى «المصحف» لصدقه ـ للذين ذكروا عنده عمر بن عبد العزيز وعدله: «كيف لو أدركتم معاوية»؟! قالوا: في حلمه؟ قال: «لا والله بل في عدله»[1]!!

ثم أين عصرالوليد، وعصر سليمان، وقد قدّمنا خبرهما؟.

وإن الطعن بالخلفاء والأئمة والحكام، واتهامهم بالزنى أو شرب الخمر، أو العبث واللهو والغناء والعيش بين الجواري والعاشقات، وغير ذلك مما تجده في أقوال «المغنين» والبرّاد من المؤرخين والمغرضين من الإخباريين[2]، والتصديق به، ونشره، وعرضه على الناس بأسلوب أدبي، أو بعاطفة جياشة كعاطفة الثكلى التي فقدت وحيدها؛ كل ذلك مما يجدر بالمسلم ـ كاتباً كان أم قارئاً ـ أن يمجّه ويرفضه ويأباه، ولا يقبل إلا ما استنار عليه الدليل، ووضح فيه الحق، وبانت فيه الحجة. وإن الطعن عليهم يوقع صاحبه في هوة الافتراء بغير الحق، والرجم بالظن الكاذب، ثم هو ـ بعد هذا وذاك ـ لا يخدم إلا أعداء الإسلام والحاقدين على هذه الأمة!

●● وجملة القول أن بني أمية قد نشروا الإسلام، ووضعوا أصول الدولة الإسلامية، وأنظمة الاقتصاد، وعرّبوا الدولة وأدوات الدولة، ومبادىء الفن العربي، والمدنية العربية الإسلامية. ولئن كانت لهم أخطاء وذنوب وقبائح، فإنما مردّ معظمها إلى رغبتهم في استمرار دولتهم، لا لاسترسالهم في الشر، الذي كانوا يودّون تجنبه ما أمكنهم، والله يغفر لهم ذلك إن شاء سبحانه.

يقول الحافظ المفسر المؤرخ ابن كثير: «فكانت سوق الجهاد قائمة

---

(١) العواصم من القواصم ٢١٠ ـ ٢١٧. (٢) العواصم من القواصم ٢٦٤ ـ ٢٦٥.

في بني أمية، ليس لهم شغل إلا ذلك، قد علت كلمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وبرِّها وبحرها، وقد أذلوا الكفر وأهله، وامتلأت قلوب المشركين من المسلمين رعباً، لا يتوجه المسلمون إلى قطر من الأقطار إلا أخذوه. وكان في عسكرهم وجيوشهم في الغزو الصالحون والأولياء والعلماء من كبار التابعين، في كل جيش منهم شرذمة عظيمة، ينصر الله بهم دينه...»[1].

رحم الله بني أمية وخلفاءهم، وغفر لمن أساء منهم، فكم من يد بيضاء للإسلام أسدوها، وكم من صُقْعٍ رفرفت رايات جهادهم في سمائه، وكم من رابية غرسوا فيها لواء التوحيد، حتى نشروا الإسلام في الخافقين!

* * *

تلك هي حال الخلفاء والولاة والدولة والأمة، وهذه هي المساوىء والأخطاء والمظالم؛ فأين كان عمر من هذه الأحداث؟ وما هو دوره مع مَنْ عاصرهم من الخلفاء؟ وما هي مواقفه التي تمليها عليه طبيعته ونشأته التقية النقية، العالمة المستبصرة؟ لنتابع سيرة عمر مع الخلفاء، ولننظر مكانته عندهم، ومواقفه مما يجري في الدولة الإسلامية الكبيرة.

---

(١) البداية والنهاية ٩/٨٧ ـ ٨٨.

الفَصْل الثاني
مَعَ الخُلَفَاءِ الّذِيْنَ سَبَقُوهُ

أولاً ـ مع عبد الملك بن مروان:

امتدت خلافة عبد الملك من سنة (٦٥ هـ) حتى سنة (٨٦ هـ)، وطّد خلالها أركان الدولة، ومهد لابنه الوليد حركة الفتوحات الواسعة. وقد أحب عبد الملك ابن أخيه عمر، وقرَّبه، بل وضمَّه إليه وفضّله على بعض ولده، وزوجه ابنته فاطمة رحمهم الله.

لكن تلك الرعاية والعناية، وذلك العطف من عبد الملك، لم تمنع عمر من أن يقف مواقفه الصلبة فيقول كلمته التي يمليها عليه تدينه وورعه. وكان من أوائل ذلك أنه كتب إلى عبد الملك كتاباً، وبدأ فيه باسمه هو، وفيه:

«أما بعد، فإنك راع، وكل راع مسؤول عن رعيته. حدثنيه أنس بن مالك أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: كل راع مسؤول عن رعيته: ﴿اللهُ لا إِلَهَ إلاّ هُوَ لَيَجْمَعَنّكُمْ إِلى يَوْمِ القِيامةِ لَا رَيْبَ فيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَديثاً﴾. فغضب عبد الملك حين بدأ باسمه، فقيل: إنه كان يفعل ذلك من قبلك، فسكن غضب عبد الملك»[1].

---

(١) المناقب ٤٦، والآية من سورة النساء رقم ٨٧.

ـ وكان عمر ينظر في أحوال الرعية، وسياسة الحكم، ويتلقى بقلبه الرحيم وحسه المرهف أنين المعذبين، وصرخات المسجونين والمظلومين، فيبث شكواه إلى عمه عبد الملك دونما وجل ـ وهو الذي لا يجترىء أحد أن يعترض عليه ـ فكان يتلقاها منه برحابة صدر، فقد كان بعمر معجباً، ولحديثه محباً. قال عمر لعمه مرة: «إن الإمامة قامت على الشورى والعدل والإحسان والرحمة».

ـ وأكثر مَنْ كان عمر ينتقده، ويغري عمه بعزله، وكفكفة جماح سيفه؛ هو الحجاج بن يوسف الثقفي، الذي أزهق أرواحاً، وسفك دماء، وبطش بالعلماء وعباد الله، وأسرف في إغداق الأموال على أتباعه ومعاونيه! ولما ألحّ عليه بعزل الحجاج، كتب عبد الملك إلى الحجاج كتاباً جاء فيه: «أما بعد، فقد بلغ أميرَ المؤمنينَّ سرفُك في الدماء، وتبذيرك في الأموال، ولا يحتمل أمير المؤمنين هاتين الخصلتين لأحد من الناس، وقد حكم عليك أمير المؤمنين في الخطأ بالدية، وفي العمد بالقَودَ، وفي الأموال ردّها إلى مواضعها، ثم العمل فيها برأيه، فإنما أمير المؤمنين أمين الله، وسيان عنده: منع حق وإعطاء باطل. فإن كنتَ أردتَ الناس له فما أغناه عنك، وإن كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم، وسيأتيك من أمير المؤمنين أمران: لين وشدة، فلا يؤنسنَّكَ إلا الطاعة، ولا يوحشنَّك إلا المعصية، وَظُنَّ بأمير المؤمنين كل شيء إلا احتمالك على الخطأ.

فإنْ تَرَ منّي غفلةً قرشيةً فيا ربَّما قد غصّ بالماء شاربُهْ
وإنْ تَرَ منّي وثبةً أمويةً فهذا وهذا كلّ ذا أنا صاحبُهْ

فردّ الحجاج عليه بكتاب يترضاه فيه، وأن كل ما يفعله لتوطيد دولتهم، فلما قرأ عبد الملك الكتاب قال: «خاف صولتي، ولن يعود لشيء أكرهه».

وبقي الحجاج سيفاً لعبد الملك، وأوصى به بنيه من بعده.

بيد أن منزلة عمر عند أمير المؤمنين عبد الملك لم تزدد إلا رسوخاً مع الأيام، لما رأى فيه من حصافة عقله، وصدق مشورته، وسداد رأيه، وورعه وتقواه. فلما مرض جمع أبناءه وأوصاهم، فكان مما في وصيته: «انظروا ابن عمكم عمر بن عبد العزيز، فاصدروا عن رأيه، ولا تخلوا عن مشورته، اتخذوه صاحباً لا تجْفوه، ووزيراً لا تعصوه، فإنه ما علمتم فضله ودينه وذكاء عقله؛ فاستعينوا به على كل مهم، وشاوروه في كل حادث».

ولقد أحسن في ذلك رحمه الله وغفر له. ولما مات بويع ولي عهده ابنه الوليد بن عبد الملك.

ثانياً ـ مع الوليد بن عبد الملك[1].

ـ ما إن استقر الوليد على سرير المُلك، وخطب خطبة الخلافة، حتى جمع وجوه الناس، وكان فيهم أخوه سليمان وابن عمه عمر بن عبد العزيز. فقال سليمان: «يا أمير المؤمنين، اعزل الحجاج، فالذي أفسد أكثر مما أصلح». فأجابه الوليد: «إن أبانا قد أوصانا به خيراً». فتصدى عمر لهذا الجواب، فقال: «عزل الحجاج والانتقام منه من طاعة الله، وتركه من معصية الله». فسكت الوليد هنيهة ثم قال: « سننظر في هذا الأمر، وسترون إن شاء الله».

ـ وكان من حسنات الوليد أنه لما كثرت شكاوى أهل المدينة من ظلم واليهم؛ أمَّر عليهم عمر بن عبد العزيز، الذي ساس أهلها بالعدل والرحمة من سنة (٨٦ هـ) حتى (سنة ٩٣ هـ)[2]. وكان لما وليها في الخامسة والعشرين من عمره، وقد عرفه أهلها بالعلم والصلاح والتقوى؛

---

(١) الطبقات ٥/٣٣١، الحلية ٥/٣٠٩، المناقب ٤٧، ٥٢، سير أعلام النبلاء ٥/١١٧، تاريخ الإسلام ١٥٦، ١٨٩، شذرات الذهب ١/١١١، «عمر» للزحيلي ١٢٧ ـ ١٢٩، وللشرقاوي ٢٧، ٢٨، ٧٤ ـ ٨١.

(٢) سيأتي ذلك مفصلاً في الفصل التالي.

فتهللت أساريرهم، وفرحوا لذلك، فكان لهم ما طمحوا إليه، بل إن عمر جعل الحجاز حرماً آمناً للفارِّين من عسف الحجاج وغشمه.

ثم عُزل عنها عمر، فقدم الشام، ولم يغير ذلك من سيرته ومنهجه في مناصحة الخليفة، ورفع الظلم عن الناس. فقد بقي يرفع صوته، ويسدي نصائحه، ويتناقل الناس عباراته اللافحة متكلماً عن الولاة الظالمين دونما خشية. ومن تلك العبارات قوله:

«الوليد بالشام، والحجاج بالعراق، ومحمد بن يوسف ـ أخو الحجاج ـ باليمن، وعثمان بن حيان بالحجاز، وقرَّة بن شريك بمصر، ويزيد بن أبي مسلم بالمغرب؛ امتلأت الأرض والله جَوْراً»!!

ـ وكان عبد الملك ولي بالعهد لابنه الوليد بن عبد الملك، ومن بعده سليمان بن عبد الملك، بيد أن الوليد عزم على أن يعزل أخاه سليمان من العهد، وأن يجعل وليَّ عهده ابنه عبد العزيز بن الوليد، فوافقه كثير من الأشراف طَوْعاً وكَرْهاً، وصمم عمر بن عبد العزيز وامتنع، وقال: «يا أمير المؤمنين، إنا بايعنا لكما في عقدة واحدة، فكيف نخلعه ونتركك»؟! فأخذه الوليد، وحبسه، وطيَّن عليه، ثم فُتح عنه بعد ثلاث، فأدركوه وقد مالتْ عُنُقُهُ، ولكنه لم يتزحزح عن قوله الحق!

ـ والوليد بقرارة نفسه يجلّ عمر ويبجله ويحترمه؛ لأنه صاحب مبدأ، قوّال حق، لا يخاف في الله أحداً، يتحمل في سبيل مواقفه الصحيحة الجريئة كل النتائج، يتخذ الصراحة أسلوباً، والجهر بالحق مبدأً ومنهاجاً.

دخل على الوليد يوماً فقال له: يا أمير المؤمنين، إن عندي لك نصيحة، فإذا خلا لك عقلك، واجتمع لك فهمك، فَسَلْنِي عنها!

قال الوليد: ما يمنعك منها الآن؟

قال: أنت أعلم إذا اجتمع لك ما أقول، فإنك أحق أن تفهم.

وبعد أيام دخل عمر في جماعة من أهل الشام على الوليد، **فقال** الوليد: نصيحتك يا أبا حفص.

فقال عمر: «إنه ليس بعد الشرك إثم أعظم عند الله من الدم، وإن عمالك يقتلون، ويكتبون لك ذنب المقتول، وأنت المسؤول عنه والمأخوذ به؛ فاكتب إليهم ألا يقتل أحد منهم أحداً حتى يكتب إليك بذنبه، ثم يُشْهِد عليه، ثم تأمر بأمرك على أمر قد وضح لك»!

فقال الوليد: بارك الله فيك يا أبا حفص.

- وجرب الوليد ذلك، فكتب إلى أمراء الأمصار، ومنهم الحجاج، الذي ما كان منه إلا أن أرسل للوليد برجل من الخوارج، الذي جلس في مجلس الخليفة وشتمه! فاستشار الوليد عمر في أمره، فلم ير عمر قتله، بل قال للوليد: تشتمه كما شتمك!

وتوفي الوليد سنة (٩٦ هـ)، وتولى الخلافة من بعده أخوه سليمان ابن عبد الملك، ففرح عمر بذلك.

ثالثاً - مع سليمان بن عبد الملك[1]:

كان سليمان ديِّناً، فصيحاً فهِماً، بليغاً يحسن العربية، مؤثراً للعدل، محبّاً للغزو، ذا همة عالية، من أحسن بني أمية حالاً، يرجع إلى دين وخير ومحبة للحق وأهله، واتباع القرآن والسنة، وإظهار الشرائع الإسلامية.

قال في أول خطبة له حين ولي الخلافة: «يا عباد الله اتخذوا كتاب الله إماماً، وارضوا به حَكَماً، واجعلوه لكم قائداً، فإنه ناسخ لما قبله، ولن ينسخه كتاب بعده».

---

(١) الطبري ٤٤٩/٧، الكامل ١٥١/٤، البداية والنهاية ١٧٧/٩ - ١٨٣، سير أعلام النبلاء ١١١/٥ - ١١٣، ١٢٥، شذرات الذهب ١١٦/١ - ١١٧.

وفي خلافة أخيه الوليد كان بين يديه كالوزير والمشير، ولما ولي الخلافة تابع الجهاد وحركة الفتوحات، «وقد كان ـ رحمه الله ـ آلى على نفسه حين خرج من دمشق إلى مرج دابق[1]، لما جهز الجيوش إلى مدينة الروم العظمى المسماة بالقسطنطينية؛ أن لا يرجع إلى دمشق حتى تفتح أو يموت! فمات هنالك، فحصل له بهذه النية أجر الرباط في سبيل الله، فهو إن شاء الله ممن يجري له ثوابه إلى يوم القيامة، رحمه الله»[2].

●● ومن أجلّ أعماله أنه قرّب إليه ابن عمه عمر بن عبد العزيز، واتخذه مستشاراً له ووزيراً، وقال له: «ما رأيتَ من مصلحة العامة فَمُرْ به فليكتب». فكان عمر وزير صدق لسليمان، ومشيراً عليه بكل ما فيه مصلحة الإسلام والمسلمين، وصلاح البلاد والعباد[3].

وكان من ذلك عزل نواب الحجاج، وإخراج المظلومين من السجون، وإطلاق الأسرى، وبذل الأعطية بالعراق، وردّ الصلاة إلى ميقاتها، مع أمور حسنة جليلة كان يسمعها سليمان من عمر. وكان الناس يقولون ـ كما ذكر الطبري ـ : «سليمان مفتاح الخير، ذهب عنهم الحجاج[4]، وأطلق الأسرى، وخلى أهل السجون، وأحسن إلى الناس، واستخلف عمر بن عبد العزيز».

---

(١) تقع بين حلب ومعرَّة النعمان.
(٢) هذا نص كلام ابن كثير في البداية والنهاية ١٨٣/٩.
(٣) هكذا كان كما ذكر ذلك المؤرخون الثقات، وكما سيتضح خلال الصفحات القليلة التالية، لا كما ادعى صاحب «خلفاء الرسول» حيث يقول: «وعلى الرغم مما يكنّه سليمان لعمر بن عبد العزيز من إجلال ومحبة، فقد خافه والياً (كذا!!) ومن ثم آثر استبقاءه أخاً وصديقاً، وإن زاد فناصحاً» ص ٦٦٥ ـ ٦٦٦. وهو كلام فيه افتراء وزور واجتراء على الحق، ولكن لماذا؟! ويكفي في رد ذلك أن سليمان استخلف عمر من بعده!!.
(٤) توفي سنة ٩٥ هـ.

•• مع الولاة والأمراء:

ـ أشار عمر على سليمان بعزل نواب وعمال الحجّاج، لما كان منهم من ظلم وعسف، فتمَّ له ذلك. وطلب إليه عزل من بقي من عمال الوليد ابن عبدالملك، الذين عُرفوا بالظلم، فعزلهم سليمان وولى مكانهم آخرين صالحين. ومن أولئك أمير المدينة عثمان بن حيان، الذي أمر سليمان بأن يُرسل إليه في القيود، وولى مكانه الإمام الفقيه أبا بكر بن محمد بن عمرو ابن حزم. وكذلك يزيد بن أبي مسلم، الذي كان الوليد ولاه العراق بعد موت الحجاج، فسار في الناس سيرة سلفه! فعزله سليمان، وولى مكانه يزيد بن المهلّب. وغير هؤلاء[1].

•• سياسة سليمان في الرعية ومواقف عمر:

ـ جاء سليمانَ رجل من أقاربه يستشفعه في صديق له اقترف ما يجب أن يقام عليه فيه الحد، وقد شهد عليه الشهود، وكان مقترف الذنب وجيهاً، كثير الصدقات، ضعيف الجسم. فاستشار سليمانُ وزيرَه عمرَ، فرثى عمر لحال قريبهما، وأنه فاضل حقاً، ولكن لا بد من إمضاء شرع الله فيه! وأقيم عليه الحد، ونظر عمر للرجل مشفقاً، ثم قال: «يا أمير المؤمنين، إن إقامة الحدود عندي كإقامة الصلاة والزكاة»!!

ـ وسبّ رجل سليمان، فسأل سليمان جلساءه، فأشاروا عليه بضرب عنقه، والتزم عمر الصمت، فقال سليمان: ما لك لا تتكلم يا عمر؟ فقال: «أما إذ سألتنـي، فلا أعلم سَبَّةً أحلّت دم مسلم إلا سبة نبيّ». فشكر سليمان وزيره أنه أنجاه من قتل نفس بغير حق.

كما كان ينهى سليمان عن قتل الحرورية ـ الخوارج ـ ويقول: «ضمِّنهم الحبوس حتى يحدثوا توبة».

---

(١) انظر: الطبري ٤٠٦/٧ ـ ٤٥٢، البداية والنهاية ١١٦/٩ ـ ١٨٤، سير أعلام النبلاء ١٢٥/٥. وغير ذلك.

ـ وكان سليمان قد أرسل أخاه مسلمة على رأس جيش لفتح القسطنطينية، وطال الحصار، فأصاب الجيشَ الضنك والجوع حتى أكلوا الدواب، وكان عمر يلحّ على سليمان بالنصيحة أن يأمر الجيش بالعودة، فأبى سليمان عليه ذلك رغبة في فتح هذه المدينة العظيمة ونشر الإسلام فيها.

ـ كما حرص عمر على أن تكون بطانة سليمان صالحة ناصحة، صادقة مخلصة، فقرَّب إليه العالمَيْن الصالحَيْن الزاهدين: رجاء بن حيوة، وأبا حازم الأعرج[1].

●● في السياسة المالية ومواقف عمر:

من أوائل ما كان يؤرق بال عمر ويقلق روحه المظالم التي انتشرت في عهود من سبق، والأموال التي أغدقت على حاشية الخليفة، وحُرِم منها أناس آخرون لهم في هذا المال حق. فقام عمر يحث سليمان على ردّها، واهتبل لذلك موقفاً رائعاً، يرويه مكي بن إبراهيم فيقول: «كنا عند عبد العزيز بن رواد في المسجد، فارتفعت سحابة، فجاءت برعد وبرق وصواعق، ففزع القوم، فتفرقنا. فلما سكنت عدنا، فقال عبد العزيز: خرج سليمان بن عبد الملك يوماً إلى بعض البوادي، فأصابهم نحو من هذا، ففزع سليمان ونادى: يا عمر، يا عمر! وكانوا ـ يعني بني أمية ـ إذا أصابتهم شدة فزعوا إلى عمر بن عبد العزيز، فإذا عمر ينادي: ها أنا ذا. قال: ألا ترى؟! قال: يا أمير المؤمنين، إنما هذا صوت نعمة، فكيف لو سمعتَ صوت عذاب؟ فقال: خذ هذه المائة ألف درهم وتصدّق بها. فقال عمر: أَوَ خير من ذلك يا أمير المؤمنين؟! قال: وما هو؟ قال: قوم صحبوك في مظالم لهم، لم يصلوا إليك. قال: فجلس سليمان فردّ المظالم»[2].

---

(١) الطبري والبداية والنهاية: المواضع السابقة، الحلية ٥/٢٧٩، «عمر» للشرقاوي ٩٨ ـ ١٠٨.

(٢) المناقب ٥٣.

ـ بل إنه أشار على سليمان أن يقتصد في زخرفة «الجامع الأموي»[1]، وأن تؤخذ السلاسل الذهبية الي عُلِّقت بها القناديل، فتردّ في بيت المال، وتنفق على المسلمين فيما ينفعهم. لكن سليمان لم يستمع لنصيحته هذه، وأبى متحرّجاً، واكتفى بأن طلاها بالسواد، فأصبحت في لون الحديد.

ـ وكان سليمان بنى الجسور والمعابر في أرجاء الدولة لتيسير المواصلات، وجعل على من يعبرها ما يشبه الضرائب، فأشار عمر عليه بأن يعفي الناس من هذه الضرائب، ويقيم في كل بلد رجلاً يحصل أموال الزكاة، فكان ذلك.

ـ وقدم سليمان المدينة فأعطى بها مالاً عظيماً، وقال لعمر: «كيف رأيتَ ما فعلنا يا أبا حفص»؟ فقال عمر: «يا أمير المؤمنين، قد والله رأيتُك زدتَ أهل الغنى غنىً، وتركتَ أهل الفقر بفقرهم»[2].

ـ وكان عبد الملك قد كتب في سجله أن النساء لا يرثن العَقَار، وأراد سليمان أن يعمل بهذا الرأي، فأبى عمر عليه ذلك، وأمره بالتزام كتاب الله تعالى. روى أبو نعيم وابن الجوزي عن طلحة بن عبد الملك الأيلي قال: «دخل عمر بن عبد العزيز على سليمان بن عبد الملك وعنده أيوب ابنه ـ وهو يومئذٍ ولي عهده قد عقد له من بعده ـ فجاء إنسان يطلب ميراثاً من بعض نساء الخلفاء، فقال سليمان: ما إخال النساء يرثن في العَقَار شيئاً. فقال عمر بن عبد العزيز: سبحان الله!! وأين كتاب الله؟! فقال: يا غلام، اذهب فأتني بسجل عبد الملك بن مروان الذي كتب في ذلك. فقال له عمر: لكأنك أرسلت إلى المصحف!! قال أيوب: والله

---

(١) حيث عمل سليمان ـ بعد موت أخيه الوليد ـ على تكملة المسجد وزخرفته. انظر: البداية والنهاية ٩/١٤٢ ـ ١٥٥.

(٢) ابن عبد الحكم، نقلاً عن «عمر» للزحيلي ١٠٩.

ليوشكن الرجل يتكلم بمثل هذا عند أمير المؤمنين، ثم لا يشعر حتى تفارقه رأسه. فقال له عمر: إذا أفضى الأمر إليك وإلى مثلـك، فما يدخل على هؤلاء أشد مما خشيتَ أن يصيبهم من هذا!! فقال سليمان: مَهْ، ألأبي حفص تقول هذا؟! قال عمر: والله لئن كان جهل علينا يا أمير المؤمنين ما حلمنا عنه»[1].

•• مواعظ عمر لسليمان:

وبقي عمر مع سليمان وزيراً صادقاً، وناصحاً أميناً، ومرشداً مخلصاً، فيما فيه مصلحة الرعية، يدلّه على الخير، ويصحح مساره، ويسدّد خطاه، ويعظه بين الحين والآخر بمواعظ بليغة، تضع سليمان أمام مسؤولياته الجسام.

ـ فلقد كان سليمان يلبس فاخر الثياب، ويأكل أطايب الطعام، حتى إنه لبس يوماً ملابسه الفاخرة، ونظر في المرآة فقال «أنا الملك الشاب السيد المهاب». وأُعجب بما هو فيه من النعيم، فقال لابن عمه عمر: «كيـف ترى ما نحن فيه»؟ فأجابه عمر: «سرور لولا أنه غرور، وحياة لولا أنه موت، وموت لولا أنه هُلْك، وحسن لولا أنه حزن، ونعيم لولا أنه عذاب أليم»! فبكى سليمان.

وبينا كان عمر واقفاً مع سليمان بعرفة، فرعدت رعدة من رعد تهامة، فوضع سليمان صدره على مقدَّم الرَّحْلِ، وجزع منها، فقال له عمر: يا أمير المؤمنين، هذه جاءت برحمته، كيف لو جاءت بسخطه؟! ثم نظر سليمان إلى الناس فقال: ما أكثر الناس! فقال له عمر: هؤلاء اليوم رعيتك، وهم غداً خصماؤك! فبكى سليمان بكاء شديداً، وقال: بالله نستعين[2].

---

(١) الحلية ٥/ ٢٨٠ ـ ٢٨١، المناقب ٤٧ ـ ٤٨.
(٢) الحلية ٥/٢٨٨، المناقب ٥٢ ـ ٥٣، سير أعلام النبلاء ٥/١٢٥، البداية والنهاية ٩/١٧٩ ـ ١٨١، ١٩٥ ـ ١٩٦.

ـ ولقد تبوأ عمر عند سليمان مكاناً عليّاً، فكان يقدّمه على جميع خاصته، ويرى أنه خير من يوجهه للحق والعدل، وأكثر الناس فهماً عنه، وأصدقهم مناصحة له. وقد عبر سليمان عن مكانة عمر عنده، فقال: «ما هو إلا أن يغيب عني هذا الرجل، فما أجد أحداً يفقه عني»[1]!

وذات مرة بدرت من سليمان كلمة أساءت لعمر، فهجر عمر مجلسه، فأرسل سليمان إليه يترضاه، فصفح عنه عمر وجاء إليه، فقال له سليمان: «ما أهمّني أمرٌ قطّ إلّا خطرتَ فيه على بالي»[2].

* * *

تلك هي سيرة عمر مع الخلفاء الذين عاصرهم، فقرّبوه حتى صار بطانة خير لبعضهم، ووزير صدق لآخر، فما كان منه إلا مواقف العالم الصادق، المخلص الأمين، الذي صان علمه وكرامته ومكانته، فما داهَنَ، ولا جامل ولا نافق، ولا تهاون، بل كانت سبيله واضحة، تتمثل في قوله تعالى ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾[3]. ولقد عرف له أولئك الخلفاء مكانته، وأكبروا مواقفه، حتى إن أحدهم ولاه إمرة المدينة. فكيف كانت سيرته في إمارته؟

---

(١) المناقب ٤٨.

(٢) المناقب ٤٧، الحلية ٣٤٣/٥، الطبقات ٣٩٩/٥.

(٣) سورة هود: الآية ٨٨.

الفصل الثالث

إمرته على الحرمين

ولايته منحة بين يدي الخلافة:

كان هشام بن إسماعيل المخزومي والياً على المدينة، وبقي عليها نحواً من أربع سنين، ولم يكن حسن السيرة في أهلها، الذين شكوه إلى الوليد بن عبد الملك. فعزم الوليد على عزله، ففعل، وأحسن في ذلك رحمه الله، وولى عليها ابن عمه وزوج أخته عمر بن عبد العزيز، الذي كان آنذاك في الخامسة والعشرين من عمره.

وأبطأ عمر عن الخروج، فقال الوليد لحاجبه: «ويلك، ما بال عمر لا يخرج إلى عمله؟! قال: زعم أن له إليك ثلاث حوائج. قال: فعجِّله علي. فجاء به الوليدَ، فقال له عمر: إنك استعملت من كان قبلي، فأنا أحب أن لا تأخذني بعمل أهل العدوان والظلم والجور. فقال له الوليد: اعمل بالحق، وإن لم ترفع إلينا درهماً واحداً»[1].

وقدم عمر المدينة والياً عليها في ربيع الأول سنة (٨٧ هـ)[2]، على

---

(١) المناقب ٤٢.

(٢) وقد ذكرت بعض المصادر أن ذلك كان سنة (٨٦ هـ)، وبعضها (٨٧ هـ)، وهذه الأخيرة أرجح لأن الوليد تسلّم الخلافة في شوال سنة ٨٦ هـ. انظر: الطبري ٣٢٧/٧، الطبقات ٣٣١/٥، المناقب ٤١، سير أعلام النبلاء ١١٧/٥، تاريخ الإسلام ١٨٩، البداية والنهاية ٧١/٩، ١٩٤.

ثلاثين بعيراً، فنزل دار مروان بن الحكم. وبقي أميراً عليها حتى سنة (٩٣ هـ)، حيث عزله الوليد، فقدم دمشق، وعاش فيها مناصحاً للحكام.

وتهللت المدينة لمقدم عمر، فقد كانت سيرته تسبقه كالعبير الفواح، فهو قد عاش في المدينة زمناً طويلاً، فأخذ عن أعيانها العلم والورع والتقوى، حتى ذاع صيته، وطار ذكره الجميل بين الناس.

ولكأنما القدر الحكيم أراد أن يجعل من إمارة عمر للحجاز تجربة للمهمة الجليلة العظيمة، حينما يصبح خليفة المسلمين، وحاكم دولتهم الأمين من أقصاها إلى أقصاها.

إنها منحة ربانية لعمر حتى يتمرس بسياسة الناس ورعاية شؤونهم في هذا البلد الطيب على نطاقه الضيق؛ لتكون منطلقاً له في تسيير شؤون المسلمين كافة. وهي منحة أخرى من الله للناس حتى يعرفوا عمر كأمير، لا كعالمٍ عابدٍ ناسكٍ وحسب، وليعيشوا في كنفه الأمين، وحكمه العادل ـ حتى إذا ما آلت الخلافة إليه بعهد من سليمان، وقام عمر بخلعه العهد، ثم ترك الناس يختارون لأنفسهم؛ أبَوْا إلا تجديد بيعته عن ملأ منهم، ورضى من كافتهم، لأنهم خبروه، ورأوا من عدله وحسن سياسته وجميل سيرته، الشيء الكثير.

وأقبل أهل المدينة من كل حَدَب، تغمرهم الفرحة، وتملأ جوانحهم الغبطة، أن مَنَّ الله عليهم بعمر، ودخلوا عليه في دار جده مروان، التي اتخذها مقراً لإمارته. ولم يكن عمر أقل فرحاً وسروراً بالمدينة وأهلها، فهي مهبط الوحي، وعاصمة دولة النبوة والخلافة الراشدة، ومحضن طفولته وصباه، ومنبع علمه وأدبه. ولقد عزم على نشر العدل في جنبات المدينة وكل الحجاز، على طريقة الراشدين، ليتنسّم أهلها ـ من جديد ـ عبير الأيام المشرقة في صدر الإسلام.

بطانته ومجلس شوراه وتنمية ملكاته:

لم يكد عمر يفرغ من تهنئة الناس له، وترحيبهم به، وسلامهم عليه، حتى قام باختيار عشرة من أعيان المدينة، وكانوا أهل فقه وعلم، وورع وتقوى، ومكانة وفضل، ومعرفة بأحوال الناس، واطلاع على مشاكلهم ومآسيهم ـ فجعلهم مجلس شوراه.

والتقى بهم، وأَحْسَنَ استقبالهم، ورفعَ مكانتهم ـ فهو أعرف الناس بهم، إذ فيهم بعض شيوخه ومعلّميه ـ وأَظْهَرَ ما يكنّه لهم من مودة وتقدير، وأبان لهم أنه لن يقطع أمراً دون مشورتهم ورأيهم، وأنهم معه مسؤولون أمام الله عن كل ظُلاَمة أو تعّدٍ على الحقوق، أو تقصير بالواجبات، أو دمٍ يُسفح بغير حقّ، أو مال يُؤخذ من غير وجهه، أو دمعة لا تجد من يكفكفها، أو أنَّة لا تلقى من يغيثها، أو استغاثة لا تُنصر، أو محتاج لا يُكفى، أو مسكين لا يُعان، أو ظالم لا يُقهر، أو حدٍّ لا يُقام، أو موبقة لا تُقتلع، أو معصيةٍ لا تُطفأ.

عن أبي الزناد قال: «لما قدم عمر بن عبد العزيز المدينة والياً عليها، كتب حاجبُه الناسَ، ثم دخلوا فسلموا عليه، فلما صلى الظهر دعا عشرة نفر من فقهاء البلد: عروة بن الزبير، وعبيد الله بـن عبد الله بن عتبة، وأبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث، وأبا بكر بن سليمان بن حَثْمة، وسليمان بن يسار، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله ـ ابن عمر ـ وعبد الله بن عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عامر بن ربيعة، وخارجة بن زيد بن ثابت. فحمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: إني دعوتكم لأمر تُؤْجَرُون عليه، وتكونون فيه أعواناً على الحق، ما أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم أو برأي من حضر منكم. فإن رأيتم أحداً يتعدى، أو بلغكم من عامل لي ظُلاَمة، فأُحرِّج باللهِ على أحدٍ بَلَغَهُ ذلك إلا أبلغني.

فجزوه خيراً، وافترقوا»[1].

وكان لا يخرج عن قول سعيد بن المسيِّب، وقد كان سعيد لا يأتي أحداً من الخلفاء، وكان يأتي إلى عمر بن عبد العزيز وهو بالمدينة، فيشير عليه، وينصحه، فلا يجد من عمر إلا الترحيب والإكرام والتبجيل. قال إبراهيم بن أبي عبلة: «قدمت المدينة وبها ابن المسيب وغيره، وقد ندبهم عمر يوماً إلى رأي»[2].

وولى قضاء المدينة أبا بكر بن حَزْم، أحد الأئمة الأثبات، وأعلم أهل زمانه بالقضاء[3].

ولقد كان عمر باستهلاله عهده بهذا التقديم والتقدير لأهل الحِجا والعلم والصلاح؛ إنما يرفع للناس لواء الحياة الجديدة، في ظلال الحق والعدل، ليعيشوا وقد ملأتْ نفوسَهم السكينة والأمن والاطمئنان.

وراح ينشر عدله على الناس، ويجعل من ولايته مثلاً أعلى يحتذى. واتسعت رقعة سلطانه، حيث ضم الخليفة إليه مكة والطائف، فأصبح والياً على الحجاز كله.

أما أولئك الأعلام الصالحون، والشيوخ الأجلّة، فقد رحبوا بهذا النهج القويم، والخطة الراشدة، فتعاهدوا على أن يكونوا عوناً لهذا الأمير الصالح، وحراساً أمناء معه للحق والشرع، ومصالح الرعية أجمعين.

ولئن استغرقت عمرَ مسؤولياتُه والسهر على مصالح الناس؛ فإن ذلك لم يشغله عن مواصلة التزوّد من العلم والفقه، ومجالسة الألبّاء والعلماء، فراحَ يثري عقله وفكره، حتى صار في هذا الميدان حجة وإماماً. كذلك

---

(1) الطبقات ٥/٣٣٤، الطبري ٧/٣٢٧ - ٣٢٨، البداية والنهاية ٩/١٩٤، المناقب ٤١.

(2) البداية والنهاية ٩/١٩٤.

(3) سبق التعريف به ص ٨٠.

لم تشغله أعباؤه في النهار عن التبتل بين يدي ربه، والتهجد وتلاوة القرآن آناء الليل وأطراف النهار، ساعياً قُدُماً في تزكية فضائله وتنمية تقواه.

عن أبي عمر مولى أسماء بنت أبي بكر قال: «خرجت من جدة بهدايا لعمر بن عبد العزيز، وهو على المدينة، فأتيته في مجلسه الذي يصلي فيه الفجر، والمصحف في حِجْرِه، ودموعه تسيل على لحيته»[1].

إصلاحاته وبعض مظاهر التغيير، وسياسته في الرعية:

ـ أقبل عمر على الإصلاح، وكان ـ كجده ابن الخطاب ـ يتفقد أحوال الرعية في النهار، ويعسّ في شوارع المدينة، ليكشف عن الكروب المخبوءة، ويحارب الرذائل والمجون، ولكن لا يهتك أستار البيوت، بل يحارب ما أُعلنت فيه المعاصي. فأصدر أوامره بإلغاء الملاهي، وبيوتات الرقص والمجون والشراب، التي تنشر مفاسدها على الناس، ويرتادها بعض الساقطين ممن يستمع إلى الجواري والقَيْنات وغنائهن[2].

---

(١) المناقب ٤٢.

(٢) وفي كتاب «عمر» للشرقاوي ص ٦٠ ـ ٦١ أكذوبة محقورة مفتراة على عمر وقاضيه الأجلّ ابن حزم، فقد ذكر المؤلف أنه كانت لابن حزم «جارية» تجيد الغناء، وأنه استمع لها فَطَرِبَ «حتى جثا على ركبتيه، وعلّق نعله في أذنه، وشدّها والنعل معلقة فيها حتى أدماها، ومشى على يديه وركبتيه وهو يقول: اهدوني إلى بيت الحرام فأنا بَدَنَة ـ ما يذبح في الحج ـ». ولما بلغ عمرَ الخبرُ عزل قاضيه ابن حزم، فلما علم القاضي بعزله قال: «لو سمعها عمر لقال: اركبوني فأنا مطية»!! فبلغ هذا الكلام عمر، فاستقدم قاضيه والجارية، واستمع لها «فاضطرب عمر اضطراباً بيِّناً، واستعادها الغناء ثلاث مرات، وقد فاضت دموعه حتى اخضلّت لحيته، وعذر القاضي، وقال له: ارجع إلى عملك راشداً»!!

وهي فرية عظيمة نقلها الكاتب عن أمثال «الأغاني» و«العقد الفريد»، ولست أدري كيف استباح روايتها في سيرة الخليفة الراشد عمر، واتهم بها القاضي الجليل الثقة أبا بكر بن حزم؟! ووالله لو أنها رويت عن أحد شواذ عصرنا لكان للعقل في قبولها وقفة، فكيف بهذين العَلَمين الجليلين؟! ثم كيف يرضى عمر أن يعيد القاضي بعد عزله؟! وإن قاضياً هذه حاله لا يستحق أن يكون «كاتب أرشيف»، =

ـ وكان يتحرى وضع الأموال العامة في مواضعها الصحيحة، وردّ لها كرامتها وحرمتها، وأخذ يبحث عن الفقراء والمساكين والمحاويج، ليرفع عنهم المسغبة، ويسدّ جوعتهم، ويدخل الفرحة إلى بيوتهم، ويعيد البسمة إلى أطفالهم.

عن أبي الزناد قال: «كان عمر بن عبد العزيز ـ وهو أمير على المدينة ـ إذا أراد أن يجود بالشيء قال: ابتغوا أهل بيت بهم حاجة»[1].

ـ وقام ـ بأمر الوليد ـ بتعبيد الطرقات، وتسهيل الثنايا والمعابر للناس، وحفر الآبار بالمدينة، وإنشاء الخانات ـ وهي الفنادق ـ على طريق الحجاج الوافدين إلى الحرمين الشريفين، لتسهيل قيامهم بالمناسك. ووجه اهتمامه الكبير إلى المسجد النبوي الشريف، حيث جاءه أمر الوليد بتوسعته، وضم حُجَرِ أمهات المؤمنين إليه، وأن يشتري الدور الملاصقة له، قائلاً: «فمن باعك ملكه فاشتره منه، وإلا فقوِّمه قيمة عدل، ثم اهدمه، وادفع إليهم أثمان بيوتهم، فإن لك في ذلك سلف صدق: عمر وعثمان».

وقام عمر بهدم السقوف القصيرة، وسائر حجر أزواج النبي ﷺ حيث ضمها إلى المسجد، عدا حجرة عائشة فأدخلها فيه، فدخل القبر في

= فضلاً عن أن يجلس للفصل بين الناس في المدينة النبوية! وهذه طعنة في أمانة عمر إذ يولّي رجلاً يستخفه الغناء إلى درجة يمشي فيها على يديه ورجليه كالسائمة!! وإذا كانت مثل هذه الأباطيل تقال في حق عمر؛ فلتعلموا يا رجال أنه لا يُستغرب أن يطعن الطاعنون المفترون بأمثال الخليفة المجاهد العابد هارون الرشيد!! إن تاريخنا وسير رجالاتنا قد شوّهته أيد خبيثة حاقدة ماكرة، وروّجت له في هذا العصر أبواق كبيرة بعضها عن علم والآخر عن تقليد، وكلاهما يلقى جزاءه؛ لأن الكلمة أمانة، وخاصة ممن يكتب في هذا العصر لأن الكذب يعم انتشاره في الآفاق!!

(١) المناقب ٤٢.

المسجد. وشرع في بنائه، وشمّر عن إزاره، وجاءته الفَعَلَةُ والبنَّاؤون من الشام، فبنى ووسع وزخرف، وجوّف المحراب، ورفع المنارة، فكان أول من أحدث تجويف المحاريب في المساجد. وحين بنى المئذنة انتشرت المآذن في بلاد المسلمين، تشبهاً بمآذن الشام. وكان ذلك سنة ٨٨ هـ[١].

كذلك قام عمر بإقامة الناس في الصلاة، وتعليمهم شعائر الإسلام، ومشى فيهم على هدي النبوة. أمر مؤذن المسجد النبوي قائلاً: «إذا أذنتَ للظهر أو العتمة فصلِّ ركعتين، ثم اقعد قدر ما تظن أن قد سمعك رجل من أقصى المدينة، فقضى حاجته، وتوضأ ولبس ثيابه، ومشى مشياً رفيقاً، حتى يأتي المسجد فيصلي فيه أربع ركعات، ثم قعد؛ فأقِمْ بقدر ذلك»[٢].

- وكان أمير الحج سنة (٨٧) و(٨٨) و(٨٩) و(٩٠) و(٩٢) للهجرة، حيث يقيم للناس حجهم، ويخطب فيهم، ويعظهم، ويفتيهم، ويعلمهم المناسك، ويحملهم على اتباع سنن الهدى التي جاء بها رسول الله ﷺ.

وأخبر من رأى عمر واقفاً بعرفة، وهو يدعو ويقول بأصبعه هكذا - يعني يشير بها - ويقول: «اللهم زِدْ مُحْسِنَ أمة محمد إحساناً، وأَرْجِعْ مسيئَهم إلى التوبة، اللهم وحُطَّ من أوزارِهم برحمتك. اللهم أَصْلِحْ مَنْ كان في صلاحه صلاح أمة محمد، اللهم أهْلِكْ مَنْ كان في هلاكه صلاح أمة محمد»[٣].

---

(١) الطبري ٧/٣٣٥ - ٣٣٦، البداية والنهاية ٩/٧٤ - ٧٥، «عمر» للزحيلي ١٢٤ - ١٢٥.

(٢) الطبقات ٥/٣٣٥.

(٣) مختصر ابن عساكر ١٠١ - ١٠٢، المناقب ٢٢٩ - ٢٣٠، الطبري ٧/٣٣٣، ٣٣٨، ٣٤١، ٣٤٧، ٣٦٦، ٣٦٩، سير أعلام النبلاء ٥/١١٧. وفي سنة (٩١ هـ) حج بالناس الوليد بن عبد الملك.

ولقد أحب الناس أميرهم العظيم، يعبر عن ذلك سهيل بن أبي صالح فيقول: «كنت مع أبي غداة عرفة، فوقفنا لننظر لعمر بن عبد العزيز ـ وهو أمير الحاجّ ـ فقلت: يا أبتاه، والله إني لأرى الله يحب عمرا! قال: لِمَ؟ قلت: لما أراه دخل له في قلوب الناس من المودَّة، وأنتَ سمعتَ أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: (إذا أحبَّ الله عبداً نادى جبريلُ: إنّ الله قد أحبَّ فلاناً فأحِبُّوه)»[1].

ـ ومن أعماله العظيمة تلك المواقف النبيلة من بني هاشم وآل بيت النبي ﷺ، الذين كانوا قد أصابتهم جفوة من بعض الخلفاء الأمويين، فنهض عمر لإصلاح ذلك في إمارته للمدينة، وأكمل ذلك في خلافته. فكان يرحب بهم، ويطلب إليهم إذا جاؤوه ألا يقفوا ببابه، بل يؤذن لهم ساعة وصولهم إليه. فإذا جاؤوه أكرم نزلهم، وأحسن وفادتهم، وأجزل عطيتهم، وأظهر لهم من الحب والودّ الصادق ما يليق بهم، ويجدر به كوالٍ متبع للنبي ﷺ ومحسن له في آل بيته.

قال يوماً لبعض ولد الحسين بن عليٍ بن أبي طالب: «لا تقف على بابي ساعة واحدةً، إلا ساعةً تعلمُ أني جالسٌ فيُؤْذَنُ لك عليٍّ من ساعتِك، فإنّي أستحي من الله أن يقف على بابي رجل من أهل بيت النبي ﷺ فلا يُؤْذَنَ له عليَّ من ساعتِهِ»[2]!

وروى ابن سعد عن جويرية بن أسماء قال: «سمعتُ فاطمة بنت علي بن أبي طالب ذكرتْ عمر بن عبد العزيز فأكثرت الترحمّ عليه، وقالت: دخلتُ عليه وهو أمير المدينة يومئذٍ، فأخرج عني كل خَصيّ وحَرَسيّ، حتى لم يبق في البيت أحد غيري وغيره، ثم قال: يا ابنة علي،

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢٠٣٠ ـ ٢٠٣١.
(٢) مختصر ابن عساكر ١١٨، وانظر المناقب ٧٨.

والله ما على ظهر الأرض أهل بيت أحب إليّ منكم، ولأنتم أحبّ إلي من أهل بيتي»[1].

ـ وتوجه إلى القضاء فعزل قاضي المدينة الذي كان يعمل مع أميرها المعزول هشام بن إسماعيل، واستقضى عليها الفقيه القاضي الأشهر أبا بكر بن حزم، وأمره بالتثبت من القضايا، والعدل فيها، والتسوية بين الخصوم، والاهتداء في ذلك بهدي الأئمة الراشدين.

عدله في إمرته:

●● لقد كان يتحرى العدل، ويقيم موازينه بالقسط، ويمنح دفئه كل مفزَّع وخائف، وأعانه على ترسيخ قواعد العدل، ونشر عبيره، أولئك العشرة الفقهاء من أعيان المدينة وكبار صالحيها، ممن جعلهم عمر مجلس شورى له وبطانة خير، تفحص عن المظالم، وتبحث عن المصائب والآلام، وترصد حركات كل متعدٍ غشوم؛ فتبلغها الأمير الذي يحمي الحق والعدل بقوة السلطان.

ولأجل ذلك صار عمر مهوى قلوب الصادقين والمخلصين، وَطَرَقَ باب إمارته من كان لا يقرب مجلس الخلفاء والأمراء! فهذا سعيد بن المسيّب الإمام العَلَم، الذي كان يرفض حتى استقبال الخلفاء أو مجالستهم؛ نراه اليوم يخفّ مسرعاً إلى دار الإمارة في المدينة، ليجالس عمر، ويحادثه ويناصحه، ويدله على الكروب والمآسي، ليمسح عنها آلامها، ويداوي جراحها. وذات مرة يرسل عمر رجلاً بقضية يسأل فيها ابنَ المسيب، فيخطىء الرسول ويدعو سعيداً، فجاء، فقال له عمر: «أخطأ الرسول، إنما أرسلناه يسألك في مجلسك»[2]!

---

(١) الطبقات ٥/٣٣٣ ـ ٣٣٤، ٣٨٧ ـ ٣٨٨.
(٢) البداية والنهاية ٩/١٩٤، سير أعلام النبلاء ٤/٢٢٥.

●● وانتشر العدل في الحجاز، وعمت الرحمة جنباته، وتفيأ الناس ظلال الأمن والسكينة، حتى أضحوا يغبطهم إخوانهم الآخرون في أطراف الدولة الإسلامية. بل إن عدداً من العلماء، وبعض من وقع عليهم عَسْف الحجاج وظلمه قد فرُّوا هاربين من العراق، وتركوا أموالهم وديارهم، وأووا إلى المدينة لينعموا بعدل أميرها ابن عبد العزيز، فأكرمهم عمر، وأحسن منقلبهم إليه، وبذل لهم من ماله، وأجرى عليهم أرزاقاً من بيت مال الحجاز. وزاد الأمرَ روعةً حيث كتب إلى الوليد يخبره بظلم الحجاج لأهل العراق، وقهره لهم! فآسف ذلك الحجاجَ، فاضطغنه على عمر، وكتب للخليفة يبين له أن في ذلك وهناً وضعفاً، وأنه يعني أن هناك سياستين في الدولة، ومما جاء في كتابه:

«إنَّ مَنْ قِبَلي من مُرَّاق أهل العراق وأهل الشقاق قد جلوا عن العراق، ولجؤوا إلى المدينة ومكة، وإن ذلك وهن»[١].

فاستجاب الوليد لذلك، وعزل عمر عن إمرة الحجاز.

●● بل إن الكون بسمائه وأرضه وما فيهما قد فرح بإقامة منار العدل في أرض النبوة ومهبط الوحي، فبالحق والعدل قامت السموات والأرض، ولحكمة عظيمة ذكر الرسول ﷺ «الإمام العادل» أول السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله[٢]؛ ذلك أن الستة الأصناف الباقية إنما تتم لهم تلك المزايا ـ التي استحقوا بها ذلك التكريم ـ في جو الحق والعدل وحراسة الأخلاق والمكارم، ومحاربة الباطل وشروره ومظاهره، وهذه كلها من وظائف الإمام العادل، فهو سبب لها، وله ـ إن شاء الله ـ مثل أجر كل عبد صالح في دولته، أو محيط إمارته، صغرت أم كبرت، مثلما أن الحاكم

---

(١) الطبري ٧/٣٨٣، البداية والنهاية ٩/٨٨.
(٢) الحديث رواه الشيخان وغيرهما، انظر: جامع الأصول ٩/٥٦٤ ـ ٥٦٥.

الجائر الظالم عليه مثل أوزار الخطائين الذين يمارسون المعاصي في ظله وحمايته، دون أن ينهاهم أو يأخذ على أيديهم!

والذي دعانا لهذا الكلام تلك الحادثة الجليلة التي وقعت لعمر في واحدة من سنوات القحط والجَدْب والعُسْر الذي حلّ بأهل تلك الديار. ففي سنة (٨٨ هـ) حج عمر بالناس، وجرت له هذه الحادثة التي رواها الإمام الطبري عن صالح بن كيسان قال: «خرج عمر بن عبد العزيز تلك السنة ـ يعني سنة ثمان وثمانين ـ بعدة من قريش، أرسل إليهم بِصِلاتٍ وظَهْرٍ للحمولة، وأحرموا معه من «ذي الحُلَيْفَة» وساق معه بُدْناً، فلما كان «بالتنعيم» لقيهم نفر من قريش، منهم ابن أبي مُلَيْكة وغيره، فأخبروه أن مكة قليلة الماء، وأنهم يخافون على الحاجّ العطش، وذلك أن المطر قلّ! فقال عمر: فالمطلب ها هنا بيِّن، تعالوا ندعُ الله. قال: فرأيتهم دعوا، ودعا معهم، فألحّوا في الدعاء. قال صالح: فلا والله إنْ وصلنا إلى البيت ذلك اليوم إلا مع المطر، حتى كان مع الليل، وسكبت السماء، وجاء سيل الوادي، فجاء أمر خافه أهل مكة، ومطرت عَرَفَةُ ومنىً وجَمْعُ، فما كانت إلا عُبْراً. قال: ونبتت مكة تلك السنة للخصب»[1].

إن مظاهر العدل في الأرض استمطرت خيرات السماء، وإن يدي الحاكم العادل لم ترجع خواء، ودعواته لم ترد إلا بجواب من رب الأرض والسماء. ولما كُفْكِفَتْ دموع المظلومين، وأَمِنَ الخائفون، واكتفى المحتاجون؛ أسرعت السماء بالخيرات فأمطرت، والأرض فأنبتت؛ ليتكامل عرس الدنيا في يوم بهيج ـ إذ العدل يبتسم له الكون، وتعبر أفواه السماء عن فرحها ببريقها الذي يكاد يخطف الأبصار. وفي كل يوم يقوم

---

(١) الطبري ٣٣٨/٧، البداية والنهاية ٧٥/٩. «وظَهْر»: الظَّهْر: الدابة التي تحمل الأثقال، أو يُركب عليها، وهي في أيامنا: السيارة أو ما يقوم مقامها. و«جَمْع»: المُزْدَلِفة. و«عُبْراً»: العُبْر: الكثير من كل شيء، والسحاب السريع.

فيه إمام عادل، فيرفع لواء الحق وراية العدل، ترى الكون كله في سرور وحبور، وإلا فغضب الله واقع، والقحط نازل، يأكل الأخضر ويحطم اليابس!!

إن «حادثة الاستسقاء» هذه التي وقعت لعمر، والتي يكاد الفكر يمرّ عليها سريعاً؛ تشي بالانقلاب الرهيب الذي حدث في ذلك الصقع من أرض الإسلام، فتجاوبت أصداؤه في جنبات الكون الرحيب.

أحداث ومواقف:

ـ ولم يفلت أمير المدينة المعزول ـ هشام بن إسماعيل المخزومي ـ من عَدْل عمر، الذي كتب إلى الوليد برأي أهل المدينة بهشام، وسوء معاملته لهم، فكتب الوليد إلى عمر يأمره بأن يقف هشام بـن إسماعيل للناس!

فأوقفه عمر عند دار مروان بن الحكم، وأخذ الناس يمرون به، فأبدوا الشماتة به، والازدراء عليه، وما حلّ به من خزي، حيث وُقف للناس، ليعتبر كل أحد بمآل كل ظالم، فبعد أن كان يَأمر ويَنهىٰ، أمسى يُؤمر ويُنهى، وكذا هي الدنيا والأيام دُوَل!!

ـ بيد أن موقفاً خطيراً حدث لعمر وهو والي المدينة، وبقي يؤرقه، ويقلق خاطره، ويعكر عليه صفو حياته، وهو ضربه خبيب بن عبد الله بن الزبير، فمات بسبب ذلك. فقد أوحى الحجاج إلى الوليد بن عبد الملك بأن خبيباً يعدّ للثأر لأبيه، والوثوب على العرش، وهو عند عمر بن عبد العزيز في المدينة يوادعه رغم ذلك. فغضب الوليد، وأرسل إلى عمر يأمره بجلد خبيب مائة سوط ويحبسه، وأن يصب عليه ماءً بارداً.

ففعل عمر ذلك، فجلده مائة سوط، وحبسه، وبرّد له ماءً، ثم صبّه عليه في غداة باردة، فاشتد به الوجع، فأخرجه من السجن حين اشتد

وجعه، ونقله إلى آل الزبير، وندم على ما صنع به. ونقلوه إلى دار عمر بن مصعب بن الزبير، «واجتمعوا عنده حتى مات. فبينما هم جلوس، إذ جاءه الماجشون يستأذن عليهم، وخبيب مسجىً بثوب، وكان الماجشون يكون مع عمر بن عبد العزيز في ولايته على المدينة. فقال عبد الله بن عروة: ائذنوا له. فلما دخل قال: كأن صاحبك في مرية من موته؟ اكشفوا له عنه! فكشفوا عنه، فلما رآه الماجشون انصرف. قال الماجشون: فانتهيت إلى دار مروان، فقرعت الباب ودخلت، فوجدت عمر كالمرأة الماخض قائماً وقاعداً!! فقال لي: ما وراءك؟ فقلت: مات الرجل. فسقط إلى الأرض فزعاً، ثم رفع رأسه يسترجع فلم يزل يعرف فيه حتى مات، واستعفى من المدينة، وامتنع من الولاية. وكان يقال له: إنك قد صنعت كذا، فأبْشِرْ. فيقول: كيف بخبيب»؟!

وبقي هذا المشهد يخيف عمر، وكان فيه درس وعبرة له في خلافته، لرفع الظلم، والرفق بالرعية، ورحمتهم ومواساتهم، حتى إنه قسم ـ في خلافته ـ مالاً في ذوي خبيب، فقال الناس: «دية خبيب»[1].

ـ والموقف الجليل الهائل من عمر هو ما اتخذه حيال الحجّاج بن يوسف الثقفي، الذي قصد الحج في إحدى السنوات التي كان عمر فيها أميراً على المدينة، وعمر يمقت الحجاج لظلمه وطغيانه، فلمّا علم بمجيئه حاجّاً، أرسل عمر إلى أمير المؤمنين الوليد يسأله أن يأمر الحجاج ألا يذهب إلى المدينة وألا يمر بها، رغم ما يعلمه عمر من مكانة الحجاج في نفوس الخلفاء الأمويين، بل ورغم إدراكه لما سيسببه موقفه هذا من تأجيج غيظ الحجاج عليه، وهو الأمير الذي يملك مقدرة الانتقام لنفسه! بَيْدَ أن كل تلك العقبات والعواقب لم ترهب عمر، ولم تلِنْ له قناة. واستجاب الوليد لطلبه، فكتب إلى الحجاج قائلاً: «إن عمر بن عبد العزيز كتب إليّ

---

(١) المناقب ٤٢ ـ ٤٥، الطبري ٣٨٤/٧، سير أعلام النبلاء ١٢٠/٥.

يستعفيني من ممرّك عليه بالمدينة، فلا عليك ألا تمرّ بمن يكرهك، فَنَحِّ نفسك عن المدينة»[1].

إن هذا الموقف العمري ليدل دلالة واضحة على نفسيته التواقة للحق والعدل، ويكشف عن نقاء أصله، وأصالة تقواه. كما يدل على قوة روحه، وشجاعته، وهو ينصب نفسه في موقف المواجهة والتحدي للحجّاج الذي دوّخ الدنيا في جبهة العراق، ولم يقف له أحد. لكن واحداً مثل ابن عبد العزيز حريّ بهذا الموقف المرهوب لأنه من سلالة عمر بن الخطاب!! كذلك فإن هذا الموقف يدل على مكانة عمر السامقة في نفوس الخلفاء، واحترامهم له، وتقديرهم لرأيه وإصلاحاته وتوجيهاته، ولو لم يكن كذلك فإن من السهولة بمكان على الوليد أن يردّ طلبه.

ولم ينسَ الحجاج هذا الموقف لعمر، وضم إليه أمراً آخراً ـ سبق ذكره ـ هو إيواؤه الفارّين من العراق، ليعيشوا في كنفه آمنين مطمئنين. والوليد بن عبد الملك كانت تتنازعه سياستان متضادتان: سياسة عمر التي تريد ائتلاف الناس ومرحمتهم، والعدل بينهم، وسياسة الحجاج التي تقوم على قهر الخصوم وإذلالهم، والجبروت عليهم أنى كانوا.

فاهتبل الحجاج ما كان من عمر في لجوء الهاربين إليه، وأوحى إلى الوليد أن ذلك وهن في الحكم، وضعف في الحاكم، وأنه يهدد أمن الدولة ويعرضها للفوضى. فكتب إلى الوليد: «إن عمر ضعف عن إمرة المدينة ومكة، وهذا وهن وضعف في الولاية، فاجعل على الحرمين من يضبط أمرهما»!

فكتب الوليد إلى الحجاج: «أن أشِرْ عليَّ برجلين. فكتب إليه يشير عليه بعثمان بن حيان وخالد بن عبد الله ـ القسري ـ، فولى خالداً مكة،

---

(١) خلفاء الرسول ٦٥٦ ـ ٦٥٨، ابن عبد الحكم، نقلاً عن «عمر» للزحيلي ١٢٥ ـ ١٢٦.

وعثمان المدينة، وعزلَ عمرَ بن عبد العزيز»[1]. وذلك سنة (٩٣ هـ).

وغادر عمر «المدينة النبوية» بعد أن لبث في ولايتها زهاء سبع سنين، ملأ حياة الناس خلالها عدلاً وسكينة واطمئناناً، وملأ البلاد عمراناً وأمناً وسلاماً.

ولما خرج منها التفت إليها وبكى، وقال لمولاه: «يا مزاحم، نخشى أن نكون ممن نَفَتِ المدينة»[2]!

ورجع عمر إلى الشام فوجد الجيش الإسلامي يستعد للقاء جيش الروم، فانتضى سلاحه، وخرج بنيّته الصادقة غازياً في سبيل الله[3]. وأخذ مكانه جندياً عادياً في صفوف المجاهدين، ولم تفكر نفسه لحظة من نهار أنه أمير معزول، ذو مكانة عالية ويجب أن يكون قائداً مطاعاً!

تلك هي النفوس الكبيرة التي تربّت على الإسلام، ففعلت كما فعل الأصحاب الأخيار من أمثال خالد بن الوليد عندما عُزل عن قيادة الجيوش الإسلامية، فما رفض ولا نكث، بل استمر مجاهداً صادقاً صابراً. ذلك أنهم لم يكونوا يدافعون عن أمجاد شخصية وكراسي وأنظمة، بل عن الحق، والحق يُخدم في كل مكان، ويحميه المسلم أنى كان.

ثم عاد عمر إلى دمشق عاصمة الدولة الأموية، فقرّبه الوليد إليه، لنجابته وإخلاصه، ثم ـ بعد ذلك ـ عملاً بوصية أبيه عبد الملك الذي أوصى بنيه بابن عمهم عمر خيراً. فكان دأب عمر مناصحة الخلفاء،

---

(١) الطبري ٣٨٣/٧، البداية والنهاية ٨٨/٩، ١٩٥، الدولة الأموية ٢٥٢ ـ ٢٥٣.
(٢) الطبري ٣٨٤/٧، المناقب ٢٢٤، سير أعلام النبلاء ١٢١/٥، البداية والنهاية ١٩٥/٩. ويشير بذلك إلى قوله ﷺ: «... ألا إن المدينةَ كالكير تُخْرِج الخبيثَ، لا تقوم الساعةُ حتى تنفي المدينةُ شرارَها، كما ينفي الكيرُ خَبَثَ الحديدِ». رواه مسلم ١٠٠٥/٢.
(٣) الطبري ٣٨٤/٧.

وإرشادهم للخير، وحملهم على إقامة الحق. كما داوم على صحبة العلماء العاملين، الصالحين المصلحين، من أمثال الإمام الثقة «رجاء بن حَيْوَة».

* * *

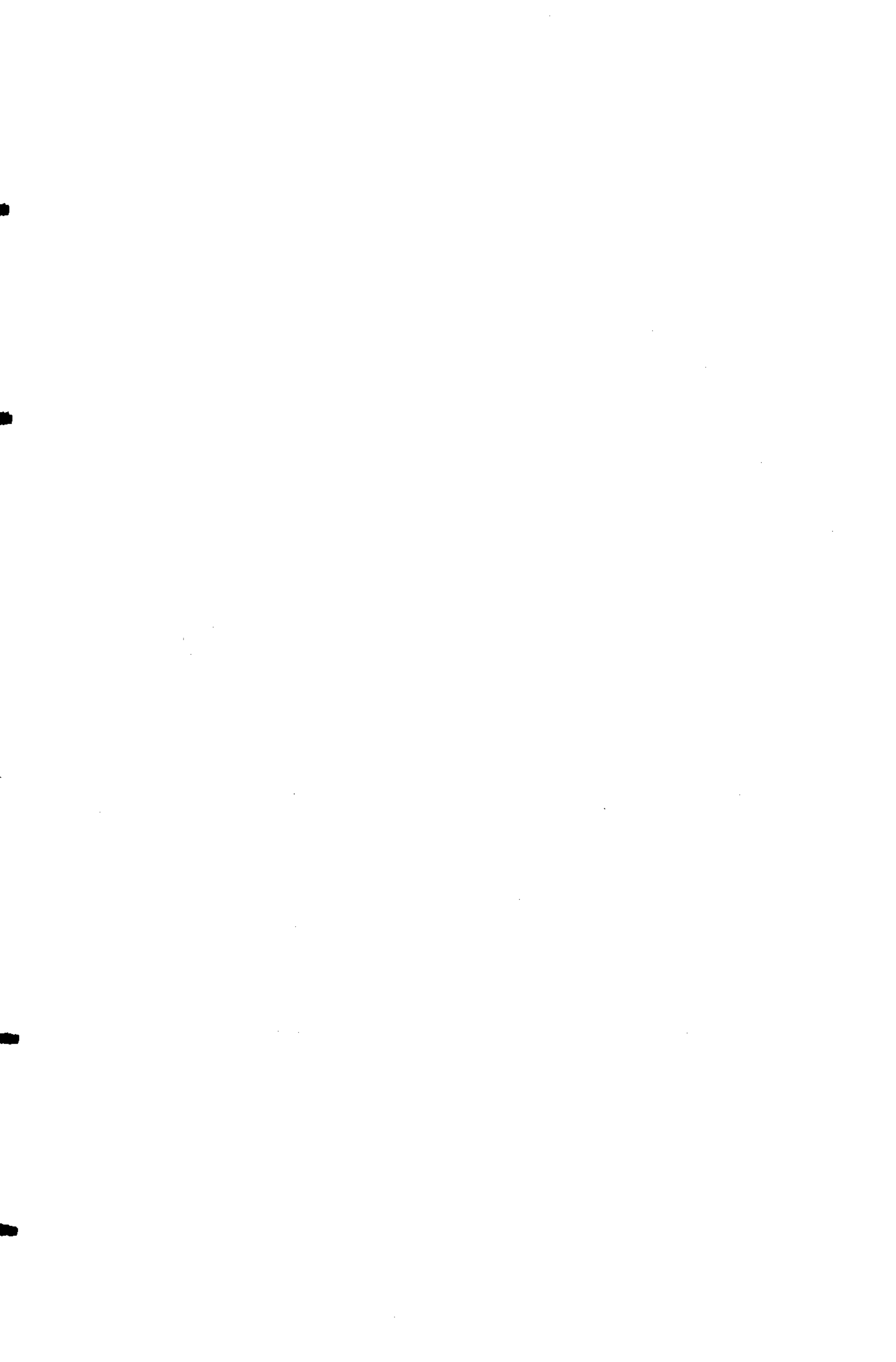
وبعد: فقد آن الأوان للتعرف على «المعجزة الكبرى» التي حدثت من عمر حين أصبح خليفة المسلمين. فكيف تمّ الاستخلاف، وما هي الأمور التي مهّدت لذلك، وكيف ساس عمر رعيته، وأدار شؤون دولته، ووطّد حكم الخلافة الراشدة، وأعاد كل شيء إلى نصابه على نحو فذ، حتى أحدث انقلاباً خطيراً وجليلاً في عهده الذي قصرت مدته فلم تتجاوز الثلاثين شهراً، وما هي الأسس التي قام عليها منهجه، وما هي مظاهر ذلك الانقلاب، وما هي ثمراته ونتائجه؟!

كلها أسئلة نحب معرفة الإجابة عليها، وتتوق النفس والروح أن تنعم بنعمائها، وتستظل بظلالها.

الباب الثالث

استخلافه ونظرته للحكم ومنهجه فيه

وفيه ثلاثة فصول



الفَصْلُ الأوَّل
الاسْتِخْلَافُ

استخلافه بعهد من سليمان:

كان سليمان بن عبد الملك مؤثراً للعدل، محباً للحق وأهله، يرجع إلى دين وخير، واتباع القرآن والسنة، وإظهار الشرائع الإسلامية. وكان من مظاهر ذلك أنه استوزر ابن عمه عمر بن عبد العزيز، وأطلق يده في إصلاح أحوال الرعية وتوجيه سياسة الدولة. ولقد أعجب سليمان بعمر ومنهجه القويم المستقيم، فكانت تراوده فكرة وتطوف بمخيلته بين الحين والآخر: أن يكون عمرُ هذا خليفة للمسلمين من بعده، بل ربما صرح بذلك أحياناً فقال: «والله لأعقدن لهم عقداً لا يكون للشيطان فيه نصيب»!

وكان عمر يشعر بهذا الهاجس من مواقف سليمان، الذي كان يقول له: «يا عمر، ما أهمني أمر قط، إلا خطرتَ فيه على بالي». كما كان يتوجس من رجاء بن حَيْوَة ـ الوزير العالم الصالح ـ أن يحث سليمان على استخلاف عمر. لذا لما ثقل سليمان واشتد به المرض، وأخذ رجاء يدخل عليه ويخرج ويتردد؛ أسرع عمر إليه فقال: «يا رجاء، أُذَكِّرُكَ الله والإسلام أن تذكرني لأمير المؤمنين، أو تشير بي، فوالله ما أقوى على هذا الأمر».

وهنا يلعب رجاء دوره بذكاء ودهاء، فهو يريد أن تؤول الخلافة لعمر، لكنه يريد ـ أيضاً ـ ألا يعلم عمر بذلك، بـل ولا أن تخطر بباله، حتى لا يسرع إلى أمير المؤمنين سليمان وهو في سكرات الموت فيتنصل

منها! فما كان من رجاء إلا أن انتهر عمر قائلاً: «لقد ذهب ظنك مذهباً بعيداً، ما كنتُ أحسبك تذهب إليه؛ أتظن بني عبد الملك يدخلونك في أمورهم»؟!

فاغتبط عمر لذلك، وتهلل وجهه، وهو يظن أن الأمر سيصرف عنه. ونجح رجاء في دوره العبقري هذا.

لقد كان القدر يوجه الأمور، ويجعل كل شيء في صالح «عمر»، ليصبح خليفة للمسلمين: فأحد أبناء سليمان كان صغيراً لا يقوى على أمور نفسه فضلاً عن أن يكون خليفة، وآخر هناك بعيداً في الحرب على جبهة الروم بالقسطنطينية. ولكن لسليمان إخوة كبار من أمثال هشام ويزيد وغيرهما، فكيف يتغلب سليمان على هذه العقبة، وهو يرى أنه ليس من السهولة أن يسلِّموا لعمر بتسلم منصب الخلافة العظمى، فتخرج من أولاد عبد الملك؟! وهداه تفكيره السليم، وقلبه المؤمن إلى الحل الذي يجتاز به كل العقبات، ويأمن سلامة العواقب. وساعده على ذلك وزيره الصالح رجاء، الذي يروي لنا تلك الحادثة العظيمة، وهذا الانقلاب الخطير ـ في سياسة الحكم ـ، من بدايته إلى نهايته، بتفصيل دقيق، فيقول:

«لما كان يوم الجمعة لبس سليمان بن عبد الملك ثياباً خُضْراً من خزّ، ونظر في المرآة فقال: أنا والله الملك الشاب. فخرج إلى الصلاة يصلي بالناس الجمعة، فلم يرجع حتى وُعك، فلما ثقل كتب كتاب عهده إلى ابنه أيوب ـ وهو غلام لم يبلغ ـ فقلتُ: ما تصنع يا أمير المؤمنين، إنه مما يُحْفَظُ به الخليفة في قبره أن يَسْتَخلف الرجل الصالح! فقال سليمان: كتابٌ أستخيرُ الله فيه، وأنظر ولم أعزم عليه. فمكث يوماً أو يومين ثم خرَّقه، ثم دعاني فقال: ما ترى في داود بن سليمان؟ فقلت: هو غائب عنك بقُسْطَنْطِينية، وأنت لا تدري أحيّ هو أم ميت. قال: يا رجاء، فمن ترى؟ قال: فقلت: رأيك يا أمير المؤمنين، وأنا أريد أن أنظر من يذكر!

فقال: كيف ترى في عمر بن عبد العزيز؟ فقلتُ: أعلمه والله فاضلاً خياراً مسلماً. فقال: هو على ذلك. والله لئن ولّيته ولم أُوَلّ أحداً من ولد عبد الملك لتكوننّ فتنة، ولا يتركونه أبداً يلي عليهم، إلا أن أجعل أحدهم بعده! ـ ويزيد بن عبد الملك يومئذٍ غائب على الموسم ـ قال: فيزيد بن عبد الملك أجعله بعده، فإن ذلك مما يسكّنهم ويرضون به. قلت: رأيك. قال: فكتب بيده: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من عبدالله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز، إني ولّيته الخلافة من بعدي، ومن بعده يزيد بن عبد الملك، فاسمعوا له وأطيعوا، واتقوا الله، ولا تختلفوا فَيُطْمَعَ فيكم. وختم الكتاب، فأرسل إلى كعب بن حامد العبسي ـ صاحب شُرَطِهِ ـ أن مُرْ أهل بيتي فليجتمعوا فأرسل إليهم كعب فجمعهم، ثم قال سليمان لرجاء بعد اجتماعهم: اذهبْ بكتابي هذا إليهم، فأخبرْهم أنه كتابي، وَمُرْهُم فلْيبايعوا مَنْ ولّيتُ. ففعل رجاء. فلما قال لهم ذلك رجاء، قالوا: سمعنا وأطعنا لمن فيه، وقالوا: ندخل فنسلّم على أمير المؤمنين. قال: نعم. فدخلوا، فقال لهم سليمان: هذا الكتاب ـ وهو يشير لهم، وهم ينظرون إليه في يد رجاء بن حيوة ـ هذا عَهْدي، فاسمعوا وأطيعوا وبايعوا لمن سمّيتُ في هذا الكتاب. قال: فبايعوه رجلاً رجلاً. قال: ثم خرج بالكتاب مختوماً في يد رجاء.

قال رجاء: فلما تفرقوا جاءني عمر بن عبد العزيز فقال: يا أبا المقْدام، إن سليمان كانت لي به حُرْمَة ومودّة، وكان بي براً مُلْطِفاً؛ فأنا أخشى أن يكون قد أسند إليّ من هذا الأمر شيئاً، فأنشدك الله وحُرْمتي ومودتي إلا أعلمتني إن كان ذلك، حتى أستعفيه الآن، قبل أن يأتي حال لا أقدر فيها على ما أقدر الساعة. فقال رجاء: لا والله، ما أنا بمخبرك حرفاً واحداً. فذهب عمر غضبان.

قال رجاء: ولقيني هشام بن عبد الملك، فقال: يا رجاء، إن لي بك

حرمة ومودة قديمة وعندي شكر، فأعلمْني أهذا الأمر إليّ؟ فإن كان إليّ علمتُ، وإن كان إلى غيري تكلّمتُ، فليس مثلي قُصّر به ولا نُحّيَ عنه هذا الأمر، فأعلمْني فَلَكَ الله ألا أذكر اسمك أبداً.

قال رجاء: فأبيتُ، وقلتُ: لا والله لا أخبرك حرفاً واحداً مما أسرّ إليّ. فانصرف هشام وهو مؤوس، وهو يضرب بإحدى يديه على الأخرى، وهو يقول: فإلى مَنْ إذا نُحِّيَتْ عني؟ أتخرج من بني عبد الملك؟! فوالله إني لَعَيْنُ بني عبد الملك.

قال رجاء: ودخلت على سليمان بن عبد الملك فإذا هو يموت. قال: فجعلتُ إذا أخذتْه سكرةٌ من سكرات الموت حرّفته إلى القبلة، فجعل يقول وهو يفأق: لم يأنِ لذلك بعدُ يا رجاء. حتى فعلتُ ذلك مرتين. فلما كانت الثالثة قال: من الآن يا رجاء إن كنت تريد شيئاً، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. قال: فحرّفته ومات. فلما أغمضتُه سجّيتُه بقطيفة خضراء، وأغلقت الباب. وأرسلتْ إليَّ زوجته تنظر إليه كيف أصبح، فقلت: نام وقد تغطى. فنظر الرسول إليه مغطّى بالقطيفة، فرجع فأخبرها، فقبلتْ ذلك وظنّتْ أنه نائم!

قال رجاء: وأجلست على الباب مَنْ أثق به، وأوصيتُه أن لا يَريمَ حتى آتيه، ولا يُدْخِل على الخليفة أحداً. قال: فخرجتُ فأرسلتُ إلى كعب بن حامد العبسي، فجمع أهل بيت أمير المؤمنين، فاجتمعوا في مسجد دابق. فقلت: بايعوا. قالوا: قد بايعنا مرة ونبايع أخرى؟! قلت: هذا أمر أمير المؤمنين، بايعوا على ما أمر به ومن سُمِّي في هذا الكتاب المختوم. فبايعوا الثانية رجلاً رجلاً.

قال رجاء: فلما بايعوا بعد موت سليمان، رأيتُ أني قد أحكمتُ الأمر، قلت: قوموا إلى صاحبكم فقد مات. قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون. وقرأت عليهم الكتاب، فلما انتهيتُ إلى ذكر عمر بن عبد العزيز

نادى هشام: لا نبايعه أبداً. قال: قلت: أضربُ والله عنقك، قمْ فبايعْ. فقام يجرُّ رجليه!

قال رجاء: وأخذت بِضَبْعَيْ عمر، فأجلستُه على المنبر وهو يسترجع لما وقع فيه، وهشام يسترجع لما أخطأه! فلما انتهى هشام إلى عمر قال: إنا لله وإنا إليه راجعون ـ أي حين صار هذا الأمر إليك على ولد عبد الملك ـ! فقال عمر: نعم، فإنا لله وإنا إليه راجعون، حين صار إليّ لكراهتي له. قال: وغُسِّل سليمان وكُفِّن، وصلّى عليه عمر بن عبد العزيز.

قال رجاء: فلما فُرغ من دفنه أُتي بمراكب الخلافة: البراذين والخيل والبغال، ولكل دابة سائس، فقال: ما هذا؟ فقالوا: مراكب الخلافة. فقال عمر: دابتّي أوفقُ لي! فركب بغلته، وصُرفت تلك الدواب، ثم أقبل. فقيل: تنزل منزل الخلافة، فقال: فيه عيالُ أبي أيوب[1]، وفي فسطاطي كفاية، حتى يتحوّلوا. فأقام في منزله حتى فرّغوه بعد.

قال رجاء: فلما كان مُسْيُ ذلك اليوم قال: يا رجاء، ادْعُ لي كاتباً. فدعوتُه، وقد رأيتُ منه كل ما يسرّني، صنع في المراكب ما صنع، وفي منزل سليمان، فقلتُ: فكيف يصنع الآن في الكتاب؟ أيضعُ نُسَخاً أم ماذا؟ قال: فلما جلس الكاتب أملى عليه كتاباً واحداً من فيه إلى يد الكاتب بغير نسخة، فأملى أحسن إملاء وأبلغه وأوجزه، ثم أمر بذلك الكتاب فنُسخ إلى كلّ بلد.

وبلغ عبدَ العزيز بن الوليد ـ وكان غائباً ـ موتُ سليمان بن عبد الملك، ولم يعلم بمبايعة الناس عمر، وعهد سليمان إليه؛ فبايع مَنْ معه لنفسه، ثم أقبل يريد دمشق يأخذها، فبلغه أن عمر بن عبد العزيز قد بايعوا

---

(١) هو سليمان بن عبد الملك رحمه الله.

له بعد سليمان بعهد من سليمان، فأقبل حتى دخل على عمر بن عبد العزيز، فقال له عمر بن عبد العزيز: قد بلغني أنكَ كنتَ بايعتَ مَنْ قِبَلَك، وأردتَ دخول دمشق. فقال: قد كان ذلك، وذلك أنه لم يبلغني أن الخليفة كان عَقَدَ لأحدٍ، فَفَرِقْتُ على الأموال أن تُنْهَبَ! فقال عمر: والله، لو بويعتَ وقمتَ بالأمر ما نازعتُك ذلك ولقعدتُ في بيتي. فقال عبد العزيز: ما أحِبُّ أنه ولي هذا الأمر غيرك. وبايع عمرَ بن عبد العزيز»[1].

وتوفي سليمان يوم الجمعة لعشر ليال بقين ـ أو مضين ـ من صفر سنة (٩٩ هـ)، عن خمس وأربعين سنة، وكانت خلافته سنتين وثمانية أشهر، ودفن «بدابق» وصلى عليه عمر بن عبد العزيز، واستخلف في ذلك اليوم[2].

●● ولقد أحسن سليمان بعمله هذا للمسلمين جميعاً، وقد أثنى عليه ـ لذلك ـ الخيّرون والصالحون، فكان ابن سيرين يترحم على سليمان ويقول: «افتتح خلافته بخير، وختمها بخير: افتتحها بإجابة الصلاة لمواقيتها، وختمها باستخلافه عمر بن عبد العزيز».

وقال القاسم بن محمد وسالم بن عبد الله بن عمر وخارجة بن زيد: «إنا لنرجو لسليمان باستخلافه عمر بن عبد العزيز»[3].

مبايعته ثانية وأول خطبة له:

لم يكتف عمر بولاية العهد له من سليمان، وببيعة الناس ـ وفيهم

---

(١) الطبقات ٥/٣٣٥ ـ ٣٣٨، الطبري ٧/٤٥٣ ـ ٤٥٦، المناقب ٥٩ ـ ٦٣، مختصر ابن عساكر ١٠٤ ـ ١٠٧، الكامل في التاريخ ٤/١٥٢ ـ ١٥٣، سير أعلام النبلاء ٥/١٢٣ ـ ١٢٦، تاريخ الإسلام ١٩٢ ـ ١٩٣، البداية والنهاية ٩/١٨١ ـ ١٨٢.

(٢) الطبقات ٥/٤٠٨، مختصر ابن عساكر ١٢٧، الطبري ٧/٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥٣، سير أعلام النبلاء ٥/١٢٦، تاريخ الإسلام ١٩٤، البداية والنهاية ٩/١٧٧، ١٨٣، ١٨٤.

(٣) الطبقات ٥/٣٤٤ ـ ٣٤٥، الطبري ٧/٤٤٩، البداية والنهاية ٩/١٧٩، المناقب ٦٣.

رؤوس بني أمية ـ في «دابق»، بل أراد بيعة عميمة شاملة، تتسع لكل أحد، ولا يكون هناك أي مانع ـ من سلطة أو غيرها ـ يمنعه من أن يعبر عن رأيه، ولن يكون ذلك إلا في المسجد، لما فيه من أمن وأمان، وما يشيع في رحابه من صدق وإخلاص.

يحدث عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز فيقول: «لما دَفن عُمر بن عبد العزيز سليمانَ بن عبد الملك، وخرج من قبره، سمع للأرض هدّة أو رجّة، فقال: ما هذه؟ فقيل: هذه مراكب الخلافة يا أمير المؤمنين، قُرِّبت إليك لتركبها. فقال: مالي ولها؟! نحُّوها عني، قرِّبوا إلي بغلتي. فقُربت إليه بغلته، فركبها. فجاءه صاحب الشرطة يسير بين يديه بالحربة، فقال: تنحَّ عني، ما لي ولك! إنما أنا رجل من المسلمين. فسار وسار معه الناس حتى دخل المسجد، فصعد المنبر، واجتمع إليه الناس، فقال:

أيها الناس، إني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأي كان مني فيه، ولا طِلْبة له، ولا مشورة من المسلمين، وإني قد خلعتُ ما في أعناقكم من بيعتي فاختاروا لأنفسكم!

فصاح الناس صيحة واحدة: قد اخترناك يا أمير المؤمنين، ورضينا بك، فَلِ أمرنا باليُمن والبركة.

فلما رأى الأصوت قد هدأت، ورضي به الناس جميعاً، حمد الله، وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ، وقال:

أوصيكم بتقوى الله، فإن تقوى الله خَلَفٌ من كل شيء، وليس من تقوى الله عز وجل خلف. واعملوا لآخرتكم، فإنه من عمل لآخرته كفاه الله تعالى أمر دنياه. وأصلحوا سرائركم يصلح الله الكريم علانيتكم. وأكثروا ذكر الموت، وأحسنوا الاستعداد قبل أن ينزل بكم، فإنه هاذم اللذات، وإن من لا يذكر من آبائه ـ فيما بينه وبين آدم عليه السلام ـ أباً حياً؛ لمعْرِق له في الموت. وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها عز وجل، ولا في

نبيها ﷺ، ولا في كتابها، وإنما اختلفوا في الدينار والدرهم. وإني والله لا أعطي أحداً باطلاً، ولا أمنع أحداً حقاً.

ثم رفع صوته حتى أسمع الناس فقال: يا أيها الناس، من أطاع الله وجبت طاعته، ومن عصى الله فلا طاعة له. أطيعوني ما أطعتُ الله، فإذا عصيتُ الله، فلا طاعة لي عليكم»[1]!

وكان مما قاله: «أما بعد، فإنه ليس بعد نبيّكم نبيّ، ولا بعد الكتاب الذي أُنزل عليه كتاب، ألا إن ما أحلَّ الله حلال إلى يوم القيامة، وما حرَّم الله حرام إلى يوم القيامة. ألا إني لستُ بقاضٍ[2] ولكني منفّذ. ألا إني لستُ بمبتدعٍ ولكني متّبع، ألا إنه ليس لأحد أن يُطاع في معصية الله. ألا إني لستُ بخيركم، ولكني رجل منكم، غير أن الله جعلني أثقلكم حملاً»[3].

وقال على الملأ: «وإن مَنْ حولكم من الأمصار والمدن إن أطاعوا كما أطعتم فأنا واليكم، وإن هم أَبَوْا؛ فلستُ لكم بوالٍ» ثم نزل[4].

●● إن قيام عمر بخَلْع ولاية العهد من عنقه أمر غريب عجيب استهجنته الجموع المحتشدة، لكنهم ما إن سمعوا: «فاختاروا لأنفسكم»، حتى انطلقت أصواتهم الصادحة الصائحة: «قد اخترناكَ يا أمير المؤمنين، ورضينا بك، فَلِ أمرَنا باليُمن والبركة». واندفعت الجموع الهادرة التي كانت بداخل المسجد، وانضمت إليهم أمثالها من خارجه، واندفعوا جميعاً نحو المنبر، حيث هبط «أمير المؤمنين» ليبايعهم وهو لا يكاد يجد له

---

(١) المناقب ٦٥ - ٦٩، ٢٥٤، صفة الصفوة ٢/١١٤ - ١١٥، البداية والنهاية ٩/٢١٢، ٢١٣.

(٢) وفي بعض المصادر: «بفارضٍ».

(٣) الطبقات ٥/٣٤٠، المناقب ٢٣٣، سنن الدارمي ١/١٢٦، سير أعلام النبلاء ٥/١٢٦، تاريخ الإسلام ١٩٥.

(٤) سير أعلام النبلاء ٥/١٢٦، تاريخ الإسلام ١٩٣، البداية والنهاية ٩/١٨٣.

مكاناً وسط الزحام!! وراحت أذرعهم تلوح وتخفق، مبايعة راضية، وعيونهم تبرق بفرحة غامرة، ولكأن الكون ـ هو الآخر ـ يبتسم معهم، أما عمر فراح يجهش بالبكاء!!

ولقد منحته هذه البيعة العامة العميمة قوة جديدة لمقاومة كل ما خالف الحق، ومحاربة الظلم، وإقامة الشرائع على وجهها الصحيح. وتجاوبت أصداء بيعته في أطراف الدولة الإسلامية، فأظهر الناس الفرح والسرور، وأعلنوا رضاهم بالخليفة الجديد، وألقوا إليه السمع، وبذلوا له الطاعة.

كتبه إلى الأمصار:

وما إن فرغ عمر من البيعة العامة حتى قام فكتب إلى كل الولاة في الدولة الإسلامية، حيث استدعى الكاتب، وأملى عليه نسخة الكتاب الذي يبايع عليه أهل الأمصار، ويبين فيه منهجه وسياسته في الحكم، قال رجاء ابن حيوة: «فأملى أحسن إملاء وأبلغه وأوجزه، ثم أمر بذلك الكتاب فَنُسخ إلى كل بلد».

ومما جاء في كتابه ما رواه ابن سعد ـ بسنده ـ قال: «جاءت كتب عمر بن عبد العزيز، بإحياء السنّة، وإماتة البدع، وإنه ينبغي لكم أن يكون ظنكم بي أن لا حاجة لي في أموالكم، لا ما في يديّ ولا ما في أيديكم، إنه حَرِيٌّ على من انتهك معاصي الله في عقوبته إياه»[١].

يقول رجاء: «كنتُ أظنّ أنه سيضعُف، فلما رأيتُ صُنْعَه في الكتاب؛ علمتُ أنه سَيَقْوَى»[٢].

* * *

(١) الطبقات ٥/٣٧٦.

(٢) سير أعلام النبلاء ٥/١٢٦، تاريخ الإسلام ١٩٤.

فالحكم وكالة ونيابة وإجارة وأمانة، وهو في كل ذلك مسؤولية[1].

●● ولقد كان عمر يفقه ذلك تمام الفقه، ويدرك عظم المسؤولية أمام الله سبحانه، حتى إنه كان يقول: «وايمُ الله، لو أعلم أنه يسوغ لي فيما بيني وبين الله، أن أخليكم وأمركم هذا، وألْحَقَ بأهلي؛ لفعلتُ، ولكني أخاف أن لا يسوغ ذلك لي، فيما بيني وبين الله»[2].

إن الدين والدولة والأمة والحياة كلها أمست مسؤولية في عنقه، فهو لا يستطيع أن يصبر ساعة من نهار على خطأ، ولا أن يؤجل إقامة حق لغدٍ، لأن الله سائله: لماذا أَخَّرْتَ هذا الخطأ، وأرجأت ردّ الحق إلى أهله؟! ثم هو لا يضمن لنفسه الحياة إلى الغد، بل إلى الساعة التالية، وإذن: فلا وقت البتة للتأخير والإرجاء.

●● ولقد حرص أمير المؤمنين على أن يدرك الناس أنه لا يأتيهم بجديد، فكل ما يصدر عنه موجود في الكتاب والسنة وتراث الخلفاء الراشدين ومن تبعهم بإحسان؛ إنما يأتيهم بروح جديدة، هي روح المسؤولية الصادقة، يزكيها فهم سليم للإسلام وأهداف شريعته. وهذه المسؤولية كانت عند عمر قد بلغت من الوضوح والإسفار حداً سيطرت معه على تفكيره، واستغرقت كل حياته، استغراق إيمان مفعم بالتصديق واليقين بها وبجلالتها وفداحتها.

فهو مسؤول عن دين الله وشرائعه وشعائره، وإقامة كل حلال، والنهي عن كل حرام، وإحياء السنن وإماتة البدع ـ وقد بين ذلك في «خطبة الخلافة» ـ وأنه لا كتابَ بعد كتاب الله، وأن الحلال ما أحله الله، والحرام ما حرّمه الله، وأنه منفِّذ لا قاضٍ، ومتبع لا مبتدع، وأنه كواحد من المسلمين غير أنه أثقلهم حملاً، وأعظمهم مسؤولية أمام الله.

---

(١) انظر: نظام الإسلام ٩٧ ـ ٩٨. (٢) المناقب ٢٢٥.

وبنفس ذلك الوضوح كان يرى أنه أمين على كل عباد الله في دولته المترامية الأطراف. وقد سيطر عليه هذا الفهم العميق السليم لروح المسؤولية في اللحظة نفسها التي علم فيها أنه سيصير خليفة المسلمين.

قال مولى لعمر بن عبد العزيز لعمر حين رجع من جنازة سليمان: «ما لي أراك مُغْتَمّاً؟ قال: لمِثْلِ ما أنا فيه يُغْتَمّ له، ليس من أمة محمد ﷺ أحد في شرق الأرض وغربها إلَا وأنا أريدُ أن أؤدّي إليه حقّه، غير كاتبٍ إليَّ فيه، ولا طالبه مني»[1].

وقالت زوجته فاطمة بنت عبد الملك: «دخلت يوماً عليه، فإذا هو في مصلّاه، يده على خده، تسيل دموعه على لحيته. فقلت: يا أمير المؤمنين، ألشيء حَدَثَ؟ قال: يا فاطمة، إني تقلّدت من أمر أمة محمد ﷺ أسودها وأحمرها، فتفكرت في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعاري المجهود، والمظلوم المقهور، والغريب الأسير، والشيخ الكبير، وذي العيال الكثير والمال القليل، وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد؛ فعلمتُ أن ربي سيسألني عنهم، وأن خصمي دونهم محمد ﷺ، فخشيتُ أن لا تثبت لي حُجَّة عند خصومته؛ فرحمت نفسي فبكيت».

بل قال: «... فعلمت أن الله سائلي عنهم، وأن محمداً ﷺ حَجيجي فيهم، فخفتُ أن لا يثبت لي عند الله عذر، ولا يقوم لي مع رسول الله ﷺ حُجَّة، فخفتُ على نفسي خوفاً دمع له عيني، ووجل له قلبي، فأنا كلما ازددت له ذكراً ازددت منه وَجَلًا»[2]!

---

(١) الحلية ٥/٢٨٩، المناقب ٦٥، صفة الصفوة ٢/١١٨، سير أعلام النبلاء ٥/١٢٧، البداية والنهاية ٩/١٩٨.

(٢) مختصر ابن عساكر ١١٤ - ١١٥، المناقب ٢٢٢ - ٢٢٣، سير أعلام النبلاء ٥/١٣١ - ١٣٢، تاريخ الإسلام ١٩٧ - ١٩٨، البداية والنهاية ٩/٢٠١. وغير ذلك.

وكان ـ رضي الله عنه ـ يقول: «... ألا إني لست بخيركم، ولكني رجل منكم، غير أن الله جعلني أثقلكم حملاً»[1].

وكتب إلى سليمان بن أبي كريمة ـ وقد خرج مجاهداً في سبيل الله ـ يقول: «إن أَحَقَّ العباد بإجلال الله والخشية منه مَنْ ابتلاه الله بمثل ما ابتلاني به، ولا أحد أشدّ حساباً ولا أهون على الله إن عصاه مني! فقد ضاق بما أنا فيه ذرعي، وخفتُ أن تكون منزلتي التي أنا بها هلاكاً لي إلا أن يتداركني الله منه برحمة. وقد بلغني أنك تريد الخروج في سبيل الله، فأحِبُّ ـ يا أخي ـ إذا أخذتَ موقفك أن تدعو الله أن يرزقني الشهادة، فإن حالي شديدة، وخطري عظيم، فأسأل الله الذي ابتلاني بما ابتلاني به أن يرحمني ويعفو عني»[2]!!

إن قلبه الورع الزكي، وروحه الطاهرة الأوابة، وعقله المنير المستنير، مع كل فرد من أمته: مع كل يتيم وكل شيخ وكل أرملة. مع كل فقير وكل مجهود وكل مريض. مع كل مظلوم وكل مقهور وكل أسير.

كل هؤلاء قابعون في ضميره الحي، وقلبه النابض اليقظ، بل كلهم يجلجلون بأصواتهم، ويجأرون بشكاواهم، وينتظرونه ـ كما يحس ويتصور ويعتقد ـ ليخاصموه بين يدي الله، حيث لا ينجيه من مخاصمتهم، ولا يجتاز تلك العقبة الكؤود، إلا بما يبذله لهم من عدل وخير وبرّ ومرحمة وعطف ورعاية وحسن سياسة.

●● لقد استغرقت المسؤولية منه كل لحظات حياته، وسيطرت على شعوره وفكره، فكان لا يرى إلا صورة واحدة: هي صورة وقوفه الطويل بين يدي الله سبحانه، يسأله عن كل شعيرة من دينه، وكل فرد من عباده. إن «المضمون الإسلامي» الصحيح الواعي للمسؤولية دفعه إلى أن يفرغ

---

(١) الطبقات ٥/٣٦٨، المناقب ٦٩، سير أعلام النبلاء ٥/١٢٧.
(٢) الطبقات ٥/٣٩٥.

نفسه للناس سحابة النهار، وعندما يزحف الليل يقف بين يدي الله ويتهجد، وهو لا ينفك عن التفكر في مسؤولياته الضخام.

تقول زوجته فاطمة: «إن عمر ـ رحمه الله ـ كان قد فرَّغ نفسه وبَدَنَه للناس، كان يقعدُ لهم يومَه، فإن أمسى وعليه بقيَّةٌ من حوائج يومه وَصَلَهُ بلَيْلَتِه، إلى أن أمسى مساءً وقد فرغ من حوائج يومه، فدعا بسراجِه الذي كان يُسْرَجُ له من مالِهِ، ثم قام فصلى ركعتين، ثم أقْعى واضعاً رأسه على يَده، تُسايلُ دموعُهُ على خدِّه، يشهقُ الشَّهْقَةَ فأقولُ: قد خرجتْ نفسُه، أو تصدَّعَتْ كبدُه. فلم يزل كذلك ليلتَه، حتى بَرَقَ له الصبحُ، ثم أصبح صائماً»[1]!!

ووصف النضر بن عربي حالته تلك وهو مستغرق في مسؤولياته، فقال: «دخلت على عمر بن عبد العزيز، فرأيته جالساً هكذا: قد نصب ركبتيه، ووضع يديه عليهما، وذقنه على ركبتيه، كأنَّ عليه بَثَّ هذه الأمة»[2]!

ومنذ ولي الخلافة آلى على نفسه أن يعيش كأدنى فرد من أفراد رعيته، فهجر المناعم والمباهج، والأطعمة اللذيذة، والعبير الفواح، وقَلَبَتْه المسؤولية إنساناً آخر قد لاذ بشظف العيش، وخشن الثياب، تماماً كجده العظيم ابن الخطاب، ولو لقيه من لا يعرفه لسأله: أين أجد أمير المؤمنين ابن عبد العزيز؟!

●● تلك هي حقيقة الانقلاب العظيم والرجفة الكبرى التي حولت مسار حياته، وأخرجتها عن مدارها الأول إلى مدارها الجديد، الذي محوره أنه مسؤول أمام الله تعالى عن كل حق للدين والدنيا، والعباد والأنعام والزرع!

---

(١) مختصر ابن عساكر ١١٤.
(٢) الحلية ٥/٢٨٩، المناقب ٢١٤، تاريخ الإسلام ٢٠٢.

إنه الآن أمير المؤمنين، ومن ثَمَّ فإن علاقته بالله هي علاقة مسؤول بِمُسْتَخْلِفِهِ، وأنه سيُسأل عن الدين والدولة والأمة جميعاً.

وهكذا كان استغراقه في مسؤولياته، واستغراقها له، حقيقة تعلو على كل وصف، وتفوق كل تصور. ولقد شمل هذا الاستغراق كل مستويات حياته: خليفة، وأباً، وزوجاً، وأخاً، وصديقاً، وقريباً. وكل من له علاقة به غائص ـ هو الآخر ـ معه في مسؤولياته، وكلما ازداد منه قرباً ازداد بالمسؤولية غرماً!.

ولقد صوّر هذه الحقيقة أجمل تصوير خادمٌ له، وقد رآه أمير المؤمنين يسحب بِرْذَوْنَهُ، فسأله: «كيف حال الناس؟ فقال: كل الناس في راحة، إلا أنا وأنت وهذا البرذون»!!

●● ومن ثم كان منه ذلك الإخلاص المتفاني في مسؤولياته، إخلاص رجل لا يريد أن يبلغ مجداً شخصياً، ولا أن ينال مغنماً ذاتياً، فهو قد نال ذلك قبل الخلافة، وتركه كله بعدها ـ إنما كان إخلاصه إخلاص الصِّدِّيقين في محراب التبتل الصادق بين يدي الله رب العالمين. إنه إخلاص للمسؤولية نابع من إيمان هذا الخليفة وإخلاصه لله تعالى، فلن تستطيع ألف دنيا، ولا ألف قريب أو صديق، أو زوج أو عشيرة، أن تنافس ذلك الإخلاص الخالص من كل شائبة، فاستطاع أن يبلغ به أقصى ما يستطيعه أولو العزم الراشدون.

ولقد صمم «الرجل المعجزة» في عزم وثيق على الاستمرار في هذا النهج القويم من فهم «المسؤولية» حسبما يعتقده ويتصوره. وزاد الأمر روعة وجلالاً أنه كان يستنصح المخلصين حول هذه الحقيقة، فلعل في الزوايا خبايا لم تكتشفها بصيرته، أو لم ترها عيناه.

يذكر خالد بن صفوان أنه دخل ذات يوم على عمر، فقال له عمر: «عِظْني يا خالد. فقال: إن الله لم يرضَ أحداً يكون فوقك، فلا ترضَ أن

يكون أحد أولى بالشكر منك. قال: فبكى عمر حتى غشي عليه، ثم أفاق فقال: هِيه يا خالد، لم يرض أن يكون أحد فوقي؟! فوالله لأَخافَنَّه خوفاً، وَلأَحْذَرَنَّه حذراً، ولأرجونّه رجاء، ولأحبنّه محبة، ولأشكرنّه شكـراً، ولأحمدنّه حمداً، يكون ذلك كله غاية طاقتي! ولأجتهدنَّ في العدل والنَّصَفَة، والزهد في فاني الدنيا لزوالها، والرغبة في بقاء الآخرة ودوامها، حتى ألقى الله عز وجل، فلعلي أن أنجو مع الناجين، وأفوز مع الفائزين. وبكى حتى غشي عليه. قال: فتركتُه مغشياً عليه، وانصرفت»[1].

وقدم عليه زياد العبد، فقال له عمر: «يا زياد، ألا ترى ما ابتليت به من أمر أمة محمد ﷺ؟ قال: يا أمير المؤمنين، لا تعمل نفسك في الوصف، وأعمل نفسك في المخرج مما وقعتَ فيه، فلو أن كل شعرة منك نطقت، ما بلغتَ كُنْهَ ما أنت فيه! ثم قال زياد: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن رجل له خصم أَلَدّ ما حاله؟ قال: سيىء الحال! قال: فإن كانا خصمين أَلَدَّيْن؟ قال: ذاك أسوأ لحاله! قال: فإن كانوا ثلاثة؟ قال: ذاك حين لا يهنئه عيش! قال: فوالله يا أمير المؤمنين، ما أحد من أمة محمد إلا وهو خصم لك!! قال: فبكى عمر، حتى تمنيتُ أن لا أكون قلتُ له»[2].

من هنا نفهم لِمَ كان هذا الموقف من أمير المؤمنين حين استُخْلف، والذي يحدثنا عنه حماد بن أبي سليمان فيقول: «لما استُخْلِف عمر بن عبد العزيز بكى، فقال: يا أبا فلان، أتخشى عليَّ؟ قال: كيف حُبُّكَ للدرهم؟ قال: لا أحبه. قال: لا تَخَفْ، فإن الله سيعينك»[3].

طاعة الحاكم ومكانته وصلاحياته:

طاعة الناس للسلطة والحاكم واجبة وضرورية؛ ليتمكن الحاكم من

(١، ٢) المناقب ١٦٣ ـ ١٦٤، البداية والنهاية ٢١٨/٩.

(٣) المناقب ١٨٠، مختصر ابن عساكر ١١١، سير أعلام النبلاء ١٢٨/٥، تاريخ الإسلام ١٩٦.

يكون أحد أولى بالشكر منك. قال: فبكى عمر حتى غشي عليه، ثم أفاق فقال: هِيه يا خالد، لم يرض أن يكون أحد فوقي؟! فوالله لأَخَافَنَّه خوفاً، وَلأَحْذَرَنَّه حذراً، ولأرجونّه رجاء، ولأحبنّه محبة، ولأشكرنّه شكراً، ولأحمدنّه حمداً، يكون ذلك كله غاية طاقتي! ولأجتهدنَّ في العدل والنَّصَفَة، والزهد في فاني الدنيا لزوالها، والرغبة في بقاء الآخرة ودوامها، حتى ألقى الله عز وجل، فلعلي أن أنجو مع الناجين، وأفوز مع الفائزين. وبكى حتى غشي عليه. قال: فتركتُه مغشياً عليه، وانصرفت»[1].

وقدم عليه زياد العبد، فقال له عمر: «يا زياد، ألا ترى ما ابتليت به من أمر أمة محمد ﷺ؟ قال: يا أمير المؤمنين، لا تعمل نفسك في الوصف، وأعمل نفسك في المخرج مما وقعتَ فيه، فلو أن كل شعرة منك نطقت، ما بلغتَ كُنْهَ ما أنت فيه! ثم قال زياد: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن رجل له خصم أَلَدّ ما حاله؟ قال: سيىء الحال! قال: فإن كانا خصمين أَلَدَّيْن؟ قال: ذاك أسوأ لحاله! قال: فإن كانوا ثلاثة؟ قال: ذاك حين لا يهنئه عيش! قال: فوالله يا أمير المؤمنين، ما أحد من أمة محمد إلا وهو خصم لك!! قال: فبكى عمر، حتى تمنيتُ أن لا أكون قلتُ له»[2].

من هنا نفهم لِمَ كان هذا الموقف من أمير المؤمنين حين استُخْلف، والذي يحدثنا عنه حماد بن أبي سليمان فيقول: «لما استُخْلِف عمر بن عبد العزيز بكى، فقال: يا أبا فلان، أتخشى عليَّ؟ قال: كيف حُبُّكَ للدرهم؟ قال: لا أحبه. قال: لا تَخَفْ، فإن الله سيعينك»[3].

طاعة الحاكم ومكانته وصلاحياته:

طاعة الناس للسلطة والحاكم واجبة وضرورية؛ ليتمكن الحاكم من

(١، ٢) المناقب ١٦٣ - ١٦٤، البداية والنهاية ٩/٢١٨.

(٣) المناقب ١٨٠، مختصر ابن عساكر ١١١، سير أعلام النبلاء ٥/١٢٨، تاريخ الإسلام ١٩٦.

إحقاق الحق، وتأمين الأمن، وإقامة العدل، والدفاع عن الأمة ودينها وأرضها. وهذه الطاعة مشروطة: بأن يكون الحاكم من المسلمين وأمراء الحق، وأن تكون أوامره في حدود طاعة الله ورسوله، وأن تكون فيها للمسلمين مصلحة مشروعة[1].

ولقد أعلن عمر ذلك في أول خطبة له، دون مواربة ولا مخاتلة، فقال: «ألا إنه ليس لأحد أن يطاع في معصية الله». وقال: «أيها الناس، مَنْ أطاع الله وجبت طاعته، ومن عصى الله فلا طاعة له. أطيعوني ما أطعت الله، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم». وهذا مثل كلام أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه.

وكرر عمر ذلك في مواقف عديدة، أمام جموع المسلمين الحاشدة، فقام مرة في «الجامع الأموى» ونادى بأعلى صوته: «لا طاعة لنا في معصية الله».

وقال في موقف آخر: «ألا وإن السمع والطاعة واجبان على كل مسلم ما لم يُؤمر لله بمعصية، فمن أمر لله بمعصية ألا فلا طاعة لمخلوق بمعصية الخالق. ألا هل أَسْمَعْتُ؟! قالها ثلاثاً».

وجاء رجل يبايعه، فمدّ أمير المؤمنين إليه يده، ثم قال: «بايعْني بلا عهدٍ ولا ميثاق، تطيعني ما أطعتُ الله، فإن عصيتُ الله فلا طاعة لي عليك. فبايَعَهُ»[2].

●● كذلك أبانَ للناس أن الحاكم الظالم عاصٍ لله تعالى، متعدٍّ لحدوده، مخلف بشروط بيعة الناس له؛ ومن ثم فمن هرب من ظلمه

---

(١) نظام الإسلام ٤٨ ـ ٥٠.
(٢) الطبقات ٣٤٣/٥، سنن الدارمي ١٢٦/١، الحلية ٢٩٦/٥، المناقب ٦٦، ٦٧، مختصر ابن عساكر ١٠٧، البداية والنهاية ١٩٩/٩، ٢١٣.

وعسفه وغشمه فليس بعاصٍ ولا آبق. ولقد أشاع هذا المفهوم على الملأ وفي المسجد حيث خطب الناس، وكان فيما قاله:

«... ألا لا سلامة لامرىءٍ في خلاف السنّة، ولا طاعة لمخلوق في معصية الله، ألا وإنكم تسمُّون الهارب من ظلم إمامه: العاصي! ألا وإن أَوْلاهما بالمعصية الإمام الظالم»(١).

●● واعتبر الهدية للحاكم رشوة، وتوعّد من يهدي له أو لأحد من ولاته، فعن ميمون بن مهران قال: «أُهدي إلى عمر بن عبد العزيز تفاح وفاكهة، فردّها، وقال: لا أعلمنّ أنكم قد بعثتم إلى أحد من أهل عملي بشيء! قيل له: ألم يكن رسول الله ﷺ يقبل الهدية؟ قال: بلى، إن الهدية كانت للنبي ﷺ هدية، ولكنها لنا ولمن بعدنا رشوة»(٢).

●● وكان ينهى الخلفاء الذين كانوا قبله عن قتل مَنْ شَتَمَ الخليفة، ولما أصبح أمير المؤمنين عمل بذلك، وأمر ولاته أن يلتزموا بهذا المبدأ. من ذلك أن عبد الحميد بن عبد الرحمن ـ والي الكوفة ـ كتب إلى عمر: «إنه رُفع إليَّ رجل يسبّكَ، فهممتُ أن أضربَ عنقه، فحبستُه، وكتبتُ إليكَ لأستطلع في ذلك رأيك. فكتب إليه: أماَ إنَّكَ لو قتلتَه لأقدتُك به! إنه لا يُقتل أحدٌ بسبِّ أحدٍ إلا من سبَّ النبي ﷺ، فاسْببه إن شئتَ، أو خلِّ سبيله»(٣).

●● وكان يرى أن القصَّاص يغالون في نظرتهم للخليفة، ويرفعونه فوق مكانته، حتى إن بعضهم ليدعو له عدل ما يصلون على النبي ﷺ! فأنكر ذلك، ووجه كتبه إلى العمال على الأمصار يأمرهم بالنهي عن ذلك. فمن هذا ما كتبه إلى أمير الجزيرة: «أما بعد، فإن ناساً من الناس قد

---

(١) المناقب ٢٤٠.
(٢) الطبقات ٥/٣٧٧، الحلية ٥/٢٩٤، المناقب ١٨٩، سير أعلام النبلاء ٥/١٤٠.
(٣) الطبقات ٥/٣٦٩، ٣٧٩.

التمسوا بعمل الآخرة الدنيا، وإنما مصيرهم ومرجعهم إلى الله بعد الموت. وقد بلغني أن ناساً من القصاص قد أحدثوا الصلاة على أمرائهم عدل ما يصلون على النبي ﷺ، فإذا جاءك كتابي هذا فَمُرِ القصاص فليجعلوا صلاتهم على النبي ﷺ خاصة، وليكن دعاؤهم للمؤمنين والمسلمين عامة، ولْيَدَعُوا ما سوى ذلك. والسلام»[1].

وكتب كتاباً عاماً جاء فيه: «لا تخصّوني بشيء من الدعاء، ادعوا للمؤمنين والمؤمنات عامة، فإن أكن منهم أدخل فيهم»[2].

مهمة الحاكم:

إن مهمات الحاكم المسلم وواجباته التي أُلزم بها بعقد البيعة تتلخص في «حراسة الدين وسياسة الدنيا»[3]. ولقد كانت هذه الواجبات بديهية في ضمير الحكام المسلمين، وكانت من أوضح ما تكون عند إمامنا الراشد الخليفة العظيم عمر بن عبد العزيز. ولقد عبرت أيام خلافته عن ذلك الفهم أروع تعبير، وصدرت عنه أقوال سطرتها الكتب التي ترجمت له بأحرف من نور.

فكان يقول: «لولا أن أُنعش سنَّةً، أو أَسير بحقّ، ما أحببتُ أن أعيش فُواقاً»[4].

ويقول: «فلو كان كلّ بدعةٍ يُميتها الله على يدي، وكل سنَّةٍ يُنعشها الله على يدي، ببضعة من لحمي، حتى يأتي آخر ذلك على نفسي؛ كان في الله يسيراً»[5].

---

(١) المناقب ٢٧٣.
(٢) الطبقات ٥/٣٧٨.
(٣) انظر ما كتبناه ص ١٣١ ـ ١٣٦، من هذا الكتاب.
(٤) الطبقات ٥/٣٨٣، المناقب ٦٧. والفواق: قدر ما بين الحَلْبَتين من الوقت.
(٥) الطبقات ٥/٣٤٣، المناقب ٦٧.

هكذا يرى عمر دور الحاكم ورسالته ومهمته! عمر الأواب الأوّاه، الذي كان كلما ذكر الله واليوم الآخر خرّ مغشياً عليه، وينتفض انتفاضة العصفور إذا ذكر الموت، حتى لتحسب أنه لا يصلح إلا لأن يتحنث في المحراب!! عمر هذا ينقلب فجأة ـ حينما يستلم دفة الحكم ويصبح أميراً للمؤمنين ـ أسداً هصوراً لا تقف أمامه العقبات، ويتحول الدمع الذي في عيني هذا «الرجل المبارك» إلى بريق يطمس كل باطل، ويُقنع كل من يراه بأنه أمام حاكم مغوار، وبطل صنديد، يمضي بعزمه الرباني لا يعبأ بالمصاعب المتطاولة، والأخطار المحدقة، والموانع الراسخة منذ سنوات، يمضي لا يلوي على شيء، يحمل لواء الحق والعدل والمساواة، ليميت البدع، وينعش السنن، ولو بُضِّع ـ في سبيل ذلك ـ لحمه، وأتى على جميع جسمه، فكل هذا في جنب الله يسير!

لقد كان همه الوحيد ـ كحاكم ـ أن يرتفع الحق، ويعم العدل، ويدخل الناس في الإسلام كافة، ويتراجع الباطل وأهله إلى وراء وراء، فعندئذٍ يهنأ باله، وتطمئن روحه، لأنه قام بالمهمة على وجهها.

كتب إليه عدي بن أرطاة ـ أحد ولاته ـ فقال: «أما بعد، فإن الناس قد كثروا في الإسلام، وخفتُ أن يقلّ الخرَاج»!

فماذا سيكون ردّ أمير المؤمنين يا ترى؟ اسمعوا الرد:

«فهمتُ كتابكَ، ووالله لَوَدِدتُ أن الناس كلهم أسلموا، حتى نكون أنا وأنت حرّاثين نأكل من كسب أيدينا»[1]!!

وهذه المهمة التي تنوء بأولي العزم من الرجال، تتطلب عملاً دؤوباً، وجهداً يصل الليل بالنهار، حتى يرد الحق إلى نصابه، ويصل كل صاحب حقّ إلى حقه. فليس عند أمير المؤمنين وقت فراغ يذهب سدى، ولا ساعة

---

(١) الحلية ٥/٣٠٥، المناقب ١١٩ ـ ١٢٠.

سمر يروّح فيها عن النفس متاعبها اليومية، بل كل ذلك حق الرعية، وهو مبذول لها. ولقد كان هذا واضحاً سافراً أمام ناظريه من لحظة أن سُمِّي «أمير المؤمنين».

لما ولي الخلافة جاءه رجل فقال له: «لو تَفرَّغْتَ لنا؟! فقال عمر: وأين الفراغ؟ ذهب الفراغ فلا فراغ إلا عند الله». وأنشأ يقول:

قــد جاءَ شغــلٌ شــاغــلٌ ... وعدلتَ عـن طرق السـلامَـهْ
ذهــبَ الـفــراغُ فــلا فرا ... غَ لنــا إلى يــوم القيامَهْ[1]

* * *

تلكم هي نظرة عمر للخلافة والحكم، فكيف كان منهجه؟

---

(١) الطبقات ٥/٣٩٧، المناقب ٢٦٦، مختصر ابن عساكر ١٠٨، البداية والنهاية ٩/١٩٨.

الفَصل الثالث
مَنْهَجُهُ في الحُكمِ

في خلافة عمر بن عبد العزيز ندخل في عصر رائع من عصور الإسلام، عصر تتجلى فيه مظاهر إقامة الحق والعدل، والحكمة والتقى والفهم والإدراك وحسن السياسة على أتم وجه. عصر إصلاح يكاد يكون قلباً للدولة الأموية! والإصلاح الذي تنقلب فيه الأمور، أو هو يقلبها، ليس أمراً سهل العواقب، لكثرة وقوة من يتمسكون بما ألفوه، ويحرصون على ما يتمتعون به من مزايا ألفوها في عصور خاليات، ويدافعون عنها بكل ما أوتوا من قوة!! بَيْدَ أن عمر تغلب على كل ذلك، وسارت الأمور معه بهدوء وسكينة واطمئنان يدعـو للعجب والإعجاب، تماماً كما تسير المياه في النهر الجاري! ويكمن ذلك في أمرين توفّـرا في شخصيته على نحو فذّ:

الأول: أنه بنفسه «التواقة» كان طموحاً غاية الطموح في التفوق على كل أحد في كل مجال.

الثاني: أنه كان يحرس ذلك الطموح و«النفس التواقة» تقوى وورع وتدين نادر.

فهو قد تفوق بالعلم وأمور السياسة وتسيير شؤون الرعية، وخبر الناس، لمعايشته لهم طويلاً مع الحكام الذين يناصحهم ويشير عليهم، ومن ثم أميراً للمدينة سبع سنين. وحين جاءته الخلافة، وجّه كل ذلك

بالتقوى والشورى لا بالجموح والاستبداد، وتلكم هي العظمة، وهذا هو النبوغ والتفوق، وهو ذا مفتاح شخصية الرجل كحاكم.

لقد كان منذ يفاعه يعارض الاستبداد، ويحمل الخليفة على العدل، ويحضه على عزل الحجاج، وكفكفة جماحه، والقضاء على ظلمه وجبروته. وقام بإصلاحات طيبة في عهد سليمان، حيث سنحت له الظروف بذلك. لكن كل هذا لم يروِ ظمأه للعدل العميم، فلما آلت الخلافة إليه كانت المعجزة بتحقيق ما رسخ في عقله وروحه وقلبه.

كان يرى أموراً أُميتت من حقها أن تُقام، والشورى قد ضُيِّق عليها حتى كادت تختنق، والعدل فيه دخن شديد، فقد خالطه الظلم، وغشيت وجهه المظالم؛ فليكن منهجه مؤسساً على ثلاث دعائم:

إقامة الحق المتمثل بالتزام الكتاب والسنّة، وتطبيق الشورى، ونشر العدل.

أولاً ـ إقامة الحق:

لقد أبان عمر منذ اللحظات الأولى لخلافته برنامجه ومنهجه، وأنه يقوم على كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ وسيرة الخلفاء الراشدين الهادين المهديين من بعده. وأعلن ذلك في كتاب مفتوح لكل الناس، ونشره على المنبر غير مرة، وأمر الولاة أن يعلنوه ويتلوه على الناس.

خطب الناس ذات يوم فقال: «ألا إن ما سَنَّ رسول الله ﷺ وصاحباه فهو دين، نأخذ به وننتهي إليه، وما سَنَّ سواهما فإنا نرجئه».

وقال مرة أخرى: «سنّ رسول الله ﷺ وخلفاؤه بعده سنناً، الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستعمال لطاعة الله، ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها، ولا النظر في رأي من خالفها. فمن اقتدى بما سبق هُدي، ومن استبصر بها أبصر، ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين؛ ولّاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم وساءت مصيراً».

وجاءه هشام بن عبد الملك فقال له: «يا أميرالمؤمنين، إني رسول قومك إليك، وإن في أنفسهم ما أكلمك به، إنهم يقولون: استأنِف العمل برأيك فيما تحت يديك، وخلِّ بين مَنْ سبقك وبين ما ولوا به من كان يلون أمره، بما عليهم ولهم! فقال له عمر: أرأيتَ لو أُتيتَ بسجلّين أحدهما من معاوية والآخر من عبد الملك بأمر واحد، فبأي السجلين كنتَ آخذ؟ قال: بالأقدم، ولا أعدل به شيئاً! قال عمر: فإني وجدت كتاب الله الأقدم، فأنا حامل عليه من أتاني ممن تحت يدي فيما لي وفيما سبقني»[(١)]!!

وبعث كتبه إلى الأمصار بإقامة الحق وحراسته، قال الحسن البصري: «ما ورد علينا قطُّ كتابُ عمر بن عبد العزيز إلا بإحياء سنَّة، أو إماتة بدعةٍ، أو ردّ مَظْلِمَة»[(٢)].

بل كان يأمر خاصة الناس وعامتهم أن يتجنبوا لَغْوَ الحديث، ويفيضوا في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. جاءه مرة بنو مروان من عشيرته، وأخذوا في المزاح، فقال لهم: «لهذا اجتمعتم، لأَخَسّ الحديث وما يورث الضغائن؟! إذا اجتمعتم فأفيضوا في كتاب الله تعالى، فإن تعديتم ذلك ففي السنّة عن رسول الله ﷺ، فإن تعديتم ذلك فعليكم بمعاني الحديث»[(٣)].

ولقد ألزم عمر نفسه، وحمل الناس معه، على سنة الخلفاء الراشدين، وخاصة جده الفاروق رضي الله عنه، الذي رفع لواء الحق، ونشر العدل، وجيَّش الجيوش، وفتح الفتوح، ووضع نفسه وأهله موضع المحاسبة الشديدة، ثم تخيّر عماله وحاسبهم أدق حساب، وفطم نفسه عن الشهوات، بشدة لا تعرف اللين، وعزم حازم، وحزم حاسم. فأعجب عمر

---

(١) الحلية ٥/٢٨٢، المناقب ١٤٠، ٢٤٨، البداية والنهاية ٩/٢١٧، تاريخ الخلفاء ٢٤١.

(٢) مقدمة المسند ص ٦.

(٣) الحلية ٥/٢٧٢ ـ ٢٧٣، تاريخ الخلفاء ٢٣٩.

بسيرة جدّه وهديه وطريقته، فجدَّد للناس العهد بأيامه الزاهرة، فقام عمر السِّبْط ينسج على منواله، برأي صائب، وفكر عميق، وتدبير حكيم، وسياسة حكيمة، لا يعرف التساهل، وينأى عن التسرع، ويحرس ذلك كله ويحميه أمانة وورع، وزهد وتقوى، وخبرة ومعرفة، وعلم وبصيرة، وشجاعة نادرة. وما برح يسعى قُدُماً يقتفي أثر الفاروق، ويطمح أن يكون في مصافّ الخلفاء الراشدين، حتى عدّه الأئمة المهديون معهم، ووصفوه بأنه «خامس الخلفاء الراشدين».

يحدث الإمام الفقيه ابن الصحابي الجليل ابن أمير المؤمنين، سالم ابن عبدالله بن عمر بن الخطاب، أن عمر بن عبد العزيز كتب إليه:

«من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى سالم بن عبد الله، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فإن الله ابتلاني بما ابتلاني به من أمر هذه الأمة، عن غير مشاورة مني فيها، ولا طلبة مني لها، إلا قضاء الرحمن وقدره، فأسأل الله الذي ابتلاني من أمر هذه الأمة بما ابتلاني أن يعينني على ما ولّاني، وأن يرزقني منهم السمع والطاعة وحسن مؤازرة، وأن يرزقهم مني الرأفة والمعدلة. فإذا أتاك كتابي هذا فابعثْ إليَّ بكتب عمر بن الخطاب وسيرته وقضاياه في أهل القبلة وأهل العدل؛ فإني متّبعٌ أثر عمر وسيرته إن أعانني الله على ذلك والسلام.

فكتب إليه سالم بن عبد الله: بسم الله الرحمن الرحيم، من سالم ابن عبد الله بن عمر إلى عبد الله عمر أمير المؤمنين، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فإن الله خلق الدنيا لما أراد، وجعل لها مدة قصيرة كأنّ بين أولها وآخرها ساعة من نهار، ثم قضى عليها وعلى أهلها الفناء فقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1]. لا يقدر منها أهلها على شيء حتى تفارقهم ويفارقونها،

---

(١) سورة القصص: الآية ٨٨.

أنزل بذلك كتابه، وبعث به رسله، وقدَّم فيه بالوعيد، وضرب فيه الأمثال، ووصل به القول، وشرع فيه دينه، وأحلَّ الحلال وحرَّم الحرام، وقصَّ فأحسنَ القصص، وجعل دينه في الأولين والآخرين فجعله ديناً واحداً.....

ثم إنكَ كتبتَ إليَّ تسأل أن أبعث إليك بكتب عمر بن الخطاب وسيرته وقضائه في المسلمين وأهل العهد. وإن عمر عمل في غير زمانك، وإني أرجو إن عملتَ بمثل ما عمل عمر أن تكون عند الله أفضل منزلة من عمر[1]! وقل كما قال العبد الصالح: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقي إِلَّا باللهِ عَلَيهِ تَوكَّلْتُ وَإِليهِ أُنِيبُ﴾[2]. والسلام عليك»[3].

●● منهجه في تطبيق الحدود:

إقامة الحدود أمن وأمان، وطمأنينة وسكينة للأمة بأسرها، تُقْتَلَعُ فيها عناصر الشرّ القليلة التي لا ترعوي بالكلمة والموعظة، والترغيب والترهيب. وهي من كبريات مهام الحاكم المسلم، ومن أعظم مسؤولياته عند الله تعالى، وقد عبر ابن عبد العزيز عن ذلك بكلمات منيرة حيث كتب إلى عماله: «إن إقامة الحدود عندي كإقامة الصلاة والزكاة»[4].

- ومنهجه في ذلك هو قوله: «ادرؤوا الحدود ما استطعتم في كل

---

(١) قال الذهبي مستدركاً على هذه العبارة: «هذا كلام عجيب، أنى يكون خيراً من عمر؟! حاشى وكلاّ! ولكن هذا القول محمول على المبالغة، وأين عِزُّ الدين بإسلام عمر؟ وأين شهودُه بدراً؟ وأين فَرَقُ الشيطان من عمر؟ وأين فتوحات عمر شرقاً وغرباً؟! وقد جعل الله لكل شيء قدراً».

(٢) سورة هود: الآية ٨٨.

(٣) الحلية ٥/٢٨٤ ـ ٢٨٦، المناقب ١٤٩ ـ ١٥٥، سير أعلام النبلاء ٥/١٢٧.

(٤) الطبقات ٥/٣٧٨.

شبهة، فإن الوالي إذا أخطأ في العفو خير من أن يتعدى في الظلم والعقوبة»[1].

من ذلك أنه أُتي بسارق سرق من المغنم ولم يُقْسَمْ بعدُ، فسأل: أهو ممن أَوْجَفَ في المغنم؟ فقيل: لا. فقطع يده[2].

وأتي إليه بسارق، فشكا إليه الحاجة، فعذره عمر، وأمر له بنحو عشرة دراهم[3].

- ولربما نفَّذ الحدّ بنفسه، يحدث عُبادة بن نُسَيّ فيقول: «شهدتُ عمر بن عبد العزيز يضرب رجلاً حداً في خمر، فخلع ثيابه ثم ضربه ثمانين، رأيت منها ما بَضَعَ ومنها لم يبضِعْ. ثم قال: إنك إن عدتَ الثانيةَ ضربتُك، ثم ألزمتُكَ الحبسَ حتى تحدِث خيراً. قال: يا أمير المؤمنين، أتوب إلى الله أن أعود في هذا أبداً. قال: فتركه عمر»[4].

- وكان مما كتبه إلى عماله ما جاء في كتابه إلى والي مصر: «لا تبلغ في العقوبة أكثر من ثلاثين سوطاً، إلا في حد من حدود الله»[5].

- بل أصدر أوامره بحماية الشهود حتى لا يؤذَوْا، فينكلوا عن الشهادة، فقال: «. . . فأيّما رجل آذى شاهدَ عَدْلٍ فاضربْه ثلاثين سوطاً، وَقِفْهُ للناس»[6].

- وألْجَمَ ولاته عن إنفاذ حكم القتل حتى يرسلوا إليه، ويستشيروه في ذلك، مع تبيان دواعي الحكم وملابساته، حتى لا تزهق روح خطأً، فيُسأل عنها، وقد سُفكت من قبله دماء بغير حق! فكان مما كتبه إلى

---

(1) الحلية ٥/٣١١، المناقب ١٢٣.
(2) الطبقات ٥/٣٥٤.
(3) المناقب ٩٧.
(4) الطبقات ٥/٣٦٥. بَضَعَ الجلدَ: شقَّه.
(5) الطبقات ٥/٣٦٥، ٣٨٥.
(6) الطبقات ٥/٣٨٥.

عبد الحميد بن عبد الرحمن ـ عامله على الكوفة ـ: «. . . ولا تعجل دوني بقطع ولا صلب، حتى تراجعني فيه»[1].

حمله الناس على تطبيق الشريعة والتزام السنن:

وقد حمل نفسه وجميع رعيته على التزام ما جاء به الكتاب والسنة، وكان يتابع ذلك بنفسه، ويوجه كتبه ويصدر أوامره، ويسهر على تنفيذه، وبقي كذلك حتى وافاه الأجل.

كتب إلى عامله عدي بن عدي فقال: «إن للإيمان فرائضَ وشرائعَ وحدوداً وسنناً، فَمَن استكملها استكمل الإيمان، ومَنْ لم يستكملْها لم يستكمل الإيمان، فإنْ أعشْ فسأبيّنها لكم حتى تعملوا بها، وإن أمُتْ فما أنا على صحبتكم بحريص»[2].

ـ فحارب الخمور، وأمر بإهراقها، ومنع الذميين من إدخالها إلى بلاد المسلمين، فعن هارون بن محمد عن أبيه قال: «رأيتُ عمر بن عبد العزيز بخُناصرة يأمر بزقاق الخمر أن تشقَّق، وبالقوارير أن تُكسَّر».

وروى ابن سعد بسنده: «كتب عمر في خلافته أن لا يدخل أهل الذمّة بالخمر أمصار المسلمين. فكانوا لا يُدْخِلونها»[3].

ونهى عن الأنبذة المسكِرة، ومن ذلك ما كتبه إلى عدي بن أرطاة وأهل البصرة: «أما بعد، فإن من الناس من شاب في هذا الشراب، ويغشون عنده أموراً انتهكوها عند ذهاب عقولهم، وسفه أحلامهم، فسفكوا له الدم الحرام، وارتكبوا فيه الفروج الحرام، والمال الحرام! وقد جعل الله عن ذلك مندوحة من أشربة حلال، فمن انتبذ فلا ينتبذ إلا في

---

(١) الأموال ٢٧، الطبري ٧/٤٧٣ ـ ٤٧٤.
(٢) رواه البخاري في أول كتاب الإيمان، انظر: فتح الباري ١/٤٥.
(٣) الطبقات ٥/٣٦٥.

أسقية الأدم. فاستغنوا بما أحلّ الله عما حرّم، فإنا من وجدناه يشرب شيئاً من هذه، بعدما تقدَّمنا إليه؛ أوجعناه عقوبة شديدة، ومن استخفى فالله أشد عقوبة وأشد تنكيلاً. وقد أردت بكتابي هذا اتخاذ الحجة عليكم اليوم وفيما بعد اليوم، أسأل الله أن يزيد المهتدي منا ومنكم هدىً، وأن يراجع بالمسيء منا ومنكم التوبة في يسر وعافية. والسلام»[1].

ـ ووجه أوامره إلى الأئمة في المساجد أن يؤدوا الصلاة كما كان رسول الله ﷺ يؤديها، فعن محمد بن قيس ـ قاصّ عمر ـ قال: «قال لي عمر بن عبد العزيز: اخرج إلى هؤلاء القوم الذين يؤمُّون الناس في شهر رمضان فَمُرْهُمْ يسجدوا في الجمعة بـ﴿إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ﴾ و﴿اِقْرَأْ باسْمِ ربِّكَ الَّذي خَلَقَ﴾ فإن ابناً لعبد الرحمن بن عوف حدثني عن النبي ﷺ أنه سجد فيهما»[2].

وكان يأمر الناس إذا أخذ المؤذن في الإقامة أن يستقبلوا القبلة[3].

ويخرج إلى صلاة العيد ماشياً، وكتب إلى الأمصار: «من استطاع أن يخرج إلى العيد ماشياً فليمش». وأفطر على تمر قبل خروجه لصلاة العيد وقال للناس: «كلوا قبل أن تغدوا إلى العيد»[4].

ـ ولما بلغه حديث رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلْيُكْرِمْ ضيفَه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جارَه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمَّام إلا بمئزر، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر من نسائكم فلا تَدْخل الحمَّامَ» ـ كتب رضي الله عنه إلى الأمصار بذلك.

روى ابن سعد بسنده: «كتب عمر بن عبد العزيز: لا يُدْخَل الحمَّام من الرجال إلا بمئزر، ولا يَدْخله النساء رأساً».

---

(١) المناقب ١٢٢، البداية والنهاية ٢١٨/٩. (٣) تهذيب الأسماء واللغات ٢٢/٢.

(٢) المسند حديث رقم ٦٧ ص ١٢٩ ـ ١٣٠. (٤) الطبقات ٣٦٢/٥، ٣٦٣، ٣٨٥.

وعن أسامة بن زيد بن أسلم قال: «جاءنا كتاب عمر بن عبد العزيز، فقرىء علينا: لا يُدْخَلُ الحمَّامُ إلا بمئزرٍ. فلقد رأيتُ صاحب الحمام يُعاقَبُ، ويُعَاقَبُ الذي يَدْخُل. ورأيت كتاب عمر يُقرأ: واستقبلوا بذبائحكم القبلة. قال: فالتفت إلي نافع بن جبير - وأنا إلى جنبه - فقال: ومن يجهل هذا»[1].

- ولما بلغه أن بعض النساء يَنُحْنَ على موتاهن، ويفعلن كفعل أهل الجاهلية، وجه أوامره الصارمة إلى الأمصار. روى ابن سعد - بسنده - قال: «كتب عمر بن عبد العزيز إلى العمال في النياحة واللهو: بلغني أن نساءً من أهل السفه يخرجن عند موت الميت منهنّ ناشرات شعورهن، يَنُحْنَ كفعل أهل الجاهلية! وما رُخِّص للنساء في وضع خُمرهنّ منذ أُمرن أن يضْربنَ بخمرهنّ على جيوبهن؛ فتقدَّموا في هذه النياحة تقدُّماً شديداً. وقد كانت هذه الأعاجم تلهو بأشياء زينها الشيطان لهم، فازْجُرْ مَنْ قِبَلَكَ من المسلمين عن ذلك، فلعمري لقد أَنَى لهم أن يتركوا ذلك مع ما يقرؤون من كتاب الله. فازْجُرْ عن ذلك الباطل واللهو من الغناء وما أشبهه، فإن لم ينتهوا فنكِّل من أتى ذلك منهم، غير متعدٍّ في النّكال»[2].

ذلك هو منهج عمر في إقامة الحق: يتمثل في التزام الكتاب والسنّة وسنّة الخلفاء الراشدين، وحمل الناس على الاتباع ونهيهم عن الابتداع، والعمل بكل أمور الإسلام، صغيرها وكبيرها، يصدر بذلك توجيهاته، ويوجه كتبه، ويتابع تنفيذ ذلك، ويأمر ولاته بالسهر على إنفاذها، ومن قصَّر أُخذ بذنبه، لا يجد من أمير المؤمنين تهاوناً ولا هوادة.

---

(١) المسند حديث رقم ٩٤ ص ١٨١ - ١٨٣، الطبقات ٥/٣٥٧. والحديث رواه الحاكم - وفيه قصة - وقال: صحيح، ووافقه الذهبي. انظر المستدرك ٤/٢٨٩، وأيضاً صحيح الجامع الصغير: حديث رقم ٦٥٠٥، ٦٥٠٦. والمقصود بالحديث: الحمامات العامة.

(٢) الطبقات ٥/٣٩٣.

ثانياً ـ الشورى:

والمحور الثاني في منهج عمر هو «الشورى»، فقد أدرك أن بنيان الدولة الإسلامية الشامخ لن يستمر برسوخه وثباته وتكامله إلا إذا أحيط بسياج منيع يصونه ويحميه، ولن يكون هذا إلا بتوسيع دائرة المسؤولية، حتى تنتظم أصحاب الحق أجمعين حاكمين ومحكومين، ولاة ورعية. فكلما اتسع نطاق الشورى استقام الحكم، وانتشر الحق، واستوثق العدل، وعاش الناس كما يريد لهم دينهم بحرّية وأمان.

فقام أمير المؤمنين ببعث رأي عام ناصح، صادق مخلص، واعٍ شجاع، ينقد الأخطاء ويدل على العلاج الناجع. وأشاع في الناس أن الاستبداد بالرأي لا يعرفه الإسلام، بل هو قد جاء بالشورى بنصه الصريح الواضح: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾. فأحاط نفسه ـ لتحقيق ذلك ـ بالعلماء الثقات الأبرار الناصحين، المطلعين العارفين لمواضع الخلل ومكامن الخطر، والذين يميزون الحق من الباطل، والصواب من الخطأ.

ولقد عبر الإمام القدوة القاسم بن محمد عن ذلك أروع بيان، فقال ـ عندما استُخلف عمر ـ: «اليوم ينطق كل من كان لا ينطق، وإنا لنرجو لسليمان بتوليته عمر بن عبد العزيز»[1].

●● إن بطانة الحاكم، ومجلس شوراه، وولاته وقضاته، ورجالات دولته؛ كل هؤلاء يجب أن يكونوا علماء عارفين، ثقات مخلصين، لا مجاملة عندهم ولا محاباة، لا تزوير ولا تدجيل، لا تمنعهم رهبة من قولة الحق، ولا يلبسون الحق بالباطل، يجهرون بآرائهم، ولا يزيفون قناعاتهم، ويسارعون في التزام الحق ليكونوا قدوة للناس، فيعطون بتصرفاتهم الدليل الناصع على صدقهم وصدق الحكم بكل أفراده ورجاله والقائمين عليه.

---

(١) الطبقات ٥/٣٤٤.

ولقد أدرك عمر أهمية ذلك، فلما ولي الخلافة «نهضت إليه الشعراء من الحجاز والعراق، فكان فيمن حضره: نصيب وجرير والفرزدق والأحوص وكُثَيِّر والحجاج القضاعي، فمكثوا شهراً لا يؤذن لهم، ولم يكن لعمر فيهم رأي ولا أرب، وإنما كان رأيه وبطانته ووزراؤه وأهل أربه: القراء والفقهاء ومن وسم عنده بورع، فكان يبعث إليهم حيث كانوا من بلدانهم»[1].

●● وبهذه البداية المباركة حَسَرَ عمر ذلك المدّ الطاغي لدولة الشعر والشعراء، ولم يَعُدْ أحد منهم يظفر بدرهم واحد من أموال الأمة مكافأة على مدح أو اتقاءً لهجاء؛ فما لعمر والشعراء؟! فليست لعمر طموحات يحتاج للشعر في قرع الطبول لها، ولا شهوات يحتاج للشعراء في تزيينها، ولا أخطاء يحتاج إليهم في تبريرها، كما أنه ليست له عداوات يحتاج للشعر في تأجيجها، ولا ولع له بالسلطة والحكم، فيحتاج لأكاذيب الشعراء في حمايتها واستبقائها. ثم بعد هذا وذاك لا وقت لديه لهذا الهذر العريض الذي يأتي به الشعراء في غالب أحوالهم.

ولقد كان له معهم أحوال ومواقف غاية في الروعة والجلال، منها ذلك الموقف الذي رواه ابن الجوزي عن عوانة بن الحكم قال: «لما استخلف عمر بن عبد العزيز وفد الشعراء إليه، فأقاموا ببابه أياماً لا يؤذن لهم، فبينما هم كذلك يوماً، وقد أزمعوا على الرحيل، إذ مرّ بهم رجاء بن حَيْوَة ـ وكان من خطباء أهل الشام ـ فلما رآه جرير داخلاً على عمر بن عبد العزيز أنشأ يقول:

يا أيُّها الرجل المرخي عمامته ... هذا زمانُك فاستأذِنْ لنا عُمَرَا

قال: فدخل ولم يذكر من أمرهم شيئاً. ثم مرّ بهم عدي بن أرطاة، فقال جرير:

---

(١) الحلية ٥/٣٢٧.

يا أيُّها الـراكب الـمزجي مطيَّتَهَ | هذا زمانكَ إني قد مضـى زمني
أبلغْ خليفتنــا إن كنـتَ لاقيـه | إني لَدَى البابِ كالمصفودِ في قَرَنِ
لا تنسَ حاجتنَا، لُـقِّيتَ مـغفرةً | قد طالَ مكثيَ عنْ أهـلي وعن وطني

قال: فدخل عدي على عمر، فقال: يا أمير المؤمنين، الشعراء ببابك، وسهامهم مسمومة، وأقوالهم نافذة. قال: ويحك يا عدي، مالي وللشعراء؟ قال: أعزَّ اللهُ أميرَ المؤمنين، إن رسول الله ﷺ قد امتُدح وأعطى، ولك في رسول الله ﷺ أسوَة. قال: كيف؟ قال: امتدحه العباس ابن مرداس السلمي، فأعطاه حلَّةً قطع بها لسانه. قال: ويحك يا عدي، من بالباب منهم؟ فذكر له: عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة، والفرزدق، والأخطل، والأحوص. فأبى عمر دخولهم عليه، وجلوسهم على بساطه.

ثم قال عمر: فهل سوى من ذكرتَ أحد؟ قال: نعم جرير بن عطية. فأذن له، فدخل وهو يقول:

إنَّ الـذي بعـثَ النبـيَّ محمـداً | جَعَلَ الخلافـةَ للإمـامِ العـادلِ
وَسِـعَ الخـلافةَ عـدلُـه ووقـارُهُ | حـتى ارعَـوَى، وأقامَ مَيْلَ المائِلِ
إنيّ لأرجـو منـكَ خيراً عـاجلاً | والنفسُ مولـعةٌ بحبِّ العـاجلِ

فلما مثل بين يديه قال: ويحك يا جرير، اتق الله ولا تقل إلاّ حقاً. فأنشأ يقول:

أأذكرُ الصبرَ والبلـوى التـي نزلتْ | أمْ قـد كفانيَ ما بُلِّغتَ من خبـرِي
كـمْ باليـمامةِ من شعثـاءَ أرمـلةٍ | ومـن يتيمٍ ضعيـفِ الصوتِ والنـظرِ
ممن يعـدّك تكـفي فَقْـدَ والـده | كالفـرخِ في العشِّ لم ينهضْ ولم يَطِرِ
يدعوكَ دعوةَ ملـهوفٍ كـأنّ بـهِ | خبلاً من الجـنّ أو مَسّاً من البشرِ
خليفـة الله مـاذا تـأمـرونَ بـنـا | لسـنا إليكـم ولا فـي دارِ منـتظرِ

ما زلتُ بعدكَ في همّ يؤرِّقني | قد طالَ في الحيِّ إصعادِي ومنحدري
لا ينفعُ الحاضرُ المجهودُ بادينا | ولا يعودُ لنا بادٍ على حضرِي
إنّا لنرجو إذا ما الغيثُ أخلَفَنا | من الخليفةِ ما نرجُو من المطرِ
هَذي الأراملُ قدْ قَضَّيْتَ حاجتَها | فمنْ لحاجةِ هذا الأرملِ الذّكَرِ؟
الخيرُ ما دمتَ حيّاً لا يفارقُنا | بُورِكْتَ يا عمرَ الخيراتِ من عُمَرِ

فقال: يا جرير، ما أرى لك فيما ها هنا حقاً! قال: بلى يا أمير المؤمنين، أنا ابن سبيل، ومنقطع بي. فأعطاه من صُلب ماله مائة درهم، وقال: ويحك يا جرير، لقد ولينا هذا الأمر وما نملك إلا ثلاثمائة درهم: فمائة أخذها عبد الله، ومائة أَخَذَتْها أمُّ عبد الله، يا غلام أعطه المائة الباقية!! فأخذها وقال: والله لهيَ أحبُّ ما اكتسبتُه إليَّ من مال.

ثم خرج فقال له الشعراء: ما وراءك؟ قال: ما يسوؤكم! خرجت من عند أمير المؤمنين وهو يعطي الفقراء، ويمنع الشعراء، وإني عنه لراضٍ. وأنشأ يقول:

رأيتُ رُقى الشيطانِ لا تستفزّهُ | وقد كانَ شيطاني من الجنّ راقياً»(١)

●● وهكذا جمع عزمه، وطرد الشعراء عن بابه، وتوجّه لتخيّر بطانته ومستشاريه، ويحدث عن ذلك الإمام مالك فيذكر «أن عمر بن عبد العزيز حين ولي جاء الناس، فلم يقبل إلا رجلاً فيه خير وتقوى. فكلِّم في صديق له، فقال: تركناه كما تركنا الخَزَّ والمُوَشَّى»(٢).

بل إنه لما استخلف قال: «انظروا رجلين من أفضل من تجدون، فجيء برجلين، فكان إذا جلس مجلس الإمارة أَمَرَ فأُلقي لهما وسادة

---

(١) المناقب ١٩٨ ـ ٢٠١ باختصار، وانظر: الحلية ٥/٣٢٧ـ٣٢٨، المناقب ١٩٦ ـ ١٩٧، الأغاني ٩/٢٩٥ ـ ٢٩٨.
(٢) المناقب ٩١.

قبالته، وقال لهما: إنه مجلس شِرَّةٍ وفتنة، فلا يكن لكما عملٍ إلا النظر إليَّ، فإذا رأيتما مني شيئاً لا يوافق الحق؛ فخوِّفاني وذكِّراني بالله عز وجل»[1]!!

●● وأعلن في الناس الشروط والخصائص التي يجب أن يتخلّق بها كل من يجلس في مجلس الخلافة، ويناصح أمير المؤمنين، فقال لجلسائه: «من صحبني منكم فليصحبني بخمس خصال: يدلني من العدل إلى ما لا أهتدي إليه، ويكون لي على الخير عوناً، ويبلغني حاجة من لا يستطيع إبلاغها، ولا يغتاب عندي أحداً، ويؤدي الأمانة التي حملها مني ومن الناس. فإذا كان كذلك فحيّهلا به، وإلا فهو في حرج من صحبتي والدخول عليَّ».

فعندئذٍ انقشعَ عنه الشعراءُ والخطباء، وثبتَ الفقهاءُ والزهّاد، وقالوا: ما يسعُنا أن نفارقَ هذا الرجلَ حتى يخالفَ فعلُه قولَه[2].

ذلكم هو مجلس شورى عمر، وتلكم هي بطانته، وهم أولاء الرجال الذي يسهرون معه لحراسة الدين وسياسة الدنيا: العلماء العاملون، والعقلاء أولو النهى، والزهاد في المال والمنصب ومطامع الدنيا التي توجد ـ عادة ـ عند الحكام، والصادقون في المناصحة وإيصال الحقوق إلى أهلها. لذلك كان أمير المؤمنين يجلس معهم كل ليلة، ويطيل الجلوس حتى ينتصف الليل، حتى تعجّب من ذلك ميمون بن مهران فقال: «قلت لعمر ليلة: يا أمير المؤمنين، ما بقاؤك على ما أرى؟! أما في أول الليل فأنت في حاجات الناس، وأما وسط الليل فأنت مع جلسائك، وأما آخر الليل فالله أعلم ما تصير إليه! قال: فضرب على كتفي وقال: ويحك يا

---

(1) المناقب ٢٠٣.

(2) الحلية ٥/٣٣٦، المناقب ٧٩، ٢٣١، مختصر ابن عساكر ١٠٨، البداية والنهاية ٩/١٩٨.

ميمون، إني وجدت لقيا الرجال تلقيحاً لألبابهم»[1].

وكان ـ رضي الله عنه ـ واسع الاحترام لهم، متواضعاً معهم، لا يملّ مجالستهم ومناقشة ما يرفعون إليه من أمور الناس، متأدباً معهم حتى في اللفظة التي ينهي بها اجتماعه بهم. ذكر ابن سعد وغيره، قالوا: «كان لعمر ابن عبد العزيز سُمَّارٌ يستشيرهم فيما يُرْفَع إليه من أمور الناس، وكان علامة ما بينه وبينهم إذا أحبَ أن يقوموا قال: إذا شئتم»[2].

●● وكان من خاصته وكبار أعوانه ثلاثة لا يكادون يفارقونه ـ فهم من أهل بيته ـ: ابنه التقي النبيل عبد الملك، ومولاه مزاحم، وأخوه سهل بن عبد العزيز. قال ميمون بن مهران: «ما رأيتُ ثلاثة في بيت خيراً من عمر ابن عبد العزيز، وابنه عبد الملك، ومولاه مزاحم»[3].

ومن أعيان مستشاريه: ميمون بن مِهْرَان، ورجاء بن حَيْوَة، ورِياح ابن عبيدة الكِنْدي. وآخرون دونهم كعمرو بن قيس، وعون بن عبد الله بن عتبة، ومحمد بن الزبير الحنظلي[4].

وكان يرسل إلى كثير من أئمة عصره في العلم والتقوى والمعرفة بأحوال الناس وسياسة الرعية، يستشيرهم ويستنصحهم ويأنس برأيهم، ويعمل بمشورتهم، وعلى رأس أولئك: الحسن البصري، وسالم بن عبد الله بن عمر، وطاوس، ومحمد بن كعب القرظي، وعمرو بن مهاجر، وزياد العبد، ويزيد الرقاشي، وغيرهم[5].

---

(١) الطبقات ٥/٣٧١، الحلية ٥/٣٤٠، مختصر ابن عساكر ١٢٠، المناقب ٧٩، ٢٧٧.

(٢) الطبقات ٥/٣٨٣، المناقب ٧٦.

(٣) المناقب ٣٠١.

(٤) الطبقات ٥/٣٩٥.

(٥) من هذا يستبين لك افتراء ما ذكره الشرقاوي من أنه ليس لعمر إلا ثلاثة أعوان هم: أخوه، وابنه، ومولاه. ثم يندب لعمر بموتهم، وأنهم «تركوه وحده في مضطرب الأهواء، ومعترك الأظفار والأنياب، وصيال الأفاعي والذئاب!! يا زمن الآلام =

●● وكان يعتبر النصيحة والمشورة هي أعظم أجراً وأكثر نفعاً من الصدقة، خاصة إذا كانت للحاكم، ولقد عبر عن ذلك ـ لمّا نصحه محمد ابن كعب القرظي ـ فقال: «ولأن ينجو رجل بموعظتك من تهلكة، خير من أن ينجو بصدقتك من فقر».

لذا كان يغتبط بمن ينصحه ويرشده ويشير عليه، ويربت على كتفه، ويثني عليه ويستزيده.

ـ لما ولي الخلافة دخل عليه أخ له، فقال: «إن شئت كلمتك وأنت عمر فيما تكره اليوم وتحب غداً، وإن شئت كلمتك وأنت أمير المؤمنين فيما تحبه اليوم وتكرهه غداً. قال: بل كلمني وأنا عمر فيما أكرهه اليوم وأحبه غداً»[1].

ـ وقدم عليه ذات يوم وفد من الحجاز، فاختار الوفد غلاماً منهم ليتكلم باسمهم، فلما أخذ الغلام بالكلام، قال له عمر:

«مهلاً يا غلام، ليتكلم من هو أسنّ منك»!

ويبدو أن هذا الغلام العربي الأصيل كان ثَقِفاً لَقِناً، يحمل نبوغاً مبكراً، فأجاب من فوره:

«يا أمير المؤمنين، المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، فإذا منح الله العبد لساناً لافظاً، وقلباً حافظاً فقد استجاد له الحلية. يا أمير المؤمنين، ولو كان التقدم بالسنّ، لكان في هذه الأمة من هو أسن منك»!

فقال عمر: تكلّم يا غلام.

فتحدث الغلام قائلاً: «نعم يا أمير المؤمنين، نحن وفود التهنئة، لا

= والزراية، يا عصر العذاب والهوان»!! ص ٢٢٩. ولسنا نريد التعليق على هذا الهراء، فلكأن المؤلف يصور بعض آلام مجتمعات عاينها، وفي كتابه ما فيه!!

(١) الحلية ٥/٣١٤.

وفود المَرْزِئة، قدمنا إليك من بلدنا، نحمد الله الذي منّ بك علينا، لم يخرجنا إليك رغبة ولا رهبة؛ أما الرغبة فقد أتانا منك إلى بلدنا، وأما الرهبة فقد آمَنَنا الله بِعَدْلِك من جَوْرك»!!

فقال عمر: عظنا يا غلام وأوجز.

فقال: نعم يا أمير المؤمنين، إن أناساً من الناس غرَّهم حلمُ الله عنهم، وطول أملهم، وحسنُ ثناء الناس عليهم، فلا يغرنّك حلم الله عنك، وطول أملك، وحسن ثناء الناس عليك، فَتَزِلَّ قدمُك»[1].

ـ ويذكر عمرو بن مهاجر ـ أحد مستشاريه ـ فيقول: «قال لي عمر بن عبد العزيز: يا عمرو، إذا رأيتَني قد ملتُ عن الحقّ، فَضَعْ يدكَ في تلبابي، ثم هزّني، ثم قُلْ: يا عمر، ما تصنع»[2]؟!

ـ ودعا سالمَ بن عبد الله بن عمر، ومحمدَ بن كعب القرظي، ورجاءَ بن حَيْوَة، فقال لهم: «إني قد ابتليت بهذا الأمر، فأشيروا عليَّ.

فقال له سالم: إن أردتَ النجاة من عذاب الله، فَصُمْ عن الدنيا، وليكنْ إفطارك منها الموت.

وقال له محمد بن كعب: إن أردت النجاة من عذاب الله، فليكن كبير المسلمين عندك أباً، وأوسطهم عندك أخاً، وأصغرهم عندك ولداً، فَوَقِّرْ أباكَ، وأكرِمْ أخاك، وتحنَّنْ على ولدك.

وقال له رجاء بن حيوة: إن أردتَ النجاة غداً من عذاب الله ـ عز وجل ـ فأحبَّ للمسلمين ما تحبّ لنفسك، واكْرَهْ لهم ما تكره لنفسك، ثم مُتْ إذا شئتَ»[3].

---

(١) «عمر» للزحيلي ١٩٩.
(٢) الحلية ٢٩٢/٥، المناقب ٢٠٢ ـ ٢٠٣، صفة الصفوة ١٢٢/٢.
(٣) المناقب ١٦، مختصر ابن عساكر ١٠٩، البداية والنهاية ١٩٨/٩.

ـ بل إنه ليستشير أولئك المخلصين الصادقين من مستشاريه باختيار بطانته وأعوانه، فقال لميمـون بن مهران: «يا ميمون، كيف لي بأعوان على هذا الأمر، أثق بهم وآمنهم؟ قال: يا أمير المؤمنين، لا تشغل قلبك بهذا، فإنك سوق، وإنما يحمل إلى كل سوق ما ينفق فيها، فإذا عرف الناس أنه لا ينفق عندك إلا الصحيح، لم يأتوك إلا بالصحيح»[1].

وقال له محمد بن كعب في هذا: «لا تصحب من الأصحاب من خطرك عنده على قدر قضاء حاجته، فإذا انقطعت حاجتُه انقطعتْ أسباب مودّته. واصْحَبْ من الأصحاب: ذا العلى في الخير، والأناة في الحق؛ يعينك على نفسك، ويكفيك مؤنته»[2].

●● ولقد أخلص هذا المجلس النصيحة لعمر، كما صدقه كلٌّ من أشار إليه برأي، أو أرشده إلى أمر، ذلك أن أمير المؤمنين أخلص لله في نيته وعزمته، فهيّأ له من أمره رشداً، ويسّر له كل ما يعينه على إقامة الحق. فكانت بطانته ومجلس شوراه خير قائم بالمهمة الجليلة التي أنيطت بهم، يسدون له نصائحهم، ويرشدونه للخيرات ورفع المظالم، ويحرسون معه ثغور الدولة ويحمون بنيانها، ويسدِّدون خطاه، ويباركون مسعاه.

ويذكر عمر دور مولاه مزاحم في مناصحته له وتنبيهه للحق، وتذكيره بيوم القيامة إن جار في الحكم أو تجاوز في العقوبة، فيقول: ««إن أول من أيقظني لهذا الشأن مزاحم، حبست رجلاً فجاوزت في حبسه القدر الذي يجب عليه، فكلَّمني في إطلاقه، فقلتُ: ما أنا بمخرجه حتى أبلغ في الحيطة عليه بما هو أكثر مما مر عليه. فقال مزاحم:

يا عمر بن عبد العزيز، إني أحذِّرك ليلة تمخض بالقيامة، في صبيحتها تقوم الساعة. يا عمر، ولقد كدتُ أنسى اسمَكَ مما أسمعُ: قال الأمير، قال الأمير!!

---

(١) الطبقات ٥/٣٩٤، المناقب ٨٨ ـ ٨٩. (٢) المناقب ١٧.

فوالله ما هو إلا أن قال ذلك، فكأنما كشف عن وجهي غطاء، فذكِّروا أنفسكم، رحمكم الله، فإن الذكرى تنفع المؤمنين»[1].

ـ كتب عمر إلى الحسن البصري قائلاً: «عظني». فكتب إليه الحسن: «أما بعد، يا أمير المؤمنين، فكن للمثل من المسلمين أخاً، وللكبير ابناً، وللصغير أباً، وعاقب كل واحد منهم بذنبه على قدر جسمه، ولا تضربن لغضبك سوطاً واحداً فتدخل النار»[2].

وقال عمر لأبي حازم: «عظني يا أبا حازم. قال: قلت: اضطجع، ثم اجعل الموت عند رأسك، ثم انظر ما تحب أن تكون فيه تلك الساعة، فَخُذْ فيه الآن، وما تكره أن يكون فيك تلك الساعة، فَدَعْهُ الآن»[3].

●● ومن نصائحهم في تسيير أمور الدولة وسياسة الرعية:

ـ كتب رضي الله عنه إلى فقهاء العراق أن يأتوه، فاعتلَّ الحسن البصري بفَتْقٍ في بطنه، وكتب إليه: «يا أمير المؤمنين، إن استقمت استقاموا، وإن ملت مالوا. يا أمير المؤمنين، لو أن لك عمر نوح، وسلطان سليمان، ويقين إبراهيم، وحكمة لقمان؛ ما كان لك بدٌّ أن تقتحم العقبة، ومن وراء العقبة الجنة والنار، من أخطأته هذه دخل هذه»!!

فلما أتاه الكتاب أخذه، فوضعه على عينيه، ثم بكى، ثم قال: «من لي بعمر نوح، ويقين إبراهيم، وسلطان سليمان، وحكمة لقمان؟! ولو نلت ذلك لم يكن بدّ من أن أشرب بكأس الأولين»[4].

ـ وأرسل إلى طاوس يستشيره ويستنصحه، ويسأله عن بعض ما هو

---

(١) المناقب ١٦٦.

(٢) المناقب ١٤٥.

(٣) الحلية ٥/٣١٧، المناقب ١٥٩.

(٤) المناقب ١٤٦ ـ ١٤٧. ونصائح الحسن البصري لعمر كثيرة، انظر: المناقب ١٤٢ ـ ١٤٧.

فيه من مسؤوليات جسام، فأجابه بعشر كلمات، وكتب إليه: «سلام عليك يا أمير المؤمنين، فإن الله ـ عز وجل ـ أنزل كتاباً، وأحلّ فيه حلالاً، وحرّم فيه حراماً، وضرب فيه أمثالاً، وجعل بعضه محكماً وبعضه متشابهاً ـ فأحِلّ حلالَ الله، وحرِّمْ حرامَ الله، وتفكّر في أمثال الله، واعملْ بِمُحْكَمِه، وآمِنْ بِمُتشابِهِه. والسلام عليك»[1].

ـ ودخل عليه محمد بن كعب القرظي، فوجده يبكي من موعظة أحد جلسائه، فقال ابن كعب: «يا أمير المؤمنين، إنما الدنيا سوق من الأسواق، فمنها خرج الناس بما ضرّهم، ومنها خرجوا بما نفعهم، وكم من قوم غَرَّهم منها مثل الذي أصبحنا فيه، حتى أتاهم الموت فاستوعبهم، فخرجوا منها مَلُومين، لم يأخذوا منها لما أحبوا من الآخرة عدة، ولا لما كرهوا جُنَّة. . . . فاتق الله يا أمير المؤمنين، واجعل في قلبك سبيل اثنتين: انظر الذي تحبّ أن يكون معك إذا قدمتَ على ربك ـ عز وجل ـ فابتغِ به البدل حيث لا يُؤخذ البدل، ولا تذهبنَّ إلى سلعة قد بارت على مَنْ كان قبلك، ترجو أن تجوز عنك. فاتقِ الله يا أمير المؤمنين، وافتح الأبواب، وسهِّل الحجاب، وانصر المظلوم، وردّ الظالم. ثلاث من كنّ فيه استكمل الإيمان بالله عز وجل: من إذا رضي لم يدخله رضاه في الباطل، وإذا غضب لم يخرجه غضبه من الحق، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له»[2].

ـ وكتب إليه أبو حازم: «اتق الله أن تلقى محمداً ـ عليه السلام ـ وأنت بتبليغ الرسالة له مصدِّق، وهو عليك بسوء الخلافة في أمته شهيد»[3]!

●● بمثل هؤلاء الأعوان والمستشارين، وتلك البطانة الصالحة الناصحة؛ قام أمير المؤمنين للإصلاح والبناء، وقد حسر عن ذراعيه،

---

(١) المناقب ١٤٨.　　　　(٢، ٣) المناقب ١٥٧ ـ ١٥٨، ١٥٩.

وشمّر عن ساقيه، وأعدّ للأمور أقرانها، فَرَاضَهَا، فَأَذَلَّ صعابَها، وترك الأمر إلى يسر، لا يذل عنده مع الحق حقير، ولا يكبر مع الباطل عزيز. ومن هنا يجيء المحور الثالث لمنهجه في الحكم، ألا وهو: نشر العدل.

ثالثاً ـ نشر العدل:

العدل مبدأ أساسي ألحّ القرآن الكريم في طلبه، وجعل القيام به هدف الرسالات السماوية بعد الإيمان بالله الواحد؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ والميزانَ لِيَقُومَ الناسُ بالقِسْطِ﴾[1]. وكرّر الأمر به: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بينَ الناسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾[2].

وللعدل صورتان: صورة سلبية بمنع الظلم وإزالته عن المظلوم، أي بمنع انتهاك حقوق الناس المتعلقة بأنفسهم وأعراضهم وأموالهم، وإزالة آثار التعدي الذي يقع عليهم، وإعادة حقوقهم إليهم، ومعاقبة المعتدي عليها فيما يستوجب العقوبة.

وصورة إيجابية: وتتعلق أكثر ما تتعلق بالدولة، وقيامها بحق أفراد الشعب في كفالة حرياتهم وحياتهم المعاشية، حتى لا يكون فيهم عاجز متروك، ولا ضعيف مهمل، ولا فقير بائس، ولا خائف مهدَّد. وهذه الأمور كلها من واجبات الحاكم في الإسلام[3].

●● ولقد قام أمير المؤمنين عمر بهذا الركن العظيم والمبدأ الخطير على أتم وجه، وكان أول ما استهجنه الناس من صنيعه لما ولي الخلافة، أنه خرج في جنازة، فأُتي بِبُرْدٍ كان يلقى للخلفاء، يقعدون عليه إذا خرجوا إلى جنازة، فألقي له، فضربه برجله، ثم قعد على الأرض!!

إن هذه العبارة الوجيزة «قعد للناس على الأرض» ذات مدلول

---

(١) سورة الحديد: الآية ٢٥.
(٢) سورة النساء: الآية ٥٨.
(٣) نظام الإسلام ٤٥ ـ ٤٦، باختصار.

عميق، وفهم للحكم دقيق، ذلك أن المسؤولية والسلطة في نظر عمر هي القيام بحقوق الناس والخضوع لشروط بيعتهم، وتحقيق مصلحتهم المشروعة، فلتجلس السلطة بين أيديهم، وليس الناس بين يديها، ولن يكون ذلك إلا بأن يقعد أمير المؤمنين على الأرض، فالأمير أجير، استأجرته الرعية ليقوم بشؤونها الدينية والدنيوية، وليس من حق الأجير أن يستعلي عليها حتى في جلسته، بل هي التي تملي عليه أوامرها ومطالبها العادلة، ليقوم هو بتنفيذها حسب شروط البيعة!! فَلِمَ يجلس هو على البساط الوثير، ويجلس أفراد الأمة على الثرى؟! ليس هذا من العدل في مفهوم عمر!

●● ومع ذلك فقد أحب الاستزادة من فهم صفات الإمام العادل، وما يجب أن يقوم به ليتصف بهذه الخصلة الفريدة الحميدة، فكتب إلى الحسن البصري بذلك، فأجابه الحسن قائلاً:

«الإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده، يسعى لهم صغاراً، ويعلمهم كباراً، يكتسب لهم في حياته، ويدخر لهم بعد مماته.

والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرّة الرفيقة بولدها، حملته كرهاً، ووضعته كرهاً، وربّته طفلاً، تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة، وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتمّ بشكايته.

والإمام العدل يا أمير المؤمنين وصيّ اليتامىٰ، وخازن المساكين، يربي صغيرهم، ويمون كبيرهم.

والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح، تصلح الجوانح بصلاحه، وتفسد بفساده.

والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويُسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم.

فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما مَلَّكَكَ الله كعبد ائتمنه سيده، واستحفظه ماله وعياله؛ فبدَّد المال، وشرَّد العيال، فَأَفْقَرَ أهلَه، وفرَّق ماله»(١).

●● وكان من المبادىء التي أشادها عمر إلغاء الامتيازات المالية والأدبية لأي أحد، سواء كان من أسرته، أو عشيرته، أو صديقه، غنياً كان أم فقيراً، صغيراً كان أم كبيراً؛ فالكل في ميزان الحق سواء، فأقام بين الناس المساواة التي هي من أسس نظام الحكم الإسلامي(٢).

فجعل عيشه كعيش آحاد الرعية، بل دون مستوى معاشهم، خطب الناس بخناصرة فقال:

«يا أيها الناس ما منكم من أحد يبلغنا عنه حاجة إلا أحببت أن أسدّ من حاجته بما قدرتُ عليه، وما منكم من أحد لا يسعه ما عندنا إلا وددت أنه بُدىء بي وبلُحْمَتي الذين يلونني، حتى يستوي عيشنا وعيشه. وايمُ الله، لو أردت غير ذلك من الغضارة والعيش لكان اللسان به مني ذلولاً، عالماً بأسبابه، ولكن سبق من الله كتاب ناطق وسنّة عادلة، يدل فيها على طاعته، وينهى فيها عن معصيته. ثم رفع طرف ردائه وبكى حتى شهق، وأبكى الناسَ حوله...»(٣).

بل خاطب عشيرته موضحاً لهم أنهم وأقصى رجل في دولته سواء، فعن الأوزاعي قال: «إن عمر بن عبد العزيز كان جالساً في بيته، وعنده أشراف بني أمية، فقال: أتحبون أن أُوَلِّيَ كل رجل منكم جنداً؟ فقال رجل منهم: لِمَ تعرض علينا ما لا تفعله؟ قال: ترون بساطي هذا؟ إني لأَعْلَمُ أنه يصير إلى بِلىً وفناء، وإني أكره أن تدنّسوه بأرجلكم، فكيف أوليكم أعراض المسلمين وأَبْشَارَهُمْ؟! هيهات لكم هيهات! فقالوا له: لِمَ؟ أما لنا

(١) «عمر» للزحيلي ١٤٦.
(٢) نظام الإسلام ص ٤٤.
(٣) الحلية ٥/٢٩٤ ـ ٢٩٥.

قرابة؟ أما لنا حق؟! قال: ما أنتم وأقصى رجلٍ من المسلمين عندي في هذا الأمر إلا سواء، إلا رجلاً حَبَسَهُ عني طولُ شقّته»[1].

وقال الأوزاعي أيضاً: «لما قطع عمر بن عبد العزيز عن أهل بيته ما كان يجري عليهم من أرزاق الخاصّة؛ كلّموه في ذلك؟ فقال: لن يتسع مالي لكم، وأما هذا المال فإنما حقكم فيه كحق رجل بأقصى بَرْك الغِمَاد»[2].

ويقدم رجل من عِلْية بني أمية، هو الأمير الضرغام مسلمة بن عبد الملك بن مروان[3]، يخاصم أناساً بين يدي عمر، فيكون من أمير المؤمنين هذا الموقف الذي يرويه الحكم بن عمر الرعيني، فيقول: «شهدت مسلمة بن عبد الملك يخاصم أهل «دير إسحاق» عند عمر بن عبد العزيز بالناعورة، فقال عمر لمسلمة: لا تجلس على الوسائد وخصماؤك بين يدي، ولكن وكِّل بخصومتك من شئت، وإلا فجاثي القوم بين يدي! فوكل مولى له بخصومته، فقضى عليه بالناعورة»[4]!!

●● وكان يغتنم كل فرصة ليصحح المسار، ويقوّم الاعوجاج، ويلغي كل الفوارق المصطنعة بين الناس، مما مَقَتَهُ الإسلام وجاء لنسفه. يحدث يونس بن أبي شَبيب فيقول: «شهدتُ عمر بن عبد العزيز في بعض الأعياد، وقد جاء أشراف الناس حتى حفّوا بالمنبر، وبينهم وبين الناس فُرْجة! فلما جاء عمر صعد المنبر وسلّم عليهم، فلما رأى الفُرْجة أومأ إلى الناس أن تقدَّموا، فتقدموا حتى اختلطوا بهم»[5].

●● وكان يعلّم الولاة أنه بالعدل تستقيم الحياة بكل شؤونها، فلما

---

(1) الحلية ٥/٣١٤، تاريخ الخلفاء ٢٣٦. (2) تاريخ الخلفاء ٢٣٧.

(3) قال فيه الحافظ الذهبي: كان ميمون النقيبة، وكان أولى بالخلافة من سائر إخوته!

(4) المناقب ٩١. (5) الطبقات ٥/٣٨٧.

أرسل إليه بعض عماله يقول: «أما بعد، فإن مدينتنا قد خربت، فإن يرى أمير المؤمنين أن يقطع لنا مالاً نرمّها به، فعل».

فكتب إليه عمر: «أما بعد، فقد فهمتُ كتابك، وما ذكرتَ أن مدينتكم قد خربت، فإذا قرأت كتابي هذا فحصِّنْها بالعدل، وَنَقِّ طرقَها من الظلم؛ فإنه مرمَّتها. والسلام»[1].

وكتب إلى بعض عماله: «إنْ قدرتَ أن تكون في العدل والإحسان والإصلاح كَقَدْرِ مَنْ كان قبلك في الجَوْر والعدوان والظلم؛ فافعلْ، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[2].

وكتب إلى أبي بكر بن حزم: «أن اسْتَبْرِىء الدواوين، فانظُر إلى كل جَوْر جاره مَنْ قبلي من حقّ مسلم أو مُعَاهَدٍ، فردَّه إليه، فإنْ كان أهل تلك المَظْلِمة قد ماتوا فادْفعه إلى ورثتهم»[3].

●● ولقد كان يواجه في تنفيذ ما يريده من العدل مصاعبَ ومشقاتٍ، ومقاومة وعقبات؛ فكان ينفق بعض المال في سبيل تهدئة بعض النفوس، لإنفاذ الحق، ونشر العدل، ورفع الظلم.

دخل عليه ابنه عبد الملك ذات يوم، فقال: «يا أبتِ، ما يمنعك أن تمضي لما تريد من العدل؟! فوالله، ما كنتُ أبالي لو غلتْ بي وبك القدورُ في ذلك؟ قال: يا بني، إنما أروِّض الناسَ رياضة الصَّعْبِ، إني لأريد أن أحيي الأمورَ من العدل، فأؤخّر ذلك حتى أُخرِجَ معه طمعاً من طمع الدنيا، فينفروا لهذه، ويسكنوا لهذه»[4].

●● بل إنه رصد الجوائز لمن يدلّ على خير، أو ينبه على

(١) المناقب ١١٠، مختصر ابن عساكر ١١٥، تاريخ الخلفاء ٢٣٢.
(٢) الطبقات ٥/٣٨٣ - ٣٨٤.
(٣) الطبقات ٥/٣٤٢ - ٣٤٣.
(٤) المناقب ٨٨.

خطأ، أو يشير إلى وقوع مظلمة لم يستطع صاحبها إبلاغها. فكتب كتاباً أمر أن يُقرأ على الحجيج في المواسم، وفي كل المحافل والمجامع، جاء فيه:

«أما بعد، فأيّما رجلٍ قدمَ علينا في رد مَظْلِمة، أو أمر يُصلح الله به خاصاً أو عامّاً من أمر الدين؛ فله ما بين مائة دينار إلى ثلاثمائة دينار، بقدر ما يرى من الحسبة، وبُعْدِ الشُّقَّة. رحم الله امرأً لم يَتَكَاءَدْهُ بُعْدُ سفرٍ، لعل الله يحيي به حقاً، أو يميت به باطلاً، أو يفتح به من ورائه خيراً»[1].

●● ولاستعذابه حلاوة العدل ورحمته، وتنعُّمِ الناس بتفيّؤ ظِلاله؛ كان يقول: «والله لوددت لو عدلت يوماً واحداً وأن الله تعالى قبضني»[2].

ومع أنه رأى ثمرات العدل التي قطف منها جميع الناس في خلافته؛ إلا أن «نفسه التّواقة» لكل شامخ ورفيع كانت تطمح للمزيد، ولقد عبر عن ذلك بقوله: «لو أقمت فيكم خمسين عاماً ما استكملتُ العدلَ»[3].

* * *

إنه يريد المزيد من كل شيء خيّر صالح، فحقق الله ذلك على يديه، فقام في أيام خلافته الراشدة الزاهرة بردّ المظالم والحقوق إلى أصحابها، وأنصف كل رجل في أطراف دولته الواسعة، وأحسن جباية الأموال وتوزيعها، فاستغنى الفقراء، وشبع الجياع، واطمأن الخائفون. ورفع الظلم بشتى صنوفه وأشكاله، فعمّ الأمن والسلام، حتى شمل الوحوش، فأخذت الذئاب ترعى مع الشاء.

كيف حدث هذا؟ وما مظاهر ذلك ودلائله؟ لنتابع قراءة الأحداث في سيرة ابن عبد العزيز.

---

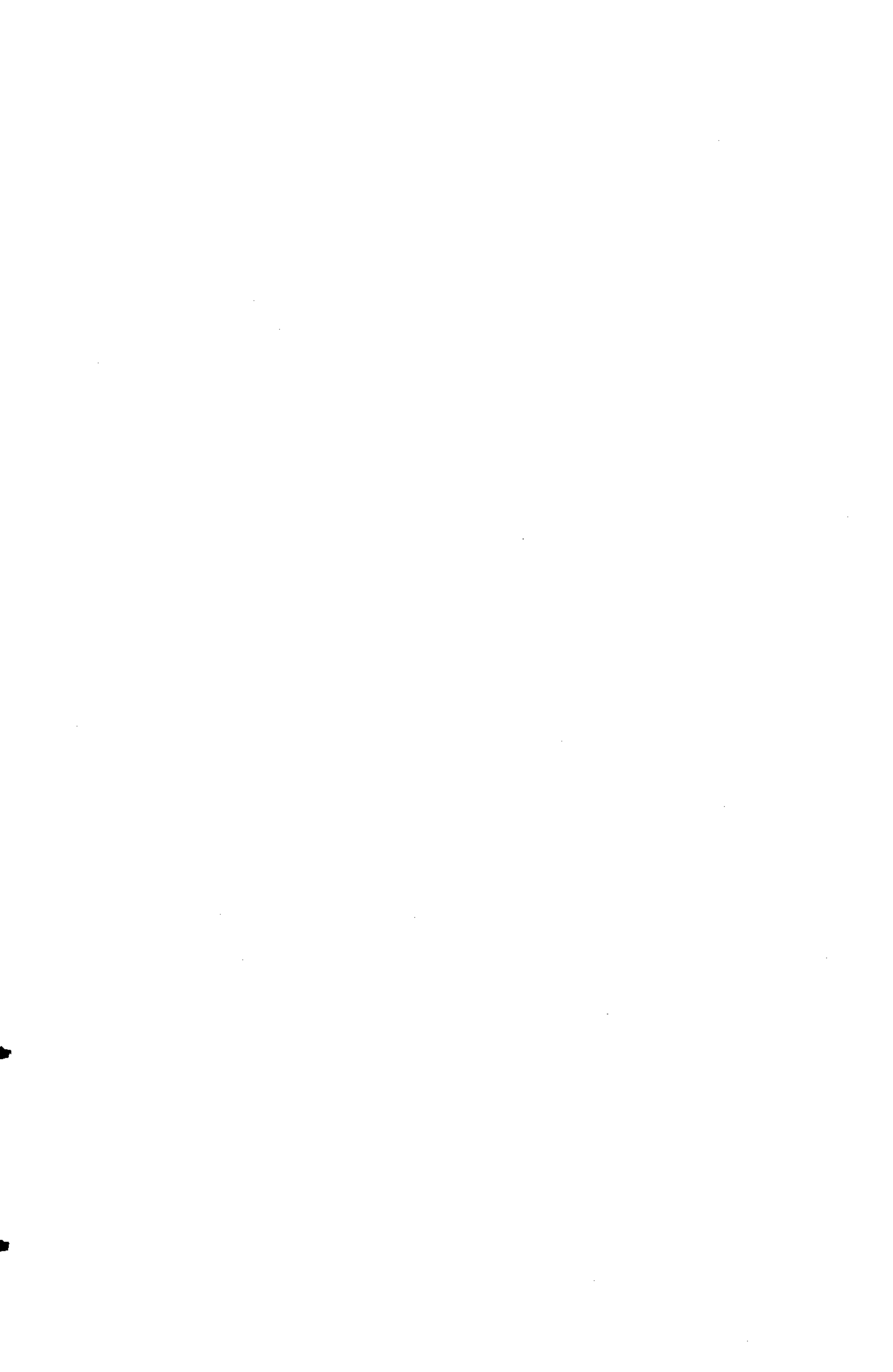
(١) ابن عبد الحكم، نقلاً عن «عمر» للزحيلي ١٦٠. تَكَاءَدَهُ: شقَّ عليه وصَعُبَ.
(٢) تهذيب الأسماء واللغات ٢/٢٣. (٣) مختصر ابن عساكر: ١١٣.



الباب الرابع

سياسته الحكيمة وأعماله العظيمة وإصلاحاته الواسعة الكبيرة

وفيه خمسة فصول



الفَصلُ الأوَّل
الدَّوْلَةُ القُدْوَةُ

●● إن الحكام الذين يحمون الحكم والدولة بالقوة، ويفرضون القانون بالقهر، لا يستمر عهدهم طويلاً، ويضيق الناس بعَسْفهم وجَوْرهم، ويكونون في شغل دائم مع الثورات التي تخف حيناً، ويشتد أوارها حيناً آخر. وأما الحكام الذين يحمون الشرع أو القانون وينفذونه بالقدوة الحقة؛ فهؤلاء يعيشون مع الناس في سلام ووئام، ولا يضيق بهم ذرعاً إلا الشواذّ من أصحاب الأهواء المنحرفة والشهوات الوضيعة.

ولقد أدرك عمر بن عبد العزيز هذا تمام الإدراك، فَعَلِمَ أن الدولة بكل أجهزتها والقائمين عليها، يجب أن تكون في مستوى المسؤولية، ومضرب المثل في الأسوة والقدوة الصالحة. والدولة عنده لها أركان أربعة، ذكرها بقوله:

«إن للسلطان أركاناً لا يثبت إلا بها: فالوالي ركن، والقاضي ركن، وصاحب بيت المال ركن، والركن الرابع أنا»[1].

فالخليفة مهما أوتي من إمكانيات ومواهب وطاقات؛ فإنه يظل عاجزاً عن أداء مهماته والقيام بمسؤولياته، ما لم تقف إلى جانبه أجهزة الدولة، وتكون بمستواه أو قريبة من مستواه.

---

(١) الطبري ٧/٤٧٣.

لذلك تخيَّر عمر أولئك الذين يشغلون مناصب المسؤولية في الدولة، من ولاة وقضاة وجباة المال وخَزَنَتِه. وراح يضع الدولة ـ وهو على رأسها ـ في محل القدوة، وهو يحمل وتحمل معه كل ما تلقيه عليه تلك القدوة من مسؤوليات.

وقبل أن يأمر أحداً بدأ بنفسه وأسرته وعشيرته، وهذا ينبوع التوفيق وسرّ الإعجاز في خلافته وأعماله وأمجاده.

●● وابتدأ عهده بأن ودّع المناعم والمباهج التي كان يعبّ منها لما كان فرداً من الرعية، والتي تعوّد الخلفاء من قبله أن يبالغوا في التلذذ بها. فأعرض عمر عن الثياب الفاخرة، والطعام اللذيذ، والمراكب الفخمة، والترف المختال، بل حتى الطيبات من الرزق التي أحلّ الله لعباده! وَدَّعَ كل ذلك حتى تتمتع به الرعية كل الرعية قبل أمير المؤمنين.

قال المنذر بن عُبيد: «ولي عمر بن عبد العزيز بعد صلاة الجمعة، فأنكرتُ حالَه في العصر»[1]!!

ـ ومنذ الساعة الأولى لاستخلافه وحتى آخر ساعة في الخلافة كان له منهج واحد وسياسة واحدة، هي المبادرة بالإصلاح والتغيير، دون تأجيل ولا تأخير. ولم يكن الإصلاح يقتصر على الزخارف والألوان وهوامش الأمور، بل يتناول البناء من أساسه، ويبدأ من جذور الدوحة لا من الفروع وحدها والأغصان.

ـ فما إن فرغ عمر من دفن سليمان بن عبد الملك، وانصرف عن قبره، حتى أُتي بمراكب الخلافة: البراذين والخيل والبغال، ولكل دابة سائس! فقال: ما هذا؟ قالوا: مراكب الخلافة. فأعرض عنها وقال: دابتي أوفق لي، وأشار إلى بغيلة شهباء، فأُتي بها فركبها. ثم انصرف. فقيل له:

---

(١) الطبقات ٥/٣٤١.

تنزل دار الخلافة؟! وإذا فرش سليمان في منزله وفيه عياله، فأبى النزول فيه إبقاء على عيال الخليفة الراحل، حتى يجدوا مسكناً لهم، وتحوَّل إلى منزله[1]، فأقام فيه حتى فرَّغوا دار الخلافة، فأمر بضم ما فيها إلى بيت مال المسلمين[2]. ثم دخلها، وتناول وسادة أرمنية، فطرحها بينه وبين الأرض، ثم قال: أما والله، لولا أني في حوائج المسلمين ما جلست عليك. ثم تمثَّل:

فَلَوْلَا التُّقَى ثـم النُّهـى خشيةَ الرَّدَى لَعَاصيـتُ في حـبِّ الصِّبَا كلَّ زاجرِ
قَـضَى ما قَضَى فـيما مَضَى ثـمّ لا تُرى لـهُ صَبْوَةٌ أُخرى اللّيالي الغـوابرِ

لا قوة إلا بالله».

ـ وجاءه أصحاب المراكب يسألونه العُلُوفَةَ ورِزْقَ خَدَمها، فقال: ابعث بها إلى أمصار الشام يبيعونها فيمن يزيد، واجعل أثمانها في مال الله، تكفيني بغلتي هذه الشهباء[3].

ـ وكان حرس الخليفة مؤلفاً من ستمائة: ثلاثمائة حَرَسِيّ، وثلاثمائة شُرَطِيّ، فأمر بحلّ فرقة الحرس كلها، وقال لهم: «إن لي عنكم بالقَدَر حاجزاً، وبالأجل حارساً، من أقام منكم فله عشرةُ دنانير، ومن شاء فَلْيَلْحَقْ بأهله».

وكان عنده نفر يسألونه أن يتحفظ في طعامه خشية أن يوضع له السمّ فيه، ويسألونه أن يكون له حرس إذا صلّى، لئلا يثور ثائر فيقتله، ويخبرونه أن الخلفاء قبله كانوا يفعلون ذلك. فقال رضي الله عنه: فأين هم

---

(١) منزله في موضع «السميساطية» اليوم بجوار الجامع الأموي عند باب العمارة.

(٢) المناقب ٦٦.

(٣) الطبقات ٥/٣٣٨، ٣٤٠ ـ ٣٤١، المناقب ٦٢، ٦٤، صفة الصفوة ٢/١١٣، سير أعلام النبلاء ٥/١٢٤ ـ ١٢٧، تاريخ الإسلام ١٩٤ ـ ١٩٥، البداية والنهاية ٩/١٨٣، ١٨٤، ١٩٨، ٢١٣، تاريخ الخلفاء ٢٣١.

الآن؟! ولما أكثروا عليه جابههم بقوله: «اللهم إن كنت تعلم أني أخاف يوماً دون يوم القيامة فلا تؤمِّنْ خوفي»[١].

ـ وبقي أولئك الشرطة، وانضم إليهم نفر من الحرس آثروا البقاء في كنف أمير المؤمنين، فنظر عمر فيمن يصلح أن يكون أميراً لهم وقائداً. وقد كان خالد بن الريان على حرس الوليد وسليمان، وكان صاحب بأوٍ، وفي سيفه جرأة! فلما آلت الخلافة إلى عمر، وجاءه خالد بن الريان، وقام مقام صاحب الحرس، نظر إليه أمير المؤمنين، وقال:

«يا خالد، ضع هذا السيف عنك. اللهم إني قد وضعتُ لك خالد ابن الريان فلا ترفعه أبداً! ثم نظر في وجوه الحرس، فدعا عمرو بن مهاجر الأنصاري، فقال: يا عمرو، والله لتعلمَنَّ أن ما بيني وبينك قرابة إلا قرابة الإسلام، ولكن قد سمعتُك تكثر تلاوة القرآن، ورأيتُك تصلي في موضع تظن أن لا يراك أحد فرأيتك تحسن الصلاة، وأنت رجل من الأنصار، خُذْ هذا السيف فقد ولّيتك حَرَسي»[٢].

ولنتحدث الآن عن منهج عمر وطريقته في حمل نفسه، وأسرته وعشيرته، ورجالات دولته، وجميع أجهزتها؛ على أن تكون في مستوى المسؤولية، ومحل القدوة الصالحة الصادقة، وأن تكون الدولة في عهده رحمة وحناناً، وأمناً واطمئناناً، وكفاية ورغداً، للناس قبل الخليفة.

أولاً ـ لباس الخليفة[٣]:

كان عمر قبل الخلافة أحسن الناس لباساً، وأطيبهم ريحاً، يلبس الفاخر من الثياب التي تجبى إليه من أطراف الأرض، وكانت أشد نعومة

---

(١) المناقب ١١٩، مختصر ابن عساكر ١١٨، الطبقات ٣٩٨/٥، سير أعلام النبلاء ١٣٦/٥، تاريخ الإسلام ٢٠٠.
(٢) الحلية ٢٧٩/٥ ـ ٢٨٠، المناقب ٥٠ ـ ٥١.
(٣) الطبقات ٣٣٤/٥، ٤٠١ ـ ٤٠٢، الحلية ٢٥٨/٥، ٢٦١، ٣٢٢ ـ ٣٢٥، ٣٣٢، =

من الحرير. يحدث ـ رضي الله عنه ـ عن هذا، فيصف حاله لما كان في بيت أبيه مع إخوانه وأقاربه، وعندما أصبح أميراً على المدينة؛ فيقول: «. . . ثم تاقت نفسي إلى السلطان فاستعملت على المدينة، ثم تاقت نفسي وأنا في السلطان إلى اللبس والعيش الطيب، فما علمت أن أحداً من أهل بيتي ولا غيرهم كانوا في مثل ما كنت فيه. . .». ويعبر عن هذا قوله: «أما إني قد رأيتُني وأنا بالمدينة، وإني لأخاف أن يعجز ما رزقني الله عن كسوتي فقط»! وأمر ذات يوم رجلاً فاشترى له ثوباً بأربعمائة درهم، فلمسه بيده وقال: ما أخشنه.

فهل سيبقى هكذا في ملبسه، وهو يرى أن في رعيته من قد لا يجد الخشن من الثياب، والمرقوع من الإهاب؟! لنتابع الخبر.

كان رياح بن عبيدة ـ أحد تجار البصرة ـ يعامل عمر بن عبد العزيز، فأمره يوماً ـ وهو بالمدينة ـ أن يشتري له جبة خز[1]، يقول رياح: «فاشتريتها بعشرة دنانير، ثم أتيته بها، فمسَّها وقال: إني لأستخشنها. فلما ولي الخلافة، أمرني فاشتريت له جبة صوف بدينار، فأتيته بها، فجعل يدخل يده فيها ويقول: ما ألينها! فقلت: عجباً، تستخشن الخَزَّ أمس، وتستلين الصوف اليوم؟! قال: تلك حال، وهذه حال»!

وأمر بشراء ثوب له وهو خليفة، فاشتروه بأربعة عشر درهماً، فلمسه بيده، فقال: سبحان الله ما أَلْيَنَه وأَرَقَّه!!

نعم يا أمير المؤمنين، سبحان الله ما ألينه! ثوب بثمن بخس يكون في نظر الخليفة الزاهد ناعماً ليناً؟! نعم؛ لأن في المسلمين من لا يملك شراء مثله لستر عورته، أو لمواراة أجسام بنيه.

= المناقب ١٧٣، ١٧٥ ـ ١٧٦، ١٧٩ ـ ١٨٣، صفة الصفوة ٢/١١٩ ـ ١٢٠، تاريخ الإسلام ١٩٨ ـ ١٩٩، البداية والنهاية ٩/٢٠٢، ٢٠٨. وغير ذلك.

(١) الخَزُّ: ثياب تُنسج من صوف وإبْرَيسم، وهي مباحة، وقد لبسها الصحابة والتابعون. النهاية ٢/٢٨.

ولنصغ لهذا النبأ الذي يرويه شاهد عيان:

عن سعيد بن سُويد أن عمر بن عبد العزيز صلى بهم الجمعة، وعليه قميص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه! فلما فرغ جلس وجلسنا معه. فقال له رجل من القوم: «يا أمير المؤمنين، إن الله قد أعطاك، فلو لَبِسْتَ وصنعتَ! فنكّس مليّاً حتى عرفنا أن ذلك قد ساءه، ثم رفع رأسه فقال: إن أفضلَ القَصْدِ عند الجِدَة، وأفضلَ العفو عند المقدرة».

ويذكر ميمون بن مهران ـ أحد وزرائه ومستشاريه ـ فيقول: «أقمت عند عمر بن عبد العزيز ستة أشهر، ما رأيتُه غيَّر رداءَه، إلا أنه كان يُغْسل من الجمعة إلى الجمعة، ويتبيّن بشيء من زعفران».

وعن عطاء أن عمر أخَّر الجمعة يوماً عن وقته الذي كان يصلي فيه، فقلنا له: «أخَّرْتَ الجمعة عن وقتك؟ قال: إن الغلام ذهب بالثياب يغسلها، فحُبس بها». يقول عطاء: فعرفنا أنه ليس له غيرها.

وبقي عمر على هذه الحال حتى آخر لحظة في حياته المباركة، فلما مَرِضَ مَرَضَ الوفاة دخل عليه مسلمة بن عبد الملك، فوجد عليه قميصاً قد اتّسخ وتخرَّق جيبه، فقال لأخته فاطمة ـ زوج عمر ـ: «ناوليني قميصاً سوى هذا حتى نلبسه أمير المؤمنين، فإن الناس يدخلون عليه. فقال عمر: دعها يا مسلمة، فما أصبح ولا أمسى لأمير المؤمنين ثوب غير الذي عليه»!!

ولقد كانت ملابسه زهيدة الثمن، يقدر على شراء مثلها ـ بل وأفضل منها ـ آحاد رعيته الذين استغنوا وتنعموا في ظل خلافته وسياسته الرشيدة الحكيمة. حتى قال الإمام رجاء بن حيوة: «قوّمت ثياب عمر بن عبد العزيز وهو خليفة باثني عشر درهماً. فذكر قميصه ورداءه وَقَبَاءه وسراويله وعمامته وقلنسوته وخفّيه».

هذه حلّة وزينة أمير المؤمنين الذي تحت يده خزائن أكبر دولة على

وجه الأرض آنذاك، فترفَّع عنها بنفسه التواقة المتطلعة إلى ما عند الله وهو خير وأبقى. إنه لم يفعل ذلك عن حرمان، ولا قصور ذات يدٍ، كما أنه لا يريد من رعيته أن يفعلوا كذلك، إنما يريد أن يعلّم كل مسؤول يسترعيه الله على شأن من شؤون الناس ـ صغيراً كان هذا الشأن أم كبيراً ـ أن يكون أول من يشقى بشظف الحياة، وآخر من يتمتع بملذاتها، فلا يلبس المناعم حتى ينعم كل أفراد الأمة، فحينئذٍ يحل له أن يلبس الفاخر واللّين.

هذه هي القيادة الحقة التي تستحق السمع والطاعة، وأن تفدى بالمهج والأرواح، فهي لا ترى الحكم مَغْنَماً بل مَغْرَماً، ولا تتخذه مزرعة لنفسها بل للآخرين، تعمل فيها بأمانة لقاء أجر تفرضه الأمة، وراتب يحدّده العارفون الخيّرون.

ثانياً ـ طعام الخليفة[1]:

كان عمر قبل أن يستخلف يأكل أشهى الطعام، ويحتسي ألذّ الشراب، فلا يعجزه شيء منها، حتى لما كان أميراً على المدينة المنورة. ولقد حدَّث عن ذلك لما استُخلف، مبيناً للناس أنه سيكون أخشنهم طعاماً، وأشظفهم عيشاً، وآخرهم شبعاً.

أمر مولاه مزاحماً أن يأذن لرجل يدعى «ابن مافنة» بالدخول عليه، فدخل، فوجد عمر يصلي، فلما فرغ جذب مائدته ووضعها بين يدي ضيفه، وقال له: كُلْ. ثم أردف قائلاً: «أين عيشنا اليوم من عيشنا إذ كنا بمصر؟ قال: فقلت له: لا شيء يا أمير المؤمنين. فقال عمر: لقد رأيتني وكنا لو ضافني أهل قرية لوجدت ما يعمهم. ثم قال: أين عيشنا هذا من عيشنا بالمدينة؟ ثم استبكى».

(١) الطبقات ٥/٣٤٥، ٣٦٧، ٣٧٢ ـ ٣٧٣، المناقب ١٧٩ ـ ١٨١، ١٨٤، ٢٢٤ ـ ٢٢٥، الحلية ٥/٢٥٩، تاريخ الخلفاء ٢٣٤، «عمر» للزحيلي ١٠٢.

فكيف أمسى طعام أمير المؤمنين وعيشه يا ترى؟

لقد كان يخشى أن يملأ معدته وفي رعيته جائع يسأله الله عنه: كيف شبعتَ وفي رعيتك هذا الجائع؟!

أخبر خادم عمر بن عبد العزيز أن عمر لم يتملأ من طعام من يوم ولي حتى مات.

فكان يكثر من أكل العدس حتى قال أبو أمية ـ غلام عمر ـ: «دخلت يوماً على مولاتي، فَغَدَّتْني عدساً، فقلت: كل يوم عدس؟! فقالت: يا بني، هذا طعام مولاك أمير المؤمنين عمر».

ويقول محمد بن الزبير الحنظلي ـ أحد مستشاريه ـ: «دخلت على عمر بن عبد العزيز ليلةً وهو يتعشى كِسَراً وزيتاً، فقال: ادْنُ فَكُلْ. قلت: بئس طعام المقرور. قال: فأنشدني:

إذا ما ماتَ مَيْتٌ من تميمٍ   وسرَّكَ أن يعيشَ فجِىءْ بزادِ
بخبزٍ أو بلحمٍ أو بتمرٍ   أو الشيءِ الملفَّفِ في البِجَادِ
تراهُ ينقلُ البطحاءَ شهراً   ليأكلَ رأسَ لقمانَ بن عادِ

وكان يتحرى في طعامه الحلال الذي لا شبهة فيه، أتى منزله يوماً فقال: «هل عندكم من طعام؟ فأصاب تمراً، وشرب ماءً، وقال: من أدخله بطنه النار فبعداً له».

دخل عليه أحدهم ذات ليلة، فوجده يتلوى من بطنه، فقال: مَالَكَ يا أمير المؤمنين؟ فقال عمر: «عدس أكلتُه فأُوذيتُ منه، ثم قال: بطني بطني ملوّث في الذنوب».

إن هذا الحس الإيماني المرهف قد ولّده الشعور الكبير بالمسؤولية، حتى رأى أنه لو شبع من طعام مهما كان غليظاً، وآذاه بطنه، فإن مردّ ذلك أنه شبع، وهناك على حدود السند أو في أقصى بلاد المغرب، طفل

جائع، أو أرملة لا تجد ما تطعم به أيتامها، وهذا ظلم شديد من أمير المؤمنين لو فعله! فكان ـ لذلك ـ لا يهنأ بطعام، ولا يستلذ بشراب.

وهذا الإحساس الورع التقي يدل عليه هذا النبأ العجيب: عن مسافع بن شيبة «أنه أتى عمر بن عبد العزيز، ومعه ابن له، فقال له: أما ابنك فأنزله دار الضيفان، وأما أنت فانزل معي في البيت. وكانت امرأة عمر بن عبد العزيز ذات قرابة له. فصلى عمر المغرب بالناس، ثم دخل البيت، فدخل إلى مسجده في البيت، فجعل يصلي، فأطال الصلاة، وجعل يبكي. فقالت له امرأته: يا أمير المؤمنين، انصرف فعشِّ ضيفك، ثم شأنك بعد. فانصرف، فأقبل كأنه يعتذر. فقال: يا مسافع، كيف يشبع رجل من الطعام والشراب، وليس أحد من المشرق والمغرب يظلم بظلامة إلا كنت أنا صاحبه»؟!

فكان يأكل مما تأكل منه رعيته، لا يتميز على أحدهم بطعام حتى ولو كان ضيفاً على غيره، والطعام ليس من بيته ولا من صنع يده. نزل يوماً «ديراً»، فأضاف صاحبه الناس، ووضع لهم القِرى، ووزع أطباق الطعام على الناس، وميَّزَ الخليفةَ بواحد منها، فمرت بأمير المؤمنين أطباق فيها طعام شهي، فاستنكره عمر وقال: ما هذه؟ قيل له: صاحب الدير يطعم الناس، فجاءك بطبق فيه فستق ولوز. فقال عمر: تلك الأطباق مثل هذا؟ قال: لا. قال: خذ طعامك»!!

ثالثاً ـ أمانته ونفقته[1]:

●● لما ولي عمر الخلافة نظر في أملاكه، فإذا هي عطايا نالها أيام

---

(١) الحلية ٥/٢٥٧ ـ ٢٥٩، تهذيب الأسماء واللغات ٢/٢٣، المناقب ١٨٣، ١٨٦، ٣١٢، مختصر ابن عساكر ١١٦، سير أعلام النبلاء ٥/١٣٤، تاريخ الإسلام ١٩٩، ٢٠٠، البداية والنهاية ٩/٢٠٢، تاريخ الخلفاء ٢٣٤، ٢٣٦، «عمر» للزحيلي ١٠١، ١٠٢.

أسلافه من الخلفاء، فردَّها كلها - إلا السويداء - في بيت مال المسلمين، وقال في ذلك: «ما من شيء إلا وقد رددته في مال المسلمين، إلا العين التي بالسويداء[1]، فإني عمدت إلى أرض براح، ليس فيها لأحد من المسلمين ضربة سوط؛ فعملتها من صُلْب عطائي الذي يُجمع لي مع جماعة المسلمين».

ولذا فقد كانت غلّته قبل الخلافة عظيمة وافرة، فلما استُخلف، وَرَدَّ أملاكه إلى أموال المسلمين العامة؛ أمست غلته لا تكفي أكثر من سدّ رَمَقِه وَرَمَق من يعول!

هذه هي أمانة الحاكم المسلم، وتلكم هي عظمة المسؤولية كما يراها كل خليفة مسلم يسير على هدي رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين والصالحين من بعده.

لما ولي أبو جعفر المنصور خلافة المسلمين استدعى عبد العزيز بن عمر، يسأله عن غلَّة أبيه، يقول عبد العزيز: «دعاني أبو جعفر فقال: كم كانت غلة عمر حين أفضت إليه الخلافة؟ قلت: خمسون ألف دينار. قال: فكم كانت يوم مات؟ قلت: ما زال يردّها حتى كانت مائتي دينار، ولو بقي لردَّها»!!

●● ولما كان عيشه كفافاً، ولباسه خشناً، وطعامه عدساً وتمراً وزيتاً وكِسَراً من خبز؛ لم تبهظه النفقة، ولا شغل نفسه بزيادتها، بل هجر المناعم مستعلياً عليها، وشغل نفسه بمسؤولياته الجسام.

قال عمرو بن مهاجر: «كانت نفقةُ عمر بن عبد العزيز كلَّ يوم درهمين».

---

(١) السويداء: أرض على بعد ليلتين من المدينة على طريق الشام، كان يملكها عمر، واستنبط فيها من عطائه عينَ ماء، فكان يأكل وبنوه من غلّتها.

بل إن كان ليشتهي الطعام ـ والنفس هي النفس تتطلع وتشتهي ـ فلا يجد بين يديه ما يشتري به ليقضي رغبته؛ فيكفكفها طمعاً فيما عند الله، وأسوة بفقراء المسلمين حتى يغنيهم الله من فضله.

دخل على امرأته يوماً فقال لها: «يا فاطمة، عندك درهم أشتري به عنباً؟ قالت: لا. قال: فعندك نُمِّيَّة ـ يعني الفلوس ـ أشتري بها عنباً؟ قالت: لا. فأقبلت عليه فقالت: أنت أمير المؤمنين لا تقدر على درهم ولا نُمِّيَّة تشتري بها عنباً؟! قال: هذا أهون علينا من معالجة الأغلال غداً في نار جهنم».

بل إن نفسه التواقة الأوابة، وروحه الطاهرة، قد اشتاقت لبيت الله الحرام، والطواف به ورفع الصوت بالتلبية هناك. ونظر فيما عنده فإذا به لا يسدّ جزءاً من نفقات الحج، وأبى أن يسخِّر مال الدولة وملكياتها لأمر يعود عليه بالنفع، حتى ولو كان الحج إلى البيت العتيق! قال لمولاه مزاحم: «إني قد اشتهيت الحج، فهل عندك شيء؟ قال: بضعة عشر ديناراً. قال: وما تقع مني؟! ثم مكث قليلاً، ثم قال له: يا أمير المؤمنين تَجهَّزْ، فقد جاءنا مال سبعة عشر ألف دينار من بعض مال بني مروان. قال: اجعلها في بيت المال، فإن تكن حلالاً فقد أخذنا منها ما يكفينا، وإن تكن حراماً فكفانا ما أصبنا منها. قال مزاحم: فلما رأى عمر ثقَل ذلك عليَّ، قال: ويحك يا مزاحم، لا يكثرن عليك شيء صنعتُه لله، فإن لي نفساً تواقة، لم تَتُقْ إلى منزلة فنالتها إلا تاقت إلى ماهي أرفع منها، حتى بلغت اليوم المنزلة التي ليس بعدها منزلة، وإنها اليوم قد تاقت إلى الجنة»!!

ولقد عاش آل عمر معه هذه العيشة الكريمة الصعبة، فصبروا راضين، وما تذمروا ساخطين، فإن عمر غمرهم بفيوضات روحه الطاهرة، فتفيَّؤوا ظلالها الوارفة، ونهلوا من معين تقواه الثرّ. وضاق بهذا الشظف يوماً غلام له، كان أمير المؤمنين قد احتبسه يحتطب عليه، ويلقط له البعر،

فقال له الغلام: «الناس كلهم بخير، غيري وغيرك! فقال عمر: فاذهب، فأنت حر».

رابعاً ـ تورعه[1]:

لقد كان عمر ينظر إلى أموال الأمة نظرة أصيلة عميقة، شاملة عميمة، فالأموال العامة هي حقوق شائعة لكل فرد في الأمة: لكل أرملة فيها ويتيم، لكل فقير ومسكين، لكل مسنٍّ وطفل ورضيع، لكل عاجز ومُقْعَد ومريض. لذا كانت هذه الأموال تتمتع عنده بحرمة كبرى وقداسة وثقى، يستوي في نظره الدرهم والألف، وما يعدل درهماً من زيت يضاء به مصباح أو حجرة ملئت ذهباً وفضة، ليس بين هذا وذاك ثمة فرق ما دام أمانة ووديعة استرعاه الله فيها، وائتمنه الناس عليها!

في ضوء هذا الفهم السديد الرشيد يمكن أن نفهم تصرفات عمر حيال «الأموال العامة»، والتي يحسبها ـ أي تصرفاته ـ بعض الناس ضرباً من التزمت، ونوعاً من التمسك بالشكليات؛ إذ ماذا يضير الدولة أن يأخذ حاكمها العام دريهمات؟! كلا، فالأمر عند عمر أكبر من ذلك؛ إنه أمانة، والأمانة تبقى لها حرمتها وقداستها، مهما كبر حجمها أو صغر.

ـ عن عمرو بن مهاجر قال: «اشتهى عمر بن عبد العزيز تفاحاً فقال: لو كان عندنا شيء من التفاح، فإنه طيب الريح طيب الطعم! فقام رجل من أهل بيته، فأهدى إليه تفاحاً. فلما جاء به الرسول، قال عمر: ما أطيب ريحه وأحسنه، ارفعه يا غلام، فأقرىء فلاناً السلام وقل له: إن هديتك قد وقعت منا بموقع بحيث تحب. فقلت: يا أمير المؤمنين، ابن عمك ورجل من أهل بيتك، وقد بلغك أن النبي ﷺ كان يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة.

---

(١) الطبقات ٥/٣٦٨، ٣٧٧، ٣٩٩، الحلية ٥/٢٩١، ٢٩٣ ـ ٢٩٤، ٣١٥، ٣٢٦، المناقب ١٨٧ ـ ١٩٤، صفة الصفوة ٢/١٢٠، مختصر ابن عساكر ١١٧، ١١٨، سير أعلام النبلاء ٥/١٤٠، تاريخ الإسلام ٢٠٠، ٢٠١، البداية والنهاية ٩/٢٠٢.

قال: ويحك، إن الهدية كانت للنبي ﷺ هدية، وهي لنا اليوم رشوة».

ـ وذات يوم أُخرج مسك من الخزائن، فلما وُضع بين يدي عمر، أمسك بأنفه مخافة أن يجد ريحه. فقال له رجل من أصحابه: يا أمير المؤمنين، ما ضرَّكَ أن وجدتَ ريحه؟ فقال عمر: وهل يُنْتَفَعُ من هذا إلا بريحه؟! فما زالت يده على أنفه حتى رُفع ذلك المسك.

ـ وفي يوم جمعة شاتٍ زمهرير، أراد أمير المؤمنين أن يغتسل للجمعة، وطلب أن يسخن له الماء، فلم يجدوا عنده عود حطب، فماذا كان؟ يروي ذلك شاهد عيان فيقول: «قال عمر بن عبد العزيز: أسخنوا لي ماء أغتسل به للجمعة. فقيل له: يا أمير المؤمنين، لا والله ما عندنا عود حطب نوقده به. قال: فذهبوا بالقُمْقُم إلى المطبخ ـ مطبخ المسلمين ـ ثم جاؤوا بالقُمْقُم، فقالوا: هذا القمقم يا أمير المؤمنين، وهو يفور! فقال: ألم تخبروني أنه ليس عندكم حطب، لعلكم ذهبتم به إلى مطبخ المسلمين؟! قالوا: نعم. قال: ادعوا لي صاحب المطبخ. فلما جاءه قال له: قيل لك هذا قمقم أمير المؤمنين فأوقدتَ تحته؟! قال: لا والله يا أمير المؤمنين، ما أوقدتُ تحته عوداً واحداً، وإن هو إلا جمر لو تركتُه لخمد حتى يصير رماداً. قال: بكم أخذتَ الحطب؟ قال: بكذا. قال: أدّوا إليه ثمنه»!!

ـ واشتهى يوماً اللحم، فأرسل غلامه بقطعة يشويها ليأكلها فيقيم بذلك أوده، فرجع الغلام بها سريعاً، فقال له عمر: أسرعتَ بها؟ قال: شويتها في نار المطبخ ـ وكان للمسلمين مطبخ يغديهم ويعشيهم ـ فقال لغلامه: كلها يا بنيّ، فإنك رُزِقْتَها، ولم أُرْزَقْها.

لقد تورّع عن أكلها لأنها شويت في مطبخ المسلمين، وتركها لغلامه ليأكلها، وهو واحد من الرعية له حق في مطبخ العامة!

ـ وكان يصنع الطعام للأضياف من الفقراء ونحوهم، وينفق من

أموال الأمة لذلك، ويضعه للناس ليأكلوا، ولا يأكل هو منه شيئاً. وذات مرة أراده الناس على مشاركتهم، ورغب هو بذلك حتى يجلس إلى جانب الفقير والمسكين، واليتيم والعاجز، والصغير والكبير، فماذا يصنع إزاء ورعه وتقواه وعدم إدخاله لقمة في بطنه من الأموال العامة؟!

يقول الأوزاعي: «كان عمر بن عبد العزيز يجعل كل يوم من ماله درهماً في طعام المسلمين، ثم يأكل معهم»!!

- إن ورع عمر حيال أموال الأمة لعجيب ثم عجيب! لنقرأ هذا النبأ المدهش الذي يبهر الألباب، ترويه فاطمة بنت عبد الملك زوجة أمير المؤمنين، فتقول:

«اشتهى عمر بن عبد العزيز يوماً عسلاً، فلم يكن عندنا، فوجهنا رجلاً على دابة من البريد إلى بَعْلَبَكّ، فأتى بعسل. فقلنا يوماً: إنك ذكرت عسلاً، وعندنا عسل، فهل لك فيه؟ قال: نعم. فأتينا به، فشرب ثم قال: من أين لكم هذا العسل؟ قالت: وجهنا رجلاً على دابة من دواب البريد بدينارين إلى بعلبك، فاشترى لنا بهما عسلاً. فأرسل إلى الرجل فجاءه، فقال: انطلق بهذا العسل إلى السوق، فَبِعْه، فاردد إلينا رأس مالنا، وانظر إلى الفضل واجعله في بيت مال المسلمين علف دواب البريد، ولو ينفع المسلمين قَيْئي لتقيأت».

- وكان يوماً يقسم بين الناس تفاح الفيء، فتناول ابن له صغير تفاحة، فانتزعها من فيهِ، فأوجعه! فسعى إلى أمه مستعبراً، فأرسلت إلى السوق فاشترت له تفاحاً، فلما رجع عمر وجد ريح التفاح، فقال: يا فاطمة، هل أتيتِ شيئاً من هذا الفيء؟ قالت: لا، وقصَّت عليه القصة، فقال: والله لقد انتزعتها من ابني لكأنما انتزعتها من قلبي، لكني كرهت أن أضيع نفسي من الله - عز وجل - بتفاحة من فيء المسلمين»!!

- وبعث إليه أمير الأردن بسلّتين من تمر حُملتا على دواب البريد،

فأبى أن يأكل شق تمرة، حتى جعل ثمنهما في بيت مال المسلمين، يروي الحادثة أبو شيبان فيقول: «بعث معي عمارة بن نسي إلى عمر بسلّتين من رطب، أول ما جاء الرطب، فأتيته بهما فقال: على ما جئت بهما؟ قلت: على دواب البريد. قال: فاذهب فبعهما. فذهبت فبعتهما بثمانية عشر درهماً، فاشتراهما مني رجل من بني مروان، فأهداهما إلى عمر، فلما أُتي بهما قال: يا أبا شيبان، كأنهما السلّتان اللتان أُتينا بهما؟! قال: قلت: نعم. فوضع إحداهما بين أيدينا فأكلنا منها، وبعث الأخرى إلى امرأته، وألقى ثمنهما في بيت المال»!!

ـ بل إنه ليتورع عن أخذ قرطاس من «الأموال العامة»، فَيَرْزَأُ المسلمين بثمنه، وهل له ثمن يذكر؟! يقول فرات بن مسلمة: «كنت أعرض على عمر بن عبد العزيز كتبي في كل جمعة مرة، فعرضتها عليه، فأخذ منها قرطاساً نقياً قدر أربع أصابع، أو شبر، فكتب فيه حاجة له، فقلت: غفل أمير المؤمنين! فبعث إليّ من الغد، فقال: جىء بكتبك. قال: فبعثني في حاجة، فلما جئت قال لي: ما آن لنا أن ننظر فيها؟ فقلت: إنما نظرتَ فيها أمس. قال: فاذهب حتى أبعث إليك. فلما فتحتُ كتبي وجدت فيها قرطاساً بقدر القرطاس الذي أخذ»!!

خامساً ـ صرفه وقته وجسمه للخلافة والرعية[1]:

لقد كان عمر كالسحابة التي خزنت الماء حتى أثقلت وامتلأت خاصرتاها، فمرت بأهل الأرض فجادت بالخير العميم، وكالينبوع الصافي الذي يجيش بالماء، فهو لا يزال يستمد مما أودع الله فيه، ثم ينساح على الناس، فيعمّ نفعه العباد والبلاد.

---

(١) الطبقات ٥/ ٣٧٠، ٣٨٧، ٣٩٦ ـ ٣٩٧، ٤٠٢، الحلية ٥/٢٥٧، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٩٩ ـ ٣٠٢، ٣٣٣، المناقب ١٥، ٣١، ٧٠، ٢٨١ ـ ٢٨٢، صفة الصفوة ٢/١١٨، ١١٩، مختصر ابن عساكر ١٠٨، سير أعلام النبلاء ٥/١٢٨، ١٣٦، تاريخ الخلفاء ٢٣٤، ٢٣٥.

إنه رجل أمام مسؤولياته من طراز فريد، فلقد أحرق جسمه بكل ما فيه من طاقات ومواهب، ليغدو مشعلاً وهّاجاً يضيء للناس في الليل والنهار، وجعل وقته كله للرعية، إلا أويقات يتبتل فيها بين يدي ربه سبحانه ليزداد تعلقاً بالهدف الأسمى، ويأخذ جذوة يجدّد فيها عزمه المتوقد أمام الأعباء الكبار، حتى ذاب جسمه أوكاد، فإذا رآه من كان يعرفه قبل الخلافة وجده بعدها إنساناً آخر حلّ في إهاب جديد وغريب وعجيب!

ـ هذا محمد بن كعب القرظي ـ أحد مستشاريه ـ يتحدث عن ذلك، فلنصغ إليه إذ يقول: «قدمت على عمر بن عبد العزيز في خلافته، فجعلتُ أديمُ النظر إليه، فقال: يا ابن كعب، إنك لتنظر إليَّ نظراً لم تكن تنظره إليّ بالمدينة! قال: قلت: أجل يا أمير المؤمنين، إنه ليعجبني ما أرى ممّا قد نحل من جسمك، وعفا من شعرك، وحال من لونك. فقال عمر: فكيف لو قد رأيتَني بعد ثلاثة في القبر، وقد خرج الدود من منخريّ، وسالت حَدَقتي على وجنتي، فأنت حينئذٍ أشد نكرة»!!

ـ ويقول أبو حازم الأسدي: «قدمتُ على عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة، فلما نظر إلي عرفني ولم أعرفه. فقال: ادنُ مني، فدنوت منه، فقلت: أنت أمير المؤمنين؟! قال: نعم. قلت: ألم تكن عندنا بالمدينة أميراً على المسلمين، فكان مركبك وطياً، وثوبك نقياً، ووجهك بهياً، وطعامك شهياً، وقصرك مشيداً، وخدمك كثيراً؛ فما الذي غيّرك وأنت أمير المؤمنين؟! قال: فبكى، ثم قال: يا أبا حازم، كيف لو رأيتَني بعد ثلاث في قبري، وقد سالت حدقتاي على وجنتيّ، ثم جفّ لساني، وانشق بطني، وجرت الديدان في بدني؛ لكنتَ أشد إنكاراً منك يومك هذا! أَعِدْ عليَّ الحديث الذي حدثتني به بالمدينة. قلت: يا أمير المؤمنين، سمعت أبا هريرة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن بين أيديكم عقبة كؤوداً مضرّسةً، لا يجوزها إلا كل ضامر مهزول». قال:

فبكى بكاء طويلاً، ثم قال: يا أبا حازم، أَمَا ينبغي لي أن أضمِّر نفسي لتلك العقبة، فعسى أنجو منها يومئذ؟! وما أظن أني ـ مع هذا البلاء الذي ابتُليتُ به من أمور الناس ـ بناجٍ».

ـ وعن عمرو بن ميمون قال: «أتيتُ سليمان بن عبد الملك بهذه الحريرة، فرأيت عنده عمر وهو كأشدِّ الرجال، وأغلظِهم عنقاً. فما لبثتُ بعدما استُخلف عمر إلا سنة حتى أتيتُه، فخرجَ يصلي بنا الظهر، وعليه قميصٌ ثمنُ دينـارٍ أو نحوه، ومُلَيّة مثله، وعمامة قد سَدَلَها بين كتفيه، وقد نَحَلَ، ودقّتْ عنقُه».

ـ وهذا يونس بن أبي شبيب يحدث فيقول: «رأيتُ عمرَ بن عبد العزيز يطوف بالبيت قبل أن يُسْتَخْلَف، وإن حُجْزَةَ إزاره لغائبةٌ في عُكَنِه[1]. ثم رأيتُه بعدما استُخلف، ولو شئتُ أن أعدّ أضلاعه من غير أن أمسّها؛ لفعلتُ»!

ـ وها هو أمير المؤمنين في الأيام الأولى من خلافته يدعو زوجته فاطمة، ويواجهها بالحقيقة، ويخبرها برفق، أنه كزوج لم يعد له وجود، فإن حمله لثقيل، وأعباءه كثيرة، وتبعاته لا تترك له لحظة يأنس فيها بزوجته ـ فيعطيها الخيار لتقرر مصيرها بكامل حريتها. بل وخيَّر معها الجواري الحسان اللائي كنّ في داره يزدنها تلألؤاً وإشراقاً، ويملأنها بهجة وسروراً.

وهنا تتألق المرأة النبيلـة، التي كانت أهلاً أن تكون زوجة لهذا الخليفة العظـيم! وسنظل نزجي إليها تحيات الإجلال والإكبار في طول حديثنا وعرضه عن عمر بن عبد العزيز؛ لأن مواقفهما كانت تصدر من مشكاة واحدة.

---

(١) جمع عُكْنَة، والعُكْنَة: ما انطوى وتثنّى من لحم البطن سِمَناً.

يروي الذين شهدوا الحادثة أنهم كانوا بباب عمر، فسمعوا بكاءً في داره، فسألوا عنه، فقيل لهم: «خيَّر أمير المؤمنين امرأته بين أن تقيم في منزلها ـ وأعلمها أنه قد شغل عن النساء بما في عنقه ـ وبين أن تلحق بمنزل أبيها، فبكت، فبكى جواريها لبكائها».

وعن بعض خاصة عمر «أنه حين أفضت إليه الخلافة، سمعوا في منزله بكاءً عالياً، فسئل عن البكاء، فقيل: إن عمر بن عبد العزيز قد خيَّر جواريه، فقال: إنه قد نزل بي أمر قد شغلني عنكن، فمن أحبَّ أن أعتقه أعتقتُه، ومن أراد أن أمسكه أمسكتُه، ولم يكن مني إليها شيء! فبكين يأساً منه».

وبقيت فاطمة إلى جانبه نِعْمَ الزوجة، تؤنسه وتشد من عزمه، وتركن إليه لتستمع لنصائحه، فيبكي فتبكي معه، ولما دخل عليها أبو عبيدة بن عقبة بن نافع ليسألها عن حال عمر معها، قالت: «ما أعلم أنه اغتسل من جنابة ولا من احتلام مذ استخلفه الله حتى قبضه».

ولقد أشفقت هذه الزوجة الصالحة اللبيبة على زوجها من ذلك، فأرسلت إلى رجل من الفقهاء، فقالت: «إني أخاف ألا يَسَعَ أميرَ المؤمنين ما يصنع! قال: وما ذاك؟ قالت: ما كان من أهله بسبيل منذ ولي! فلقي الرجلُ عمرَ، فقال: يا أمير المؤمنين، بلغني شيء أخاف ألا يسعك. قال: وما ذاك؟ قال: أهلك لهم عليك حق. فقال عمر: وكيف يستطيع رجل أن يأتي ذاك وأمرُ أمة محمد في عنقه، الله سائله عنها يوم القيامة»؟!

ذلكم هو الجواب الذي ليس وراءه جواب، فأنى لأمير المؤمنين أن يكون لديه ساعة ينفقها في شهوة حلال، وفي المسلمين من يَئِنُّ تحت سياط الجوع، أو المرض، أو المَسْغَبة، أو الظلم أو الخوف؟!

سادساً ـ مع أسرته وأهل بيته:

منذ الأيام الأولى لخلافته حمل أسرته كلها وأخذها معه إلى قيعان المسؤولية التي أُلقيت على كاهله، ولم يفلت من هذه المسؤولية زوجة ولا ولد، كبير ولا صغير، فالكل قد ناله شظف الحياة وقساوة المعاش. ولم تلبث هذه الأسرة المباركة ـ وخاصة الزوجة العظيمة ـ إلا أن مسَّتها نفحات الخليفة المبارك، فكانت ترى النعيم الكامن في الشظف الماثل، وتستشرف فردوس الله الأعلى من وراء هذه الدنيا الفانية الزائلة.

وَوَقَّفَ أهله أجمعين أمام الحق مثل آحاد الرعية سواء، بل شدّد عليهم أكثر لأنه يعلم مكانتهم في الأمة، وما قد تسوّل لهم أنفسهم بالامتياز على الناس، أو أن الناس يقدّمونهم في أمر، أي أمر؛ لأنهم أهل أمير المؤمنين. ولقد كتب بذلك إلى عامله على المدينة أبي بكر بن حزم، فقال:

«إياك والجلوس في بيتك، اخرج إلى الناس فآسِ بينهم في المجلس والمنظر، ولا يكن أحد من الناس آثَرَ عندك من أحد. ولا تقولنَّ: هؤلاء من أهل بيتِ أمير المؤمنين، فإن أهل بيت أمير المؤمنين وغيرهم عندي اليوم سواء، بل أنا أحرى أن أظنّ بأهل بيت أمير المؤمنين أنهم يقهرون مَنْ نازعهم. وإذا أشكل عليك شيء فاكتب إليَّ فيه»[1].

ـ ولقد شدّد عليهم في النفقة، وارتزق لهم من الحلال، ونأى بهم عن الشبهات، وكان يراهم على هذه الحالة فيغتبط لذلك، لأنه جعل من نفسه وأهله قدوة صالحة عفيفة أمينة على الأمة وأموالها.

يحدّث عبد الله بن أبي زكريا «أنه دخل على عمر بن عبد العزيز، وقد توجّع له مما بلغه مما خلص إلى أهل عمر بن عبد العزيز من الحاجة،

---

(١) الطبقات ٥/٣٤٣، تهذيب الأسماء واللغات ٢/٢٠ ـ ٢١.

فتحدثا ثم قال: يا أمير المؤمنين، أرأيتك شيئاً تعمل به، بأي شيء استحللته؟ قال: وما هو؟ قال: ترزق الرجل من عمالك مائة دينار في الشهر، ومائتي دينار في الشهر، وأكثر من ذلك! قال: أراه لهم يسيراً إن عملوا بكتاب الله وسنّة نبيه، وأحب أن أفرغ قلوبهم من الهمّ بمعايشهم وأهلهم. قال ابن أبي زكريا: فإنك قد أصبت، وقد ذُكر لي أنه قد خلص إلى أهلك حاجة، وأنت أعظمهم عملاً، فانظر ما قد رأيته حلالاً لرجل منهم، فارتزق مثله، فوسِّع به على أهلك. فقال: يرحمك الله قد عرفتَ أنك لم ترد إلا خيراً، وأنك توجعت من بعض ما يبلغك من حالنا، ثم قال بيده اليمنى على ذراعه اليسرى، فقال: إن هذا اللحم والعظم إنما نبت من مال الله، فإني والله إن استطعت لا أعيد فيه منه شيئاً أبداً»[1].

- بل إن كان دخـل أمير المؤمنين ليضيق بنفقـة أهله، فيعجز - لضآلته - عن القيام بها، حتى يضطر مولاه مزاحم أن يستلف من الناس، ليسدّ رمق آل الخليفة، منتظراً العطاء، أو غلّة أرض لعمر.

وهذا محمد بن قيس - قاصّ أمير المؤمنين - يروي لنا هذا النبأ المعجِب المطرِب، فيقول: «خرج علينا يوماً مزاحم فقال: لقد احتاج أهل أمير المؤمنين إلى نفقة، ولا أدري من أين آخذها، ولا أدري ممن أستلفها! قال: قلت: لولا قلّة ما عندي لعرضته عليك. قال: وكم عندك؟ قلت: خمسة دنانير. قال: والله إن في خمسة دنانير لبلاغاً، فأعطنيها. فدفعتها إليه. ثم أتاه مال من أرض عمر باليمن، قال: فمرّ عليَّ مزاحم مسروراً، وقال: قد جاءنا مال من أرض لنا، نقضيك الآن تلك الخمسة الدنانير. قال: فدخل ثم خرج وإحدى يديه على رأسه وهو يقول: أعظم الله أجر أمير المؤمنين، أعظم الله أجر أمير المؤمنين! قال: قلنا: أجل أعظم الله أجر أمير المؤمنين، وما ذاك؟ قال: أمر بهذا المال الذي جاء من

---

(1) المناقب ١٩٣ - ١٩٤.

أرضه أن يُدخل بيت مال المسلمين! فلا أدري كيف تحيّل لي في الخمسة حتى قضاني»[1].

ـ وكان رضي الله عنه يأكل التمر ويشرب عليه الماء، ويكثر من أكل العدس، ويشاركه أهله ذلك، حتى إنه دخل على بناته ليلة فسلَّمَ عليهنّ، فلما أحسسنه وضعن أيديهن على أفواههن ثم تبادرن الباب، فقال للحاضنة: ما شأنهن؟ فقالت: إنه لم يكن عندهن شيء يتعشينه إلا عدس وبصل؛ فكرهن أن تشمّ ذلك من أفواههن! فبكى عمر، ثم قال لهن: يا بناتي، ما ينفعكنَّ أن تعشَّيْنَ الألوان، ويُمَرُّ بأبيكنّ إلى النار؟! فبكين حتى عَلَتْ أصواتهن. ثم انصرف[2].

ـ ولقد بقي على هذا النهج حتى آخر يوم في حياته، ففي مرضه الذي مات فيه دخل عليه بنوه، فقال لهم بعد موعظة طويلة: «. . . أي بَنِيَّ، إن أمامكم ميل بين أمرين: بين أن تستغنوا ويدخل أبوكم النار، وأن تفتقروا ويدخل أبوكم الجنة، فكان أن تفتقروا ويدخل أبوكم الجنة أحبّ إليه من أن تستغنوا ويدخل النار. قوموا عصمكم الله»[3].

إن عمر لا يرى المال نقمة، ولا الغنى باباً إلى النار والفقر مفتاح الجنة، كلا! بل إنه لا يرضى لنفسه ـ وهو أمير المؤمنين ـ ولبنيه وأهله أن يستغنوا ويعبّوا من النعيم، وفي أطراف دولته فقير أو محتاج أو جائع، إنما بعد أن يستغني هؤلاء جميعاً فمن حق آل عمر أن يفعلوا مثلهم آنذاك. إنه الآن في مقام المسؤولية فلا بد أن يستغرق بشعوره كل أفراد رعيته: الأرملة واليتيم، والعاجز والمُقْعَد، وذا المسغبة وابن السبيل. لقد كان قبل الاستخلاف يعبّ من المناعم، ويخطو فوق المباهج، ويرفل بأغلى الحلل، ولم يرَ في ذلك منقصة في تدينه ولا خدشاً في تقواه؛ لأنه كان

---

(١) المناقب ١٩٤.
(٢، ٣) الحلية ٥/٣٣٤، ابن عبد الحكم، نقلاً عن «عمر» للزحيلي ١٠٢ ـ ١٠٣.

واحداً من الرعية، أما الآن فقد اختلف الأمر، فلا بد أن يكون ـ مع أهله ـ أول من يجوع وآخرَ من يشبع!.

ـ وإنه ليحمل أهله على أن يكفوا عن التمتع بأموال الأمة، وألا يصيبوا من طعام المساكين لقمة واحدة. ها هو ذا قد اتخذ دار الطعام للمساكين والفقراء وابن السبيل، وتقدَّم إلى أهله قائلاً:

«إياكم أن تصيبوا من هذه الدار شيئاً من طعامها، فإنما هو للفقراء والمساكين وابن السبيل. فجاء يوماً فإذا مولاة له معها صحفة فيها غرفة من لبن، فقال لها: ما هذا؟ قالت: زوجتك فلانة حامل ـ كما قد علمتَ ـ واشتهت غرفة من لبن، والمرأة إذا كانت حاملاً فاشتهت شيئاً فلم تُؤْتَ به تخوَّفت على ما في بطنها أن يسقط، فأخذت هذه الغرفة من هذه الدار. فأخذ عمر بيدها، فتوجه بها إلى زوجته وهو عالي الصوت، وهو يقول: إن لم يُمْسِك ما في بطنها إلا طعامُ المساكين والفقراء؛ فلا أمسكه الله! فدخل على زوجته، فقالت له: ما لكَ؟ قال: تزعم هذه أنه لا يمسك ما في بطنك إلا طعام المساكين والفقراء، فإن لم يُمْسكه إلا ذلك فلا أمسكه الله. قالت زوجته: رُدِّيه ويحكِ، والله لا أذوقه. قال: فردّته»[1].

وعن قربان بن دبيق قال: «مرت بي ابنة لعمر بن عبد العزيز يقال لها أمينة، فدعاها عمر: يا أمين، يا أمين، فلم تجبه، فأمر إنساناً فجاء بها، فقال: ما منعكِ أن تجيبيني؟ قالت: إني عارية! فقال: يا مزاحم، انظر تلك الفرش التي فتقناها فاقطع لها منها قميصاً. فقطع منها قميصاً. فذهب إنسان إلى أم البنين ـ عمتها ـ فقال: بنت أخيكِ عارية، وأنتِ عندكِ ما عندكِ؟! فأرسلت إليها بتَخْتٍ من ثياب، وقالت: لا تطلبي من عمر شيئاً»[2].

---

(١) الطبقات ٥/٣٧٨ ـ ٣٧٩.

(٢) الحلية ٥/٢٦١، المناقب ٣١٥. والتَّخْتُ: وعاءٌ تُصان فيه الثياب.

وطلبت زوجته أن يجري عليها من مال الأمة شيئاً يسعها، كما يفعل مع كل مسلم ومسلمة، فقال لها: لا، لكِ في مالي سعة! فقالت: فلِمَ كنتَ تأخذ ممن قبلك من الخلفاء؟ فأجابها قائلاً: كانت المهنأة لي، والإثم والتبعة عليهم، أما إذ وليتُ فلا أفعل ذلك، فيكون إثمه عليَّ»[1].

بل إنه جرَّدها من حليها ـ الذي أهداه لها أبوها يوم زفافها ـ وقال لها: «إما أن تردِّيه إلى بيت المال، وإما أن تأذنيني في فراقك، فإني أكره أن أكون أنا وأنت وهو في بيت. قالت: لا، بل أختارك على أضعافه لو كان لي. فوضعته في بيت المال»[2].

وكان عند ابنته لؤلؤة، فأرسلت إليه أن يبعث بأخت لها، لتجعلهما قرطاً في أذنيها، فأرسل إليها بجمرتين، وقال لها: «إن استطعتِ أن تجعلي هاتين الجمرتين قرطاً في أذنيك؛ أتيت إليكِ بأختٍ لها»[3]!

وحمل البريد إليه كتاباً من أحد بنيه في الشام، يطلب أن يمدّه بمال يتزوج به زوجة ثانية، فآسفه ذلك، وردّ على ابنه بكلماته اللافحة قائلاً: «أتاني كتابك تسألني أن أزوِّجك زوجة ثانية، وأن أجمع لك بين الضرائر من بيت مال المسلمين، وأبناءُ المهاجرين لا يجد أحدهم امرأة يستعفّ بها؟! فانظر إلى ما عندك من نحاسنا ومتاعنا؛ فَبِعْهُ، واستعنْ بثمنه على ما بدا لك»[4].

ـ هكذا كان عمر مع نفسه وأسرته: في طعامه وشرابه، في حليته ولباسه، في سهره ونومه، في ليله ونهاره، في تورعه وتحفظه وأمانته، مع زوجته وبنيه وغلمانه وجواريه، يلزمهم ـ وهو معهم ـ أقسى حياة يعرفها أكثر الناس إملاقاً، ويصل بهم أقصى ما يمكن أن يبلغه مسؤول يخاف الله

---

(١) المناقب ٩٢.

(٢، ٣، ٤) الطبقات ٥/٣٩٣، الحلية ٥/٢٨٣، المناقب ١٢٧ ـ ١٢٨، «عمر» للشرقاوي ١٧٢، ٢٢٥.

ويخشى اليوم الآخر. فما رأوا السرور والمهنأة منذ ولي الخلافة، ولقد عبرت عن ذلك السيدة اللبيبة زوج أمير المؤمنين، فقالت:

«يا ليتنا كان بيننا وبين هذه الإمارة بُعْد المشرقين، فوالله ما رأينا سروراً منذ دخلنا فيها»[1].

سابعاً - مع عشيرته بني أمية، وتضييقه عليهم، وردّ المظالم[2]، ومواقفهم الشديدة وصلابته في تنفيذ ما يريده:

●● كان الخلفاء من قبل عمر يعطون الأعطيات الجزيلة لأقاربهم وذويهم وغيرهم من الناس ممن يرون في إعطائه مصلحة للدولة وحمايتها. ولقد نال عمرَ من ذلك نصيبٌ وافر، وهي منحة تعطيه الحق في امتلاك هذه الأموال، فتبعتها على من أعطاها. لكنه حق يأباه عمر لما صار خليفة، ويجب أن يعطي المَثَلَ في إبائه لغيره من أهله وعصبته وعشيرته، فكان أول عمل له ردّ هذه الأموال إلى بيت مال المسلمين، فابتدأ بنفسه، وثنّى بأهله وعشيرته.

قال أبو بكر بن أبي سبرة: «لما ردّ عمر المظالم قال: إنه لينبغي أن لا أبدأ بأول من نفسي. فنظر إلى ما في يديه من أرض أو متاع، فخرج منه، حتى نظر إلى فصّ خاتم فقال: هذا مما كان الوليد بن عبد الملك أعطانيه، مماجاءه من أرض المغرب، فخرج منه»[3].

لقد تخلّى عن جميع ممتلكاته وأمواله، واكتفى بما يأتيه من أرضه الصغيرة التي اشتراها بحرٍّ ماله وهي «السويداء»، التي لم تكن تغلّ أكثر

---

(١) مختصر ابن عساكر ١٢٢، البداية والنهاية ٩/٢٠٤.

(٢) المظالم هي الأموال والثروات التي تملكها أسرته وإخوته وعشيرته، إن كانت من غير وجه حق.

(٣) الطبقات ٥/٣٤١-٣٤٢، المناقب ١٣٢.

من مائتي دينار في العام، هي دخل الخليفة العظيم الذي كان دخله منذ أيام لا غير أربعين ألف دينار!!

●● وقام يردّ المظالم بعزيمة صابرة، وقوة ماضية، لا يقف لها شيء منذ استخلف إلى أن مات. ها هو في اليوم الأول من خلافته، وقد وَصَلَ ليلَه بنهارِه، وفَرَغَ من تجهيز سليمان ودفنه والصلاة عليه، وبايَعه الناس البيعة العامة، وخطب فيهم مبيناً منهجه وسياسته، حتى تعالى النهار، ونال منه التعب كل منال ـ أوى إلى الظلّ ليقيل ساعة من نهار، يتقوى بها على مواصلة مهامِّه الجسام، فيأتيه ابنه عبد الملك فيقول له:

«يا أمير المؤمنين، ماذا تريد أن تصنع؟ قال: أي بُنَيّ، أقيل. قال: تقيل ولا ترد المظالم؟! فقال: أي بُنيٍّ، إني قد سهرت البارحة في أمر عمك سليمان، فإذا صليتُ الظهر رددتُ المظالم. قال: يا أمير المؤمنين، من لك أن تعيش إلى الظهر؟ قال: ادْنُ مني أي بني، فدنا منه، فالتزمه وقَبَّلَ بين عينيه، وقال: الحمد لله الذي أخرج من صلبي من يعينني على ديني. فخرج ولم يَقِلْ، وأمر مناديه أن ينادي: ألا من كانت له مظلمة فليرفعها. فجعل لا يدع شيئاً مما كان في يد سليمان وفي يد أهل بيته من المظالم؛ إلا ردّها مظلمة مظلمة»[1].

يقول سليمان بن موسى: «ما زال عمر بن عبد العزيز يردّ المظالم منذ يوم استخلف إلى يوم مات»[2].

ـ وأخذ يعمم ذلك في طول البلاد وعرضها، ويأمر الولاة بذلك، دون مطالبة الناس بالبينة القاطعة على حقوقهم، وفي هذا يقول أبو الزناد: «وكان عمر يردّ المظالم إلى أهلها بغير البينة القاطعة، كان يكتفي بأيسر ذلك، إذا عرف وجهاً من مظلمة الرجل ردّها عليه، ولم يكلفه تحقيق البينة؛ لما كان يعرف من غَشْم الولاة»[3].

---

(١) المناقب ٦٦ ـ ٦٧.

(٢، ٣) الطبقات ٥/٣٤١ ـ ٣٤٢.

عن أيوب بن موسى قال: «كتب عمر بن عبد العزيز إلى عروة ـ عامله على اليمن ـ : أما بعد، فإني أكتب إليك آمرك أن ترد على المسلمين مظالمهم، فتراجعني ولا تعرف بُعْدَ مسافة ما بيني وبينك، ولا تعرف أحداث الموت، حتى لو كتبتُ إليك أن ارْدُدْ على مسلم مظلمة شاة، لكتبتَ: أَرْدُدْهَا عفراء أو سوداء؟ فانظر أن تردّ على المسلمين مظالمهم، ولا تراجعني»[1].

ولا يهمّه إن أضرّ ذلك ببيت المال، ما دام فيه إعادة الحقوق إلى أهلها، قال أبو الزناد: «كتب إلينا عمر بن عبد العزيز بالعراق في ردّ المظالم إلى أهلها، فرددناها حتى أنفدنا ما في بيت مال العراق، وحتى حمل إلينا عمر المال من الشام»[2].

●● ونظر أمير المؤمنين في أملاكه فوجد فيها «أرض فَدَك»[3]، فجمع بني مروان ورؤوس الناس، وتكلم فيهم فقال: «إن رسول الله ﷺ كانت له «فدك» ينفق منها، ويعود منها على صغير بني هاشم، ويزوِّج منها أيِّمَهم، وإن فاطمة سألته أن يجعلها لها، فأبى. فكانت كذلك حياةَ أبي بكر وعمر، عَمِلا فيها عمله، ثم أُقْطِعها مروان[4]، ثم صارت لي، فرأيت أمراً منعه رسولُ الله ﷺ بنته ليس لي بحقّ، وإني أشهدكم أني قد رددتُها على ما كانت عليه في عهد رسول الله ﷺ».

وكتب إلى أبي بكر بن حزم كتاباً يقول فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبي بكر بن محمد، سلام عليك، فإني أحمدُ إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فإني نظرتُ في

---

(١) الطبقات ٥/٣٨١. (٢) الطبقات ٥/٣٤٢.

(٣) فدك: قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان، أفاءها الله على رسوله ﷺ صلحاً بعد فتح خيبر، وفيها عين فوارة ونخيل كثيرة. قال فيها عمر: ولم يكن من مالي شيء أردّه أغلى منها.

(٤) هو مروان بن الحكم، أقطعه إياها معاوية في خلافته.

أمر «فَدَك» وفحصتُ عنه، فإذا هو لا يصلح لي، ورأيتُ أن أردَّها على ما كانت عليه في عهد رسول الله وأبي بكر وعمر وعثمان، وأترك ما حدث بعدهم. فإذا جاءك كتابي هذا، فاقبضها وَوَلِّها رجلاً يقوم فيها بالحق. والسلام عليك»[1].

ثم عمد إلى باقي القطائع التي كانت في يده: «المكيدس»، و«جبل الورس» باليمن، و«السهلة» باليمامة، وهي شيء عظيم؛ فردّها جميعها في بيت المال. بل «إنه نظر إلى ما كان له من عبد، وإلى لباسه وعطره وأشياء من الفضول، فباع كل ما كان به عنه غِنىً، فبلغ ثلاثةً وعشرين ألف دينار، فجعله في السبيل»[2].

●● وتوجّه إلى عشيرته من بني أمية لينزع من أيديهم ما أُعطوه زيادة على غيرهم من الرعية، ثم انتزع ما في أيدي بقية الناس من المظالم، متخذاً الحق وحده هو الفيصل والحَكَم، فلا صكوك عنده ولا مواثيق إلا صكوك الحق والعدل والمساواة، ولا رحم ولا قرابة إلا الإسلام وحده. ومضى في ذلك لا يلوي على شيء، ولا يحول بينه وبين إقامة الحق شفاعة ولا رغبة ولا رهبة، بصلابة دونها صلابة الحديد، وبرسوخ يهزأ بالرواسي الشامخات.

ـ قال عبد المجيد بن سهيل: «رأيت عمر بن عبد العزيز بدأ بأهل بيته، فردّ ما كان بأيديهم من المظالم، ثم فعل بالناس بعد»[3].

وقال إسحاق بن عبد الله: «ما زال عمر بن عبد العزيز يردّ المظالم من لدن معاوية إلى أن استُخلف. أخرج من أيدي ورثة معاوية ويزيد بن معاوية حقوقاً»[4].

---

(١) الطبقات ٥/٣٨٨ ـ ٣٨٩، مختصر ابن عساكر ١١١ ـ ١١٢، المناقب ١٢٩ ـ ١٣٢، سير أعلام النبلاء ٥/١٢٨ ـ ١٢٩، وغير ذلك.

(٢) الطبقات ٥/٣٤٥.

(٣، ٤) الطبقات ٥/٣٤١ ـ ٣٤٢.

- ولقد أعلن ذلك على رؤوس الأشهاد، وقام على المنبر في المسجد الجامع، فجعل يأخذ تلك الصكوك والمواثيق التي كتبها بعض الخلفاء كوثائق تمليك للأقارب وبعض الناس دون وجه حق؛ فكان مزاحم يقرأ الكتاب وعمر يقصّه بالمقصّ!

لنتملَّ هذا المشهد الرائع المثير الذي قَلَّ أن يحدث في التاريخ من طرازه، يرويه جويرية عن إسماعيل بن أبي حكيم، قال: «كنا عند عمر بن عبد العزيز حتى تفرّق الناس، ودخل إلى أهله للقائلة، فإذا منادٍ ينادي: الصلاة جامعة! قال: ففزعنا فزعاً شديداً مخافة أن يكون قد جاء فتق من وجه من الوجوه، أو حَدَثَ حَدَثٌ. قال جويرية: وإنما كان أنه دعا مزاحماً فقال: يا مزاحم، إن هؤلاء القوم قد أعطونا عطايا، والله ما كان لهم أن يعطوناها، وما كان لنا أن نقبلها، وإن ذلك قد صار إليَّ، ليس عليَّ فيه دون الله محاسب. فقال له مزاحم: يا أمير المؤمنين، هل تدري كم ولدك؟ هم كذا وكذا! قال: فذرفت عيناه، فجعل يستدمع ويقول: أَكِلُهُمْ إلى الله. قال: ثم انطلق مزاحم من وجهه ذلك، حتى استأذن على عبد الملك، فأذن له - وقد اضطجع للقائلة - فقال له عبد الملك: ما جاء بك يا مزاحم هذه الساعة؟ هل حدثَ حدثٌ؟ قال: نعم، أشدّ الحدث عليك وعلى بني أبيك! قال: وما ذاك؟ قال: دعاني أمير المؤمنين - فذكر له ما قال عمر - . فقال عبد الملك: فما قلتَ له؟ قال: قلت له: يا أمير المؤمنين، أتدري كم ولدك؟ هم كذا وكذا، قال: فما قال لك؟ قال: جعل يستدمع، ويقول: أَكِلهم إلى الله تعالى. قال عبد الملك: بئس وزير الدين أنت يا مزاحم! ثم وثب فانطلق إلى باب أبيه عمر، فاستأذن عليه، فقال له الآذن: إن أمير المؤمنين قد وضع رأسه للقائلة. قال: استأذِن لي. فقال له الآذن: أما ترحمونه؟ ليس له من الليل والنهار إلا هذه الوقعة! قال عبد الملك: استأذِن لي لا أُمَّ لك! فسمع عمر الكلام، فقال: من هذا؟ قال: هذا عبد الملك. قال: ائذن له. فدخل عليه، وقد اضطجع عمر للقائلة،

فقال: ما حاجتك يا بني هذه الساعة؟ قال: حديث حدثنيه مزاحم. قال: فأين وقع رأيك من ذلك؟ قال: وقع رأيي على إنفاذه. قال: فرفع عمر يديه، ثم قال: الحمد لله الذي جعل لي من ذريتي من يعينني على أمر ديني. نعم يا بني، أصلي الظهر، ثم أصعد المنبر، فأردّها علانية على رؤوس الناس. فقال عبد الملك: يا أمير المؤمنين، ومَنْ لك بالظهر؟ ومن لك إن بقيت إلى الظهر أن تسلم لك نيتك إلى الظهر؟! فقال عمر: قد تفرّق الناس ورجعوا للقائلة. فقال عبد الملك: تأمر مناديك ينادي: «الصلاة جامعة»، فيجتمع الناس! قال إسماعيل: فنادى المنادي: «الصلاة جامعة»، قال: فخرجت، فأتيت المسجد، فجاء عمر، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«أما بعد، فإن هؤلاء القوم قد كانوا أعطونا عطايا، والله ما كان لهم أن يعطوناها، وما كان لنا أن نقبلها، وإن ذلك قد صار إليّ، ليس عليَّ فيه دون الله محاسب. ألا وإني قد رددتها وبدأت بنفسي وأهل بيتي. اقرأ يا مزاحم.

قال: وقد جيء بسَفَطٍ قبل ذلك ـ أو قال: جونة ـ فيها تلك الكتب. قال: فقرأ مزاحم كتاباً منها، فلما فرغ من قراءته ناوله عمر وهو قاعد على المنبر وفي يده جَلَم، فجعل يقصّه بالجَلَم. واستأنف مزاحم كتاباً آخر، فجعل يقرؤه، فلما فرغ منه دفعه إلى عمر فقصَّه. ثم استأنف كتاباً آخر، فما زال حتى نودي بصلاة الظهر»(١).

●● وكان له في ذلك صولات وجولات مع أعيان عشيرته، فما وجدوا منه إلا الصلابة في الحق والذود عنه، وردّهم إلى الجادة؛ رأفة بهم، ورحمة لهم بين يدي الله، ثم إبراءً لذمَّته من المساءلة. ولنستمع لبعض تلك المواقف:

---

(١) المناقب ١٢٨ ـ ١٢٩.

ـ لما أمر عمر مناديه أن ينادي: «ألا من كانت له مظلمة فليرفَعْها»، قام إليه رجل ذمّيّ من أهل حمص أبيض الرأس واللحية، فقال: «يا أمير المؤمنين، أسألك كتاب الله. قال: وما ذاك؟ قال: العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي ـ والعباس جالس ـ. فقال له: يا عباس، ما تقول؟ قال: أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك، وكتب لي بها سجلاً. فقال: ما تقول يا ذمي؟ قال: يا أمير المؤمنين، أسألك كتاب الله عز وجل! فقال عمر: كتاب الله أحقّ أن يتبع من كتاب الوليد بن عبد الملك، اردد عليه يا عباس ضيعتـه. فردّها عليه»(١).

ـ وخاصم قوم من الأعراب إلى عمر بن عبد العزيز قوماً من بني مروان، في أرض كانت الأعراب أحيوها، فأخذها الوليد بن عبد الملك، فأعطاها بعض أهله. فقال عمر بن عبد العزيز: قال رسول الله ﷺ: «البلاد بلاد الله، والعباد عباد الله، من أحيىٰ أرضاً ميتة فهي له». فردَّها على الأعراب(٢).

ـ وقال ابن لسليمان بن عبد الملك لمزاحم: «إن لي حاجة إلى أمير المؤمنين عمر. قال: فاستأذنت له، فقال: أدخله. فأدخلته على عمر، فقال ابن سليمان: يا أمير المؤمنين، علامَ ترد قطيعتي؟ قال: معاذ الله أن أردّ قطيعة صحت في الإسلام. قال: فهذا كتابي، وأخرج كتاباً من كمّه، فقرأه عمر فقال: لمن كانت هذه الأرض؟ قال: للفاسق ابن الحجاج. قال عمر: فهو أولى بماله! قال: فإنها من بيت مال المسلمين. قـال: فالمسلمون أولى بها! قال: يا أمير المؤمنين، ردّ عليَّ كتابي. قال: لو لم تأتني به لم أسألكه، فأما إذ جئتني به فلا ندعك تطلب بباطل. قال: فبكى ابن سليمان. قال مزاحم: فقلت: يا أمير المؤمنين، ابن سليمان اللاطىء الحب، اللازق بالقلب، تصنع به هذا؟ قال: ويحك يا مزاحم! إنها نفسي

---

(١) المناقب ١٢٥ ـ ١٢٦.
(٢) الحلية ٥/٢٧٤، المناقب ١٢٥.

أحاول عنها، وإني لأجد له من اللَّوْطِ[1] ما أجد لولدي»[2].

●● ولم يعجب عملُ عمر هـذا بعضَ بني أمية، ممن تعـوّد الاسترسال في التنعم والتمتع بأموال الأمة على حساب الأرامل والمساكين والجياع والمحاويج. ومن أولئك عمر بن الوليد بن عبد الملك، الذي كتب إلى عمر مغاضباً، وعنَّفَ عليه بالقول، واتهمه بالجور والحيف! فردّ عليه أمير المؤمنين برسالة وقعت عليه كالصاعقة، فاجتثت شـروره، وكشفت عوار رأيه وزيف كلامه. ولنستمع للقصة بتمامها كما يرويها عبد العزيز ابن أمير المؤمنين عمر، فيقول:

«لما ولي عمر بن عبد العزيز، جعل لا يدع شيئاً مما كان في يده ويد أهل بيته من المظالم إلا ردَّها مظلمة مظلمة، فبلغ ذلك عمر بن الوليد بن عبد الملك، فكتب إليه: إنك أزريتَ على من كان قبلك من الخلفاء، وعبتَ عليهم، وسرتَ بغير سيرتهم، بغضاً لهم، وشنآناً لمن بعدهم من أولادهم. قطعتَ ما أمر الله به أن يوصل، إذ عمدتَ إلى أموال قريش ومواريثهم فأدخلتها بيت المال جوراً وعدواناً. يا ابن عبد العزيز، اتق الله وراقبه إن شططتَ!! لم تطمئن على منبرك حتى خصصتَ أول قرابتك بالظلم والجور. فوالذي خصَّ محمداً ﷺ بما خصَّه به، لقد ازددتَ عن الله بعداً في ولايتك هذه إذ زعمتَ أنها عليك بلاء! فاقصر بعض ميلك، واعلم بأنك بعين جبار وفي قبضته، ولن تترك على هذا!!.

فلما قرأ عمر بن عبد العزيز كتابه، كتب إليه: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين، إلى عمر بن الوليد، السلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين. أما بعد: فإنه بلغني كتابك، وسأجيبك بنحو منه: أما أول شأنك يا ابن الوليد ـ كما زعم ـ فأمك بنانة

---

(١) يقال: لاطَ الشيءُ بقلبي: لَصِق به وأحببتُه.
(٢) الحلية ٥/٢٨١ ـ ٢٨٢، المناقب ١٣٩ ـ ١٤٠.

أَمَة السكون، كانت تطوف في سوق حمص، وتدخل في حوانيتها، ثم الله أعلم بها، اشتراها ذبيان بن ذبيان من فيء المسلمين، فأهداها لأبيك، فحملت بك، فبئس المحمول وبئس المولود! ثم نشأتَ فكنتَ جباراً عنيداً، تزعم أني من الظالمين، لِمَ حرمتُك وأهلَ بيتك فَيْءَ الله - عز وجل - الذي فيه حق القرابة والمساكين والأرامل! وإن أظلمَ مني وأتركَ لعهد الله، مَنْ استعملك صبياً سفيهاً على جند المسلمين تحكم بينهم برأيك، ولم تكن له في ذلك نيِّة إلا حبّ الوالد لولده! فويل لك وويل لأبيك ما أكثر خصماءكما يوم القيامة!! وكيف ينجو أبوك من خصمائه؟! وإن أظلم مني وأترك لعهد الله، من استعمل الحجاج بن يوسف على خمس العرب، يسفك الدم الحرام، ويأخذ المال الحرام! وإن أظلم مني وأترك لعهد الله، من استعمل قرة بن شريك أعرابياً جافياً على مصر، أذن له في المعازف واللهو والشرب! وإن أظلم مني وأترك لعهد الله، من جعل لعالية البربرية سهماً في خمس العرب! فرويداً يا ابن بنانة، فلو التقت حلقتا البطان، ورد الفيء إلى أهله؛ لتفرغتُ لك ولأهل بيتك، فوضعتهم على المحجة البيضاء، فطالما تركتم الحق وأخذتم في بنيات الطريق. وما وراء هذا من الفضل، ما أرجو أن أكون رأيته: بيع رقبتك، وقسم ثمنك بين اليتامى والمساكين والأرامل، فإن لكل فيك حقاً. والسلام علينا، ولا ينال سلام الله الظالمين»[1]!

●● واستغاث بنو مروان بكل واحد من أعيان الناس، فلم يفدهم ذلك شيئاً. فأتوا عمتهم فاطمة بنت مروان - وكانت عمة أمير المؤمنين - فشكوا إليها ما لَقُوْا من عمر، وأنه قد أخذ أموالهم، ويُستنقصون عنده، وكانت هذه المرأة لا تحجب عند الخلفاء، ولا تردّ لها حاجة، وكانوا يكرمونها ويعظمون أمرها، وكذلك كان عمر يفعل معها قبل الخلافة.

---

(١) المناقب ١٣٣ - ١٣٦، الحلية ٥/ ٢٧٠.

وقامت فركبت إليه، فلما دخلت عليه عظَّمها وأكرمها ـ لأنها أخت أبيه ـ وألقى لها وسادة، وشرع يحادثها، فرآها غضبى، وهي على غير العادة، فقال لها عمر: «يا عمة، مالكِ؟ فقالت: بنو أخي عبد الملك وأولادهم يهانون في زمانك وولايتك؟ وتأخذ أموالَهم فتعطيها لغيرهم، ويسبّون عندك فلا تنكر؟! فضحك عمر، وعلم أنها متحملة، وأن عقلها قد كبر. ثم شرع يحادثها، والغضب لا يتحيز عنها، فلما رأى ذلك أخذ معها في الجد، فقال: يا عمة، اعلمي أن النبي ﷺ مات وترك الناس على نهر مورود، فولي ذلك النهر بعده رجل فلم يستنقص منه شيئاً حتى مات. ثم ولي ذلك النهر بعد ذلك الرجل رجل آخر، فلم يستنقص منه شيئاً حتى مات. ثم ولي ذلك النهر رجل آخر فكرى منه ساقية، ثم لم يزل الناس بعده يكرون السواقي، حتى تركوه يابساً لا قطرة فيه. وايمُ الله، لئن أبقاني الله لأردَّنه إلى مجراه الأول، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط. وإذا كان الظلم من الأقارب، الذين هم بطانة الوالي، والوالي لا يزيل ذلك، فكيف يستطيع أن يزيل ما هو ناءٍ عنه في غيرهم؟! فقالت: فلا يُسبّوا عندك! قال: ومن يسبّهم؟ إنما يرفع الرجل مظلمته فآخذ له بها.

فقامت فخرجت على قرابته، فقالت: تزوِّجون آلَ عمر[1]، فإذا نزعَ إلى الشَّبَه جزعتم؟! اصبروا له»[2].

لم تنفع مع عمرَ شفاعةُ الشافعين، فلقد احترقت في وَقْدَةِ إخلاصه كلُّ الأطماع، ذلك الإخلاص الذي أحاط أميرَ المؤمنين بسياج منيع ترتد عنه كل المحاولات خائبة مفلِسة. وأما مساعي الحق والعدل فتجد الأبواب مشرعة عند هذا الخليفة المبارك.

---

(١) أي عمر بن الخطاب.
(٢) البداية والنهاية ٩/٢١٣ ـ ٢١٤، الحلية ٥/٢٧٣ ـ ٢٧٤، المناقب ١٣٧ ـ ١٣٨، صفة الصفوة ٢/١٢٢ ـ ١٢٣، تاريخ الإسلام ١٩٦ ـ ١٩٧، الطبقات ٥/٣٧٣، مختصر ابن عساكر ١١٢ ـ ١١٣.

●● ولم يكتف عمر بردّ المظالم ونزعها من أيدي عشيرته، بل إنه ضيَّق عليهم في النفقة، حتى ساواهم بكل أفراد الأمة، وألجأهم للعمل كغيرهم من الناس.

قال الإمام أحمد بن حنبل ـ وذكر عمر بن عبد العزيز ـ : «ما كان أشده على بني أمية»[1].

ـ يحدث الأوزاعي فيقول: «لما قطع عمر بن عبد العزيز عن أهل بيته ما كان يجري عليهم من أرزاق الخاصة، وأمرهم بالانصراف إلى منازلهم، فتكلم في ذلك عنبسة بن سعيد، فقال: يا أمير المؤمنين، إن لنا قرابة. قال: لن يتسع مالي لكم، وأما هذا المال فإنما حقكم فيه كحق رجل بأقصى بَرْك الغِمَاد، ولا يمنعه من أخذه إلا بُعْدُ مكانه. والله إني لأرى أن الأمور لو استحالت حتى يصبح أهل الأرض يرون مثل رأيكم؛ لنزلت بهم بائقة من عذاب الله. فقال عنبسة لعمر: أفتأذن لي أن أخرج إلى ضيعتي وما يصلح عيالي؟ فقال عمر: أحبكم إلينا من كفانا مؤونته»[2].

ـ ولما قرىء كتاب سليمان بالعهد لعمر بالخلافة، قام رجل من ثقيف يقال له سالم، من أخوال عمر، فأخذ بِضَبْعِه فأقامه، فقال له عمر: «أما واللهِ، ما اللهَ أردتَ بهذا، ولن تصيب بها مني دنيا»[3].

ـ وجاءه جماعة من بني مروان ذات يوم، فأراد أن يلقِّنهم درساً في التقوى والورع، والأخذ من الحلال وترك الشبهات، وعدم التقحّم في النار لأجل لقيمات تذهب لذتها وتبقى مسؤوليتها. يقول إسماعيل بن أبي حكيم: «كان عند عمر بن عبد العزيز ناس من بني مروان، فحبسهم، وقال

---

(١) المناقب ١٤١.
(٢) المناقب ١٣٦، ١٣٩، ٢٣٤، الطبقات ٥/٣٧٢، الحلية ٥/٢٧٠ ـ ٢٧١.
(٣) الطبقات ٥/٣٤٠. والضَّبْعُ: ما بين الإبْط إلى نصف العضُدِ من أعلاها.

لخبازه: إذا دعوتُ بالطعام فلا تعجلْ به. فحبسهم حتى تعالى النهار ـ قال: وهم قوم لم يعتادوا ذلك ـ فمرّ به الخباز فقال: ويحك، ائتنا بطعامك! قال: نعم يا أمير المؤمنين، الآن. قال: فلما أبطأ قال لهم: فهل لكم في سَوِيق وتمر؟ قال: فجيء بسويق وتمر، فأكلوا، فلما فرغوا جاء الخباز بالطعام، فأمسكوا، فقال: ألا تأكلون؟ قالوا: والله يا أمير المؤمنين، ما نقدر عليه. فقال لهم ذلك غير مرة، فأبوا أن يأكلوا، فقال: ويحكم يا بني مروان، ففيمَ التقحّم في النار؟! فبكى والله وأبكى»[١].

●● شدتهم عليه وصرامته تجاههم:

بَيْدَ أن عشيرته قد ضاقت به ذرعاً، وأرسلت إليه من يكلّمه بأن يلين في معاملتهم، ويعطيهم شيئاً مما كان لهم من المميزات التي كانوا يأخذونها عند أسلافه من الخلفاء. فلما لم يستجـب لهم، وفشلت ضراعاتهم، راحوا يناورون، ثم لما أخفقوا لوّحوا له بعصا الترهيب والتأليب والمضادّة له، وإثارة الفتنة أو القتل. فماذا كان منه؟

ـ دخلت عليه عمته فقالت: «إن قرابتك يشكونك، ويزعمون أنك أخذت منهم خير غيرك! قال: ما منعتهم حقاً أو شيئاً كان لهم. فقالت: إني رأيتهم يتكلمون، وإني أخاف أن يهيجوا عليك يوماً عصيباً! فقال: كل يوم أخافه دون يوم القيامة؛ فلا وقاني الله شرَّه»[٢]!

ـ وعن إسماعيل بن أبي حكيم قال: «أتى عمرَ بن عبد العزيز كتابٌ من بعض بني مروان، فأغضبه، فاستشاط غضباً، ثم قال: إن لله في بني مروان ذبحاً!! وايمُ الله، لئن كان ذلك الذبح على يديّ. قال: فلما بلغهم ذلك كفّوا، وكانوا يعلمون صرامته، وأنه إن وقع في أمر مضى فيه»[٣].

---

(١) المناقب ١٤١، والسَّويق: طعامٌ يُتَّخذ من مدقوق الحنطة والشعير.

(٢) المناقب ١٣٨، صفة الصفوة ٢/١٢٣.

(٣) الطبقات ٥/٣٤٤، الحلية ٥/٢٨١، المناقب ١٣٥.

إن هذا الموقف الباهر من عمر لعجيب جدّ عجيب! الرجل الناسك الأوّاه الأواب، التقي النقي، الورع النبيل، الخاشع الضارع، يقول: «إن لله في بني مروان ذبحاً»!! لك الله يا ابن عبد العزيز ما أشبهك بجدك الفاروق.

وعادوا ثانية إلى الاستعطاف، ومناشدة أمير المؤمنين بالرحم والقربى؛ فوجدوه حيث هو عند رأيه لا يريم، فما عشيرته إلا كأي مسلم في أقصى أرض الإسلام، حقهم وحقه في بيت المال سواء، وإنه إن فضلهم على غيرهم فإنه يخشى عذاب يوم عظيم.

عن وهيب بن الورد قال: «اجتمع بنو مروان على باب عمر بن عبد العزيز، وجاء عبد الملك بن عمر ليدخل على أبيه، فقالوا له: إما أن تستأذن لنا، وإما أن تبلغ عنا الرسالة. قال: قولوا. قالوا: إن من كان قبله من الخلفاء كان يعطينا، ويعرف لنا مواضعنا، وإن أباك قد حرمنا ما في يده. قال: فدخل على أبيه فأخبره عنهم، فقال له عمر: قل لهم: إن أبي يقول لكم: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[1]».

إن العقبات الجسام التي تتشامخ أمام أمير المؤمنين لتصدّه عن السبيل القويم، كانت تتحدى وتفوق كل اقتدار وتحمّل ومجابهة، بيد أن «الرجل المعجزة» قد تفوّق على ذلك كله، وصهره بأنفاسه الطاهرة وإخلاصه العريض العميق.

ثامناً ـ مع الولاة[2]:

من واجبات خليفة المسلمين ورئيس دولتهم تولية من يقومون بوظائف الدولة وشؤونها من أهل الكفاية والأمانة، وقد عبر عن ذلك

---

(١) المناقب ١٣٩، تاريخ الخلفاء ٢٣٨، والآية من سورة: يونس رقم ١٥.
(٢) أطلق علماء المسلمين لفظ «الإمامة العظمى، والولاية الكبرى» على منصب الإمام =

القاضي أبو يعلى بقوله: «استكفاء الأمناء، وتقليد النصحاء، فيما يفوّضه إليهم من الأعمال، ويكله إليهم من الأموال، لتكون الأعمال مضبوطة، والأموال محفوظة».

ورأس المبادىء التي يجب مراعاتها عند اختيار من يلي عملاً ذا سلطة في الدولة ما جاء في الحديث الشريف: «من ولّى على عصابة رجلاً وهو يجد من هو أرضى لله منه؛ فقد خان الله ورسوله والمؤمنين».

وقد استنتج شيخ الإسلام ابن تيمية شروط التوظيف الأساسية من قوله تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ القويُّ الأَمِينُ﴾. وهي تستند إلى عنصرين: الكفاية أو المقدرة من جهة، والأمانة والأخلاق من جهة أخرى. مع ملاحظة اعتبارات أخرى يدخل بعضها ضمناً في العنصرين السابقين، وبعضها من قبيل مراعاة السياسة الاجتماعية[1].

تخيّر عمر للولاة، وأسماء بعضهم، وطرف من سِيَرهم:

لما كان الولاة هم نواب الخليفة في حكم الأقاليم، والقضاة هم أهل الفصل في قضايا ومصاير الناس، وأمناء بيت المال لهم سيطرة مباشرة على الأموال العامة ـ فإن عمر كان يرى في مناصب هؤلاء أخطر مناصب الدولة، وأعظمها حساسية ومسؤولية. وهم إذا استقاموا كانوا خير عون له في الحكم بالقسطاس المستقيم. لذا راح يتخيّرهم، ويأمرهم ويرشدهم، ويكتب إليهم، ويعظهم ويتابعهم، وكان شعاره في ذلك ـ كجده الفاروق ـ : «أيّما عامل لي ظلم أحداً، وبلغني مظلمته ولم أغيرها؛ فأنا الظالم».

= أو الخليفة أو رئيس الدولة. وأطلقوا لفظ الولاية بوجه عام على ما سوى ذلك من مناصب، واستعملوا عدداً من الألفاظ للدلالة على أنواع هذه الولايات أو المناصب ذات السلطة، مثل: العامل، الأمير، الوزير، صاحب الخراج، وغير ذلك.

(١) نظام الإسلام ٩٣ ـ ٩٦، باختصار. والآية من سورة: القصص رقم ٢٦.

واستنصح في هذا طاوس بن كيسان، فقال طاوس: «إن أردتَ أن يكون عملك خيراً كله، فاستعمل أهل الخير». فقال عمر: «كفى بها موعظة».

●● وينظر عمر ـ قبل استخلافه ـ في أمر الولاة على الأمصار، فيرتجف ضميره لظلمهم وعسفهم، فيقول دونما رهبة: «الوليد بن عبد الملك بالشام، والحجاج بالعراق، ومحمد بن يوسف باليمن، وعثمان بن حيان بالحجاز، وقرَّة بن شريك بمصر، امتلأت الأرض ـ والله ـ جوراً»[1]!

واستقرت هذه الكلمات راسخة في ضميره، وبقيت صورة أولئك لا تفارق مخيلته، فعزم على مطاردة الظلم والظالمين، وألا يلوا في عهده أمراً من أمور المسلمين مهما صغر وقَلَّ شأنه.

علم ذات يوم أن بعض الرجال ولي شيئاً من أمر المسلمين، وكان يعرف من سيرتهم ما لا يرضاه، فبادر بعزلهم. ولما جاءه خبرهم على اليقين أقرَّ من حسنت سيرته وحمده الناس. فلقد كان الجراح بن عبد الله الحَكَمي عاملَ عمر على خراسان كلها ـ حربها وصلاتها ومالها ـ فكتب إليه عمر:

«إنه بلغني أنك قد استعملتَ عبد الله بن الأهتم، وإن الله ـ عز وجل ـ لم يبارك لعبد الله ولا لأهل بيته في العمل. فإذا أتاك كتابي فاعزله، وإنه مع ذلك لذو قرابة لأمير المؤمنين. وبلغني أنك استعملت عمارة الطويل، فإنه لا حاجة لي بعمارة، ولا بضرب عمارة، ولا برجل غمس يده في دماء المسلمين. فإذا أتاك كتابي هذا فاعزله. وبلغني أنك استعملت السيال بن منذر، وإني لا أدري ما سيالك هذا؟!.

---

(١) الحلية ٥/٣٠٩، المناقب ٤٧، ١٣٥، شذرات الذهب ١/١١١، سير أعلام النبلاء ٥/١٤٧.

فكتب إليه الجراح: إنه جاءني كتابك في عبد الله، وإني استعملته ـ يا أمير المؤمنين ـ فأجزأ ثغره، وَهَابَهُ عدوُّه، وحمده أهلُ عمله، ولم يكن جزاؤه العزل. وكتبتَ إليّ في عمارة، وإنه رجل قد شامّ الحرورية ثم رجع عن ذلك أحسن رجوع، وتاب منه أحسن توبة. واعتذر إليه في السيّال بشيء آخر، فعذره»[1].

واستعمل عاملاً، فبلغه أنه عمل للحجّاج، فعزله عمر، فأتاه يعتذر إليه، فقال: لم أعمل له إلا قليلاً. فقال عمر: حسبك من صحبة شرّ يوم أو بعض يوم.

وعزل سيّاف الحجاج، فيما ذكره الأوزاعي «أن أبا مسلم لما خرج في بعث المسلمين، ردّه عمر بن عبد العزيز من دابق، وقال: ليس بمثله يستعين المسلمون في قتال عدوهم. وكان عطاؤه ألفين، فردّه عمر إلى ثلاثين ـ فرجع من دابق إلى طرابلس ـ لأنه كان سيافاً للحجاج، وكان ثقفياً»[2].

●● وبعد أن عزل أولئك الذين تلطخت أيديهم بالمعاصي والمظالم، راح يتخيّر ولاته من الأكفاء الأمناء، والعلماء الأخيار.

لما ولي الخلافة وفد عليه بلالُ بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، فهنّأه بالخلافة، ولزم بلال المسجد يصلي، ويقرأ ليله ونهاره، فهمَّ عمر أن يوليه العراق، ثم قال: هذا رجل له فضل، فدسَّ إليه ثقة له، فقال له: إن عملت لك في ولاية في العراق ما تعطيني؟ فضمن له مالاً جليلاً! فأخبر بذلك عمر، فنفاه وأخرجه، وقال: يا أهل العراق، إن صاحبكم أعطى مقولاً ولم يعط معقولاً، وزادت بلاغته، ونقصت زهادته[3]. ورفض أن يوليه شيئاً.

---

(١) المناقب ١٠٥، ١١٦ ـ ١١٧. (٢) المناقب ١٠٨، الحلية ٥/٢٨٩، ٣١٥.
(٣) المناقب ١١٣، الطبقات ٥/٣٩٥، تهذيب التهذيب ١/٤٣٩.

واختار عمر لسياسة الرعية، وإعمال الحق بين الناس، الولاة الثقات، الخيرين الأبرار، وفي هذا يقول الحافظ ابن كثير: «وقد صرح كثير من الأئمة بأن كل من استعمله عمر بن عبد العزيز ثقة»[1].

فمن هؤلاء:

١ - **أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم**: أمير المدينة وقاضيها، الإمام العلم الشهير. وقد سبق ذكر طرف من سيرته.

٢ - **الجراح بن عبد الله الحَكَمِيُّ**: وقد كان والياً على البصرة سنة (٨٧ هـ)، لما كان عمر بن عبد العزيز أميراً على المدينة، وقتيبة بن مسلم والياً على خراسان. وبلوغ الجراح هذه المنزلة في زمن أمثال هذين يعدّ أمراً عظيماً. وبقي على البصرة سنوات. وولي خراسان سنة (٩٩ هـ)، وأقرَّه عليها أمير المؤمنين عمر، ثم عزله في رمضان سنة (١٠٠ هـ).

ولما أزمع السفر إلى دمشق، صعد منبر المسجد وخطب الناس فقال: «يا أهل خراسان، جئتكم في ثيابي هذه التي عليَّ، وعلى فرسي، لم أصب من مالكم إلا حلية سيفي»! ولم يكن معه مال يبلّغه السفر، فاستدان من بيت المال عشرة آلاف درهم، وقال: هي عليَّ سلفاً، حتى أؤديها إلى الخليفة. فأداها عنه قومه.

واستمر في الجهاد بعد خلافة عمر، وتولى الإمرة عدة سنوات، وتوغل بجيش المسلمين في الأراضي التي تحكمها روسيا الآن من بلاد الخزر على مقربة من مضيق الدربند.

قال فيه الإمام الذهبي: «مقدَّمُ الجيوش، فارسُ الكتائب، أبو عقبة الجرَّاح بن عبد الله الحكمي، . . . وكان بطلاً شجاعاً، مهيباً، طُوالاً،

---

(١) البداية والنهاية ٢٠٨/٩.

عابداً قارئاً، كبير القدر». توفي سنة (١١٢ هـ)[١].

٣ ـ **عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب**: وهو الإمام الثقة، الأمير العادل، ولي إمرة الكوفة لعمر بن عبد العزيز. قال الذهبي: «وهو قليل الرواية، كبير القدر». توفي سنة (١١٥ هـ)[٢].

٤ ـ **عَدِيّ بن أرْطاة الفزاري**: أمير، من أهل دمشق، كان من العقلاء الشجعان. ولّاه عمر على البصرة سنة (٩٩ هـ)، فاستمر إلى أن قتله معاوية بن يزيد بن المهلب سنة (١٠٢ هـ). قال الدارقطني: عدي يحتجّ بحديثه[٣].

٥ ـ **عمر بن هُبَيْرة**: أمير، من الدهاة الشجعان، كان رجلَ أهل الشام، ولّاه عمر «الجزيرة» سنة (١٠٠ هـ) فتوجه إليها. وغزا الروم من ناحية أرمينية، فهزمهم وأسر منهم خلقاً كثيراً. واستمر على الجزيرة إلى خلافة يزيد بن عبد الملك، فولّاه إمارة العراق وخراسان، ثم عزله هشام سنة (١٠٥ هـ). توفي نحو (١١٠ هـ)[٤].

٦ ـ **السَّمْح بن مالك**: الأمير الشهير، استعمله عمر على الأندلس، وأمره أن يميز أرضها، ويخرج منها ما كان فتحه عَنْوَة فيأخذ منه الخمس، وأن يكتب إليه بصفة الأندلس. فقدمها سنة (١٠٠ هـ)، وفعل ما أمره به عمر. واستشهد غازياً بأرض الفرنجة في الوقعة المشهورة بوقعة البلاط، سنة (١٠٢ هـ)[٥].

---

(١) الطبري ٧/٤٦٤ ـ ٤٦٥، الكامل ٤/١٥٧ ـ ١٥٨، سير أعلام النبلاء ٥/١٨٩، مع الرعيل الأول ٢٠٢ ـ ٢١١.

(٢) سير أعلام النبلاء ٥/١٤٩، الطبري ٧/٤٥٧، الأعلام ٣/٢٨٦.

(٣) سير أعلام النبلاء ٥/٥٣، تاريخ الإسلام ١٦٢، تهذيب التهذيب ٥/١٤٩، الأعلام ٤/٢١٩.

(٤) الطبري ٧/٤٦٠، سير أعلام النبلاء ٤/٥٦٢، تاريخ الإسلام ٢٠٦، الأعلام ٥/٦٨.

(٥) الأعلام ٣/١٣٩.

ومن أولئك الولاة والعمال:

عبد العزيز بن عبد الله على «مكة»، حيان بن سُريج على «مصر»، عبد الله بن عوف على «فلسطين»، عروة بن محمد على «اليمن»، يحيى ابن يحيى الغسّاني على «الموصل»، إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر على «إفريقية»، عبد الرحمن بن نعيم على «خراسان» لإمامة الصلاة وقيادة الجيش، وعلى «الخراج» عبد الرحمن بن عبد الله القشيري. وغيرهم.

●● سيَّر أمير المؤمنين هؤلاء الولاة إلى أعمالهم، وأوصى كل واحد منهم بقوله: «إن قدرتَ أن تكون في العدل والإحسان والإصلاح كَقَدْرِ مَنْ كان قبلك في الجَوْر والعدوان والظلم؛ فافعلْ، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[1].

وتقدَّم إلى الأمة كلها فقال: «إني قد ولّيت عليكم رجالاً لا أقول إنهم خياركم، ولكني أقول: إنهم خير ممن هو شرٌّ منهم»!

وهذا على مبدئه ـ رضي الله عنه ـ في الزهد والورع والتقوى والخشية والتمسك بالحق، وإلا فمن يستطيع في زمنه عمل مثل عمله إلا الصفوة النادرة؟!

ومضى الولاة إلى أمصارهم في ولاء ثابت، تقود خطاهم الأسوة الصالحة، والقدوة الصادقة، المتمثلة بخليفتهم الراشد، وإذا وسوست لأحدهم نفسه بتقصير؛ تمثلت له سيرة الخليفة بطهرها ونقائها، فاستشفى بذلك من وساوسها. ولقد بلغ الورع والخشية بأحدهم ما تصوره الحادثة التالية:

كتب عمر إلى عامل له: «يا أخي أذكّرك طول سهر أهل النار في

---

(١) الطبقات ٥/٣٨٣ ـ ٣٨٤.

النار، مع خلود الأبد. وإياك أن ينصرف بك من عند الله، فيكون آخر العهد بك، وانقطاع الرجاء منك».

فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى قدم على عمر، فقال له: ما أقدمكَ؟ قال: خلعتَ قلبي بكتابك، لا أعود إلى ولاية أبداً حتى ألقى الله تعالى»[1]!

فكيف كانت سيرة أمير المؤمنين معهم؟

سياسته معهم (خاصة أنفسهم، وصلاحياتهم، وتتبع أحوالهم وسيرتهم):

●● كان من عبقريته في إدارة دولته، وحسن سياسته وسداد رأيه؛ أنه وسَّع على الولاة في العطاء، وفرض لهم رواتب جيدة، فكان يعطي الواحد منهم في الشهر مائة دينار، ومائتي دينار. وكان يتأوّل أنّهم إذا كانوا في كفاية تفرغوا لأشغال المسليمن، ولم ينشغلوا بكسب الرزق لمن يعولون. بل إن كان ليعطي الواحد ثلاثمائة دينار، فسئل: ولِمَ ذلك؟ قال: أردت أن أغنيهم عن الخيانة[2].

●● كذلك منعهم من العمل في التجارة، لأن ذلك قد يوقعهم في الحرام، ويجرّ العنت على الرعية، الذين قد يضطرون لمداراة الأمير، فيبيعونه بأقلّ ويشترون منه بأكثر مما هو متعارف ومعتاد؛ مراعاة لمنصبه، وطمعاً في الوجاهة عنده.

قال أمير المؤمنين عمر: «لا يحل لعامل تجارة في سلطانه الذي هو عليه، فإن الأمير متى يتّجر يستأثر ويصب أموراً فيها عَنَت، وإن حرص على ألا يفعل»[3].

---

(١) المناقب ١٢٠، البداية والنهاية ٢٠٨/٩.

(٢، ٣) البداية والنهاية ٢٠٣/٩، ابن عبد الحكم نقلاً عن «عمر» للزحيلي ١٠١، ١٧٣.

جاءه ذات يوم رجل يشكو أمير مكة، فقال: «يا أمير المؤمنين، إن هذا ـ وأشار إلى أمير مكة ـ سامني بما أملك، وأعطاني به ستة آلاف درهم، فأبيتُ أن أبيعه، فاستعداه عليَّ غريم لي فحبسني، فلم يُخرجني حتى بعته بنصف ما فرض عليَّ آنفاً: بثلاثة آلاف بدلاً من ستة آلاف! واستحلفني بالطلاق إن خاصمته أبداً». فنظر عمر إلى أمير مكة، ثم مسَّ بالخيزران ما بين عينيه في سجدته[١]، وصاح به مؤنباً وموبخاً: «هذه غرَّتني منك». وأردف قائلاً للرجل: «اذهب فقد رددت عليك مالك، ولا حنث عليك»[٢].

●● وكانت طريقته في إدارة دولته إطلاق الحرية للوالي، لا يشاور الخليفة إلا في أهم المهمات، مما يشكل عليه أمره. وبذلك منح ولاته قدراً كبيراً من «اللامركزية» والاستقلال في تسيير شؤون البلاد والعباد.

أرسل يوماً إلى أحد عماله أمراً، فأرسل الوالي يستوضحه ببعض التفصيلات، فتجهَّم عمر لذلك، وضاق به، فكتب من فوره:

«أما بعد؛ فأراك لو أرسلتُ إليك: أنِ اذبح شاة ووزِّع لحمها على الفقراء، لأرسلتَ إليَّ تسألني: ضأناً أم ماعزاً؟ فإن أجبتُك، أرسلتَ إليَّ تسألني: كبيرة أم صغيرة؟ فإن أجبتُكَ، أرسلتَ تسأل: بيضاء أم سوداء؟! إذا أرسلتُ إليك بأمر، فتبيَّنْ وجه الحق منه، ثم أمضِه»[٣].

إن عمر يريد من كل والٍ أن يستخدم صلاحياته، ويُعْمِل عقلَه، ويستشير بطانته من أهل الخير والمعرفة، ثم يتخذ قراره وينفذ ما رآه. إن أمير المؤمنين ليرفض أن تتلكأ حقوق الناس وتتعثر في شكليات عقيمة،

---

(١) علامة تظهر من كثرة السجود.
(٢) ابن عبد الحكم، نقلاً عن «عمر» للزحيلي ١٦٩.
(٣) المناقب ١١٧، تهذيب الأسماء واللغات ٢/٢٣، الأعلام ٥/٥٠، خلفاء الرسول ٧٨٢ ـ ٧٨٣.

فهو مسؤول عن كل حق يضيع، ومظلمة تقع، وتقصير يحدث في أطراف دولته. لذا فلا بد من الإسراع في إنفاذ ذلك كله، وليس في الأمر سعة لانتظار لحظة من نهار.

وبمثل هذا الحزم والحسم وسرعة الإنجاز كان يعزل كل وال، أو قاضٍ، أو أمين بيتِ مال، أو رئيس شرطة، أو أي مسؤول في الدولة، تثبت التجربة أنه ليس أهلاً لمنصبه.

●● وكان يتحسس أخبارهم، ويراقبهم، ويحاسبهم على تقصيرهم. كتب إلى أحدهم يقول:

«لقد كثر شاكوك، وقلَّ شاكروك، فإمّا عدلتَ، وإمّا اعتزلتَ. والسلام»!

وأما من كان لا يعرف سيرتهم جيداً فإنه يسأل عنهم الثقات من أهل بلدهم، ممن عايشوهم وخبروهم وعلموا سيرهم.

لما أراد استعمال عامل على خراسان قال: «ابغوني رجلاً صدوقاً أسأله عن خراسان. فقيل له: أبو مجلز لاحق بن حميد. فكتب فيه، فقدم عليه. فسأله عمر: أخبرني عن عبد الرحمن بن عبد الله؟ قال: يكافىء الأكفاء، ويعادي الأعداء، وهو أمير يفعل ما يشاء، ويقدم إن وجد من يساعده. قال عمر: عبد الرحمن بن نعيم؟ قال: ضعيف ليّن، يحب العافية، وتأتي له. فقال أمير المؤمنين: الذي يحب العافية وتأتي له أحبّ إلي. فولّاه الصلاة والحرب[1]، وولى عبد الرحمن بن عبد الله القشيري «الخراج»[2]، وكتب إلى أهل خراسان: إني استعملت عبد الرحمن على حربكم، وعبد الرحمن بن عبد الله على خراجكم، عن غير معرفة مني بهما ولا اختيار، إلا ما أُخْبِرت عنهما، فإن كانا على ما تحبون فاحمدوا

---

(١) أي الإمام في الصلاة وقائد الجيوش.

(٢) أي على إدارة الأموال.

الله، وإن كانا على غير ذلك، فاستعينوا بالله، ولا حول ولا قوة إلا بالله».
وكتب إليهما يوصيهما بالرعية ومصالح الإسلام والمسلمين[1].

أوامره لهم وتوجيهاته، وكتبه الكثيرة إليهم:

لو تتبعنا كتبه إلى ولاته، وأوامره وتوجيهاته لهم؛ لوجدنا من آيات فطنته، وشمول نظرته، وعمق فهمه، ما يبهر الألباب. وهو في تلك الكتب يعطي الجزئيات من اهتمامه ما لا يجعلها تضيع في ظل الاهتمام بالكليات، فليس عنده شيء يمكن أن يضيع أو يُتهاون فيه.

وكانت كتبه تأمر الولاة بإقامة الحق المتمثل بالتزام الكتاب والسنة، واتباع هدي الخلفاء الراشدين في سياسة الرعية، ونشر العدل، ومطاردة الظلم، وتقريب أهل القرآن وأصحاب العلم والفضل، وإماتة البدع، وقسم الأموال بين الناس حتى لا يبقى محتاج، مع مواعظه لهم بالخوف من الله وخشيته، والاستعداد للآخرة، والهروب من النار وما يقرب إليها من أعمال. حتى قالوا: «ما طلع علينا كتاب عمر بن عبد العزيز من الثنيَّة إلا بإحدى ثلاث: إحياء سنة، أو إماتة بدعة، أو قَسْم يقسمه بين المسلمين»[2].

١ ـ مواعظه لهم بالتقوى وخشية الله، والاستعداد للآخرة، والهروب من الظلم والذنوب:

ولقد أكثر ـ رضي الله عنه ـ من كتبه التي ضمّنها مواعظه، لأنه يعلم أن الأمير إذا صلحت سريرته، وعظمت خشيته ومراقبته لربه؛ أشاع في الناس الحق والعدل والخير والمرحمة.

ولنستمع لبعض هذه الكتب إلى عماله:

«أما بعد: فكأن العباد قد عادوا إلى الله تعالى، ثم ينبئهم بما

---

(١) الطبري ٧/٤٦٥ ـ ٤٦٦.
(٢) المناقب ٩٣، ١٠٠.

عملوا، ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، فإنه لا معقّب لحكمه، ولا يُنازع في أمره، ولا يُقاطع في حقه الذي استحفظه عباده وأوصاهم به. وإني أوصيك بتقوى الله، وأحثك على الشكر فيما اصطنع عندك من نعمة، وآتاك من كرامة، فإن نعمه يمدها شكـره، ويقطعها كفره. أكثِر ذكر الموت الذي لا تدري متى يغشاك، ولا مناص ولا فوت، وأكثر من ذكر يوم القيامة وشدته؛ فإن ذلك يدعوك إلى الزهادة فيما زهدت فيه، والرغبة فيما رغبت فيه. ثم كن مما أوتيت من الدنيا على وجل، فإن من لا يحذر ذلك ولا يتخوفه، توشك الصرعة أن تدركه في الغفلة. وأكثر النظر في عملك في دنياك بالذي أُمرت به، ثم اقتصر عليه، فإن فيه ـ لعمري ـ شغلاً عن دنياك. ولن تدرك العلم حتى تؤثره على الجهل، ولا الحق حتى تذر الباطل. فنسأل الله لنا ولك حسن معونته، وأن يدفع عنا وعنك بأحسن دفاعه، برحمته»(١).

«أما بعد: فاتقِ الله فيمن وليتَ أمره، ولا تأمن مكره في تأخيره عقوبته، فإنما يعجل بالعقوبة من يخاف الفوت. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»(٢).

«اعمل للدنيا على قدر مقامك فيها، واعمل للآخرة على قدر مقامك فيها»(٣).

«أما بعد: فإذا أمكنتك القدرة من ظلم العباد، فاذكر قدرة الله عليك، وذهاب ما تأتي إليهم. واعلم أنك ما تأتي إليهم أمراً إلا كان زائلاً عنهم، باقياً عليك. وأن الله تعالى أخذ للمظلوم من الظالم، فمهما ظلمت من أحد، فلا تظلمنَّ من لا ينتصر عليك إلا بالله عز وجل»(٤).

وكتب إلى عدي بن أرطاة: «أما بعد: فإني أذكِّرك ليلة تمخض

---

(١) الحلية ٥/٢٦٨.

(٢) الحلية ٥/٣٠٤، المناقب ١٢١. (٣، ٤) المناقب ١٢٣.

بالساعة، فصباحها القيامة: يا لها من ليلة، ويا له من صباح، كان على الكافرين عسيراً»[1].

وكتب إلى حُميد بن سلمة: «أما بعد: فأصْلح الذي بينك وبين الله، واعلم أني قد أشركتُك في أمانة عظيمة، فإن ضيَّعتَ حقاً من حقوق الله كنتَ أهونَ خلقه عليه، ثم لا يغني عنك عُمرُ من الله شيئاً»[2].

٢ ـ أوامره لهم بالتزام الكتاب والسنَّة وإقامة الحق وتجنب البدع:

وراح عمر يعمل على إرساء دعائم الحق، وإقامة شعائر الكتاب والسنة، وحمل ولاته معه على النهوض بمسؤولياتهم الكبار، فنهدوا جميعاً نحو قدر معلوم، يتحركون بتوجيهات الخليفة البار، ويعملون بأوامره وكتبه.

ولقد جعل من نفسه قدوة لهم في قبول الحق ورفض ما سواه. قال ميمون بن مهران: «ولاني عمر بن عبد العزيز عمالة، ثم قال لي: إذا جاءك كتاب مني على غير الحق فاضرب به الأرض»[3]!!

ووزع على الولاة في الأمصار كتابه الذي جاء في مطلعه: «أما بعد: فإني أوصيكم بتقوى الله، ولزوم كتابه، والاقتداء بسنة نبيه ﷺ وهَدْيه، فإن الله قد بيَّن لكم ما تأتون وما تتقون، وأَعْذَرَ إليكم في الوصية، وأخذ عليكم الحجة حين أنزل عليكم كتابه الحفيظ الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ البَاطلُ مِنْ بين يديهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ من حكيمٍ حميدٍ﴾[4]، قال: ﴿وَبالحَقِّ أنزلناهُ وبالحقِّ نزلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلا مبشِّراً وَنَذِيراً﴾[5]، وقال: ﴿وَلقدْ جِئْنَاهُمْ بكتابٍ فصَّلْنَاهُ على علمٍ هدىً ورحمةً لقومٍ يؤْمِنونَ﴾[6]. فأقيموا فرائضه،

---

(١) المناقب ١٢٣.
(٢) الطبقات ٥/٣٩٣.
(٣) البداية والنهاية ٩/٢٠١.
(٤) سورة فصلت: الآية ٤٢.
(٥) سورة الإسراء: الآية ١٠٥.
(٦) سورة الأعراف: الآية ٥٢.

واتبعـوا سننه، واعملوا بمحكمـه، واصبـروا أنفسكم عليـه، وآمنـوا بمتشابهه. . .»[1].

وكتب إلى بعض عماله: «أوصيك بتقوى الله، والاقتصاد في أمرِه، واتباع سنة رسوله، وترك ما أحدث المُحْدِثونَ بعده، مما قد جرت سنتـه وكفوا مؤنته. واعلم أنه لم يبتدع إنسان قط بدعة إلا قد مضى قبلها ما هو دليل عليها، وعبرة فيها، فعليك بلزوم السنة، فإنها لك بإذن الله عصمة. واعلم أن من سنّ السنن قد علم ما في خلافها من الخطأ والزلل، والتعمق والحمق، فإن السابقين الماضين عن علم وقفوا، وببصر ناقد كفوا»[2].

وكتب إلى عامل له: «أما بعد: فالزم الحق، ينزلك الحق منازل أهل الحق، يوم لا يُقضى بين الناس إلا بالحق، وهم لا يظلمون»[3].

وكتب إلى يحيـى الغساني: «خذ الناس بالبينة وما جرت عليه السنّة، فإن لم يصلحهم الحق، فلا أصلحهم الله»[4]!

وكتب إلى عماله: «اجتنبوا الاشتغال عند حضرة الصلاة، فمن أضاعها فهو لما سواها من شعائر الإسلام أشد تضييعاً»[5].

وكتب إلى أبي بكر بن حزم ـ وقد استعمله على الحج ـ : «إن أول عملك قبل التروية بيوم، تصلي بالناس الظهر، وآخر عملك أن تزيغ الشمس من آخر أيام منىً»[6].

وكتب إلى عدي بن أرطاة: «بلغني أنك تستنُّ بسنن الحجاج، فلا

---

(١) ابن عبد الحكم، نقلاً عن «عمر» للزحيلي ٨٥ ـ ٨٦.
(٢) الحلية ٥/٣٣٨ ـ ٣٣٩، المناقب ٨٤. (٣) الحلية ٥/٣٠٧، المناقب ١١٤.
(٤) المناقب ١١٧ ـ ١١٨، تاريخ الخلفاء ٢٣٧ ـ ٢٣٨.
(٥) الحلية ٥/٣١٦، المناقب ١٢٢. (٦) الطبقات ٥/٣٦٤.

تستنَّ بسننه، فإنه كان يصلي الصلاة لغير وقتها، ويأخذ الزكاة لغير حقها، وكان لما سوى ذلك أضيع»(١).

٣ ـ أوامره وكتبه للولاة بشأن سياسة الرعية ونشر العدل ووأد الظلم:

خليفة المسلمين، والولاة على الأمصار، وقواد الجيوش، ورؤساء الشرطة، والوزراء والقضاة، وأمناء بيت المال، وجميع مسؤولي الدولة ـ كل هؤلاء وُجدوا لإقامة شرع الله، وحفظ مصالح الأمة، لا لبناء مجد شخصي وهالة خداعة لأي واحد منهم، بدءاً من أصغر مسؤول وانتهاء بأمير المؤمنين. هذه هي نظرة الإسلام، وهكذا فَهْمُ أمير المؤمنين ابن عبد العزيز.

ولقد كان ذلك يقلق ضميره، ويؤرق خاطره، ويشغل روحه وعقله ونفسه آناء الليل وأطراف النهار؛ ولذا كثرت كتبه إلى ولاته بهذا الشأن. ورأس تلك الكتب وأمها، ما حدّث به أبو سعيد ـ مولى ثقيف ـ قال: «أول كتاب قرأه عبد الحميد من عمر بن عبد العزيز كتاب فيه سطر: أما بعد، فما بقاء الإنسان بعد وسوسة شيطان وجَوْر سلطان؟! فإذا أتاك كتابي هذا فأعطِ كل ذي حق حقه. والسلام»(٢)!

●● وإن هذا الكتاب وحده كافٍ في معرفة منهج عمر وأوامره لعماله في سياسة الرعية. بَيْدَ أن النفس تطمح للمزيد، فلنقف عند طرف من كتبه، نتلمس من خلالها جوانب أخرى من جوانب العظمة ـ وما أكثرها ـ عند هذا الخليفة العظيم.

ـ كتب إلى عماله: «إياكم أن تستعملوا على شيء من أعمالنا إلا أهل القرآن، فإنه إن لم يكن عند أهل القرآن خير، فغيرهم أحرى بأن لا يكون عندهم خير».

---

(١) الحلية ٥/٣٤٥، المناقب ١٠٧، ١٠٨.

(٢) الطبقات ٥/٣٦٨ ـ ٣٦٩.

وكتب إلى آخر: «إن العُرَفَاء من عشائرهم بمكان، فانظرْ عرفاء الجند، فمن رضيتَ أمانته لنا ولقومه؛ فأثْبِتْهُ، ومَنْ لم تَرْضَهُ فاستبدل به من هو خير منه، وأبلغْ في الأمانة والورع»[1].

ـ وكتب إلى عامل له: «أما بعد: فلتجف يداك من دماء المسلمين، وبطنك من أموالهم، ولسانك عن أعراضهم، فإذا فعلتَ ذلك فليس عليك سبيل، ﴿إنَّما السَّبِيلُ عَلى الّذينَ يظلمونَ الناسَ ويَبْغُونَ في الأرضِ بغيرِ الحَقِّ أُولئكَ لهمْ عذابٌ أليمٌ﴾»[2].

ـ ولما جاءه كتاب من صالح بن عبد الرحمن وصاحب له ـ وكانا قد ولّاهما عمر شيئاً من أمر العراق ـ يعرضان له أن الناس لا يصلحهم إلا السيف، فردّ عليهما أمير المؤمنين بلهجة غضبى، فقال:

«خبيثين من الخبث، رديئين من الرديء، تعرّضان لي بدماء المسلمين؟! ما أحد من الناس إلا ودماؤكما أهون عليَّ من دمه»[3]!

●● وكتب إلى الولاة بالنصح للأمة، والإخلاص لله في العمل:

ـ ومن ذلك كتابه إلى عبد الرحمن بن نعيم: «أما بعد: فكن عبداً ناصحاً لله في عباده، ولا تأخذك في الله لومة لائم، فإن الله أولى بك من الناس، وحقه عليك أعظم. فلا تولينّ شيئاً من أمر المسلمين إلا المعروف بالنصيحة لهم، والتوفير عليهم، وأداء الأمانة فيما استُرعي. وإياك أن يكون ميلك ميلاً إلى غير الحق؛ فإن الله لا تخفى عليه خافية. ولا تذهبنَّ عن الله مذهباً؛ فإنه لا ملجأ من الله إلا إليه»[4].

---

(١) الطبقات ٣٩٦/٥، المناقب ١٢٠.
(٢) الحلية ٣٠٧/٥، المناقب ١١٤. والآية من سورة الشورى: رقم ٤٢.
(٣) الحلية ٣٠٧/٥، المناقب ١١٠ ـ ١١١.
(٤) الطبري ٤٦٦/٧، البداية والنهاية ١٨٨/٩ ـ ١٨٩.

ـ وكتب إلى عامله على الجزيرة، فكان فيما كتب إليه: «وكنْ لمن ولّاك الله أمره ناصحاً فيما تعيب عليهم من أمورهم، ساتراً لما استطعتَ من عوراتهم، إلا شيئاً أبداه الله لا يصلح ستره. وتمسك نفسك عنهم إذا غضبت وإذا رضيت، حتى يكون ذلك فيما بينك وبينهم مستوياً حسناً جميلاً. لا تبتغينَّ لحقٍّ أديتَه إليهم، ولا لخير سدَّدتهم له؛ منهم حظاً ولا مدحة. وليكن ذاك لمن لا يعطي الخير إلا هو، ولا يصرف السوء إلا هو. واغتنم كل يوم وليلة مضت عليك وأنت سالم»[1].

●● وأمرهم بإقامة البيِّنة الحقة العادلة على الناس، وصون دمائهم، وعدم تعذيبهم، ورفع الظلم عنهم، وردّ المظالم ومعاقبة أهل الشرّ:

ـ كتب إليه عاملُه عدي بن أرطاة كتاباً جاء فيه: «من عدي بن أرطاة، أما بعد: أصلح الله أمير المؤمنين، فإن قِبَلي أناساً من العمال قد اقتطعوا من مال الله ـ عز وجل ـ مالاً عظيماً، لست أقدر على استخراجه من أيديهم، إلا أن أمسَّهم بشيء من العذاب؛ فإن رأى أمير المؤمنين ـ أصلحه الله ـ أن يأذن لي في ذلك، أفعل».

فأجابه عمر: «أما بعد: فالعجب كل العجب من استئذانك إياي في عذاب بشر! كأني لك جُنَّةٌ من عذاب الله، وكأن رضائي عنك ينجيك من سخط الله ـ عز وجل ـ!! فانظر من قامت عليه بيِّنة عدول، فَخُذْهُ بما قامت عليه به البينة، ومن أقرّ لك بشيء فخذه بما أقرّ به، ومن أنكر فاستحلفه بالله العظيم، وخلِّ سبيله. وايمُ الله، لأن يلقوا الله ـ عز وجل ـ بخياناتهم، أحب إليَّ من أن ألقى الله بدمائهم. والسلام»[2]!!

---

(١) المناقب ١١٨.

(٢) المناقب ١٠٣ ـ ١٠٤. وكتب مثله إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن، المناقب ١٠٤، الحلية ٥/٢٧٥، وآخر مثله إلى يحيى الغساني، المناقب ١١٧.

- وكتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن - والي الكوفة - يقول:

«سلام عليك، أما بعد: فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة وجَوْر في أحكام الله، وسنّة خبيثة استنّها عليهم عمالُ السوء، وإن قوامَ الدين العدلُ والإحسانُ. فلا يكوننَّ شيء أهمَّ إليك من نفسك أن توطّنها لطاعة الله، فإنه لا قليل من الإثم. ولا تحمل خراباً على عامر، ولا عامراً على خراب، انظر الخراب فخذْ منه ما أطاق، وأصلحْه حتى يعمر، ولا يُؤخذ من العامر إلا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض»[1].

- وكتب إلى عماله «أن عاقبوا الناس على قدر ذنوبهم، وإن بلغ ذلك سوطاً واحداً. وإياكم أن تبلغوا بأحد حداً من حدود الله»[2].

●● كذلك كتب إلى ولاته يأمرهم بالرفق بالناس، ورفع الحرج والمشقة عنهم، وعدم إعناتهم، والنظر في أحوالهم المادية والمعاشية وما يجب عليهم أداؤه، ومراعاة ذلك في سنوات القحط ومواسم الجدب:

- بعث إلى عروة بن محمد - عامله على اليمن - كتاباً يقول فيه: «أما بعد: فإنك كتبتَ إليَّ تذكر أنك قدمتَ اليمن، فوجدتَ على أهلها ضريبةً من الخراج مضروبة، ثابتة في أعناقهم كالجزية، يؤدونها على كل حال، إن أخْصَبُوا أو أجْدَبُوا، إن حَيَوْا أو مَاتُوا - فسبحان الله رب العالمين، ثم سبحان الله رب العالمين، ثم سبحان الله رب العالمين!! إذا أتاك كتابي هذا فَدَعْ ما تنكره من الباطل إلى ما تعرفه من الحق، ثم ائتنف الحقَّ فاعملْ به بالغاً بي وبك ما بلغ، وإن أحاط بمهج أنفسنا، وإن لم ترفع إلي من جميع اليمن إلا حفنة من كَتَم، فقد علم الله أني بها مسرور، إذا كانت موافقة للحق. والسلام»[3].

---

(١) الطبري ٧/٤٧٣، الأموال ٢٧، الحلية ٥/٢٨٦، المناقب ١١٤.

(٢) المناقب ١١٧.

(٣) ابن عبد الحكم، نقلاً عن «عمر» للزحيلي ١٩١، والكَتَمُ: نبات يُصبغ به الشعر.

ـ ويروي عبد الرحمن الطويل فيقول: «.. وكنت أنا على ديوان[1] دمشق، ففرضوا لرجل زَمِنٍ، فقلت: الزَّمِنُ ينبغي أن يُحسنَ إليه، فأما أن يأخذ فريضة رجل صحيح؛ فلا! فشكوني إلى عمر بن عبد العزيز فقالوا: إنه يتعنَّتنا، ويشقّ علينا ويُعْسِرنا قال: فكتب إليَّ: إذا أتاك كتابي هذا فلا تُعْنِتِ الناسَ ولا تُعْسِرْهم، ولا تشقّ عليهم، فإني لا أحبّ ذلك»[2].

●● وحتى السجناء وأهل الذعارات وأشباههم، كتب عمر فيهم إلى الولاة، وبين لهم كيفية معاملتهم، وإقامة الحق فيهم:

ـ فكتب إلى أمراء الأجناد: «وانظروا من في السجون ممن قام عليه الحق، فلا تحبسه حتى تُقيمه عليه، ومَنْ أشكل أمرُه فاكتب إليَّ فيه. واستوثقْ من أهل الذعارات، فإن الحبس لهم نكال، ولا تَعَدَّ في العقوبة. وتعاهَدْ مريضهم ممن لا أحد له ولا مال. وإذا حبستَ قوماً في دَيْنٍ، فلا تجمع بينهم وبين أهل الذعارات في بيت واحد، ولا حبس واحد. واجعل للنساء حَبْساً على حدة. وانظرْ من تجعل على حبسك، ممن تَثِقُ به، ومَنْ لا يرتشي، فإن من ارتشى صنع ما أُمِر به»[3].

ـ وكتب في المحابيس: «لا يقيد أحد بقيد يمنع من تمام الصلاة»[4].

ـ وكتب أيضاً: «أما بعد: فاستوصِ بمن في سجونك وأرضك خيراً، حتى لا تصيبهم ضيعة، وأقِمْ لهم ما يُصْلِحهم من الطعام والإدام»[5].

●● وأما أمراء الجيوش، وقواد الجند، فقد كتب إليهم توجيهاته العظيمة، وكلماته الرحيمة، وأمدَّهم بخبرته النادرة بشؤون الحرب

---

(١) الديوان: دفتر يكتب فيه أسماء الجيش، وأهل العطاء.
(٢) الطبقات ٥/ ٣٨٠.
(٣، ٤، ٥) الطبقات ٥/٣٥٦، ٣٦٨، ٣٧٧، المناقب ٨٩.

والسياسة والقيادة، وحثّهم على الخوف من الله، وترك المعاصي، والرفق بأفراد الجيش، واتباع الحق، والبعد عن الظلم، واتخاذ العيون الأمينة الناصحة الصادقة:

- كتب إلى بعض عماله يقول: «عليك بتقوى الله في كل حال ينزل بك، فإن تقوى الله أفضل العدة، وأبلغ المكيدة، وأقوى القوة، ولا تكن في شيء من عداوة عدوك أشد احتراساً لنفسك ومن معك من معاصي الله، فإن الذنوب أخوف عندي على الناس من مكيدة عدوهم، وإنما نعادي عدونا ونستنصر عليهم بمعصيتهم، ولولا ذلك لم تكن لنا قوة بهم، لأن عددنا ليس كعددهم، ولا قوتنا كقوتهم، ولا تكونُنَّ لعداوة أحد من الناس أحذر منكم لذنوبكم، ولا أشد تعاهداً منكم لذنوبكم. واعلموا أن عليكم ملائكة الله حفظة عليكم، يعلمون ما تفعلون في مسيركم ومنازلكم، فاستحيوا منهم، وأحسنوا صحابتهم، ولا تؤذوهم بمعاصي الله، وأنتم - زعمتم - في سبيل الله. ولا تقولوا إن عدونا شرّ منا، ولن يُنصر علينا وإن أذنبنا، فكم من قوم قد سلط عليهم بأشرّ منهم لذنوبهم! وسلوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه العون على عدوكم، نسأل الله ذلك لنا ولكم.

وارفق بمن معك في مسيرهم، فلا تُجَشِّمْهُمْ مسيراً يتعبهم، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم؛ حتى يلقوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم ولا كُرَاعهم[1]، فإنكم تسيرون إلى عدو مقيم جامّ[2] الأنفس والكُرَاع. وإلا ترفقوا بأنفسكم وكراعكم في مسيركم؛ يكن لعدوكم فضل في القوة عليكم، في إقامتهم في جمام الأنفس والكراع، والله المستعان.

أقم بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة، لتكون لهم راحة يجمّون بها أنفسهم وكُراعهم، ويرمُّون أسلحتهم وأمتعتهم. ونحِّ منزلك عن قرى

---

(١) الكُرَاع: اسم لجميع الخَيْل. (٢) مستريح قد ذهب إعياؤه.

الصلح، ولا يدخلها أحد من أصحابك لسوقهم وحاجتهم، إلا من تثق به وتأمنه على نفسه ودينه، فلا يصيبوا فيها ظلماً، ولا يتزودوا منها إثماً، ولا يرزؤون أحداً من أهلها شيئاً إلا بحق؛ فإن لهم حرمة وذمة ابتُليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها، فلا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح. ولتكن عيونك من العرب، ممن تطمئن إلى نصحه من أهل الأرض؛ فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدق في بعضه، وإن الغاشّ عين عليك وليس بِعَيْنٍ لك»[1].

ـ وولى عَمرو بن قيس السَّكُوني «الصائفة»[2]، وقال له: «اقبلْ من محسنهم، وتجاوز عن مسيئهم، ولا تكن في أولهم فتُقتل، ولا في آخرهم فَتفشل، ولكن كن وَسَطاً حيث يُرى مكانك، ويُسمع صوتك»[3].

شدته عليهم، ومحاسبتهم، وعزل من بدر منه ما يستوجب به العزل:

ومع كل تلك التوجيهات والأوامر، والإرشادات والمواعظ، والرسائل والكتب؛ فإن لأمير المؤمنين مواقف أخرى من طراز جديد، ذات بُعْدٍ أعمق، ورؤية أشمل، ونظرة أوسع ـ تتمثل في شدته على الولاة، وعدم التهاون مع أخطائهم، أو السكوت عن زلّاتهم، أو إغضاء الطرف عن تقاعسهم، والأهم من ذلك عزلهم إذا لاحت له منهم مظلمة، أو نأي عن الحق، أو إسقاط لحق واحد من الرعية، أو ظلمه. يفعل عمر هذا دون إبطاء أو تأخير ولو ساعة من نهار، ذلك أنه في تلك الساعة قد يُهضم حق، أو تظلم نفس، أو يُنتهك حدّ، أو تُخدش حُرْمة؛ فيأتي جميع ذلك معلقاً في عنق أمير المؤمنين، يحاجّه بين يدي الله تعالى!.

●● فلنتابع هذه السيرة المباركة للخليفة الراشد، في بعض كتبه ومواقفه في هذا الجانب:

---

(١) الحلية ٥/٣٠٣ـ٣٠٤، المناقب ٢٤١. والعَيْن: الجاسوس، أو طليعة الجيش.

(٢) هي الغزو في الصيف.

(٣) تاريخ الخلفاء ٢٤٢.

ـ كتب أبو بكر بن حزم إلى عمر ـ وكان عامله على المدينة ـ : «سلام عليك، أما بعد: فإن أشياخاً من الأنصار قد بلغوا أسناناً ولم يبلغوا الشرف من العطاء، فإن رأى أمير المؤمنين أن يبلغ بهم الشرف من العطاء؛ فليفعل».

وكتب إليه في صحيفة أخرى: «سلام عليك، أما بعد: فإن مَنْ كان قبلي من أمراء المدينة يُجرى عليهم برزق في شمعة، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر لي برزق في شمعة؛ فليفعل».

وكتب إليه في صحيفة أخرى: «سلام عليك، أما بعد: فإن بني عدي بن النجار ـ أخوال رسول الله ﷺ ـ انهدم مسجدهم، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر لهم ببنائه؛ فليفعل».

فأجابه عمر عن هؤلاء الصحائف الثلاث بجواب واحد في صحيفة واحدة:

«سلام عليك، أما بعد: جاءني كتابك تذكر أن أشياخاً من الأنصار قد بلغوا أسناناً، ولم يبلغوا الشرف من العطاء، وإنما الشرف شرف الآخرة، فلا أعرفنَّ ما كتبت به إليّ في نحو هذا.

وجاءني كتابك تذكر أن من كان قبلك من أمراء المدينة كان يُجرى عليهم رزق في شمعة، ولعمري يا ابن حزم، لطالما مشيتَ إلى مسجد رسول الله ﷺ في الظلمة، لا يمشى بين يديك بالشمع، ولا يوجف خلفك أبناء المهاجرين والأنصار؛ فارضَ لنفسك اليوم ما كنتَ ترضى به قبل اليوم.

وجاءني كتابك تذكر أن بني عدي بن النجار ـ أخوال رسول الله ﷺ ـ انهدم مسجدهم، وقد كنتُ أحب أن أخرج من الدنيا ولم أضع حجراً على حجر، ولا لبنة على لبنة، فإذا أتاك كتابي هذا فَابْنِهِ لهم بِلَبِنٍ، بناء قاصداً. والسلام عليك».

وجاء في كتابه إليه: «... وقد عهدتُك وأنت تخرج من بيتك في الليلة المظلمة الماطرة الوَحِلَة بغير سراج، ولعمري لأنت يومئذٍ خير منك اليوم. والسلام»[1]!!

لله درّه من خليفة! يضنّ على الوالي الكبير الإمام الفقيه الثقة بثمن شمعة ينير بها طريقه عند خروجه لصلاتي العشاء والفجر! أفيحتاج هذا الموقف إلى تعليق؟! فلنتركْه على جلاله وبهائه، ولنستمع إلى مواقف أخرى.

- لما بلغه عن عدي بن أرطاة - عامله على البصرة - بعضُ ما يكره، كتب إليه موبخاً ومؤنباً: «أما بعد: فإنك غررتني بعمامتك السوداء، ومجالستك القراء، وإرسالك العمامة من ورائك، وأنكَ أظهرتَ لي الخير، فأحسنتُ بك الظن، وقد أظهر الله على ما كنتم تكتمون. والسلام»[2]!

●● لقد كان أمير المؤمنين يريد أن يرتفع بولاته عن الشبهات، ويسمو بهم معه إلى قمم الورع والنزاهة والنبل والإخلاص؛ لذا كان يرى الشوائب عليهم كبيرة لا يمكن السكوت عنها.

- هذا هو الجراح بن عبد الله الحَكَمي القائد الفارس المغوار، يتهمه أهالي خراسان بأنه لا يشجع الناس على الدخول في الإسلام، وأن هناك عشرين ألفاً منهم تقدموا إلى الجهاد بعد أن أسلموا، والوالي في خراسان - هو الجراح - لا يصرف لهم العطاء، ومثلهم قد أسلموا من أهل الذمّة يؤخذون بالخراج!

فكتب إليه عمر لتوّه: «انظر من صلى قِبَلك إلى القبلة، فَضَعْ عنه الجزية».

---

(١) الحلية ٥/٣٠٨ - ٣٠٩، المناقب ١٠٠ - ١٠٢، صفة الصفوة ٢/١١٩.
(٢) الحلية ٥/٣٠٥، المناقب ١٢١، البداية والنهاية ٩/٢١٦.

وما كاد الجراح ينفذ أمر الخليفة حتى ازداد إسراع الناس في الإسلام، فأشار بعض رجال الحكومة في خراسان على أميرها الجراح بإقامة السنَّة فيمن يدخلون في الإسلام، وذلك بأن يأمرهم بالاختتان. لكن الجراح خاف أن يلومه أمير المؤمنين على ذلك، فكتب إليه يستأذنه في هذا، فكتب إليه عمر: «إن الله بعث محمداً ﷺ داعياً، ولم يبعثه خاتناً».

وشخص الجراح معزولاً إلى أمير المؤمنين، ليس عنده من زخارف الدنيا إلا ثيابه التي يلبسها وفرسه التي يركبها، ولم يصب من مال المسلمين إلا حلية سيفه، حتى نفقات السفر الطويل استدانها من بيت المال، ووفّى ذلك عنه قومه(١).

هذا الأمير العفيف، والفاتح البطل، لم يرضَ عمر له أن تدنَّس سيرته بأمر لا يليق بجلالته، فعزله لذلك.

ـ وفي إفريقية كان واليها يزيد بن أبي مسلم الثقفي، وقد عزم على أن يسير في الناس بسيرة الحجاج، وقد علم عمر سوء سيرته في الرعية، فلم يمهله أن يستمر بذلك في خلافته. فقد خرج يزيد في بعض «الصائفة»، فلما كان «بمرج اللاج» لقيه كتاب أمير المؤمنين عمر:

«أن انصرف من حيث يلقاك كتاب أمير المؤمنين، فإن الله لا ينصر جيشاً أنت فيهم»(٢).

ـ وكان أسامة التنوخي على «خراج مصر»، وكان غشوماً ظلوماً، مسرفاً في العقوبات بغير ما أنزل الله. فلما استُخلف عمر عزل أسامةَ هذا، وحبسه بما اعترف به من جرائم ارتكبها، وأمر به أن يقيَّد في الأصفاد، فلا توضع عنه إلا وقت الصلاة.

---

(١) الطبري ٧/٤٦٢ ـ ٤٦٥، الكامل ٤/١٥٨، مع الرعيل الأول ٢٠٤ ـ ٢٠٥.
(٢) المناقب ١١٠.

- وجاءه رجل يشكـو عاملاً انتزع منه أرضاً، فأمر عمر بالتحقيق في الأمر، فتبيَّن له أن الوالي ظلم هذا الرجل، فعزل واليه، وردَّ الأرض إلى صاحبها. ثم قال للرجل: «كم أنفقتَ في مجيئك إليَّ»؟ قال: «يا أمير المؤمنين، تسألني عن نفقتي وأنت قد رددتَ عليَّ أرضي وهي خير من مائة ألف»؟! فأجابه عمر: «إنما رددتُ عليك حقك، فأخبرني كم أنفقتَ»؟ قال: «ما أدري ياأمير المؤمنين». قال: «احزِرْهُ». فقال الرجل: «ستون درهماً». فأمر له من بيت المال، فأخذها الرجل، وانصرف شاكراً. فناداه عمر، فرجع، فقال له: «خُذْ هذه خمسة دراهم من مالي، فَكُلْ بها لحماً حتى ترجع إلى أهلك»[1]!!

تاسعاً - مع القضاة:

منصب القضاء من أخطر وأجلّ المناصب في الدولة، وأكثرها حساسية وأثراً بين الناس، فالقاضي يبرز للناس كل يوم، ويقضي بينهم، ويفضّ خصوماتهم. يأتيه الكبير والصغير، والوزير والأجير، والغني والفقير، والغمر والشهير، وكل الناس على اختلاف مستوياتهم، وتباين طبقاتهم. فإذا لم يكن أميناً عادلاً، عارفاً عليماً، ورعاً تقياً نقياً، صليباً في الحق، عفيفاً عما في أيدي الناس - فإنه يسيء أول ما يسيء للدولة ولأمير المؤمنين. لذا فإن الخليفة الباهر الألمعي اختار قضاته فأحسن، واشترط لهم شروطاً فأصاب، وتابعهم في أعمالهم فأجاد، ووجه إليهم أوامره ونصائحه وتوجيهاته؛ فبلغ المراد.

●● قال مزاحم بن زفر: «قدمت على عمر بن عبد العزيز في وفد أهل الكوفة، فسألنا عن بلدنا وأميرنا وقاضينا، ثم قال: خمس إن أخطأ القاضي منهن خصلةً كانت فيه وَصْمة: أن يكون فهيماً، وأن يكون حليماً،

---

(١) خلفاء الرسول ٧٠٢، «عمر» للشرقاوي ١٧٢.

وأن يكون عفيفاً، وأن يكون صليباً، وأن يكون عالماً يسأل عما لا يعلم»[1].

وقال رضي الله عنه: «لا ينبغي للقاضي أن يكون قاضياً حتى تكون فيه خمس خصال: عفيف، حليم، عالم بما كان قبله، يستشير ذوي الرأي، لا يبالي ملامة الناس»[2].

بمثل هذا المعيار والمسبار كان عمر يتخير قضاته، وعلى هذا النهج الكامل الأصيل كان يحملهم على القيام بمهامهم العظيمة الجليلة، ولقد قال الإمام الشعبي: «من سرّه أن يأخذ بالوثيقة من القضاء؛ فليأخذ بقضاء عمر، فإنه كان يستشير»[3].

استعمل ميمونَ بن مهران على «الجزيرة» على قضائها وخراجها، فكتب إليه ميمون يستعفيه قائلاً: كلفتني ما لا أطيق، أقضي بين الناس وأنا شيخ كبير ضعيف رقيق!

فكتب إليه عمر: «اِجْبِ الخَرَاج الطيب، واقضِ ما استبانَ لك، وإذا التبس عليك أمر فارفعه إليَّ، فإن الناس لو كانوا إذا كثر عليهم شيء تركـوه؛ ما قام لهم دين ولا دنيا»[4].

●● وكان يأمرهم بالجلوس للناس، وفتح الأبواب لهم، وتيسير كل السبل لأخذ حقوقهم، بالعدل والقسطاس المستقيم.

كتب إلى ابن حزم ـ أمير المدينة وقاضيها ـ يقول: «إيَّاك والجلوس في بيتك، اخرجْ للناس، فآسِ بينهم في المجلس والمنظر، ولا يكن أحد من الناس آثَرَ عندك من أحد. . .»[5].

(١، ٢) الطبقات ٥/٣٦٩ـ ٣٧٠، المناقب ٢٧٥، الفتح ١٣/١٤٦، ١٤٩، شذرات الذهب ١/١٢٠.

(٣) فتح الباري ١٣/١٤٩. (٤) المناقب ١١٩. (٥) الطبقات ٥/٣٤٣.

●● ولقد قام أولئك القضاة الصادقون العادلون بعملهم على أتم وجه، وراحوا يَصِلُون الليل بالنهار لحلّ قضايا الناس، وردّ المظالم، وإعادة الحقوق إلى أصحابها، فلقد استضاءت قلوبهم وعقولهم من جذوة إخلاص خليفتهم رضي الله عنه، فكانوا خير قضاة لخير خليفة.

عن إبراهيم بن جعفر عن أبيه قال: «رأيتُ أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم يعمل بالليل كعمله بالنهار، لاستحثاث عمر إيّاه»[1].

●● وإتماماً لعمل القضاة، وتيسيراً لمهمتهم الشاقة، وحراسة لحقوق الناس ألا تضيع بكتمان الشهادة بالحق أو الخوف من عواقبها ـ قضى أمير المؤمنين على مَنْ يخيف الشهود بالجلد ثلاثين جلدة، وأرسل أوامره بذلك إلى الولاة والقضاة.

قضاته:

اختار عمر قضاته من العلماء الراسخين، والأتقياء الورعين، والنِّزاه[2] الزاهدين، ممن دوَّت شهرتهم في الآفاق، وانتشر عبير سيرتهم في كل ناد. ومن هؤلاء:

إمام عصره الحسن البصري: كان قاضي البصرة، وبقي مدة ثم استعفى فأُعفي.

فَخَلَفَهُ إياس بن معاوية، الذكي الشهير.

وعامر الشعبي الإمام العلم الحجة: كان قاضي الكوفة، ولم يزل قاضياً عليها مدة خلافة عمر بن عبد العزيز.

وأبو طُوالة: قاضي المدينة، وكان فقيهاً ثقة، صواماً، قواماً، خيّراً.

وسليمان بن حبيب المُحاربي الدمشقي الدَّارانيّ: قاضي دمشق.

---

(١) الطبقات ٥/٣٤٧، المناقب ١٠٢.

(٢) النِّزاه: جمع نازه، وهو العفيف المتكرّم.

كان إماماً كبير القدر، قال عنه يحيى بن معين: حكم بدمشق ثلاثين سنة.

وميمون بن مِهْران، الإمام الحجة المفتي الفقيه الورع: كان على قضاء الجزيرة وخَراجها[1].

* * *

بمثل تلك النظرة العميقة الشاملة للحكم، واعتماداً على ذلك الأساس الراسخ المكين لمفهوم القدوة في أجهزة الدولة ومسؤوليها: الخليفة وأسرته وعشيرته وأقاربه، والولاة والأمراء والوزراء، والقضاة، وأمناء بيت المال، وكل موظف مسؤول في الدولة ـ نقول: بمثل هذا كله خاض أمير المؤمنين عمر غمار الحكم وسياسة الرعية؛ فقدّم للناس وللبشرية تلك المعجزة الباهرة في العصر الأموي، في مدة من الزمن لا تكاد تذكر إذا وضعت بجانب الإنجازات الكبيرة، والإصلاحات الخطيرة، التي تحققت على يديه.

فلننظر في سياسته المالية، فالمال أساس الرخاء العام، لِنَرَ من أين جمعه، وفيمَ أنفقه، وما هي خططه وتوجّهاته وتوجيهاته في ذلك.

---

(١) الطبقات ٥/٣٤١، الطبري ٧/٤٥٧ ـ ٤٥٨، الكامل ٤/١٥٤ ـ ١٥٥، البداية والنهاية ٩/١٨٥. وانظر تراجم أولئك الأئمة في «سير أعلام النبلاء» وغيره من كتب التراجم.

الفَصْل الثاني
سِيَاسَتُهُ المَالِيّةُ

السياسة المالية ذات قيمة كبرى في قيام الدول واستمراريتها، بل هي القلب النابض في حياة الأمم، وكثير من المشكلات تحدث نتيجة سوء التنظيم المالي. وفي العهد الذي سبق مجيء عمر بن عبد العزيز كانت السياسة المالية تتجه نحو تحقيق غايتين أساسيتين إجمالاً: أولاهما: أن تجمع أكبر كمية من المال، فكان الولاة يفاخرون أمام الخليفة بأنهم جمعوا أكبر قدر من الضرائب. ثانيتهما: إرضاء ذوي النفوذ ومَنْ له يد أو سبب في تقوية سلطان الدولة.

ونشأت عن ذلك انحرافات عن المنهج الحق؛ كأن تجبى الجزية ممن دخل في الإسلام، في بعض البلدان. وأن ينال البعض المال إلى درجة الترف، ويحرم منه آخرون. وامتياز أقارب الخليفة وبعض المسؤولين في الدولة بمزايا ومخصصات مالية من خزينة الدولة، وهي ما عرف في عهد عمر «بالمظالم». وشراء بعض الولاة لأراضٍ تعود ملكيتها لبيت المال، فينقطع دخلها عن خزينة الدولة. ونحو ذلك.

وأمام هذه المشكلات الاقتصادية في الدخل والتوزيع، كان على أمير المؤمنين أن يتصدى للإصلاح المالي، ويعيدَ الحق إلى نصابه، ويرجِعَ الأمور إلى مجراها الطبيعي.

ولم تعوزه الحيلة في ذلك، ولا أخذته الحيرة، ولم تعضله أزمة،

ذلك أن «عمر» مؤمن بأن الحق والعدل كفيلان بتدبير تلك الأمور، وحلّ المعضلات، بأعظم وأهدى مما تدبر ألمع عبقريات التنظيم والاقتصاد. والذي يهمه: صلاح الحال لا كثرة المال، لأن الأموال عنده للصرف والإنفاق وإعالة الناس، لا للخزن والامتيازات والترف والسرف.

والدولة المسلمة في عهده وقبل عهده لم يكن ينقصها المال، بل ينقصها اتباع الحق في تقاضيه، واتباع الحق في توزيعه، وبَعْث حرمة الأموال العامة في ضمير الحاكم والمسؤولين وكل فرد في الأمة.

والسبيل الوحيد لتحقيق ذلك هو اتباع ما كان عليه رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده، خاصة منهم عمر بن الخطاب الذي أعطى النظام المالي في الإسلام صفته التفصيلية في عهده المبارك الطويل، والذي أثبتت الأيام عبقريته وصلاحه وعدله واستيعابه لكل طارىء.

لذا كتب ابن عبد العزيز إلى أهل المدينة لينسخوا له كتاب رسول الله ﷺ وهديه في توزيع الصدقات، وإلى سالم بن عبد الله بن عمر بنسخ كتاب عمر في ذلك.

قال محمد بن عبد الرحمن الأنصاري: «لما استخلف عمر بن عبد العزيز أرسل إلى المدينة يلتمس كتاب رسول الله ﷺ في الصدقات، وكتاب عمر بن الخطاب. فوجد عند آل عمرو بن حزم كتاب رسول الله ﷺ إلى عَمْرو بن حَزْم في الصدقات، ووجد عند آل عمر كتاب عمر في الصدقات مثل كتاب رسول الله ﷺ. قال: فنسخنا له...»[1].

محافظته على أموال الأمة:

لقد كان أمير المؤمنين ابن عبد العزيز يرى أن المال «وديعة الله» عند الناس، دولاً وأمماً وشعوباً وأفراداً، ولهذه الودائع حرمتها وقداستها، التي

(١) الأموال ١٤٧-١٤٨، الطبقات ٣٩٦/٥، سير أعلام النبلاء ١٢٧/٥، تاريخ الإسلام ١٩٥، المسند: حديث رقم ٨٠، ص ١٥٢-١٥٥.

تنأى بها عن الحرام والاحتكار والسرف والتلف، وكل ما هو مضاد للشرع. وإذا اكتسبت تلك «الودائع» صفة أخرى، وهي أنها «أموال عامة» لا خاصة؛ فإنها تزداد حرمة وقداسة. ومن ثم فهي حقوق عامة ثابتة لكل فرد في الأمة، قريباً كان أو بعيداً، صغيراً أو كبيراً، ذكراً أو أنثى، قوياً أو ضعيفاً. وبهذه المثابة فلا بد للمحافظة ـ أولاً ـ على هذا المال، وعدم هدر أي فلس منه، والدولة بأجهزتها مسؤولة عن ذلك، وعلى رأسهم أمير المؤمنين.

وعمر الذي كان يقول: «أنا حجيج المسلمين في أموالهم»، هو الذي سطّر بسلوكه ما يبهر الألباب في المحافظة على الأموال العامة!

ـ كتب إليه أبو بكر بن حزم ثلاث حاجات في ثلاثة كتب، فردّ عليها أمير المؤمنين في صحيفة واحدة، جاء في آخرها: «أن أَدِقَّ قلمك، وقارِبْ بين سطورك، واجْمع حوائجك، فإني أكره أن أُخْرِجَ من أموال المسلمين ما لا ينتفعون به. والسلام»[1].

هنا بيت القصيد: «ما لا ينتفعون به»!! فهو يكره أن يبدِّد أي شيء من مال مهما قلَّ شأنه، لأنه ليس فيه نفع للمسلمين. وقد يبدو هذا الأمر بسيطاً غير ذي بال، بيد أنه في نظر الخليفة جليل الشأن، فليست القضية قضية قرطاس يوفَّر على الخزينة، أو ثمن قلم يرهق كاهل الدولة؛ بل هي قداسة «المال العام» وحرمته، وهذا يتساوى فيه القليل والكثير، والعظيم والحقير. فالذي يفرِّط في قرطاس، ويسرف في قلم، يهون عليه ما هو أكبر منه، مما يكون أوخم عاقبة، وأسوأ مصيراً.

ـ وكتب إلى الآفاق في دولته العريضة: «أن لا يُكْتَبَنَّ في طُومار بقلم جليل، ولا يُمَدَّنَّ فيه». فكانت كتبه إنما هي شبر أو نحوه[2].

---

(١) المناقب ١٠٠ ـ ١٠٢، الطبقات ٥/٤٠٠، سير أعلام النبلاء ٥/١٣٢.
(٢) الطبقات ٥/٤٠٠، المناقب ٨٨. والطومار: الصحيفة.

وقال لكاتبه: «أدِقَّ القلم، فإنه أبقى للقرطاس، وأوجز للحروف»[1].

ـ وكان له سراجان: سراج من ماله يكتب عليه حوائجه، وسراج لبيت المال يكتب عليه في مصالح المسلمين، ولا يكتب على ضوئه لنفسه حرفاً واحداً.

حدَّث عمرو بن مهاجر: «أن عمر بن عبد العزيز كان تسرج عليه الشمعة ما كان في حوائج المسلمين، فإذا فرغ من حاجتهم، أطفأها، ثم أَسْرَجَ عليه سراجه»[2].

ـ وأمر مولاه مزاحماً أن يشتري له «رَحْلاً» لمصحفه، فأتاه برَحْلٍ، فأعجبه، فقال لمولاه: «من أين أصبتَ هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين، دخلتُ بعضَ الخزائن، فوجدتُ هذه الخشبة فاتخذتُ منها رحلاً. قال: انطلقْ فقوِّمه في السوق. فانطلق، فقوَّموه نصف دينار، فرجع إلى عمر فأخبره. قال: تُرانا إن وضعنا في بيت المال ديناراً أنسلم منه؟ قال: إنما قوَّموه نصف دينار! قال: ضَعْ في بيت المال دينارين»[3]!!

تلك هي نظرة عمر لأموال الأمة، وهذه فلسفته، وذلك نهجه في المحافظة عليها، مهما قَلَّ مقدارها، وتضاءلت قيمتها، قلماً كانت أو قرطاساً، شمعة أو خشبة؛ فكل ذلك له حرمة أية حرمة، وقداسة أية قداسة. وما دام الخليفة والحاكم هكذا، فلن تكون رعيته إلا مثله، ولن تنهج غير طريقه، ولن تسير على هَدْي سواه.

فما هي الموارد التي كانت تدرّ على «بيت المال» في عهده؟

---

(١) الطبري ٧/٤٧٦.
(٢) الطبقات ٥/٣٩٩، الحلية ٥/٣٢٤، المناقب ٩٨، مختصر ابن عساكر ١١٧، سير أعلام النبلاء ٥/١٣٦.
(٣) الطبقات ٥/٣٦٦.

مصادر المال التي ترد إلى «بيت المال»:

●● تجتمع في «بيت المال» أموال الزكاة، والخَراج، وضرائب الجِزْية، والغنائم، والتركات التي لا وارث لها، وغيرها من أنواع الدخل العام[١].

كل هذا اجتمع في خزينة الدولة، وانضم إليه أموال أخرى جاءت من مصادر مختلفة، ومن أهمها: ردّ المظالم، متمثّلة بالأموال التي كانت مخصصة للأمراء وأشباههم، وانتزاع الأراضي من أيديهم وضمّها إلى ملكية الدولة، فكانت مورداً آخر يصبّ في المال العام.

من ذلك أنه باع أنعاماً كانت للحجاج، وردّها على المسلمين، فقد كتب أمير الكوفة إلى عمر: «إن ها هنا ألف رأس كان للحجاج. فكتب إليه عمر أن بِعْهم، واقسمْ أثمانهم في أهل الكوفة»[٢].

وكذلك باع ما كان في سرادقات قصر الخلافة، وردّه في الأموال العامة. وباع مراكب الخلافة وجعل أثمانها في بيت المال، ووفر على الخزينة علوفتها وأجرة سائسيها.

وجاءه صاحب الرقيق يسأله أرزاقهم وكسوتهم وما يصلحهم، وكانوا كذا وكذا ألفاً!! فوزعهم على المرضى والعميان والعاجزين، لخدمتهم[٣].

وكانت رجال الشرطة وبعض رجال الدولة يحملون سيوفاً محلّاة بالذهب والفضة، فأمر عمر بنزع الذهب والفضة منها، وضمَّ ذلك إلى بيت المال.

---

(١) نظام الإسلام ٤٠ ـ ٤١. والخراج: هو أجرة أراضي الدولة. والجزية: ضريبة لحماية غير المسلمين والدفاع عنهم، وهم لا يشتركون في الحرب.
(٢) الطبقات ٥/٣٧٥.
(٣) المناقب ١٨٣.

وسارع الناس في خلافته إلى إخراج صدقاتهم وزكوات أموالهم، حتى كتب إليه بعض ولاته: «إن الناس لما سمعوا بولايتك، تسارعوا إلى أداء الزكاة، زكاة الفطر، فقد اجتمع من ذلك شيء كثير...»[1].

●● وهكذا أغدقت الأموال على خزينة الدولة، ولم يعد هناك درهم يذهب دون حساب، أو تستولي عليه يد بغير حق، أو يدخل بيت المال خلسة دون وجه مشروع ـ لأن أمير المؤمنين كان يتحرى الحلال في جمعه، فليست المسألة عنده مسألة كثرة، بل مسألة وفرة، والوفرة تكون في بركة الحلال المشروع، لا في كثرة الحرام المغتصب.

كتب إليه ميمون بن مهران يستعفيه من «الخراج»، فكتب إليه عمر: «يا ابن مهران، إني لم أكلفك بغياً في حكمك، ولا في جبايتك، فاجبِ ما جبيتَ من الحلال، ولا تجمع للمسلمين إلا الحلال الطيب»[2].

وبلغه أن عدي بن أرطاة يعشِّر الخمور التي عند الذميين، ويأخذ ثمن العشر، فكتب إليه: «... وبلغني أنك تأخذ من الخمر العشور، فتُبْقِيه في بيت مال الله، فإياكَ أن تُدْخِلَ بيتَ مالِ الله إلا طيّباً. والسلام عليكم»[3].

هَدْيُه وطريقته في جمع المال:

●● إن اتباع الحق في كل أمر هو خير كله، ولا يأتي إلا بالخير، وقد علم عمر ذلك وعمل به، وكان فيما كتبه إلى عماله ما جاء في كتابه إلى عامله على اليمن:

«واعلم أنك إن لم ترفع إليّ من جميع اليمن إلا حفنة من كَتَمٍ؛ فقد علم الله أني سأكون بها مسروراً، ما دام في ذلك إبقاءٌ على الحق والعدل».

---

(1) المناقب ١٠٥. (2) الطبقات ٥/٣٨٠، المناقب ١١٥ ـ ١١٦.
(3) الطبقات ٥/٣٨٠، الأموال ٢٩، وفيها تفصيل القصة.

ولقد تأخذنا الدهشة، ويتملّكنا العَجَبُ إذا علمنا أنه في الوقت الذي أضاف فيه عمر بعض مصادر المال لخزينة الدولة، فكذلك قد سدَّ موارد هامة كانت تزيد في ثروة بيت المال وتنميه وتضاعفه!! بيد أن ذلك كان لإمضاء الحق في كل الأمور، وعلى رأسها موارد بيت المال.

وقام أمير المؤمنين بنفسه يجمع الصدقات، ويحضّ الناس على أدائها، فعن عمرو بن عثمان بن هانىء قال: «سمعتُ عمر بن عبد العزيز بخُناصرة ـ وهو خليفة ـ يخطب الناس قبل يوم الفطر بيوم، وذلك يوم جمعة، فذكر الزكاة فحضّ عليها، وقال: على كل إنسان صاع تمراً، ومُدَّان من حنطة. وقال: إنه لا صلاة لمن لا زكاة له. ثم قسمها يوم الفطر. قال: وكان يؤتى بالدقيق والسَّوِيق مُدَّيْن مدَّين، فيقبله»[١].

●● وكان مَنْ قبله يأخذ الضرائب ممن يمرّ على الجسور والمعابر، فرأى عمر في ذلك ظلماً للناس، فمنعه. عن يزيد بن الأصم قال: «كنت جالساً عند سليمان بن عبد الملك، فجاء رجل يقال له أيوب، وكان على جسر مَنْبِج[٢]، يحمل مالاً مما يؤخذ على الجسر، فقال عمر بن عبد العزيز: هذا رجل مُتْرَف، يحمل مال سوء. فلما قدم عمر، خلّى سبيل الناس من الجسور والمعابر»[٣].

وكتب إلى عماله يأمرهم بذلك، وإقامة رجل في كل مدينة يجمع من الناس زكاة أموالهم. روى ابن سعد بسنده قال: «كتب عمر بن عبد العزيز: إني ظننتُ إن جُعِلَ العمّال على الجسور والمعابر أن يأخذوا الصدقة على وجهها، فتعدّى عمالُ السوء غير ما أُمروا به، وقد رأيتُ أن أجعل في كل مدينةٍ رجلاً يأخذ الزكاة من أهلها، فخلُّوا سبل الناس في الجسور والمعابر»[٤].

---

(١) الطبقات ٥/٣٦٣.
(٢) بلدة بين حلب ونهر الفرات.
(٣) الطبقات ٥/٣٧٨.
(٤) الطبقات ٥/٣٧٨.

وألغى الضرائب الأخرى التي أرهقت كاهل الناس، ووضع عنهم المكوس ـ الجمارك ـ وأمر بتهديم البيوت التي تُتخذ لجمعها.

روى ابن سعد وأبو عبيد قالا: «كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي ابن أرطاة أن ضَع عن الناس المائدة والنوبة والمَكْس، ولعمري ما هو بالمكس ولكنه البخس الذي قال الله: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾. فمن أدى زكاة مالـه فاقْبَلْ منه، ومن لم يأتِ فالله حسيبُه»(١).

وكتب إلى عبد الله بن عوف ـ عامله على فلسطين ـ: «أن اركبْ إلى البيت الذي برَفَح، الذي يُقال له بيت المَكْس؛ فاهدمْه، ثم احمله إلى البحر، فانسفه في اليمّ نسفاً»(٢).

●● وكان الحجاج قد ألزم الموالي ممن دخلوا في الإسلام دفعَ الجزية، متأولاً أن إسلامهم كان للهرب من دفع الجزية. فلما جاء عمر أعلن رأي الإسلام صريحاً، بأن كل من يدخل في الإسلام تسقط عنه الجزية، حتى ولو أسلم في آخر العام، وقد وجبت عليه الجزية، فإن إسلامه يسقطها.

وأرسل بهذا كتبه إلى الأمصار، وفيها: «من شهد شهادتنا، واستقبل قبلتنا، واختتن؛ فلا تأخذوا منه الجزية». ومن ذلك ما كتبه إلى عامله الجراح الحكمي: «... انظر من صلى قِبَلَك إلى القبلة، فضع عنه الجزية»(٣).

بل إنه ألغى الجزية عمن عجز عن دفعها، لكبر سنّه أو نحو ذلك؛ اقتداءً بما فعله جده العظيم ابن الخطاب. روى أبو عبيد ـ بسنده ـ عن

---

(١) الطبقات ٣٨٣/٥، الأموال ٢١١. والآية من سورة هود، رقم ٨٥.
(٢) الحلية ٣٠٦/٥، الأموال ٢١١، المناقب ١١٣.
(٣) الأموال ٢٧ ـ ٢٨، الطبري ٤٦٤/٧، الدولة الأموية ٢٢٣، ٢٧٠.

جِسْرٍ أبي جعفر قال: «شهدت كتاب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة، قرىء علينا بالبصرة: أما بعد: فإن الله سبحانه إنما أمر أن تؤخذ الجزية ممن رغب عن الإسلام واختار الكفر عتياً وخسراناً مبيناً. فضع الجزية على مَنْ أطاق حملها، وخَلِّ بينهم وبين عمارة الأرض، فإن في ذلك صلاحاً لمعاش المسلمين وقوة على عدوهم. وانظر مَنْ قِبَلك من أهل الذمّة قد كبرت سنّه، وضعفت قوته، وولّت عنه المكاسب؛ فأجْرِ عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه! فلو أن رجلاً من المسلمين كان له مملوك كبرت سنّه، وضعفت قوته، وولّت عنه المكاسب؛ كان من الحق عليه أن يقوته حتى يفرِّق بينهما موت أو عتق. وذلك أنه بلغني أن أمير المؤمنين عمر مرَّ بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب الناس، فقال: ما أنصفناك أن كنا أخذنا منك الجزية في شبيبتك، ثم ضيَّعناك في كبرك! قال: ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه»[1].

●● ونظر عمر في «أراضي الخَراج»[2]، فأمر ولاته أن لا يظلموا في تقاضي أجرتها، فكتب إلى عقبة بن زرعة الطائي ـ وكان ولاه خراج خراسان ـ : «إن للسلطان أركاناً لا يثبت إلا بها: فالوالي ركن، والقاضي ركن، وصاحب بيت المال ركن، والركن الرابع أنا. وليس من ثغور المسلمين ثغر أهمّ إلي ولا أعظم عندي من ثغر خراسان؛ فاستوعب الخراج، وأحرزْه في غير ظلم، فإن يكُ كفافاً لأعطياتهم، فسبيل ذلك، وإلا فاكتب إلي حتى أحمل إليك الأموال، فتوفِّر لهم أعطياتهم.

فقدم عقبة فوجد خَرَاجهم يفضُل عن أعطياتهم، فكتب إلى عمر فأعلمه، فكتب إليه عمر: «أنِ اقسم الفضل في أهل الحاجة»[3].

---

(١) الأموال ٢٧.

(٢) هي الأراضي المفتوحة، تكون ملكيتها للمسلمين، وبقي أصحابها والعاملون عليها يعملون بها، ويؤدون الخراج عنها.

(٣) الطبري ٧/٤٧٣.

ـ وأما أراضي الخراج التي أسلم أصحابها، فهل يبقون يؤدون الخراج، والخراج لا يؤخذ من المسلم؟ فكر عمر بالأمر، فوجد بنظره الثاقب، وإيمانه العميق، أن هؤلاء المسلمين يبقون على الأراضي ويؤدون أجرتها للدولة، وهي ليست خراجاً، بل مقابل استثمار الأرض، والأجرة تردّ في بيت مال المسلمين.

وكان مَنْ قبله قد تسامح في بيع أراضي الخراج، مما قطع عن بيت المال مورداً مهماً، فلما جاء عمر منع ذلك، إبقاءً على هذه الأراضي وما تدرّه على الخزينة العامة[1].

●● وكان أمير المؤمنين يصنف الأموال التي ترد على خزينة الدولة حسب مصادرها والمصارف الشرعية التي تصرف فيها، فكان له ثلاثة بيوت للمال. حدث إسحاق بن يحيى قال: «قدمتُ على عمر بن عبد العزيز في خلافته، فوجدته قد جعل للخمس بيت مال على حدة، وللصدقة بيت مال على حدة، وللفيء بيت مال على حدة»[2].

وأمر بضرب النقود، ليتعامل بها الناس، فضُربت له فلوس، وكتبوا عليها: أمر عمر بالوفاء والعدل. فقال: «اكسروها، واكتبوا: أمر الله بالوفاء والعدل»[3].

فيض المال:

ولعل أحدنا يتعجب من سياسة عمر وهديه في جمع المال، فبينما كنا نتوقع ونحن نتحدث عن «الدَّخْل العام»، وموارد بيت المال، والرخاء العميم الذي حدث في عهد عمر؛ نقول: كنا نتوقع من أمير المؤمنين أن يزيد من تلك الموارد، ويأمر بالكشف عن الجديد من المصادر؛ إذ بنا نجده يلغي الكثير من تلك المصادر والموارد!

---

(١) الدولة الأموية ٢٦٩ ـ ٢٧٢.
(٢) الطبقات ٥/٤٠٠.
(٣) الحلية ٥/٣٤٢، المناقب ٩٨.

إن فلسفة ابن عبد العزيز في جمع المال هي السياسة التي أرادها الإسلام: حلال مشروع لا حرام مغتصب، وقليل طيب مبارك فيه، لا كثير تكدره شوائب وشبهات ومحرمات. إن المسألة عنده إصلاح الحال لا كثرة المال، ومسألة تصفية وتنقية، لا مسألة إكثار واستكثار يحطم بعضه بعضاً.

ولما اتبع عمر هذا النهج القويم المستقيم، تفجرت الموارد، وتكاثرت المصادر، وتدفق الخير، وأسرع الناس لأداء ما عليهم عن طيب نفس ـ فتنامى ذلك الحلال، وردف بعضه بعضاً، وبورك فيه، حتى حدث ذلك الرخاء الذي سنتحدث عنه، والذي بشَّر به النبي ﷺ في قوله: «... وإن رخاء هذه الأمة بعد المائة»[1].

عن عُمر بن أَسِيد قال: «والله ما مات عمر بن عبد العزيز حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم، فيقول: اجعلوا هذا حيثُ تَرون. فما يبرحُ حتى يَرْجِعَ بمالِهِ كلهِ، قد أغنى عُمر النَاسَ»[2]!!

مصارف المال وسياسة عمر في ذلك، وأعطياته وعونه للسائلين:

●● ليست الغاية من وجود بيت المال أن تخزن فيه الأموال، بل لرفاهية الناس، ورفع مستواهم المعاشي، وتحسين أحوالهم المادية، حتى لا يبقى في الأمة جائع ولا عارٍ ولا محتاج. بل يجب صرف الدواء للمريض الفقير، ووضع الخدم للعميان والزَّمْنَى والمُقْعَدِين وأشباههم، وغير ذلك من المجالات الكثيرة التي يتولى بيت المال تسيير شؤونها، مما سنراه في عهد عمر.

ولقد كان بيت المال في عهد الخلفاء الراشدين لا يأتي عليه آخر العام إلا وهو خالٍ من كل شيء، حتى إن الفاروق كان يوزع ما يتبقى فيه قبل نهاية العام!

---

(١) رواه الإمام أحمد، انظر: البداية والنهاية ٩/١٨٧.
(٢) سير أعلام النبلاء ٥/١٣١، تاريخ الإسلام ١٩٧.

وهكذا كانت سياسة عمر الثاني، السبط المبارك: المال عنده وسيلة لا غاية، فكان يصرف كل مافيه، لا يخشى في ذلك عجزاً ولا مشكلات، فالحق لا يأتي إلا بخير! وهذه السياسة لم تعجب بعض عماله، حيث كتب إليه قائلاً: «إنك قد أضررت ببيت المال»! فقال له أمير المؤمنين: «أعط ما فيه، فإذا لم يبق فيه شيء فاملأه زبلاً»[1]!!

هذا فهم عظيم، من خليفة عظيم، أدرك الغاية الأساسية من المال؛ فأحسنَ التصرف فيه.

●● إذن: فكيف كان عمر يصرف الأموال، ولمن يعطي، ومن يمنع، ومن هم أصحاب الأولويات في العطاء، وهل عمَّ بأعطياته الناس أجمعين، وما مدى الرفاه الذي غمر الأمة في عهده الميمون؟

لقد كفل اليتامى الذين لا عائل لهم في جميع أمصار الدولة الإسلامية، وجعل لكل مريض خادماً، ولكل أعمى قائداً يقوده ويقوم بشؤونه. وأمر بإحصاء الغارمين والمدينين، فقضى عنهم ديونهم، وافتدى أسرى المسلمين بالمال الجزيل، وفرض العطاء للمولود والفطيم. بل حتى للسجناء والغائبين، ورفع مستوى الأجور الضعيفة، وكفل حاجات العلماء والفقهاء وطلاب العلم، ليتفرغوا لذلك. ومن أراد الزواج ليتعفف، ولم يجد مالاً، أعطاه أمير المؤمنين من بيت المال. ومنع موظفي الدولة الجمع بين راتبين مهما تكن الأسباب، وفرض للمؤذنين رواتب مجزية. حتى لم يبق في الأمة محتاج، بل الكل يعيش في مستوى من الحياة كريم.

●● فأخذ الزكاة من الأغنياء ووضعها في مصارفها الثمانية: حدَّث ابن شهاب الزهري أن عمر بن عبد العزيز أمره، فكتب: «السنَّة في مواضع

---

(١) الحلية ٥/٣٧٨، المناقب ١٠٤.

الصدقة، فكتب: هذه منازل الصدقات ومواضعها إن شاء الله، وهي ثمانية أسهم: فسهم للفقراء، وسهم للمساكين، وسهم للعاملين عليها، وسهم للمؤلفة قلوبهم، وسهم في الرقاب، وسهم للغارمين، وسهم في سبيل الله، وسهم لابن السبيل...»[1].

- وضنَّ بالمال على من ليس محتاجاً ولا فقيراً، حتى ولو كان من أقاربه، بل هم بالمنع أولى. جاءه عَنْبَسة بن سعيد بن العاص الأموي يسأله حاجة، فقال له عمر: «يا عنبسة، إن كان مالك الذي أصبح عندك حلالاً فهو كافيك، وإن كان حراماً فلا تزيدنّ إليه حراماً. ألا تخبرني: أمحتاج أنت؟ قال: لا. قال: أفعليك دين؟ قال: لا. قال: أفتأمرني أن أعمد إلى مال الله، فأعطيكه من غير حاجة بك إليه، وأدع فقراء المسلمين؟! لو كنتَ غارماً أديتُ غرمك، أو محتاجاً أمرتُ لك بما يصلحك! فعليك بمالك الذي عندك، فَكُلْه واتقِ الله، وانظر أولاً من أين جمعتَه، وانظر لنفسك قبل أن ينظر إليك من لَيس لك عنده هوادة ولا مراجعة»[2].

●● وكان يعطي من بيت المال بسخاء، لا يخشى النفاد، ولربما جاءه من يسأله مالاً، فلا يجد في بيت المال ما يعطيه، فيجود من ماله الخاص الذي لا يكاد يسدّ رمق أسرته ومن يعول. وله يقول عويف القوافي - وقد حضره في جنازة شهدها معه -:

أجِبْني أبا حفصٍ لقيتَ محمداً ... على حوضهِ مستبشراً وَرَآكا
فأنتَ امرؤٌ كلتا يدَيْك مفيدةٌ ... شمالُكَ خيرٌ من يمينِ سِوَاكا[3]

- وكان يقرب إليه ويفضّل في العطاء من له أو لآبائه سابقة وفضل في

(١) الأموال ٢٣١ - ٢٣٢، وفيه تفصيل طويل.
(٢) ابن عبد الحكم، نقلاً عن «عمر» للزحيلي ١٧٣.
(٣) الطبري ٧/ ٤٧٠.

الإسلام. عن يزيد بن عمر بن مورِّق قال: «كنت بالشام وعمر بن عبد العزيز يعطي الناس، فتقدمتُ إليه فقال لي: مِمَّن أنت؟ قلت: من قريش. قال: من أي قريش؟ قلت: من بني هاشم. قال: من أي بني هاشم؟ فسكتُّ، فقال: من أي بني هاشم؟ قلت: مولى علي. قال: مَنْ عليّ؟ فسكتّ، فوضع يده على صدري وقال: وأنا - والله - مولى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. ثم قال: حدَّثني عدة أنهم سمعوا النبي ﷺ يقول: «من كنتُ مولاه فعليّ مولاه». ثم قال: يا مزاحم، كم تعطي أمثاله؟ قال: مائة أو مائتي درهم. قال: أعطه خمسين ديناراً لولايته علي بن أبي طالب. ثم قال: الْحَقْ ببلدك، فسيأتيك مثلُ ما يأتي نظراءَك»[1].

- ودخلت عليه ابنة عبد الله بن زيد فقالت: «يا أمير المؤمنين، أنا بنت عبد الله بن زيد، أبي شهد بدراً، وقُتل يوم أحد.

فقال عمر:

تلكَ المكارمُ لا قَعْبان من لبنٍ شِيبَا بماءٍ فعادا بعدُ أبوالا

سليني ما شئتِ. فسألتْ، فأعطاها ما سألت»[2].

- ودخل عليه أعرابي فقال: «يا أمير المؤمنين، جاءت بي إليك الحاجة، وانتهت بي الفاقة، والله سائلك عني يوم القيامة! فقال: ويحك، أعد عليّ! فأعاد عليه، فنكس عمر رأسه، وأرسل دموعه حتى ابتلت الأرض، ثم رفع رأسه وقال: ويحك، كم أنتم؟ قال: أنا وثمان بنات. ففرض له على ثلاثمائة، وفرض للبنات على مائة مائة، وأعطاه مائة درهم، وقال: هذه المائة أعطيتك من مالي، ليس من مال المسلمين، اذهب فاستنفقها حتى تخرج أعطيات المسلمين فتأخذ معهم»[3].

---

(١) الحلية ٥/٣٦٤، تكملة المسند حديث رقم ٥١، ص ٢٢٣ - ٢٢٤، المناقب ٢٢.
(٢) الحلية ٥/٣٢٢، المناقب ٢٦٥.
(٣) المناقب ٩١ - ٩٢، البداية والنهاية ٩/٢١٨.

●● وفرض الأعطيات للناس وسوّى بينهم في ذلك:

عن عمرو بن عثمان بن هانىء قال: «حضرتُ قسمتين قسمهما عمر ابن عبد العزيز على جميع الناس، كلّهم سوّى بينهم»[1].

وروى ابن سعد ـ بسنده ـ: «أن عمر بن عبد العزيز جعل العرب والموالي في الرزق والكسوة والمعونة والعطاء سواء، غير أنه جعل فريضة المولى المُعْتق خمسة وعشرين ديناراً»[2].

●● وكتب إلى عماله أن يفرضوا العطاء للناس إلا لتاجر، وألا يأخذ العمال والمسؤولون رزقاً من مكانين:

من ذلك كتابه إلى ابن حزم «أن افرض للناس إلا لتاجر».

وكتب إلى بعض ولاته: «أما بعد: فلا تُخْرِجنَّ لأحدٍ من العمال رزقاً في العامة والخاصة، فإنه ليس لأحد أن يأخذ رزقاً من مكانين في الخاصة والعامة، ومن كان أخذ من ذلك شيئاً فاقْبِضْه منه، ثم أَرْجِعْه إلى مكانه الذي قُبض منه. والسلام»[3].

●● وقد كثرت أعطياته، حتى إنه «فرض لرجال ألفين ألفين». وكان يوزع في السنة الواحدة أكثر من عطاء.

روى ابن سعد أن عمر «أخرج ثلاثة أعطية لأهل المدينة في سنتين وخمسة أشهر إلا عشر ليال»[4].

وعن إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله قال: «جرى على يدي لقومي في خلافة عمر بن عبد العزيز ثلاثة أعطية، وقَسْمان للناس عامان، فرحمه الله»[5].

---

(١) الطبقات ٥/٣٤٥.
(٢) الطبقات ٥/٣٧٥.
(٣) الطبقات ٥/٣٤٥ـ٣٤٦، ٣٧٧.
(٤، ٥) الطبقات ٥/٣٤٦.

●● وأما السنّ التي يُفرض العطاء ابتداء منها، فخمس عشرة سنة، وقد أخذ أمير المؤمنين ذلك من الحديث الذي رواه الشيخان والترمذي من طريق عُبيد الله بن عمر عن نافع عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: عَرَضني رسولُ الله ﷺ يومَ أُحُدٍ في القتال وأنا ابنُ أربعَ عشرة سنةً فلم يُجِزْني، وعَرَضني يوم الخَنْدق وأنا ابنُ خمسَ عشرةَ سنةً فأجازني».

قال نافع: فقدمتُ على عمر بن عبد العزيز ـ وهو يومئذٍ خليفة ـ فحدَّثْته هذا الحديث، فقال: إن هذا لَحَدٌّ بين الصغير والكبير، فكتب إلى عماله أن يفرِضوا لمن كان ابنَ خمسَ عشرةَ سنةً، ومَنْ كان دون ذلك فاجعلوه في العيال»[1].

●● وأمر برفع أسماء الموتى من العطاء، وفرض للفَطَمِ[2] والمواليد والزَّمْنَى:

عن سعيد بن مسلم بن بانَك قال: «سمعت عمر بن عبد العزيز يقول ـ وهو خليفة ـ: إنه لا يحل لكم أن تأخذوا لموتاكم، فارفعوهم إلينا، واكتبوا لنا كل مَنْفُوس[3] نفرض له».

وذكر الواقدي أن عمه الهيثم بن واقد حدثه فقال: «وُلِدتُ سنة سبع وتسعين، فاستُخلف عمر وأنا ابن ثلاث سنين، فأصبتُ من قَسْمه ثلاثة دنانير»[4].

وقسم في فقراء أهل البصرة كل إنسان ثلاثة دراهم، وأعطى الزمنى خمسين خمسين، ورَزَقَ الفَطَم[5].

---

(١) البخاري: فتح الباري ٢٧٦/٥، مسلم ١٤٩٠/٣، الطبقات ١٤٣/٤، المناقب ٩٠ ـ ٩١، تكملة المسند حديث رقم ٣١ ص ٢٠٧.

(٢) الفَطَم: جمع فَطِيم، وهو المفطوم ذكراً كان أم أنثى.

(٣) أي: مولود.

(٤) الطبقات ٣٤٦/٥ ـ ٣٤٧.

(٥) الطبري ٤٧٤/٧، الأموال ١٠٤.

●● وفرض الأعطيات للسجناء والغائبين: عن أبي بكر بن حزم قال: «كنا نخرِّج ديوان أهل السجون، فيخرجون إلى أعطيتهم، بكتاب عمر بن عبد العزيز. وكتب إليّ: مَنْ كان غائباً قريب الغيبة فأعْطِ أهل ديوانه، ومن كان منقطع الغيبة فاعزلْ عطاءه إلى أن يقدم أو يأتي نَعِيُّه، أو يوكِّل عندك بوكالة ببيِّنة على حياته؛ فادْفعْهُ إلى وكيله»[1].

●● وقضى الدَّيْن عن الغارمين والمَدينين من بيت مال المسلمين:

عن عيسى بن أبي عطاء قال: «شهدتُ عمر بن عبد العزيز قضى عن غارم خمسة وسبعين ديناراً، من سَهْم الغارمين»[2].

«ووفد عاصم بن عمر بن قتادة وبشير بن محمد بن عبد الله بن زيد ابن عبد ربه على عمر بن عبد العزيز في خلافته، فدخلا عليه بخُناصرة، فذكرا دَيْناً عليهما. فقضى عن كل واحد منهما أربعمائة دينار. فخرج الصكّ: يُعْطيان من صدقة «كلب»، مما عُزل في بيت المال»[3].

و«قدم القاسم بن مُخَيْمرة على عمر بن عبد العزيز، فسأله قضاء دَيْنه، فقال عمر: كم دَيْنُك؟ قال: تسعون ديناراً. قال: قد قضيناه عنك من سَهْم الغارمين»[4].

●● كذلك فرض للمؤذنين راتباً من بيت المال، فعن كثير بن زيد قال: «قدمتُ خُناصرة في خلافة عمر بن عبد العزيز، فرأيتُه يرزق المؤذنين من بيت المال»[5].

●● وخصَّص لكل أعمىً قائداً يقوده ويقوم بشؤونه، ولكل اثنين من الزَّمْنى خادماً.

يقول الحكم بن عمر الرُّعَيني: «شهدت عمر بن عبد العزيز وجاءه صاحب الرقيق، فسأل أرزاقهم وكسوتهم وما يصلحهم. فقال عمر: كم

(١، ٢، ٣، ٤) الطبقات ٥/٣٤٨ ـ ٣٤٩.

(٥) الطبقات ٥/٣٥٩.

هم؟ قال: هم كذا وكذا ألفاً. فكتب إلى أمصار الشام: أن ارفعوا إليَّ كل أعمىً في الديوان، أو مُقْعَد، أو مَنْ به الفالج، أو مَنْ به زَمانةٌ تحولُ بينه وبين القيام إلى الصلاة. فرفعوا إليه. فأمر لكل أعمى بقائدٍ، وأمَرَ لكلِّ اثنين من الزَّمْنى بخادمٍ. قال: وفَضَلَ من الرقيق، فكتب أن ارفعوا إليَّ كلَّ يتيمٍ، ومَنْ لا أحدَ له ممن قد جرى على والده الدِّيوان. فأمر لكل خمسةٍ بخادمٍ يتوزّعونه بينهم بالسويّة. وكتب أن يفرِّقوهم جُنداً جُنداً»[1].

●● بل إنه بلغ في العطاء والنفقات وإغناء الناس حداً لم تصل إليه دولة في الأرض من قبله ولا من بعده، حتى عصرنا؛ حيث أعلن في أقطار دولته المترامية الأطراف أن من يريد الزواج ولا يستطيع القيام بنفقاته وتبعاته المالية، فبيت مال المسلمين يكفيه هذا الشأن!!

عن أبي العلاء بياع المشاجب قال: «قُرِىء علينا كتاب عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ في مسجد الكوفة وأنا أسمع: من كانت عليه أمانة لا يقدر على أدائها، فأعطوه من مال الله. ومن تزوج امرأة فلم يقدر أن يسوق إليها صَداقَهـا، فأعطوه من مال الله»[2].

وعن رجل من الأنصار قال: «كتب عمر بن عبد العزيـز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن ـ وهو بالعراق ـ: أن أخرِجْ للناس أُعطياتهم. فكتب إليه عبد الحميد: إني قد أخرجتُ للناس أعطياتهم، وقد بقيَ في بيت المال مالٌ. قال: فكتب إليه: انظرْ كلَّ مَنْ ادَّانَ من غير سَفَهٍ ولا سَرَفٍ، فاقضِ عنه. فكتب إليه: إني قد قضيتُ عنهم، وبقي في بيت مال المسلمين مالٌ. قال: فكتب إليه: أن انظرْ كلَّ بِكْرٍ ليسَ له مالٌ، فشاءَ أن تزوِّجَهُ فزوِّجْهُ، واصْدقْ[3] عنه. فكتبَ إليه: إني قد زَوّجتُ كلَّ من وجدتُ، وقد بقي في بيت مال المسلمين مالٌ. فكتب إليه بعد مخرج

(١) مختصر ابن عساكر ١١٧ ـ ١١٨، المناقب ١٨٣.
(٢) الطبقات ٥/٣٧٤. (٣) أي ادفع عنه الصَّداق، وهو المهر.

هذا: أن انظر مَنْ كانت عليه جزيةٌ، فضعفَ عن أرضه، فأسلفه ما يقوى به على عمل أرضه، فإنَّا لا نُريدهم لعامٍ ولا لعامين»[1].

●● وبذلك عمَّ الرخاء كل المسلمين في أطراف دولتهم العظيمة الكبيرة، ولنستمع لبعض النصوص لنستمتع بها:

عن يحيى بن سعيد قال: «بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية، فاقتضيتها، وطلبت فقراء نعطيها لهم، فلم نجد فقيراً، ولم نجد من يأخذها مني، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس. فاشتريتُ بها رقاباً، فأعتقتهم، وولاؤهم للمسلمين»[2].

وقدم على عمر بعض أهل المدينة، فجعل يسأله عن أهل المدينة، فقال: «ما فعل المساكين الذين كانوا يجلسون في مكان كذا وكذا؟ قال: قد قاموا منه يا أمير المؤمنين، وأغناهم الله. وكان من أولئك المساكين من يبيع الحطب للمسافرين، فالتُمس ذلك منهم بعدُ، فقالوا: قد أغنانا الله عن بيعه بما يعطينا عمر»[3].

وعن عمر بن أَسِيد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب قال: «إنما ولي عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفاً ـ ثلاثين شهراً ـ لا والله ما مات عمر ابن عبد العزيز حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم، فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء. فما يبرح حتى يرجع بماله، يتذكر من يضعه فيهم فلا يجده، فيرجع بماله؛ قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس»[4].

وعن محمد بن قيس قال: «رأيت عمر بن عبد العزيز إذا صلى العشاء دعا بشمعة فيكتب في أمر المسلمين وفي ردّ المظالم، فإذا أصبح جلس في ردّ المظالم، وأمر بالصدقات أن تُقسم في أهلها. فلقد رأيتُ مَنْ

---

(١) الأموال ١٠٩، مختصر ابن عساكر ١١٧.

(٢) مع الرعيل الأول ٢١٨.

(٣) المناقب ٩٤.

(٤) مختصر ابن عساكر ١١٣ ـ ١١٤، المناقب ٩٤، فتح الباري ١٣/٨٣.

يُتصدق عليه، له في العام القابل إبل فيها صدقة»[1]!

وعن مهاجر بن يزيد قال: «بعثَنا عُمر بن عبد العزيز فقسمنا الصدقة، فلقد رأيتُنا وإنا لنأخذ الزكاة في العام القابل ممن يُتصدق عليه في العام الماضي»[2].

●● وتحققت بذلك النبوءة النبوية العظيمة التي رواها حارثة بن وهب، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تصدقوا، فسيأتي على الناس زمان يمشي الرجل بصدقته فلا يجد من يقبلها»[3].

●● تلك هي سياسة أمير المؤمنين عمر في جمع المال وصرفه: تقوم على بسط العدل، وإيصال الحقوق إلى أهلها، حتى استغنى الناس جميعاً. وإننا لنكاد نذهل أمام ذلك الإجماع التاريخي الذي يحدِّثنا عن اختفاء الفقر والفقراء في عهده الميمون، حتى إن الأغنياء كانوا يخرجون بصدقاتهم وزكواتهم، فلا يجدون فقيراً يبسط يده ليأخذها.

لقد اغتنى الناس في الشام ومصر والعراق وخراسان وإفريقية والأندلس وبلاد ما وراء النهر، وسائر أمصار الدولة الإسلامية من المحيط الأطلسي في أقصى الغرب إلى الصين في أقصى الشرق.

●● إن هذه المعجزة التي تحققت في تلك البرهة الخاطفة من الزمن في عهد ابن عبد العزيز؛ ما تحققت إلا بإقامة الحق والعدل والإنصاف، ورفع الجَوْر وردِّ المظالم. تحققت بجمع المال من الزكوات والصدقات وغيرها مما أذن به الشرع، وصرفها في الوجوه المشروعة كذلك، وإلغاء الضرائب الظالمة، ورفع المكوس ونحوها مما أرهق كاهل الناس.

(١، ٢) تهذيب الأسماء واللغات ٢/٢١.

(٣) الحديث رواه البخاري، وقد صرفه الحافظ ابن حجر إلى عهد عمر بن عبد العزيز. انظر: فتح الباري ١٣/٨١ ـ ٨٣.

وفي كل زمن يوجد فيه رجل ينهج نفس طريق عمر، ويتبع السياسة التي اتبعها، ويحمل الروح التي يحملها؛ فستقع تلك المعجزة مرة أخرى لا ريب.

إن ابن عبد العزيز لم يأتِ بجديد من عنده، بل نفض الغبار عن الحقّ، ورسّخ دعائم العدل بين الناس، فكان منه ما كان. والتجربة الناجحة الفذة التي قام بها لا تحتاج إلى خطط خمسية ولا عشرية، ولا تتطلب مراحل ولا تقف أمامها الظروف الصعبة المختلَقة المفتراة التي يلبِّس بها الأفاكون، أو يُلبَّس بها عليهم. فالحقّ هو الحق، والعدل هو العدل، والظلم هو الظلم، لا يتغير هذا ولا ذاك ما دامت السموات والأرض.

* * *

الفَصل الثالث

مَعَ ٱلرَّعِيَّـة: أَحْدَاثٌ ومَوَاقِفُ وَتَوجِيْهَاتٌ وَتَوحِيْدٌ لِلأُمَّةِ

الحاكم أحد أفراد الأمة، بايعته ليحكم بشريعة الله، ويقيم شؤون الناس، ويصلح أحوالهم، فيرفع الظلم، ويردّ الحقوق إلى أصحابها، وييسر لهم السبل، مما يكفل لهم حياة كريمة. ويعيش معهم فيطعم الجائع، ويكسو العاري، ويداوي المريض، ويغيث الملهوف، ويفك الأسير، ويعين الأرملة واليتيم والمسكين وابن السبيل، وينهض بالأمة جميعها إلى مستوى العزة والكرامة والمجد. وهو باختصار: خادم للأمة، وأجير عندها، لا سيّد لها، يؤثّل مجداً شخصياً زائفاً على حساب أفراد الرعية.

وعمر بن عبد العزيز هو طراز فذ فريد للحاكم الذي أدى مسؤولياته على أكمل وجه، وفي شتى المناحي والأصعدة. ولنلق الضوء على بعض الأحداث والمواقف التي شهدتها أيام خلافته الراشدة المباركة.

أولاً ـ رفع المظالم وردّ الحقوق:

سبق لنا أن تحدثنا عن قيام أمير المؤمنين بردّ المظالم وخاصة من أسرته وعشيرته[1]، ونلقي الضوء هنا على جوانب أخرى من هذا الأمر الخطير، وكيف قام عمر ـ بنفسه ـ بردّ المظالم لكل أحد، وكتب إلى ولاته

(١) انظر ص ٢٥٤ «سابعاً».

بذلك، وأسلوبه في ترويض الناس لقبول الحق، وإشراكه الرعية كلها في تنفيذ ما يريد.

●● قيامه بذلك بنفسه:

لقد كان يرى أن من أولى واجبات الحاكم رفع الظلم وردّ المظالم، وقيامه بذلك دون مطالبة أحد له بها، وأن المماطلة في ذلك سبب للهلاك في الدنيا، والخسران في الآخرة. فكان يقول: «إنما هَلَكَ مَنْ كان قبلنا بحبسهم الحقّ حتى يُشترى منهم، وبسطهم الظلم حتى يُفتدى منهم»[1]!

ـ بينا هو يسير يوماً في سوق حمص، فقام إليه رجل عليه بُرْدان قطريان، فقال: «يا أمير المؤمنين، أمرتَ من كان مظلوماً أن يأتيك؟ قال: نعم. قال: فقد أتاك مظلوم بعيد الدار. فقال له عمر: وأين أهلك؟ قال: بِعَدَن أَبْيَن. قال عمر: والله، إن أهلك من أهل عمر لبعيد. فنزل عن دابته في موضعه فقال: ما ظلامتك؟ قال: ضيعة لي وثب عليها واثب، فانتزعها مني. فكتب إلى عروة بن محمد يأمره أن يسمع من بيِّنته، فإن ثبت له حق دفعه إليه، وختم كتابه. فلما أراد الرجل القيام، قال له عمر: على رِسْلِكَ، إنك قد أتيتنا من بلد بعيد، فكم نفد لك زاد، أو نَفَقَتْ لك راحلة، وأَخْلَقَ لك ثوب؟ فحسب ذلك، فبلغ أحد عشر ديناراً، فدفعها عمر إليه»[2]!

ـ وجاءه رجل من أهل أذربيجان، فقام بين يديه وقال: «يا أمير المؤمنين، اذكر بمقامي هذا بين يديك مقامك غداً بين يدي الله، حيث لا يشغل الله عنك فيه كثرة من يخاصم من الخلائق، يوم تلقاه بلا ثقة من العمل ولا براءة من الذنب. فبكى عمر بكاء شديداً، ثم قال: ويحك، اردد عليّ كلامك هذا! فجعل يردد عليه، وعمر يبكي وينتحب، ثم قال:

---

(١) الحلية ٥/٣١١، المناقب ٢٤٣.

(٢) الحلية ٥/٢٨٠. على رسلك: اتَّئِد ولا تعجل.

ما حاجتك؟ فقال: إن عاملك بأذربيجان عدا عليَّ فأخذ مني اثني عشر ألف درهم، فجعلها في بيت مال المسلمين! فقال عمر: اكتبوا له الساعة إلى عاملها، فليردّه عليه، ثم أرسله مع البريد»[1].

ـ وأتاه رجل فقال: «زرعتُ زرعاً، فمرّ به جيش من أهل الشام فأفسده. فعوَّضه عشرة آلاف درهم»[2].

ـ وردَّ «الكَتِيبة» إلى بني هاشم، وقسم بينهم الأموال بالسوية: الذكر والأنثى، والصغير والكبير، سواء، وكانوا حُرموها من قبل.

عن أبي بكر بن حَزْم قال: «كتب إليَّ عمر بن عبد العزيز في خلافته أن افْحَصْ لي عن «الكتيبة» أكانت خمس رسول الله ﷺ من خيبر، أم كانت لرسول الله خاصة؟

قال أبو بكر: فسألت عمرة بنت عبد الرحمن، فقالت: إن رسول الله لما صالح بني أبي الحُقيق جزَّأ «النَّطَاة» و «الشِّقّ»[3] خمسة أجزاء، فكانت الكتيبة جزءاً منها، ثم جعل رسول الله خمس بَعَرات، وأعْلَمَ في بعرة منها لله مكتوباً، ثم قال رسول الله: اللهم اجعل سهمك في الكتيبة. فكانت أولَ ماخرج السهم الذي مكتوب فيه لله على الكتيبة، فكانت الكتيبة خُمْسَ رسول الله ﷺ، وكانت السّهْمان أغفالاً ليس فيها علامات، فكانت فَوْضى للمسلمين على ثمانية عشر سهماً.

قال أبو بكر: فكتبت إلى عمر بن عبد العزيز بذلك.

فماذا فعل أمير المؤمنين؟

يقول بشر بن حُميد المُزَني: «دعاني عمر بن عبد العزيز، فقال لي: خذ هذا المال الأربعة آلاف دينار ـ أو خمسة آلاف دينار ـ فاقْدم بها على

---

(١) البداية والنهاية ٩/٢١٨، المناقب ٩٢ ـ ٩٣، ١٦٧ ـ ١٦٨.

(٢) الحلية ٥/٣٢٥، المناقب ٩٧. (٣) الكَتيبة والنَّطَاة والشِّقّ: من حصون خيبر.

أبي بكر بن حزم، فقل له فليضم إليه خمسة آلاف أو ستة آلاف حتى يكون عشرة آلاف دينار، وأن تأخذ تلك الآلاف من الكتيبة، ثم تقسم ذلك على بني هاشم، وتسوّي بينهم الذكر والأنثى والصغير والكبير سواء. قال: ففعل أبو بكر، فغضب من ذلك زيد بن حسن فقال لأبي بكر قولاً نال فيه من عمر، وكان فيما قال: يسوّي بيني وبين الصبيان؟! فقال أبو بكر: لا تبلغ هذه المقالةُ عنك أمير المؤمنين، فَيُغْضِبَهُ ذلك، وهو حَسَن الرأي فيكم! قال زيد: فأسألك بالله إلّا كتبتَ إليه تخبره بذلك. فكتب أبو بكر إلى عمر يذكر له أن زيد بن حسن قال مقالة فيها غلظة، وأخبره بالذي قال، وقلت: يا أمير المؤمنين، إن له قرابة ورحماً، فلم يبالِ عمر، وتركه. وكتبتْ إليه فاطمة بنت حسين تشكر له ما صنع، وتُقْسِمُ بالله: يا أمير المؤمنين، لقد أخدمتَ من كان لا خادم له، واكتسى منهم من كان عارياً. فَسُرّ بذلك عمر.

ولما قدم المال على أبي بكر بن حزم فقسمه، أصاب كل إنسان خمسين ديناراً، فكتبتْ فاطمة بنت حسين: «لعبد الله عمر أمير المؤمنين من فاطمة بنت حسين، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فأصلح الله أمير المؤمنين، وأعانه على ما ولّاه، وعصم له دينه، فإن أمير المؤمنين كتب إلى أبي بكر بن حزم أن يقسم فينا مالاً من الكتيبة، ويتحرى بذلك ما كان يصنع من كان قبله من الأئمة الراشدين المهديين، فقد بلغنا ذلك وقسم فينا، فوصلَ الله أميرَ المؤمنين، وجزاه من والٍ خير ما جزى أحداً من الولاة، فقد كانت أصابتنا جفوة، واحتجنا إلى أن يعمل فينا بالحق. فأقْسِمُ لك بالله يا أمير المؤمنين، لقد اختدم من آل رسول الله ﷺ من كان لا خادم له، واكتسى من كان عارياً، واسْتَنْفَقَ من كان لا يجد ما يَسْتنفق».

وبعثت إليه رسولاً، فقدم عليه بكتابها، فقرأه عمر وإنه ليحمد الله ويشكره. وأمر للرسول بعشرة دنانير، وبعث إلى فاطمة بخمسمائة دينار،

وقال: «استعيني بها على ما يَعْرُوكِ» وكتب إليها بكتاب يذكر فضلها وفضل أهل بيتها، ويذكر ما أوجب الله لهم من الحق[1].

وقال عبد الله بن محمد بن عَقيل بن أبي طالب: «أول مال قسمه عمر بن عبد العزيز لمالٍ بعث به إلينا أهلِ البيت، فأعطى المرأة منا مثل ما يُعطى الرجل، وأعطى الصبيّ مثل ما تُعْطى المرأة، فأصابنا أهل البيت ثلاثة آلاف دينار. وكتب لنا: إني إن بقيتُ لكم أعطيتُكم جميع حقوقكم»[2].

●● أوامره إلى العمال بردّ المظالم دون مراجعته:

وكان رضي الله عنه يسرع بردّ الحقوق إلى أهلها، ولا يتباطأ في ذلك، يخشى أحداث الموت أن تحول بينه وبين إقامة العدل بين الناس، حتى أمر الولاة أن يفصلوا في تلك الأمور من عندهم، فكتب إلى أحدهم:

«أما بعد: فإني أكتب إليك آمرك أن تردّ على المسلمين مظالمهم، فتراجعني، ولا تعرف بُعْدَ ما بيني وبينك، ولا تعرف أحداث الموت؟!... فانظرْ أن تردّ على المسلمين مظالمهم، ولا تراجعني».

وكان يكتفي بأيسر البينة، ويرد المظالم بغير البينة القاطعة، لما يعرف من غشم الولاة السابقين. ولا يهمه حجم تلك الحقوق مهما كان عظيماً، ولو أتى على خزينة الدولة، حتى إن والي العراق قد ردّ المظالم، فنفد ما في بيت مال العراق، فحمل أمير المؤمنين المال إليه من الشام[3].

●● التؤدة في رد المظالم وترويض الناس على ذلك:

ـ ولقد اتبع الحكمة في نزع المظالم من أيدي المتعدّين وردّ الحقوق إلى أصحابها، فضرب بنفسه المثل الأعلى والقدوة الصالحة،

---

(١) الطبقات ٥/٣٨٩ ـ ٣٩١.

(٢) الطبقات ٥/٣٩٢.

(٣) انظر: الطبقات ٥/٣٤١، ٣٤٢، ٣٨١.

وجرّد أهله، ثم عشيرته من كل ما ليس لهم بحق، فكانوا كآحاد الناس. فألانَ ـ بذلك ـ قلوب من كان يخشى منهم المعارضة، بالإضافة إلى ما لمسوه فيه من الحزم والعزم على تنفيذ ما يريد. وفوق ذلك كان يعطي البعض شيئاً من طمع الدنيا، ليقيم القسط بين الناس.

وفي ذلك يقول رضي الله عنه: «ما طاوعني الناسُ على ما أردتُ من الحق حتى بسطتُ لهم من الدنيا شيئاً»(١). ويقول: «لو أقمتُ فيكم خمسين عاماً ما استكملت فيكم العدل، إني لأريد الأمر فأخاف أن لا تحمله قلوبكم، فأخرِج معه طمعاً من طمع الدنيا، فإن أنكرتْ قلوبُكم هذا، سكنتْ إلى هذا»(٢).

ـ دخل عليه ابنه عبد الملك وهو في قائلته، فأيقظه وقال: «ما يؤمنك أن تؤتى في منامك وقد رُفعتْ إليك مظالم لم تقضِ حق الله فيها؟ قال: يا بني، إن نفسي مطيتي، إن لم أرفق بها لم تبلِّغني. إني لو أتعبت نفسي وأعواني، لم يك ذلك إلا قليلاً، حتى أسقط ويسقطوا، وإني لأحتسب في نومتي من الأجر مثل الذي أحتسب في يقظتي. إن الله ـ جل ثناؤه ـ لو أراد أن ينزل القرآن جملة لأنزله، ولكنه أنزله الآية والآيتين، حتى استكنَّ الإيمان في قلوبهم. ثم قال: يا بني، أما مما أنا فيه أمر هو أهمّ إلي من أهل بيتك، هم أهل العدة والعدد، وقبلهم ما قبلهم، فلو جمعتُ ذلك في يوم واحد خشيتُ انتشاره عليَّ، ولكني أنصِفُ من الرجل والاثنين، فيبلغ ذلك من وراءه، فيكون أنجع له. فإن يرد الله تمام هذا الأمر أتمّه، وإن تكن الأخرى؛ فحسب عبد أن يعلم الله أنه يحب أن ينصف جميع رعيته»(٣).

---

(١) الحلية ٥/ ٢٩٠.
(٢) تاريخ الإسلام ١٩٧، البداية والنهاية ٩/ ٢٠٠.
(٣) المناقب ١٢٧.

ودخل عليه مرة أخرى فقال: «يا أمير المؤمنين، إن بي إليك حاجة، فأخْلني ـ وعنده مسلمة بن عبد الملك ـ. فقال له عمر: أسرٌّ دون ابن عمِّك؟ قال: نعم. فقام مسلمة وخرج. وجلس بين يديه، فقال: يا أمير المؤمنين، ما أنت قائل غداً لربك إذا سألك فقال: رأيتَ بدعة فلم تُمِتْها، أو سنّة فلم تُحْيِها؟! فقال: يا بني، أشيء حمَّلكَ الرعيةُ إليَّ، أم رأي رأيتَه؟ قال: بل رأيٌ رأيتُه من قبل نفسي، وعرفتُ أنك مسؤول فيما أنت قائل. فقال له أبوه: رحمكَ الله وجزاك من ولد خيراً، فإني ـ والله ـ لأرجو أن تكون من الأعوان على الخير. يا بُنيَّ، إن قومك قد شدّوا هذا الأمر عُقدة عقدة، وعُروة عروة، ومتى ما أريدُ مكايدتَهم على انتزاع ما في أيديهم؛ لم آمن أن يفتقوا عليَّ فتقاً تكثر فيه الدماء! واللهِ لزوالُ الدنيا أهونُ عليَّ من أن يُهرقَ في سببي محجمة من دم!! أَوَمَا ترضى أن لا يأتي على أبيك يومٌ من أيام الدنيا إلا وهو يميت فيه بدعةً، ويحيي فيه سنةً، حتى يحكم الله بيننا وبين قومنا بالحقّ، وهو خير الحاكمين»[1]؟!

ثانياً ـ دور الرعية:

لقد أعطى الإسلام للأمة حق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأسقط طاعة الولاة إذا حادوا عن الحق أو أمروا بمعصية. كما طالب الشعبَ بالوقوف أمام الظلم والظالمين والضرب على أيديهم، بل جاء في الحديث الصحيح: «إذا رأى الناس الظالم، فلم يأخذوا على يده؛ أوشك أن يعمهم الله بعقاب». وقد جرت سنّة المسلمين على محاسبة الحاكم فمن دونه، وسؤاله على الملأ، كما حدث في عهد الراشدين وغيرهم[2].

(١) المناقب ٢٩٩ ـ ٣٠٠، الحلية ٥/٢٨٢ ـ ٢٨٣. وانظر للمزيد: الحلية ٥/٢٨١، صفة الصفوة ٢/١٢٨ ـ ١٢٩، المناقب ٣٠١ ـ ٣٠٢، الكامل في التاريخ ٤/١٦٥.

(٢) نظام الإسلام ١٠٥ ـ ١٠٧.

وعمر بن عبد العزيز من خير من طبق هذا المبدأ العظيم، وحثَّ الرعية على المشاركة في رفع الظلم، وإقامة الحق والعدل. ووضع الولاة والرعية وجهاً لوجه أمام مسؤوليتهما المشتركة في دحض الخطأ والتزام الصواب، وأسلم نواصي الأمراء والولاة وكبار المسؤولين في الدولة للرأي العام يقودهم على طريق الحق والخير، طائعين أو كارهين.

بل إن هذا الخليفة الباهر رغَّبَ الناس في ذلك، حتى أرصد الجوائز والأعطيات لكل من يدل على أمر يصلِح به عاماً أو خاصاً، يرفع به ظلماً، أو يقيم عدلاً، أو يردّ به حقاً، وأعلن ذلك في أحفل مكان، حيث يجتمع المسلمون من أقطار الدولة الإسلامية، هناك في صعيد عرفات والديار المقدسة.

كتب إلى أهل الموسم يقول: «أما بعد: فإني أُشْهِد الله، وأبرأُ إليه في الشهر الحرام، والبلد الحرام، ويوم الحج الأكبر؛ أني بريءٌ من ظلم مَنْ ظلمكم، وعدوان من اعتدى عليكم، أن أكونَ أمرتُ بذلك أو رضيتُه أو تعمدتُه، إلا أن يكون وهماً مني، أو أمراً خفي عليَّ لم أتعمده، وأرجو أن يكون ذلك موضوعاً عني، مغفوراً لي، إذ علم مني الحرص والاجتهاد. ألا وإنه لا إذن على مظلوم دوني، وأنا معول كل مظلوم. ألا وأي عامل من عمالي رغب عن الحق، ولم يعمل بالكتاب والسنة؛ فلا طاعة له عليكم، وقد صيرتُ أمره إليكم، حتى يراجع الحق وهو ذميم. ألا وإنه لا دُولة بين أغنيائكم، ولا أَثَرة على فقرائكم في شيء من فيئكم. ألا وأيّما وارد ورد في أمر يصلح الله به خاصاً أو عاماً من هذا الدين؛ فله ما بين مائتي دينار إلى ثلاثمائة دينار، على قدر ما نوى من الحسبة، وتجشّم من المشقة. رحم الله امرأً لم يتعاظمه سفر يحيي الله به حقاً لمن وراءه. ولولا أن أشغلكم عن مناسككم، لرسمت لكم أموراً من الحق أحياها الله لكم، وأموراً من الباطل أماتها الله عنكم، وكان الله هو المتوحد بذلك، فلا

تحمدوا غيره، فإنه لو وكلني إلى نفسي كنتُ كغيري. والسلام عليكم»[1].

وفتح أبوابه على مصاريعها لكل شاكٍ أو متظلّمٍ من حاكمه وأمير بلده، فكتب للناس: «... فمن ظلمه عامله بمظلمة فلا إذْنَ له عليَّ»!

وكان يقول للناس: «الْحَقُوا ببلادكم، فإني أذكركم في أمصاركم، وأنساكم عندي، إلا من ظلمه عامل، فليس عليه مني إذن؛ فليأتني»[2].

أي ليقتحم دار الخلافة، لا ينتظر إذناً من أحد، ولا يحول بينه وبين الخليفة حارس ولا حاجب ولا شرطي، وليرفع الأمر إلى أمير المؤمنين نفسه!

وبهذا تستقيم الأمور، وتصلح الأحوال، وينال كل ذي حق حقه، أما أن يسمع الخليفة من الوالي وحده، فيكون هو الخصم والحكم؛ فكيف يظهر الحق، ويستبين الظلم؟!

ثالثاً ـ قيمة الإنسان عنده، ورفقه برعيته ورحمته لهم:

●● لقد كان أمير المؤمنين عمر على درجة سامقة من الزهد والورع، والطهر والتقى، والعدل والرحمة، والفطنة والحذق، ومضاء العزيمة، وقوة الشكيمة؛ فكان يرى الأمور بنور من ربه، ويطلُّ عليها من جميع النوافذ، دون أن تحتبسه صومعة، أو يعطل رؤيته ضيق أفق أو نظر كليل، يحدّق في جواهر الأشياء، ويتتبع مواقع الحق كما يتتبع الطير مواقع الندى والكلأ. وكان محور اهتمامه هو الإنسان والارتفاع به أياً كان، وأنى كان، فاتسع قلبه الكبير للقريب والبعيد، ولم تفلت من رحمته وعدله وأبوّته شاردة ولا واردة.

وكان يقول: «إن من أحب الأمور إلى الله: القصد في الجِدَة،

---

(١) الحلية ٥/٢٩٢ ـ ٢٩٣، المناقب ٩٠.

(٢) الطبقات ٥/٣٤٣.

والعفو عند المقدرة، والرفق في الولاية. وما رفق عبد بعبد في الدنيا، إلا رفق الله به يوم القيامة»[١].

- كتب إليه حَجَبَةُ[٢] الكعبة أن يأمر للبيت بكسوة، كما كان يفعل من سبقه، فكتب إليهم: «إني رأيت أن أجعل ذلك في أكباد جائعة، فإنهم أولى بذلك من البيت»[٣].

تلك هي نظرة الخليفة العبقري لقيمة الإنسان، والمحافظة على حياته وكرامته، حتى يكون إنساناً مستقيماً قوياً يؤدي الذي عليه، ويحمي البيت، ويدافع عن حرمات المسلمين، ويحمي عقيدتهم، ولن يقوم بذلك إنسان جائع خائر القوى، لا يقف أمام هبة ريح وديعة!

- وأعطى برجل من المسلمين عشرة آلاف من الروم وأخذ المسلم[٤]. وفدى رجلاً مسلماً من العدو بمائة ألف درهم[٥]. وكتب إلى عماله: «أن فادوا بأسارى المسلمين، وإن أحاط ذلك بجميع مالهم»[٦].

- وكتب إلى الأسرى بالقسطنطينية: «أما بعدُ: فإنك تعدُّون أنفسكم أسارَى، ولستم أسارى، معاذَ اللهِ! أنتم الحُبَساء في سبيل الله!! واعلموا أني لستُ أَقْسِم شيئاً بين رعيتي إلا خصصتُ أهلَكم بأوفر ذلك وأطيبه. وقد بعثتُ إليكم خمسةَ دنانير، خمسةَ دنانير، ولولا أني خشيتُ إن زدتُكم أن يحبسه عنكم طاغية الروم؛ لزدتُكم. وقد بعثتُ إليكم فلانَ ابن فلان

---

(١) المناقب ٢٤٣، البداية والنهاية ٩/٢٠١ـ٢٠٢.
(٢) هم الذين بأيديهم مفتاح الكعبة، ويتولون سدانتها وحفظها.
(٣) الحلية ٥/٣٠٦، المناقب ٩٤.
(٤) الطبقات ٥/٣٥٤. والذي يدمي القلب أن الأمر الآن قد انعكس!!.
(٥) تهذيب الأسماء واللغات ٢/٢٢.
(٦) المناقب ١٢٠.

يفادي صغيرَكم وكبيرَكم، ذكركم وأُنثاكم، حُرَّكم ومملوككم، بما يسأل، فأَبْشِروا ثم أبشروا»[1].

ـ واستعملَ جعونةَ بن الحارث على «ملطية» «فغزا فأصاب غنماً، ووفد ابنه إلى عمر، فلما دخل عليه وأخبره الخبر، قال له عمر: هل أصيب من المسلمين أحد؟ قال: لا، إلا رويجل. فغضب عمر وقال: رويجل!! رويجل!! ـ مرتين ـ تجيئوني بالشاة والبقرة ويصاب رجل من المسلمين؟! لا تلي لي أنت ولا أبوك عملاً ما كنت حياً»[2]!!

●● هكذا كان حرصه على أرواح المسلمين، ورحمته لهم، وخوفه على الصغير والكبير، يقدم في سبيل الحفاظ على حيواتهم كل شيء، فليس عنده شيء أغلى وأثمن من حياة المسلم، مهما قَلَّ شأنُه، وبَعِدَتْ دياره. لذا تراه يتحول إلى إعصار مدمدم على الباطل وأهله إذا ما نزفت من مسلم قطرة دم زكية بغير حق، أو أهينت كرامته بأي وجه من الوجوه؛ فآنئذٍ تجد الخليفة الرحيم الوديع، كالليث قد دِيس عرينه، فأطلق زئيره الذي يهز كل شيء حوله!

ـ بلغه ذات يوم عن طريق رسوله إلى ملك الروم أن مسلماً أسيراً قد أذلّته الروم، بأن فرضت عليه طحن الحنطة وخبزها كل يوم. فكتب عمر إلى صاحب الروم:

«أما بعد: فقد بلغني خبر فلان بن فلان ـ فوصف له صفته ـ وأنا أقسم بالله، لئن لم ترسله إلي؛ لأبعثنّ إليك من الجنود جنوداً يكون أولها عندك، وآخرهم عندي! فلما رجع إليه الرسول قال: ما أسرع ما رجعت! فدفع إليه كتاب عمر بن عبد العزيز، فلما قرأه قال: ما كنا لنحمل الرجل الصالح على هذا، بل نبعث إليه به»!

---

(١) الأغاني ٩/٣٠٤.   (٢) الحلية ٥/٣٣٤.

ـ وقريب منه هذا النبأ:

أُخبر أمير المؤمنين بأن أحد جند الإسلام البواسل، ممن كانوا يحاصرون القسطنطينية، وكان مقاتلاً شديد البأس؛ قد وقع أسيراً في يد الرومان، وحُمل إلى الامبراطور، فحاول إكراهه على الخروج من الإسلام، فتأبى المسلم الأسير عليه، فأمر الطاغية أن تُسْمَلَ عيناه!

فما إن وصل النبأ إلى عمر حتى وجه كتاباً عاصفاً مختصراً، قال فيه: «أما بعد: فقد بلغني ما صنعتَ بأسيرك فلان، وإني أقسم بالله، لئن لم ترسله إليّ من فورك لأبعثن إليك من الجند ما يكون أولهم عندك وآخرهم عندي»!!

فارتعدت فرائص ملك الروم، وارتجف لهذه الكلمات العمرية التي تضطرم بعزة الإسلام، فما لبث أن خلّى سبيل المسلم الأسير، فعاد إلى أهله ووطنه.

وهذه العزة إنما اكتسبها أمير المؤمنين والمسلمون معه من الاعتزاز بدينهم، ورفعهم راية الجهاد ضد شعارات الكفر بكل صورها. ومن يوم تخلينا عن اعتزازنا بديننا، تخلت عنا العزة، وجُعل الصَّغَارُ علينا، وانعكس الأمر، فأصبحنا نُهَدَّد من كل صليبي ماكر حاقد، فترتعد لزمجرته الفرائص! ولن تعود لنا عزتنا ووجاهتنا حتى نتمسك بما تمسك به آباؤنا الغرّ الميامين.

●● واتسع نطاق رفقه، وتوسعت دائرة رحمته وشفقته، حتى شملت العبيد والجواري، بل وأهل الذمة.

ـ بينا هو ذات يوم مضطجع، إذ قال لجارية له: «يا جارية، روِّحيني، فأخذتْ المروحة، فأقبلتْ تروِّحه، فغلبتها عينها، فنامتْ. فانتبه، فإذا هو بالجارية قد احمرَّ وجهها، وقد عرقتْ عرقاً شديداً، فأخذ المروحة فأقبل يروِّحها. فانتبهتْ، فوضعتْ يدها على رأسها وصاحت،

فقال لها عمر: إنما أنتِ بشر مثلي، أصابكِ من الحرّ ما أصابني، فأحببتُ أن أروِّحكِ مثل الذي روَّحتِيني»(١).

- وخرج ابن له صغير يلعب مع الغلمان، فشجَّه صبي منهم، فاحتملوا الصبي الذي شجَّ ابنه وجاؤوا به إلى عمر، فسمع الجلبة، فخرج إليهم، فإذا مُرَيْئَةٌ تقول: إنه ابني، وإنه يتيم. فقال لها عمر: هوِّني عليك، ثم قال لها عمر: أَلَهُ عطاء في الديوان؟ قالت: لا. قال: فاكتبوه في الذرية! فقالت زوجته فاطمة: أتفعل هذا به وقد شجَّ ابنك؟! فعل الله به وفعل، المرة الأخرى يشجّ ابنك ثانية! فقال: ويحك، إنه يتيم وقد أفزعتموه»(٢).

لله درّ عمر! ابن أمير المؤمنين يُشجّ وتسيل دماؤه، ويراه أبوه وهو الخليفة، وتراه أمه وهي زوجة الخليفة وأخت الخلفاء؛ فلا يكون منهم لذاك اليتيم حتى ولو كلمة تقريع، بل إنه ليُكافأ، فيُفرض له راتب في ديوان المسلمين!

أية رحمة، وأية شفقة، وأي عطف ورفق، بلغه هذا الرجل المبارك؟!

- وأما رحمته لأهل الذمة، الذين انضووا تحت جناح الدولة الإسلامية، والتزموا الحدود التي حددها الإسلام لهم؛ فيحدثنا عمر بن بَهْرام الصراف فيقول: «قرىء كتاب عمر بن عبد العزيز علينا: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عدي بن أرطاة ومَنْ قِبَله من المسلمين والمؤمنين، سلام عليكم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فانظرْ أهل الذمّة فارْفق بهم، وإذا كبر الرجل منهم

---

(١) المناقب ٢٠٢، ٢٨٩، البداية والنهاية ٢٠٨/٩ - ٢٠٩.
(٢) البداية والنهاية ٢٠٢/٩.

وليس له مال فأَنْفِقْ عليه، فإن كان له حَميم فَمُرْ حميمه يُنْفِق عليه، وقاصّه من جراحه، كما لو كان لك عبدٌ فكبرتْ سنّه لم يكن لك بدٌّ من أن تنفِق عليه حتى يموت أو يعتق»[1].

- بل لقد اتسع قلبه الكبير لكل ذي روح في دولته الواسعة، وعَمَّ برفقه وشفقته البهائم والسوائم.

انظروا إليه وهو يوجه كتابه إلى واليه على مصر، يقول فيه: «أما بعد: فقد بلغني أن الحمالين في مصر يحملون على ظهور الإبل فوق ما تطيق، فإذا جاءك كتابي هذا؛ فامنع أن يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل».

وكان لعمر غلام يعمل على بغلة له، يأتيه بدرهم كل يوم، فجاءه يوماً بدرهم ونصف، فقال أمير المؤمنين: «ما بدا لك؟ فقال: نفقت. قال: لا، ولكنك أتعبتَ البغل، أرِحْهُ ثلاثة أيام»[2]!!

رابعاً - اهتمامه برعيته، والسؤال عنهم، وتوفير الحياة الكريمة لهم:

إن جوع أي فرد أو ضياعه وهلاكه هي مسؤولية المسلمين جميعاً، حتى ولو لم تكن لهم دولة ولا حاكم، وقد قال ﷺ: «أيما أهل عرصة باتوا وفيهم رجل ضائع، فقد برئت منهم ذمة الله»! والحاكم بوجه أخصّ مسؤول مباشرة عن ذلك، ومحاسب عليه أمام الله تعالى فكل مواطن في الدولة الإسلامية - سواء كان مسلماً أو غير مسلم - على الدولة أن تكفل له حق الحياة والمعيشة إذا لم يتمكن من ذلك بسبب عجزه، أو فقدان عمل يكسب منه، أو غير ذلك من الأسباب المسوّغة لحاجته.

فحقّ العيش الكريم إذا لم يستطع المرء الحصول عليه، فواجب

---

(١) الطبقات ٥/ ٣٨٠.

(٢) الحلية ٥/ ٢٦٠، ٢٧٣، المناقب ٩٧، خلفاء الرسول ٧٧٤.

الدولة أن تحصله لكل الساكنين على أرضها، والتابعين لنظامها وحكمها. ويكون ذلك من بيت مال المسلمين ـ خزينة الدولة ـ الذي يتوجب عليه إمداد المحتاجين للمال ليعيشوا؛ أي لتأمين طعامهم وشرابهم وملبسهم ومسكنهم، وفي بعض الأحوال زواجهم أيضاً. وهذا ما جرت عليه الدولة الإسلامية في عهدها الأول، وفي كثير من العهود التي تلت، وهو أمر متفق على وجوبه.

والأموال التي تتدفق إلى خزينة الدولة ـ من الزكاة وغيرها من الموارد الكثيرة ـ كفيلة بأن تقوم بكل هذه الأعباء والتكاليف، إذا وجدت اليد الأمينة والعقل الحصيف في تصريفها. فهذه الأموال لا حقّ لرئيس الدولة أو غيره أن يتصرف بها أو ينفقها كما يشاء؛ إذ ليست هي ملكاً له، بل هي ملك الأمة كلها، ولها مصارفها الخاصة وفقاً للشريعة، أو لرأي أهل الشورى. وكل تعدّ على هذه الأموال، أو تقصير في حق الرعية؛ هو خيانة عظمى، تضع الحاكم وأعوانه موضع المساءلة أمام الأمة، والحساب بين يدي الله تعالى[1].

●● فلننظر كيف قام أمير المؤمنين عمر بكل ذلك، وكيف كان هديه وسيرته في هذا المجال:

ـ كتب إلى عماله «أن اقضوا عن الغارمين[2]. فكُتب إليه: إنا نجد الرجل له المسكن والخادم والفرس والأثاث. فكتب عمر: إنه لا بد للمرء المسلم من سكن يسكنه، وخادم يكفيه مهنته، وفرس يجاهد عليه عدوّه، ومن أين يكون له الأثاث في بيته، نعم! فاقضوا عنه فإنه غارم»[3].

ـ وأمر لكل أعمى بقائدٍ يقوده ويخدمه، ولكل مريضين زَمِنين

---

(١) نظام الإسلام ٤٨، ٨١، ١١٥.

(٢) جمع غارِم وهو المَدِين، يعني: أدّوا عنهم ديونهم.

(٣) الأموال ٢٢٣.

بخادم، ولكل خمسة أيتام أو من لا عائل لهم فرض لهم خادماً يتوزعونه بينهم بالسويَّة[1].

ـ وفرض الرواتب للعلماء وطلاب العلم والمؤذنين والموالية والفطم، وقسم الأعطيات بالسوية بين الناس: عربيهم ومواليهم، ذكرهم وأنثاهم، صغيرهم وكبيرهم. وفكّ رقاب الأسارى، وأغنى أسرهم في غيبتهم، وفرض الأعطيات للسجناء مع الطعام والشراب، وحمَّل بيت المال نفقات الزواج لكل شاب يريد النكاح ولا يجد ما يلزمه لذلك، وصرف لكل ذي حق حقه، وكان مناديه في كل يوم ينادي:

«أين الغارمون؟ أين الناكحون؟ أين المساكين؟ أين اليتامى؟ حتى أغنى كلاً من هؤلاء»[2].

ـ وأكرم أهل الذمة ممن يعيش تحت سلطان الإسلام، لكن دون أن يفضِّلهم على بعض المسلمين من أهل بيته ـ كما ادّعى بعضهم[3]!! ـ فكتب إلى عماله: «وانظرْ من قِبَلَك من أهل الذمّة، قد كبرتْ سنّه، وضعفتْ قوّته، وولَّتْ عنه المكاسب؛ فأجْرِ عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه...»[4].

●● بل إنه فرض عطاء لمن يريد الحج من المسلمين، وليس له عطاء ولم يقدر على نفقات السفر، وأمر بإنشاء مراكز على كل طرقات الحجيج، يتواجد فيها أناس أمناء أقوياء، يعينون الضعيف، ويغنون الفقير. فكتب إلى عماله:

---

(١) مختصر ابن عساكر ١١٧ ـ ١١٨، المناقب ١٨٣.
(٢) البداية والنهاية ٩/٢٠٠. وانظر ص ٣٠٤ ـ ٣١٤ من هذا الكتاب.
(٣) «عمر» للشرقاوي ص ١٩٤، ولست أدري كيف يفضل الذمي على المسلم؟!
(٤) الأموال ٢٧.

«. . . وانظر من أراد من الذريَّة[1] الحج، فعجِّل له مائة يتجهَّز بها، والسلام عليك».

وكتب: «أقْعِدْ على طريق الحُجاج والمسافرين قوماً ترضاهم، وترضى دينهم وأماناتهم؛ يقوون الضعيف، ويغنون الفقير»[2].

●● وسهَّلَ على المسافرين أسفارهم، فأمر عماله وولاته في الأمصار ببناء الخانات (الفنادق) لينزل بها المسافرون، فيستجمُّون من عناء السفر. وخصّص لهم طعاماً وشراباً، وعناية بدوابهم، ومالاً لمن قصّر به الحال. وتلك درجة لم ولن تصل إليها أغنى وأرقى أمم الأرض قديماً وحديثاً، وصل إليها ابن عبد العزيز بعدالته ورحمته، ودقة فهمه، وحسن تطبيقه لمبادىء الإسلام العظيم.

كتب إلى أحد عماله: «أن اعمل خانات في بلادك، فمن مرّ بك من المسلمين فأقْرُوهم يوماً وليلة، وتعهّدوا دوابهم[3]، فمن كانت به علة فأقروه يومين وليلتين، فإن كان منقطعاً به فقووه بما يصل به إلى بلده»[4].

●● وبلغ به اهتمامه برعيته، أنه اعتبر نفسه مسؤولاً عن أنعامهم وسوائمهم، فمن واجبه أن يذلّل للدواب طريقها في أطراف دولته؛ تماماً كما فعل جده الفاروق عمر.

بكى ابن عبد العزيز يوماً، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: «تلومني أن أبكي، ولو أن سخلة هلكتْ على شاطىء الفرات، لأُخِذَ بها عمر يوم القيامة»[5].

●● ولم يكتف عمر بذلك، بل كان يتحسس أخبار الرعية، ويتابع

---

(١) من كان ليس من أهل الديوان.
(٢) الأموال ٢٧، الطبري ٧/٤٧٤، الكامل في التاريخ ٤/١٦٣.
(٣) وهي في اصطلاح عصرنا إصلاح سيارته وصيانتها!!
(٤) الطبقات ٥/٣٤٥، الطبري ٧/٤٧٢.
(٥) المناقب ٢٢٦.

أحوالهم، والسؤال عن أوضاعهم، وسياسة الولاة فيهم.

- خرج يوماً بالشام، فركب هو ومولاه مزاحم - وكان كثيراً ما يركب، فيلقى الركبان، يتحسس الأخبار عن القرى - فلقيهما راكب من أهل المدينة، وسألاه عن الناس وما وراءه، وهو الأمر الذي خرجا من أجله، فقال لهما: «إن شئتما جمعت لكما خبري، وإن شئتما بعضته تبعيضاً. فقالا: بل اجمعه. فقال: إني تركت المدينة والظالم بها مقهور، والمظلوم بها منصور، والغني موفور، والعائل مجبور. فسرَّ بذلك عمر، وقال: والله لأن تكون البلدان كلها على هذه الصفة أحب إلي مما طلعت عليه الشمس».

- وسأل رياح بن عبيدة عن أهل العراق، وسيرة الولاة فيهم، فأخبره بكل خير عنهم، فقال عمر: «الحمد لله على ذلك، لو أخبرتني عنهم بغير هذا عزلتهم، ولم أستعن بهم بعدها أبـداً، إن الراعي مسؤول عن رعيته»[1].

- وجاء زياد بن أبي زياد المديني في حوائج أرسله بها مولاه إلى أمير المؤمنين عمر، فدخل زياد على عمر، وكان يُقرأ عليه مظالم جاءت من البصرة، حتى فرغ منها، وأقبل على زياد يسأله عن أهل المدينة.

يقول زياد: «ثم سألني عن صلحاء أهل المدينة ورجالهم ونسائهم، فما ترك منهم أحداً إلا سألني عنه، وسألني عن أمور كان أمر بها بالمدينة، فأخبرته. ثم قال لي: يا ابن أبي زياد، ألا ترى ما وقعتُ فيه؟ قلت: يا أمير المؤمنين، إني لأرجو لك خيراً. قال: هيهات هيهات. قال: ثم بكى حتى جعلت أرثي له! قال: قلت: يا أمير المؤمنين، بعض ما تصنع فإني لأرجو لك خيراً. قال: هيهات هيهات؛ أَشتم ولا أُشتم، وأَضرب ولا أُضرب،

---

(١) ابن عبد الحكم، نقلاً عن «عمر» للزحيلي ص ١٧١.

وأُوذِي ولا أُوذَى! قال: ثم بكى حتى جعلتُ أرثي له، وأقمتُ حتى قضى حوائجي . . . »[1].

ـ ووفد عليه بريد من بعض الآفاق، فانتهى إلى باب عمر ليلاً، فقرع الباب، فخرج إليه البواب، فقال: أعْلِمْ أمير المؤمنين أن بالباب رسولاً من فلان عامله، فدخل فأعلم عمر ـ وقد كان أراد أن ينام ـ فقعد، وقال: ائذن له. فدخل الرسول، فدعا عمر بشمعة غليظة، فأججت ناراً، وأجلس الرسول وجلس عمر.

فسأله عن حال أهل البلد، ومن بها من المسلمين وأهل العهد، وكيف سيرة العامل، وكيف الأسعار، وكيف أبناء المهاجرين والأنصار، وأبناء السبيل والفقراء، وهل أعطى كل ذي حق حقه، وهل له شاكٍ، وهل ظلم أحداً؟

فأنبأه بجميع ما علم الرسول من أمر ذلك البلد، فلم يدع شيئاً إلا أنبأه به، كل ذلك يسأله، فيحفي السؤال. حتى إذا فرغ عمر من مسألته قال له: يا أمير المؤمنين، كيف حالك في نفسك وبدنك؟ وكيف عيالك وجميع أهل خزانتك، ومن تُعنى بشأنه؟

فنفخ عمر الشمعة، فأطفأها بنفخته، وقال: يا غلام، عليَّ بسراج، فدعا بفتيلة لا تكاد تضيء، فقال: سَلْ عما أحببت.

فسأله عن حاله، فأخبره عن حاله وحال ولده وعياله وأهل بيته.

فعجب الرسول للشمعة وإطفائه إياها، وقال: يا أمير المؤمنين، رأيتك فعلتَ ما رأيتك فعلتَ مثله؟ قال: وما هو؟ قال: إطفاؤك الشمعة عند سؤالي إياك عن حالك وشأنك! فقال: يا عبد الله، إن الشمعة التي رأيتَني أطفأتُها من مالِ الله ومال المسلمين، وكنتُ أسألك عن حوائجهم

(1) المناقب ٢١٤ ـ ٢١٥، صفة الصفوة ٢/١٢١ ـ ١٢٢.

وأمرهم، فكانت تلك الشمعة تَقِد بين يديّ فيما يصلحهم، وهي لهم، فلما صرتُ لشأني، وأمر عيالي ونفسي؛ أطفأتُ نار المسلمين[1].

خامساً ـ معايشته لهم وتوجيهاته:

ويبهرنا ابن عبد العزيز بشخصيته الفذة أنه لم يترك مجالاً فيه صلاح الأمة ورفعتها، في الدنيا والآخرة؛ إلا أقبل عليه، وبذل لهم وقته وجسمه وراحته وعونه، برحمة وشفقة وحنان نبيل، كالأم تحنو على وحيدها!

●● فتراه يحضر صلواتهم ومساجدهم، ويخطبهم في الجمع والأعياد وغيرها، ويجلس معهم في حلقات العلم، ويحضر جنائزهم، ويستغفر الله معهم، ويدعو لهم، ويناصحهم، ويدلهم على الخيرات، ويرشدهم إلى الفضائل والمكرمات.

ـ قال عمرو بن عثمان: «رأيت عمر بن عبد العزيز بخُناصرة يمشي إلى المصلى، ثم يصعد على المنبر، فيكبر سبع تكبيرات تَتْرى، ثم يخطب خطبة خفيفة، ثم يكبرّ في الثانية خمساً، ثم يخطب خطبة أخف من الأخرى. ورأيته أُتي بكبش في مصلاه، فذبحه بيده، ثم أمر به فقُسم، ولم يُحْمَلْ إلى منزله منه شيء»[2].

ـ ولنصغ لهذا النبأ المطرب العجيب، يرويه شاهد عيان هو الحكم ابن عمر الرعيني؛ فيقول: «شهدتُ مع عمر بن عبد العزيز جنازة في يوم مطر، فكبَّر عليها اَربعاً، فأقبل رجل غريب ليس عليه طَيْلَسَان، فدعاه فأجلسه إلى جنبه، وغطاه بفضل طيلسانه. ورأيتُ عمر بن عبد العزيز بدأ بحمل الجنازة، جعل يمين الجنازة على شقه الأيسر، ثم حمل مؤخر السرير على شقه الأيمن، ثم مشى أمام الجنازة والناس يمشون خلف

---

(١) ابن عبد الحكم، نقلاً عن «عمر» للزحيلي ١١٦ ـ ١١٧.
(٢) الطبقات ٥/٣٦٢.

الجنازة. وشهدته حين فرغ من القبر مسح يده عليه، وأشار بإصبعه: اللهم اغفرْ وارحمْ، واعفُ عما تعلم. قال: ورأيتُ عمر بن عبد العزيز يقوم من هذه الحلقة فيجلس مع هذه الحلقة، فربما جاء الغريب الذي لا يعرفه، فيسأل عن أمير المؤمنين، وفي أي حلقة هو، فهو يقف لا يدري أيهم هو حتى يُشار إليه: هذا أمير المؤمنين، فيسلِّم عليه بالخلافة»[1]!!

ـ وإنه ليضرع إلى الله بهذا النبض الحنون، والدعاء الخاشع المنيب، يسأل الله أن يصلح الأمة كلها، ويهلك من كان في هلاكه صلاح لها، ويدعو لهم بالتوبة والمغفرة والرحمة، دعاء عابد تشغله أخطاء الناس لا حاكم يريد كشف العيوب! إنه يصلي ويدعو من أجل مغفرتها، وإنهاض ذويها من كبوتهم.

كان كثيراً ما يقول: «اللهم أصلِحْ من كان في صلاحه صلاحٌ لأمة محمد، اللهم أهْلِكْ مَنْ كان في هلاكه صلاحٌ لأمة محمد ﷺ».

«اللهم زِدْ محسنَ أمة محمد إحساناً، وأرْجِعْ مسيئَهم إلى التوبة، اللهم وحُطَّ من أوزارِهم برحمتك»[2].

●● ومن توجيهاته للناس ومناصحته لهم، قوله:

«أيها الناس، من ألمَّ بذنبٍ فليستغفر الله ـ عز وجل ـ ولْيَتُبْ. فإن عادَ، فليستغفر وليتبْ. فإن عاد، فليستغفر وليتب ـ فإنما هي خطايا مطوّقة في أعناق الرجال، وإن الهلاكَ، كل الهلاك، الإصرار عليها»[3].

«ألا إن أفضل العبادة أداء الفرائض واجتناب المحارم».

---

(١) المناقب ٢٠٣ ـ ٢٠٤. والطَّيْلَسان: ضَرْبٌ من الأوشحة يُلْبَسُ على الكتف، أو يحيط بالبدن، خالٍ عن التفصيل والخياطة.
(٢) الحلية ٥/٢٩٨، ٣٢٤، المناقب ٢٢٩ ـ ٢٣٠، ٢٤٨.
(٣) المناقب ٢٣٣.

«أيها الناس، اتقوا الله وأجمِلوا في الطلب، فإنه إن كان لأحدكم رزق في رأس جبل أو حضيض أرض؛ يأتيه».

«قيِّدوا نعمة الله بالشكر لله عز وجل».

«ليس تقوى الله بصيام النهار، وقيام الليل، والتخليط فيما بين ذلك، ولكن تقوى الله: ترك ما حرَّم الله، وأداء ما افترض الله. فمن رزق بعد ذلك خيراً، فهو خير إلى خير»[1].

سادساً - إصلاحات عامة وأعمال متنوعة:

وقام أمير المؤمنين عمر - بالإضافة لكل ما سبق - بإصلاح كل ما رآه فاسداً، أو فيه ضرر للأمة. وبسط يمينه بالإنجازات الكبيرة، والأعمال المتنوعة الجليلة، التي عادت بالفائدة على العباد والبلاد.

- فأباح الأحماء كلها إلا «النَّقيع»[2]، وكتب إلى عماله: «فما حُمي من الأرض ألا يُمْنَع أحد مَواقِع القَطْر، فأَبِحِ الأحماءَ، ثم أبِحْهَا»[3].

- وكان الحَجّاج يختم على بيادر أهل الذمة، فنقض عمر ذلك، ونهى عنه، وكتب إلى عامله ابن أبي الفرات: «أن لا تفعل، فإنه بلغني أنها كانت من صنائع الحجاج، وأنا أكره أن أتأسى به»[4].

- وكانت الولاة قبله يجْرون على إجْمارِ مسجد رسول الله ﷺ للجُمَع، وتطييبه في شهر رمضان من العُشْر والصدقة، فلما ولي عمر بن

---

(١) المناقب ٢٣٣، ٢٣٤ - ٢٣٥، ٢٣٩.

(٢) الحِمَى: الموضع فيه كَلأٌ يُحْمَى من الناس أن يُرْعَى. وقد نهى رسول الله ﷺ عن ذلك وقال: «لا حِمَى إلا لله ورسوله»: أي لا حِمَى إلا ما يُحمى للخيل التي تُرصد للجهاد، والإبل التي يحمل عليها في سبيل الله، وإبل الزكاة ونحوه. وقد حمى عمر ابن الخطاب «النَّقِيعَ» لنَعَم الصدقة والخيل المُعَدَّة في سبيل الله.

(٣) الطبقات ٥/٣٤٥، ٣٨١.

(٤) الحلية ٥/٣٠٦، المناقب ١٠٨.

عبد العزيز كتب بقَطْع ذلك، وبمَحْوِ آثار ذلك الطِّيب من المسجد[1].

ـ وحرم السخرة بأنواعها، وألغى الحراسة والحجابة والحُجَّاب، وأمر بفتح الأبواب للناس والمظلومين.

ـ وأعلن العمل بمبدأ حرية الملاحة في البحار والتجارة لكل أحد، عدا الإمام والولاة وموظفي الدولة؛ حتى لا يستغلوا مناصبهم في ذلك، فيدخل عليهم الكسب الحرام، ولكي ينصرفوا إلى شؤونهم ووظائفهم بشكل كامل. وعمل على مراقبة الأسعار لمنع الجشع والطمع والغش. كما حَصَرَ ضَرْبَ النقود ببيت المال، وتفرد بتبديلها أو سحبها من التداول في حال عدم رواجها. ووحَّد المكيال في جميع أمصار الدولة.

ـ وشجع على استصلاح الأراضي، وإحياء الموات، وزراعة البور، وإعطائها للأكفأ الذي يعمل فيها ويصلحها، فينتفع وينفع الناس أجمعين.

ـ وقام بأعمال عمرانية: فهو الذي بنى «الجُحْفَة»، كما اشترى «ملطية» من الروم بمائة ألف أسير وبناها. وأنشأ مسجداً في مدينة «سرقوسة» بجنوبي فرنسا، وأمر بإقامة الخانات (الفنادق) في الطرق لاستضافة المسافرين وتقديم القِرى لهم، والخدمات العامة لدوابهم ورواحلهم.

سابعاً ـ أحداث ومواقف وتوحيد للأمة:

●● لقد نشأت في المجتمع الإسلامي مذاهب وآراء وفرق ونزعات، كانت تشتد حيناً وتخبو حيناً آخر، حسب قوة اضطرامها وشدة قادتها من جهة، وسياسة الخلفاء تجاهها من جهة أخرى. وقد بدأت تلك النزعات والمذاهب بالنبوغ منذ امتداد الفتوحات، وفي أواخر عصر الخليفة

---

(١) الطبقات ٥/٣٩٩.

العبقري عمر بن الخطاب، والذي كان هو ضحيتها، على يد المجوسي الحقود أبي لؤلؤة، الذي تمثل فيه حنق الفرس على من طوّح بعرشهم الخرب. وأخذت تلك النزعات بالتنامي والتنوع منذ عهد عثمان فمن بعده.

وفي العهود القريبة التي سبقت خلافة عمر بن عبد العزيز كانت تنخر في جسم المجتمع المسلم تلك المذاهب السياسية، والطوائف المتنافرة: فنزعة القيسية واليمانية، وتفضيل أهل الشام والثقة بهم، أو الاهتمام بأهل العراق والاعتماد عليهم، وهناك من ينادي بسيادة أهل الحضر، وفي المقابل من ينادي بسيادة الأعراب وأهل البادية. وبنو هاشم كانوا مهضومي الحقوق، ولا تقام لهم المكانة التي تليق بهم. والموالي ـ المسلمون من غير العرب ـ كانوا في عَنَتٍ من بعض الولاة، الذين لم يرفعوا عنهم الجزية رغم إسلامهم؛ بدعوى أنهم أسلموا هروباً من دفع الجزية! وهناك الشيعة والخوارج الذين ما فتئوا يرفعون السلاح بين الحين والآخر. وثمة تمزق آخر من طراز جديد، تمثل في اضطهاد العلماء وقتلهم، وسفك الدماء، كما حدث في وقعة الحرة في المدينة، وقتل ابن الزبير وسعيد بن جبير وأمثالهما على يد الحجاج.

●● وقام الخليفة الراشد يعالج هذه التركة القاتلة والمجتمع الممزق، بالحكمة والمنطق والبرهان القويم، متبعاً المناظرة والمجادلة، والمحاورة والمكاتبة، والمراسلة والموعظة، وكل أسلوب يوحّد الصف ولا تراق فيه قطرة دم. ونفخ في هذا الشتات من روحه الطاهرة نفخةً نَفَتْ عنه الخبث والزبد الذي علق به، فطهرت تلك النفخة العمرية هذا المجتمع من أوضاره، لا في شكله وعلاقاته الظاهرية فحسب، بل تغلغلت في ضمائر أفراده وأرواحهم؛ فبعثت فيهم أجمعين روحاً جديدة تتواءم مع روح الخليفة، فتعايشت مع بعضها في وئام وإخاء وثيق متراحم، فأخذ كل حقه، وقنع كل بحقه.

وكان منهج عمر يتمثل في العودة إلى الأصول، والاحتكام إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والاهتداء بهدي الخلفاء الراشدين، وأن وحدة المسلمين تتمثل في أنهم تتكافأ دماؤهم، وهم يد على من سواهم، فلا هاشمي ولا أموي، لا عربي ولا مولى، لا شيعة ولا خوارج، لا قيسية ولا يمانية، لا حضر ولا بدو؛ إنما الكل سواء في ظل شريعة الله، يجمعهم القرآن، ويوحّدهم الإسلام.

وقد ساعده على تحقيق تلك الوحدة الإسلامية الجامعة: روحه التقية النقية التي تحركه، والتي اشتهر بها بين الناس، والسيرة الطيبة التي عاش الناس في ظلالها أيام ولايته على المدينة، ثم إصلاحاته الكبيرة الواسعة في خلافته المباركة، والتزامه ـ في هذا وذاك ـ الكتاب والسنة نصاً وروحاً، وردف ذلك فهم عميق، وفكر دقيق، وثقافة واسعة، ونظر بعيد، وصدر رحب، يصبر ويصطبر ويصابر لكل مخالف له، يناقشه بالحجة والبرهان والمنطق السليم القويم.

ولنقف أمام بعض الأحداث وكيفية معالجة عمر لها:

●● في عهد معاوية الذي استمر عشرين سنة لم يحدث أن تعرَّض لعليّ وآله بالسبّ أو الشتم، ولا أذِن بذلك ولا سمح به، وما ذكرته بعض الروايات من أن معاوية كان يلعن علياً، فليس بصحيح[1].

بيد أنه في عهد بعض الخلفاء شاع الحطّ على علي بن أبي طالب وآله، وسبِّهم، وشجع على ذلك أصحاب النزعة المعادية لآل البيت.

---

(١) انظر كتابنا عن «الإمام علي» وما جرى بينه وبين معاوية. وقد روّج الشرقاوي لتلك الروايات التافهة، التي تذكر أن معاوية وولاته كانوا يسبّون علياً على المنابر، ولما طُلب إليه ترك ذلك قال: «والله لا تركته حتى يكبر عليه الصغير، ويشيب عليه الكبير، فإذا تُرِك قيل: ترِكت السنّة»!! ص ١٣٤. وحاشى الصحابِي الجليل معاوية كاتب الوحي وخال المؤمنين أن يفعل ذلك، وما هذا للصحابة بخُلُق، ولكن الناس في زماننا سهل عليهم تصديق الكذب؛ لكثرته حولهم، وعلى جميع المستويات!!

ولما جاء عمر بن عبد العزيز أمسك عن ذلك، ونهى عنه، وكتب إلى ولاته في الآفاق بتركه. وامتدحه الناس على ذلك، ومنه قول كُثَيِّر عَزّة الخزاعي(١):

وَليتَ فلمْ تشتمْ علياً ولم تُخِفْ ... بَريّاً ولمْ تَتْبَعْ مقالة مُجرم
تكلّمتَ بالحقّ المبينِ وإنّما ... تَبَيَّنُ آيات الهُدى بالتكلّمِ
فَصَدَّقْتَ معروفَ الذي قلتَ بالذي ... فعلتَ فأضْحَى راضياً كلُّ مسلمِ

بل كان ابن عبد العزيز يمتدح أمير المؤمنين علياً، ويثني عليه، فقد حدث أن جلساءه تذاكروا الزهاد عنده، فقال قائلون: فلان، وقال قائلون: فلان، فقال عمر: «أزهد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب»(٢).

وكان يكرم آل البيت، ويغدق عليهم الأعطيات، وردّ لهم ما كانوا يأخذونه في عهد النبي ﷺ، وأمرهم أن لا يقفوا ببابه إذا أرادوا حاجة، بل يدخلون بلا إذن.

●● وأما الموالي فوضع عنهم إصرهم، حيث أسقط عنهم الجزية فور دخولهم في الإسلام، وسوّى بينهم وبين جميع المسلمين، الذين تربطهم وحدة العقيدة لا الدم والجنس والعرق واللون وغيرها من الروابط الأرضية.

وكان الحَجّاج قد ألزم الموالي أن يبقى كلٌّ في بلده، وألزمهم العمل بأراضيهم، ومنعهم من الانتقال إلى بلاد أخرى، بل وختم على أذرعهم ختماً باسم المكان الذي يجب أن يبقوا فيه! فألغى عمر كل ذلك، وأعطى لكل مسلم ـ عربياً كان أو غير عربي ـ الحرية في التنقل في أراضي الدولة الإسلامية(٣).

---

(١) الطبقات ٥/٣٩٣ ـ ٣٩٤، الحلية ٥/٣٢٢، المناقب ٣٣٣.
(٢) المناقب ٢٧٤.
(٣) الدولة الأموية ٢٢٣، ٢٦٥.

●● وتوجه إلى طائفة «القدرية» أولئك الذين يزعمون أن الخير من الله سبحانه، والشر من الإنسان، وأن الله لا يريد أفعال العصاة، وأن للعبد قدرة توجِد الفعل بانفرادها واستقلالها دون الله تعالى[1]. فنهد إليهم يناظرهم ويجادلهم بالتي هي أحسن، ويستدل لرأيه بالقرآن والسنة، وكتب إلى أفرادهم وشراذمهم في الأمصار:

«أما بعد: فقد علمتم أن أهل السنة كانوا يقولون: الاعتصام بالسنة نجاة. وسينقص العلم نقصاً سريعاً، ومنه قول عمر بن الخطاب وهو يعظ: إنه لا عذر لأحد عَبَدَ الله بعد البيِّنة، بضلالة ركبها حَسِبَها هدىً، ولا في هدىً تركه حَسِبه ضلالة. فقد تبينت الأمور، وثبتت الحجة، وانقطع العذر. فمن رغب عن أنباء النبوة وما جاء به الكتاب؛ تقطعت من يده أسباب الهدى، ولم يجد له عصمة ينجو بها من الردى.

وبلغكم أني أقول: إن الله قد علم ما العباد عاملون، فأنكرتم ذلك! وقد قال تعالى: ﴿إِنّا كَاشِفُوا العَذَابِ قَليلاً إِنّكُمْ عائِدون﴾[2]، وقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾[3]. وزعمتم في قول الله: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[4]، أن المشيئة في أي ذلك أحببتم من ضلال أو هدى! والله يقول: ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلّا أَنْ يَشاءَ اللهُ ربُّ الْعَالَمينَ﴾[5]؛ فبمشيئته لهم شاؤوا.

وقد حرصت الرسل على هدى الناس جميعاً، فما اهتدى إلا من هداه الله. وحرص إبليس على ضلالتهم جميعاً، فما ضلَّ منهم إلا من كان في علم الله ضالاً.

---

(١) انظر الأحاديث الواردة فيهم في «جامع الأصول» ١٠/١٢٨ ـ ١٣٢. والحقّ أن الله سبحانه هو خالق الخير والشر، لا يكون شيء منهما إلا بمشيئته، فالأمران معاً مضافان إليه ـ سبحانه ـ خلقاً وإيجاداً، وإلى العباد مباشرة واكتساباً.

(٢) سورة الدخان: الآية ١٥.

(٣) سورة الأنعام: الآية ٢٨.

(٤) سورة الكهف: الآية ٢٩.

(٥) سورة التكوير: الآية ٢٩.

وأنكرتم أن يكون سبق لأحد من الله ضلالة أو هدى، وأنكم الذين هديتم أنفسكم من دون الله، وحجزتموها عن المعصية بغير قوة من الله! ومن زعم ذلك منكم فقد غلا في القول؛ لأنه لو كان شيء لم يسبق في علم الله وقدره، لكان لله في ملكه شريك تَنْفُذُ مشيئته في الخلق دون الله، والله يقول: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمانَ وَزَيَّنَهُ في قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾[1]!!

وسمّيتم نفاذ علم الله في الخلق حيفاً، وقد جاء الخبر «أن الله عز وجل خلق آدم، فنثر ذريته بين يديه، فكتب أهل الجنة وماهم عاملون، وكتب أهل النار وما هم عاملون...».

وكتب إلى عدي بن أرطاة ـ عامله على البصرة ـ: «أما بعد: فإذا أتاك كتابي هذا، فاسْتَتِب القَدَريّة مما دخلوا فيه، فإن تابوا فَخَلِّ سبيلَهم، وإلّا فانْفِهِمْ من ديار المسلمين»[2].

●● وأما الخوارج الذين أقلقوا المسلمين ودولتهم منذ عهد علي رضي الله عنه، وكانوا طيلة تلك المدة بين كَرّ وفَرّ، وكانت حركتهم بين مدّ وجَزْر؛ فقد استطاع عمر بن عبد العزيز أن يناقشهم بالبرهان القاطع والحق الساطع، فتألَّفَ قلوبهم، وطواهم تحت جناحه، بعد أن سَلَّم له معظمهم بأنه خليفة عادل قوَّام بالحق.

قال ابن الجوزي: «فلما بلغت الخوارج سيرة عمر، وما ردّ من المظالم، اجتمعوا وقالوا: ما ينبغي لنا أن نقاتل هذا الرجل»[3].

---

(١) سورة الحجرات: الآية ٧.

(٢) المناقب ٨٥ ـ ٨٦. وانظر الرسالة مطولة في الحلية ٥/٣٤٦ ـ ٣٥٣، وهي رسالة عظيمة حقاً.

(٣) المناقب ٦٧.

وأما من خرج عن الطاعة، وفارق الجماعة، ألزمه عمر الحقَّ بالقوة، حفاظاً على أرواح الأمة ووحدة الدولة.

- «دخل ناس من الحَرُورِيَّة على عمر بن عبد العزيز فذاكروه شيئاً، فأشار إليه بعض جلسائه أن يرعبهم، ويتغير عليهم، فلم يزل عمر بن عبد العزيز يرفق بهم حتى أخذ عليهم، ورضوا منه أن يرزقهم ويكسوهم ما بقي، فخرجوا على ذلك. فلما خرجوا ضرب عمر ركبة رجل يليه من أصحابه فقال: يا فلان، إذا قدرتَ على دواء تشفي به صاحبك دون الكيّ؛ فلا تكوينَّه أبداً»[1]!

- وجاءه رجلان من رؤوس الخوارج، فدخلا عليه وناظراه، فردَّ عليهما بحجّة قوية، وفنَّد آراءهما، وبيَّن لهما خطأهما، وردّهما إلى الجادّة. يروي ابن عبد الحكم فيقول:

«دخل رجلان من الخوارج على عمر بن عبد العزيز، فقالا: السلام عليك يا إنسان. فقال: وعليكما السلام يا إنسانان.

قالا: طاعة الله أحق ما اتبعت. قال: من جهل ذلك ضلّ.

قالا: الأموال لا تكون دُولة بين الأغنياء. قال: قد حُرِموها.

قالا: مال الله يُقسم على أهله. قال: الله بيَّن في كتابه تفصيلَ ذلك.

قالا: تُقام الصلاة لوقتها. قال: هو من حقها.

قالا: إقامة الصفوف في الصلوات. قال: هو من تمام السنّة.

قالا: إنا بُعثنا إليك. قال: بلِّغا ولا تهابا.

---

(١) المناقب ٧٦ - ٧٧. والحَرُورِيّة: نسبةً إلى «حَرَوْرَاء» قرية بقرب الكوفة، نزلها الخوارج، فنُسبوا إليها.

قالا: ضَعِ الحق بين الناس. قال: الله أمر به قبلكما.

قالا: لا حكم إلا لله. قال: كلمة حق إن لم تبتغوا بها باطلاً.

قالا: ائتمن الأمناء. قال: هم أعواني.

قالا: احذر الخيانة. قال: السارق محدود.

قالا: فالخمر ولحم الخنزير. قال: أهل الشرك أحق به.

قالا: فمن دخل في الإسلام فقد أَمِنَ. قال: لولا الإسلام ما أَمِنّا.

قالا: أهل عهود رسول الله ﷺ. قال: لهم عهودهم.

قالا: لا تكلفهم فوق طاقتهم. قال: لا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

قالا: خرِّب الكنائس. قال: هي من صلاح رعيتي.

قالا: ذكِّرنا بالقرآن. قال: ﴿واتقوا يوماً تُرجعون فيه إلى الله﴾.

قالا: تردنا إلى من أرسلنا. قال: ما أحبسكما.

قالا: فما نقول لإخواننا؟ قال: ما رأيتما وسمعتما.

قالا: تردنا على دواب البريد. قال: لا، هو مال الله لا نطيبه لكما.

قالا: فليس معنا نفقة. قال: أنتما إذن أبناء سبيل، عليَّ نفقتكما»[1].

- وفي سنة (١٠٠ هـ) خرج في العراق شوذب الحروري - واسمه بسطام - في ثمانين فارساً، فأمر عمر عامله على العراق ألا يحركهم إلا أن يسفكوا دماً، أو يفسدوا في الأرض، وكتب إلى بسطام هذا يدعوه ويسأله عن مخرجه، وجاء في كتابه:

«إنه بلغني أنك خرجتَ غضباً لله ولنبيّه، ولستَ بأوْلى لذلك مني،

---

(١) ابن عبد الحكم، نقلاً عن «عمر» للزحيلي ١٨٨.

فهلمَّ أناظرك، فإن كان الحق بأيدينا دخلتَ فيما دخل فيه الناس، وإن كان في يدك نظرنا في أمرنا».

فكتب بسطام إلى عمر: «قد أنصفتَ، وقد بعثتُ إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك»[1].

وحدثت المناظرة في «خُناصرة»، وأقنع عمر الرسولين بأنه على الحق وأنهما في جماعتهما على خطأ في التفكير، وسوء تصرف في العمل. فأقام أحدهما عنده، ولحق الآخر بجماعته يحمل إليهم رأي أمير المؤمنين، فاقتنع من اقتنع، وتعنّتت طائفة لم يفلح معهم إلا السيف الذي يردهم إلى الحق.

ـ وفي هذا يحدث يحيى بن يحيى الغساني فيقول: «بلغني أن ناساً من الحرورية تجمعوا بناحية من الموصل، فكتبتُ إلى عمر بن عبد العزيز أعلمه ذلك، فكتب إليّ يأمرني أنْ أُرْسِلْ إليَّ رجالاً من أهل الجدل، وأعطهم رهناً، وخذ منهم رهناً، واحملهم على مراكب من البريد إليّ، ففعلت ذلك. فقدموا عليه، فلم يدعْ لهم حجة إلا كسرها.

فقالوا: لسنا نجيبك حتى تكفِّر أهل بيتك، وتلعنهم وتبرأ منهم. فقال عمر: إن الله لم يجعلني لعاناً، ولكن إن أبقى أنا وأنتم فسوف أحملكم وإياهم على المحجة البيضاء. فأبوا أن يقبلوا ذلك منه، فقال لهم عمر: إنه لا يسعكم في دينكم إلا الصدق، مذ كم دنتم الله بهذا الدين؟ قالوا: مذ كذا وكذا سنة. قال: فهل لعنتم فرعون وتبرأتم منه؟ قالوا: لا. قال: فكيف وسعكم تركه ولا يسعني ترك أهل بيتي، وقد كان فيهم المحسن والمسيء، والمصيب والمخطىء؟ قالوا: قد بلغنا ما ها هنا.

فكتب إليّ عمر أن خذ من في أيديهم من رهنك، وخَلِّ من في يدك

---

(١) الطبري ٧/٤٥٩ ـ ٤٦٠.

من رهنهم، وإن كان رأي القوم أن يسيحوا في البلاد على غير فساد على أهل الذمة، ولا تناول أحد من الأئمة؛ فليذهبوا حيث شاؤوا، وإن هم تناولوا أحداً من المسلمين وأهل الذمة، فحاكمهم إلى الله.

وكتب إليهم: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العصابة الذين خرجوا، أما بعد: فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، فإن الله تعالى يقول: ﴿ادْعُ إِلى سَبيلِ رَبِّكَ بالحكمةِ والمَوْعِظَةِ الحسنةِ وَجَادِلْهُمْ بالَّتي هيَ أَحْسَنُ إنَّ ربَّكَ هوَ أعلمُ بمنْ ضَلَّ عن سَبيلِهِ وَهُوَ أعلمُ بالمُهْتَدِينَ﴾[1]. وإني أذكِّركم الله أن تفعلوا كفعل كبرائكم ﴿الَّذينَ خَرَجُوا منْ دِيَارِهِمْ بَطراً وَرِئاءَ الناسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبيلِ اللهِ واللهُ بمَا يَعملونَ مُحيطٌ﴾[2]. أفبذنبي تخرجون من دينكم، وتسفكون الدماء، وتنتهكون المحارم؟ فلو كانت ذنوب أبي بكر وعمر مخرجة رعيتهم من دينهم ـ إن كانت لهما ذنوب ـ فقد كانت آباؤكم في جماعتهم فلم ينزعوا، فما سرعتكم على المسلمين وأنتم بضعة وأربعون رجلاً؟! وإني أقسم لكم بالله لو كنتم أبكاري من ولدي، فوليتم عما أدعوكم إليه من الحق؛ لدفقت دماءكم، ألتمس بذلك وجه الله والدار الآخرة!! فهذا النصح، فإن استغششتموني فقديماً ما استُغِش الناصحون.

فأبوا إلا القتال، وحلقوا رؤوسهم، وساروا إلى يحيى بن يحيى، فأتاهم كتاب عمر، ويحيى مُوافِقهم للقتال: من عبد الله عمر أمير المؤمنين، إلى يحيى بن يحيى، أما بعد فإني ذكرت آية من كتاب الله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُعْتَدينَ﴾[3]، وإن من العدوان قتل النساء والصبيان؛ فلا تقتلنّ امرأة ولا صبياً، ولا تقتلنَّ أسيراً، ولا تطلبنَّ هارباً، ولا تُجهِزَنَّ على جريح إن شاء الله، والسلام»[4].

---

(1) سورة النحل: الآية ١٢٥.
(2) سورة الأنفال: الآية ٤٧.
(3) سورة البقرة: الآية ١٩٠.
(4) الحلية ٥/٣٠٩ ـ ٣١١، المناقب ٩٥ ـ ٩٦.

●● حتى النصارى عاشوا في عهده بأمان واطمئنان، ضمن الحدود والقيود التي وضعها لهم الإسلام، وأمر بإنصافهم عند أخذ الجزية، ومن بلغ الكبر وعجز عن أدائها وُضِعَتْ عنه، بل وصرف له من بيت المال ما يكفل حياته ومعاشه. ولقد رأينا كيف كتب إلى أحد ولاته بشأن الخوارج، ومما قاله: «. . . وإن كان رأي القوم أن يسيحوا في البلاد على غير فساد على أهل الذمة، ولا تناول أحد من الأئمة، فليذهبوا حيث شاؤوا. وإن هم تناولوا أحداً من المسلمين وأهل الذمة، فحاكمهم إلى الله».

ـ وتظلَّمَ إليه أهلِ نجران بشأن الجزية، فقد كان الرسول ﷺ وضع عليهم جزية ألفي حلّة مقابل احتفاظهم بنصرانيتهم، وتعهدوا بأن لا يتعاملوا بالربا، لكنهم نقضوا العهد بعد ذلك، فأخرجهم عمر بن الخطاب إلى «النجرانية» بأطراف الكوفة. وخفَّ عددهم مع الزمن، فأعفاهم الخلفاء من قسم من الجزية بسبب نقصان عددهم، بيد أن الحَجّاج لما جاء تقاسى عليهم، وزاد عليهم الجزية. فلما تظلموا إلى عمر بن عبد العزيز أنصفهم، فأنقص عنهم الجزية بمقدار نقصان عددهم، فدفعوها عن رؤوسهم، فمن بقي دفع ما عليه من الجزية، دون أن يكون مسؤولاً عن جزية قومه[1].

ـ أما أولئك النصارى الذين كانوا يكيدون الإسلام والمسلمين سراً، وقد احتازوا السلاح لذلك؛ فإن عمر لا يلين معهم، بل أمر بمصادرة ذلك السلاح، وأن يميَّزوا بلباس خاص، ليكون ذلك أدعى لكشفهم وفضح تآمرهم.

●● لقد عادت رحم الإسلام تنتظم جميع أبنائه، وتؤلّف بين الشتات في عقد نظيم، وسيطرت من جديد في عهد عمر السِّبْط روح الإسلام العظيمة المتمثلة في قوله تعالى: ﴿إِنَّما المُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[2].

---

(١) الدولة الأموية ٢٦٧.

(٢) سورة الحجرات: الآية ١٠.

وكان من آثار السياسة الراشدة لعمر أن أحبه كل أفراد الأمة، واحترمته كل الطوائف، ودانت له، وتعلقت به، وانضوت تحت لوائه. فأحبه الهاشميون وآل علي، وامتدحه شعراؤهم ممن لا يضطغنون على الصحابة بالحقد والكراهية. واقترب منه ثوار الخوارج، ووثقوا به وهادنوه، إلا من شذ منهم، فحورب وخسر. وأثنى عليه زعماء القدرية، وأووا إلى رأيه السديد الرشيد. ورضي عنه فقهاء أهل السنة، وأيدوه وناصروه. وأحبه العبَّاد والزهاد، وركنت إليه العلماء الصلحاء. واعتبره كل فريق واحداً منهم، وناصراً لهم.

ولقد كوّن عمر من تلك الفئات والمذاهب مزيجاً يصب في بوتقة واحدة؛ هي إقامة الحق، ونصرة الإسلام، والحفاظ على الأرواح والأعراض والأموال والعقول والحريات.

ثامناً ـ أسلوبه وسياسته في التنفيذ:

إن العلم والتقوى، والورع والزهادة، والحكمة والحنكة، والإحساس بالمسؤولية؛ كل ذلك لا يفيد الأمة إذا لم يوائمه ويكافئه تنفيذ حازم، وحزم راشد.

والمتتبع لسياسة عمر وأسلوبه في تنفيذ مسؤولياته؛ يجد رجلاً فذاً، وحاكماً نادراً، اجتمعت في شخصيته صفات عديدة متكاملة لا متناقضة: فالحزم واللين، والأناة والحسم، والإشراف العميم الشامل واللامركزية، والمتابعة المستمرة واليقظة الساهرة؛ كل ذلك كان يعمل في تكامل عجيب، لا يختلط واحد بآخر، كل حسب الموقف الذي يناسبه، ويعالج داءه، ويشفي علّته.

●● كان يعطي جسمه قسطاً من الراحة، وبقية ساعات يومه مصروفة لمسؤولياته الجسام، فكل ساعة لها مسؤولياتها، ولكل يوم أعماله، لا يؤجِّل عمل ساعة لساعة تالية، أو عمل يوم إلى الذي يليه.

رآه ريان بن عبد العزيز وقد أجهد نفسه، وأضناه التعب، فقال له: «يا أمير المؤمنين، لو تَرَوَّحْتَ وركبتَ! قال: كيف لي بعمل ذلك اليوم؟ قلتُ: يكون في اليوم الذي يليه. قال: حَسْبِي عمل يوم في يومه، فكيف بعمل يومين في يوم؟!»[1].

وجاءته امرأة من أهل الكوفة فقالت: «يا أمير المؤمنين، ما أصبتُ أنا ولا بناتي مما قَسَمَ أمير المؤمنين قليلاً ولا كثيراً. قال: ومَنْ بكِ؟ قالت: العُرَفاء والمَنَاكِب. قال: ارجعي إليَّ حتى العشية، فأكتب لكِ. ثم قال: مَهْ، فلعلي لا أبلغ العِشاء!! ثم كتب لها كتاباً بحقوقها»[2].

●● ومع هذا الإدراك العميم للمسؤوليات وكثرتها، وعدم تأجيل واحدة منها ليوم أو لساعة؛ كان يمتاز بالسرعة العجيبة في تنفيذ مسؤولياته وما يريده ويراه حقاً، فلقد كان يرى أنه روح على جناح طائر، وأن أيامه في هذه الدنيا قليلة؛ فراح يملأ اللحظة العابرة بالأعمال الكبار. لقد كان بالنسبة لأفراد الأمة نداء النجدة الذي يلبي كل هاتف يهتف به، فلا تأتيه مظلمة، أو تناديه حاجة؛ إلا وجدت منه السرعة الخاطفة في تلبيتها، وكأنها معه على ميعاد، وكأنه ليس له عمل سواها! وصغار الأمور وكبارها عنده سواء، من حيث الاهتمام بها والمسارعة في إجابتها؛ فليس في أطراف دولته الكبيرة قضية غير ذات بال، بل تجد عنده من العناية ما يليق بها.

لقد كان البريد لا يأتيه برسائل الولاة والمسؤولين فحسب، بل تأتيه الرسائل من كل من أراد من أفراد الرعية، مهما كان شأنه ومكانته. وأوصى عماله أن يحمل البريد إليه كل تلك الرسائل والشكاوى والاستغاثات، وحرَّج عليهم أن يطلعوا عليها قبله، فكان يقرؤها ويردّ عليها بنفسه، مهما كلفه ذلك من مشقة وعَنَت.

(١، ٢) المناقب ٢٢٥، «عمر» للزحيلي ١٥٥. المناكب: جمع مَنْكِب، وهو عَرِيف القوم. والعريف: هو القَيِّم بأمر القوم وسيِّدهم.

يروي ابن عبد الحكم هذه الحادثة الباهرة، فلنستمع إليها:

حمل إليه البريد يوماً رسالة من «الجيزة» بمصر، أرسلتها امرأة تسمى «فرتونة السوداء»، تشكو لأمير المؤمنين أن لها حائطاً قصيراً جداً لدارها، يتسوّره اللصوص، فيسرقون دجاجها، وليس معها مال تنفقه في رفعه.

ولا يكاد أمير المؤمنين يتلو الرسالة وهو في عاصمة الخلافة ـ دمشق ـ حتى يكتب إلى واليه على مصر ـ أيوب بن شرحبيل ـ هذا الكتاب الذي يقول فيه:

«من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أيوب بن شرحبيل، سلام عليكم، أما بعد: فإن فرتونة السوداء كتبتْ إليَّ تشكو قِصَرَ حائطها، وأن دجاجها يُسرق منها، وتسأل تحصينه لها؛ فإذا جاءك كتابي هذا فاركب بنفسك وحصِّنْه لها»!!

ونفس البريد الذي حمل هذا الكتاب إلى والي مصر، حمل كتاباً آخر من أمير المؤمنين إلى تلك المرأة، يقول فيه: «من عبد الله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين إلى فرتونة السوداء، سلام الله عليكِ، أما بعد: فقد بلغني كتابكِ، وما ذكرتِ فيه من قصر حائطك، حيث يُقتحم عليك، ويُسرق دجاجك. وقد كتبتُ إلى أيوب بن شرحبيل، آمره أن يبني لك الحائط، حتى يحصّنه مما تخافين إن شاء الله».

يقول ابن عبد الحكم: «فلما جاء الكتابُ إلى أيوب بن شرحبيل، ركب بنفسه حتى أتى الجيزة، وظلّ يسأل عن «فرتونة» حتى وجدها، فإذا هي سوداء مسكينة، فأَعْلَى لها حائطها»!!

●● على أن رفقه وأناته وشفقته التي وسعت أمته جميعاً؛ لم تجعله مطمعاً يغري أحداً باستضعافه أو مخادعته، بل جمع إلى الأناة والرفق

الحـزمَ والعزمَ والقوة أمام كل من تسوّل له نفسه فتنة أو عبثاً أو ظلماً أو إخلالاً بالحق والعدل.

وقد شهدنا مواقفه الحازمة الحاسمة مع عشيرته، وولاته، والخوارج الذين لم ينصاعوا للحق، وطاغية الروم الذي عذب أسيراً مسلماً.

قال رداً على كتاب من بني مروان أغضبه: «إن لله في بني مروان ذبحاً».

وكتب إليه عمر بن الوليد بن عبد الملك يتهمه بالجور والحيف، فرد عليه بكتاب طويل جاء فيه: «فرويداً يا ابن بنانة، فلو التقت حلقتا البطان، وردّ الفيء إلى أهله؛ لتفرّغتُ لك ولأهل بيتك، فوضعتهم على المحجة البيضاء».

وكتب إلى أحد ولاته: «لقد كثر شاكوك، وقَلَّ شاكروك، فإما عدلتَ، وإما اعتزلتَ. والسلام».

وكتب إلى طاغية الروم الذي سَمَلَ عيني أسيره المسلم: «وإني أقسم بالله، لئن لم ترسله إليَّ من فورك؛ لأبعثن إليك من الجند ما يكون أولهم عندك وآخرهم عندي»!

●● وكانت مسؤولياته عن كل شيء واضحة لا يحجبها شيء، ومشكلات الأمة أمامه في صعيد واحد بارزة ظاهرة، لا تحتاج من يكشفها أو يفلسفها، بل تنتظر من يواجهها ويحلّ عقدها، ويرد الأمور إلى نصابها. فانطلق هو وولاته لا يلوون على شيء، ينجزون وينجزون، حتى بسط العدل، وأقام فوق كل رابية راية للحق.

●● ومع كل ذلك كان يحرس منهجه القويم، ويراقب تنفيذ قراراته وأوامره، ويخرج مع مولاه مزاحم يسأل الركبان عن أحوال الناس وسياسة الولاة، ولمّا قال له أحدهم يصف حال بلده التي قدم منها: «تركت البلاد:

الظالم فيها مقهور، والمظلوم منصور، والغني موفور، والفقير مجبور».
اغرورقت عينا عمر بدموع الغبطة والسرور، وقال شاكراً لله تعالى: «والله، لأن تكون البلاد كلها على ما وصف هذا الرجل، لأحب إلي مما طلعت عليه الشمس»!

* *

تلك هي سياسته، وهذا هو أسلوبه في التنفيذ: لا إرجاء ولا تسويف، بل كل ساعة لها أعباؤها، وكل يوم له أعماله، وإسراع في التنفيذ، وعدم تهاون بصغيرة أو كبيرة، ورفق وأناة، مع حسم وحزم، ووضوح مسؤولية، وحراسة ومراقبة لإنفاذ ذلك كله.

فكيف كانت حال الحركة الجهادية في أيامه، وأين كان موقع الدعوة إلى الإسلام في برنامجه؟ لنتابع ذلك في الفصل التالي.

الفَصْل الرابع

الجِهَادُ وَالدَّعْوَةُ إلى الإسلام

من أهم أهداف الإسلام ودولته تحرير البشر من الاستعباد والظلم، وإقامة العدل بينهم سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، وهذا يقتضي أن يكون للدولة المسلمة قوة، وأن تستعمل هذه القوة في «الجهاد» لإزالة الظلم والاستعباد بين البشر، وإقامة العدل وحماية الكرامة الإنسانية، وإخضاع الناس لنظامها الإنساني العادل، سواء دخلوا في الإسلام، أم بقوا على دينهم ـ كذميين ـ ودخلوا تحت لواء نظامها وحكمها.

ومن أهداف الإسلام ودولته كذلك نشر الإسلام والدعوة إليه عقيدة ونظاماً، بالحجة والدليل والتعليم والحوار على الصعيد العالمي، وهذه الدعوة السلمية تصادف من يمنعها ويكافحها، وهنا لا بد للدولة الإسلامية من حماية دعوتها بالقوة والسلاح، ومجاهدة من يقف في سبيلها.

هذان هما هدفا الجهاد في الإسلام: ١ ـ منع الظلم بإقامة العدل، ومنع الاستعباد بالتحرير لبني الإنسان من كل أشكال العبودية القديمة والحديثة، البدائية والراقية!! سواء كان هذا الاستعباد لبشر، أو حجر، أو كوكب، أو إنسان، أو نظام، أو مبدأ، أو عرق، أو نِحْلَة، أو غيرها.

٢ ـ وحماية نشر الدعوة وإيصالها سلمياً لكل الناس، وعندما يعترض سبيلها طاغوت ـ مهما كان نوعه وشكله وهدفه ـ فلا بد من استئصاله، حتى تصل كلمة الإسلام إلى شعبه.

وقد عبّر شيخ الإسلام ابن تيمية عن غاية الجهاد بـ «أن يكون الدين ـ أي الخضوع والانصياع ـ كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، فمن منع هذا قوتل».

ويُمنع من قتل النساء والصبيان والشيوخ والرهبان والعميان والزمنى، إلا إذا كانوا مقاتلة ضد الإسلام فيجب قتالهم[1].

إن دين الله هو الضياء الذي نزل في حراء، وأمر الله نبيه والمسلمين أن يحملوه إلى كل أرجاء الدنيا، ففعلوا. وليس من حق أحد أن يحول دون وصوله للناس، فإن فعل فقد أُذِنَ الله للمسلمين بقتاله. فالجهاد ليس إكراهاً على اتباع الدين، بل هو حرب على مَنْ منع وصوله للناس أنى كانوا. وتبليغ الدعوة بذلك لا يقف عند حد جغرافي، ولا يقتصر على أمة دون أمة، فمن حق كل الناس أن يستمعوا لنداء الوحي، ويبلّغوا كلام الله. وما دامت هناك بقعة ترفع عليها راية الكفر؛ فالجهاد ماضٍ لإزالتها وزرع راية التوحيد مكانها، وإبلاغ الناس هناك دعوة الله.

متابعة الجهاد في عصر عمر:

لقد كانت الحركة الجهادية في عهد ابن عبد العزيز محدودة، وذلك لانشغاله بالإصلاحات الداخلية، وردّ المظالم، وتقوية وترسيخ بنيان الدولة، وإقامتها على القسطاس المستقيم. فليس المهم أن تتوجه الجيوش لتحقيق المزيد من الفتوحات، والمسلمون في دولة الخلافة في عَنَتٍ شديد من المظالم والمفاسد، والنعرات والنزعات اللاإسلامية. وكذلك فإن مدة خلافته كانت قصيرة لم تسمح له بتوسيع رقعة الفتوحات بعد الإصلاح الداخلي الهائل الذي حققه.

بيد أن حركة الجهاد لم تتوقف، بل تتابعت جحافل جيوش

---

(١) نظام الإسلام ٩٢ ـ ٩٣.

المسلمين لنشر الإسلام في أصقاع أخرى من الأرض، ودخل الناس في دين الله فوجاً إثر فوج.

ففي سنة مائة للهجرة أغزى عُمر الوليدَ بن هشام المُعَيْطيّ وعَمرو بن قيس الكِنديّ من أهل حمص «الصائفةَ»[1].

وانطلق السمح بن مالك يواصل الفتوحات في المغرب، فعبرت الجيوش جبال «البرانس» وفتحوا بعض بلاد جنوب فرنسا.

وفي سنة (٩٩ هـ) أغارت الترك على أذربيجان، فقتلوا من المسلمين جماعة، ونالوا منهم، فوجه عمر إليهم حاتمَ بن النعمان الباهلي، فقتل أولئك الترك، فلم يفلت منهم إلا اليسير، فقدم منهم على عمر «بخُناصرة» بخمسين أسيراً[2].

وكان يوجّه الكتب إلى عماله وولاته يبيّن لهم هدي الإسلام في الحرب، والغاية من الجهاد وسياسة المجاهدين، والرفق بهم.

عن صفوان بن عمرو قال: «جاءنا كتاب عمر بن عبد العزيز ـ وهو خليفة ـ إلى عامله: أن لا تقاتلنَّ حصناً من حصون الروم، ولا جماعة من جماعاتهم، حتى تدعوهم إلى الإسلام، فإن قبلوا فاكفف عنهم، وإن أَبَوْا فالجزية، فإن أبوا فانبذ إليهم على سواء»[3].

وكتب إلى عامل آخر: «بلغناأن رسول الله ﷺ كان إذا بعث سَرِيَّةً يقول لهم: «اغْزُوا باسم الله، في سبيل الله، تُقاتِلون من كفر بالله، لا تَغُلُّوا ولا تَغْدِروا، ولا تُمثِّلوا، ولا تقتلوا وليداً». وقل ذلك لجيوشك وسراياك إن شاء الله. والسلام عليك»[4].

---

(١) الطبري ٧/٤٦٠، البداية والنهاية ٩/١٨٨.
(٢) الطبري ٧/٤٥٧، الكامل في التاريخ ٤/١٥٤، البداية والنهاية ٩/١٨٥.
(٣) الطبقات ٥/٣٥٥.
(٤) ذكره الإمام مالك في الموطأ ٢/٤٤٨.

وأغزى عمرو بن قيس «الصائفة» وقال له: «يا عمرو، لا تكن أولَ الناس فتُقتل فينهزم أصحابك، ولا تكن آخرهم فتثبِّطهم وتجبِّنهم، ولكن كن وسطهم، حيث يرون مكانك، ويسمعون كلامك، وفادِ مَنْ قدرتَ عليه من المسلمين وأرقّائهم وأهل ذمتهم»[١].

وكتب إلى آخر: «وارفق بمن معك في مسيرهم، فلا تجشّمهم مسيراً يتعبهم، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم؛ حتى يلقوا عدوهم والسفرُ لم ينقص قوتَهم ولا كُراَعهم، فإنكم تسيرون إلى عدو مقيم جامّ الأنفس والكُراع، وإلا ترفقوا بأنفسكم وكُراعكم في مسيركم يكن لعدوكم فضل في القوة عليكم في إقامتهم في جمام الأنفس والكراع، والله المستعان. أقمْ بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة، لتكون لهم راحة يجمّون بها أنفسهم وكراعهم، ويرمُّون أسلحتهم وأمتعتهم»[٢].

وكتب إلى أمراء الأجناد: «ولا تركبنَّ دابّة في الغزو إلا أضعفَ دابة تُصيبُها في الجيش سَيْراً»[٣].

●● إقفال الجيش حيث خيف عليه:

كان سليمان بن عبد الملك قد سيّر أخاه مسلمة في جيش كثيف لغزو القسطنطينية ـ وهي مدينة الروم العظمى ـ فهبّ مسلمة القائد المظفر لذلك، وضيّق بمحاصرته على أهل القسطنطينية، وتتبع المسالك، واستحوذ على ما هنالك من الممالك. وكادت المدينة أن تسقط بأيديهم، فاستعان إليون ملك الروم بملك البرجان[٤]، فاستطاع هذا الأخير أن يخدع مسلمة بأنه معه ضد إليون، وأنه سيزوده بما شاء من الميرة والطعام والأزواد. فأرسل مسلمة رجالاً من الجيش لتسلّم ذلك بمكان ذكره ملك البرجان، وبينا المسلمون كذلك يشترون ما أرادوا من البضائع والأمتعة

---

(١) الطبقات ٥/٣٦٩.

(٢) الحلية ٥/٣٠٣. الكُرَاع: اسم لجميع الخَيْل.

(٣) الطبقات ٥/٣٧٦.

(٤) لعلهم: البلغار.

والأطعمة! إذ خرجت عليهم الكمائن من الجبال، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وأسروا آخرين. فاستنجد مسلمة بأخيه أمير المؤمنين سليمان، فأمده بجيش عَرَمْرَمٍ ، وأمره بمقاتلة ملك البرجان أولاً، ثم الانضمام إلى مسلمة. ففعلَ الجيش ذلك، وأوقعوا في الكفار مقتلة عظيمة، وأسروا خلقاً كثيراً، وخلّصوا أسرى المسلمين، ثم عادوا فانضموا إلى مسلمة.

وكان الجيش المسلم قد أقام في القسطنطينية مدة طويلة، فأصابه الجهد الشديد، وضيق العيش. ولكن سليمان كان حين خرج من دمشق إلى «مرج دابق» آلى على نفسه أن لا يرجع إلى دمشق حتى تفتح القسطنطينية أو يموت، رحمه الله وأجزل مثوبته(١).

ولما استخلف عمر نظر في جيش مسلمة وحاله، وقد علم أنهم قد اشتد عليهم الحال، وضاق عليهم المجال، لأنهم عسكر كثيف، وعانوا الكثير، وخاف عليهم غائلة الروم وغدرهم؛ فبعث إليهم يأمرهم بالرجوع إلى الشام، وبعث إليهم بطعام كثير، وخيول كثيرة عتاق، يقال: خمسمائة فرس، ففرح الناس بذلك(٢).

كذلك كتب إلى عبد الرحمن بن نعيم يأمره بإقفال مَـن «وراء النهر» من المسلمين بذراريهم؛ خشية ضياعهم وتفرقهم وسهولة نيل العدو منهم.

وفي سنة (١٠٠ هـ) أمر عمر أهل «طُرَنْدَة» بالقفول عنها إلى «مَلَطْيَة»

---

(١) أما صاحب «خلفاء الرسول» فيقول بأن سليمان رفض أن يصدر أمره للجيش بالعودة «ربما تحت وطأة كبريائه الشخصي والقومي، وربما أملاً بتحسن ظروفه وإمـداده بقوات جديدة». ص ٧٠١. هكذا يرى هذا الكاتب أن الفتوح كانت لأمجاد شخصية ومطامع قومية! وأي كبرياء شخصيٍ أو قومي يريده سليمان وأخوه مسلمة في مقدمة الجيش؟! لو كان الأمر كذلك لَضَنَّ بأخيه عن أن يُقتل. إنه لا يجوز أن تصدر هذه الشتائم للرجال العظام الذين فتحوا البلاد!

(٢) البداية والنهاية ٩/١٧٤، ١٨٣ ـ ١٨٤، الطبري ٧/٤٥٧، الكامل في التاريخ ٤/١٥٤.

ـ وطرندة واغلة في البلاد الرومية من ملطية بثلاث مراحل ـ وكان عبد الله ابن عبد الملك قد أسكنها المسلمين بعد أن غزاها سنة (٨٣ هـ) ـ وملطية يومئذ خراب ـ وكان يأتيهم جند من الجزيرة يقيمون عندهم إلى أن ينزل الثلج، ويعودون إلى بلادهم. فلم يزالوا كذلك إلى أن ولي عمر؛ فأمرهم بالعود إلى ملطية، وأخلى طرندة خوفاً على المسلمين من العدو، وأخرب طرندة، واستعمل على ملطية جعونة بن الحرث[١].

لمثل هذه الظروف وتلك الملابسات أمر عمر الجيش بالرجوع؛ ليستجمّ جنده، وليقوم آخرون مقامهم في متابعة الفتوح ونشر راية الحق في كل أرض تشرق عليها الشمس. بيد أن بعضاً من «كتّابنا المعاصرين» يرون أن هذا من عمر اقتناع بما وصلت إليه الدولة المسلمة من رقعة جغرافية واسعة، وليس من حاجة للجهاد إلا للدفاع عن الحدود التي وصلت إليها!

يقول خالد محمد خالد: «ثم نراه يضع حداً لكل الأعمال العسكرية التي كانت تقوم في الدولة، ويعلن أن الإسلام قد صار عزيزاً منيعاً بما تمّ له من فتوح، وأن على جيش الدولة ألا يتحرك بعد اليوم لقتال إلا دفاعاً عن حدود الدولة إذا هوجمت، وعن سلامة الأمة إذا تعرضت للأخطار»[٢].

وقريب من ذلك قول العش ـ رحمه الله وغفر له ـ أن عمر «كان يعد الفتح في بلاد الروم بلاءً على المسلمين، ويعدّ الغاية منه إظهار البطولة دون فائدة كبيرة، والحصول على الغنائم والأسرى مقابل هدر كبير لدماء المسلمين»! وفي موضع ثانٍ يقول ـ متحدثاً عن إنفاق الأموال على الفتوح ـ: «أما الآن فعمر بن عبد العزيز قد أوقف الفتوح ـ كما ذكرنا ـ فوقف الإنفاق عليها إلا قليلاً»[٣].

---

(١) الطبري ٧/٤٧٢، الكامل في التاريخ ٤/١٥٩ ـ ١٦٠، معجم البلدان ٤/٣٢.
(٢) خلفاء الرسول ٧٧١.
(٣) الدولة الأموية ٢٦٤، ٢٧٤.

وهذه فكرة استشراقية ماكرة خبيثة، وقع في شَرَكها كثير من المعاصرين، وهي فكرة يرفضها الإسلام وحركته الجهادية بأبعادها السامية: فدولة الإسلام ليس لها حدود تقف عندها، إلا عندما ترفرف راية التوحيد فوق كل جبل ورابية وسهل ووادٍ تشرق عليها شمس الله. وما دام هناك كفر يمارَس بالقوة، واستعبادٌ للناس ـ أنى كانوا ومَنْ كانوا ـ فالجهاد واجب على المسلمين لدحر الطغيان، وإقامة العدل، ليعيش الناس في ظل عدالة الإسلام. ولقد كان الإسلام عزيزاً أيما عزة في عهد الفاروق عمر، فلماذا استمرت الفتوحات؟ ولو أن الذين جاؤوا بعد ابن الخطاب قبلوا بما يقوله «كاتبنا الأول»؛ لما وصل الإسلام إلى إفريقية وبلاد المغرب والأندلس وفرنسا وما وراء النهر والسند والهند والصين؟! أفتحرم شعوب تلك البلاد من نور الإسلام بدعوى ماكرة غبية مفادها أن الإسلام قد صار عزيزاً منيعاً، ولا داعي للجهاد إلا للدفاع عن حدود الدولة؟!.

ومن قال بأن ابن عبد العزيز لو طالت به حياة لن يسيّر جيشاً عرمرماً إلى مَلِكَي الروم والبلغار فيطوِّح بعرشيهما، وينشر رحمة الله بين شعبيهما؟!

إن عمر لا يملك إلا هذا لو طال به العمر، وليس من حقه ولا من حق أي خليفة أن يوقف الجهاد اقتناعاً بما وصلت إليه دولة الإسلام من حدود واسعة، وأراضٍ شاسعة، وحاشاه وحاشاهم أن يفعلوا ذلك.

ولو أن الجهاد إنما هو للدفاع عن حدود وأرض، فلقد جاءت أيام قبل ابن عبد العزيز تمنى فيها أعداء الإسلام التوقف عن القتال، وأن يرضى كل بما بسط يده عليه، فتأبى عليهم خلفاء الإسلام، إلا أن يدخلوا في دين الله، أو يتركوا المسلمين لينشروا الإسلام في شعوبهم.

إن ابن عبد العزيز لم يوقف الفتوحات، وإنما أعاد جزءاً من جيش الدولة المنهك ليستعيد قواه، وأقفل بعضاً من المسلمين إلى الوراء قليلاً

خوفاً عليهم من عدوهم. وإلا فبمَ نفسر كتبه إلى ولاته بمتابعة الجهاد، ووصاياه في ذلك؟! وبمَ نفسر فتوحات السمح في بلاد الأندلس في عهده؟! وبمَ نبرر بعثه لغزوات الصيف من حمص ضد الروم؟!

إن الذي حدث من عمر ـ كما أسلفنا ـ هو انشغال بالإصلاحات العميمة الشاملة على المستوى الداخلي، ولم ينس الفتوحات، لكن الأُولى كانت أهم، ولقصر مدة خلافته لم تشهد أيامه حركة واسعة للفتوحات.

وعمر لم يعدّ فتح بلاد الروم بلاءً، ولا جهادهم إظهاراً للبطولة في غير كبير فائدة، ولا قاتل المسلمون من أجل غنائم وسبايا، ولا شُرع الجهاد من أجلها، ودماء المسلمين التي أهريقت في سبيل الله لها وزنها الكبير عند الله سبحانه، ولولا تلك الدماء الزكية ما وصل الإسلام إلى أطراف الأرض، وَلَمَا دخل الناس في دين الله أفواجاً.

إن مثل هذا الكلام ظلم لعمر، وظلم للجهاد، وظلم للإسلام، نبرأ إلى الله منه.

الدعوة إلى الإسلام:

إن الهدف الأسمى لكل رسالة سماوية هو إسلام البشرية واستسلامها لله تعالى. وإن من أكبر الأمنيات في الدنيا لكل مسلم، ولكل خليفة مسلم، أن يدخل الناس جميعاً في دين الله، ويعمّ نور الإسلام وعدله أرجاء الأرض. ولعل أروع ما يعبر عن ذلك عند عمر بن عبد العزيز هو ذلك الموقف الذي وقفه من عامله عدي بن أرطاة عندما كتب إليه يقول: «أما بعد: فإن الناس قد كثروا في الإسلام، وخفتُ أن يقلّ الخَراج»! فأجابه أمير المؤمنين بكلمات باهرة رائعة مضيئة، فقال: «فهمتُ

كتابك، ووالله لوددتُ أن الناس كلهم أسلموا، حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا»(١).

وكتب إلى ولاته يأمرهم بالدعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، وتشجيع الناس على ذلك، فكان مما كتبه إليهم:

«فادع إلى الإسلام وأمر به، فإن الله تعالى قال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وقالَ إِنَّنِي مِنَ المُسْلِمِين﴾(٢). فمن أسلم من نصراني أو يهودي أو مجوسي، من أهل الجزية اليوم، فخالَط المسلمين في دارهم، وفارق داره التي كان بها؛ فإن له ما للمسلمين، وعليه ما عليهم، وعليهم أن يخالطوه وأن يواسوه»(٣).

وكتب إلى الجراح بن عبد الله الحَكَمي ـ عامله على خراسان ـ يأمره أن يدعو أهل الجزية إلى الإسلام، فإن أسلموا قَبل إسلامهم، ووضع الجزية عنهم، وكان لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين. فقال له رجل من أشراف أهل خراسان: «إنه والله ما يدعوهم إلى الإسلام إلا أن توضع عنهم الجزية، فامْتَحِنْهم بالختان. فقال: أنا أردّهم عن الإسلام بالختان؟! هم لو قد أسلموا، فحسن إسلامهم، كانوا إلى الطهرة أسرع. فأسلم على يده نحو من أربعة آلاف»(٤).

وكان عمر قد كتب إلى ملوك السند يدعوهم إلى الإسلام، على أن يملكهم بلادهم، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ـ وقد كانت سيرته بَلَغَتْهم ـ فأسلم جيشبة بن زاهر والملوك، وتسمّوا له بأسماء العرب، وبقي ملوك السند مسلمين على بلادهم.

وقد وجه ملك الهند والسند إلى أمير المؤمنين عمر كتاباً جاء فيه:

---

(١) الحلية ٥/٣٠٥، المناقب ١١٩ ـ ١٢٠. (٢) سورة فُصِّلت: الآية ٣٣.
(٣) ابن عبد الحكم نقلاً عن «عمر» للزحيلي ١٩٠. (٤) الطبقات ٥/٣٨٦.

«. . . أما بعد: فإن الله قد هداني إلى الإسلام، فابعث إليّ رجلاً يعلمني الإسلام والقرآن وشرائع الإسلام. وقد أهديتُ إليك هدية من المسك والعنبر والنَّدّ والكافور؛ فاقبلها، فإنما أنا أخوك في الإسلام. والسلام»[1].

وبعث عُمر عبدَ الأعلى بن أبي عمرة رسولاً إلى إليون الثالث طاغية الروم يدعوه إلى الإسلام، قائلاً له: فإن دخل إليون في دين الله، حقن دماء المسلمين ودماء الروم على السواء.

كذلك أمر واليه على المغرب الإمام الكبير إسماعيل بن عُبيد الله بن أبي المهاجر بنشر الإسلام هناك، فأقام بالمغرب سنتين، وأسلم عامة البربر في ولايته، رضي الله عنه ورحمه وجزاه خيراً[2].

وشجّع الذميين وغيرهم على الدخول في الإسلام، فألغى الجزية عمن يدخل في هذا الدين بنفس اللحظة التي يعلن فيها ذلك، فكتب إلى ولاته: «إن أسْلَمَ والجزية في كفّة الميزان، فلا تُؤخذ منه». وبعث إلى عماله: «من شهد شهادتنا، واستقبل قبلتنا، واختتن؛ فلا تأخذوا منه الجزية». وكتب: «انظر من صلى قِبَلَكَ إلى القبلة؛ فضعْ عنه الجزية». فسارع الناس إلى الإسلام[3].

بل إنه كان يبذل المال لأناس يستألفهم على الإسلام، ولقد أعطى بطْريقاً ألف دينار استألفه على الإسلام[4]. لعلم عمر أن من وراء البطريق أناساً كثيرين يدينون لرأيه، ويقتدون به، ولربما بإسلامه دخل أولئك في دين الله.

وبعث إليه حيان بن شُريح ـ عامله على مصر ـ : «إن أهل الذمة قد

---

(١) الكامل في التاريخ ٤/١٥٥، ١٦٠. النَّدُّ: ضَرْبٌ من النبات يُتَبَخَّر بعُودِه.
(٢) سير أعلام النبلاء ٥/٢١٣، تهذيب التهذيب ١/٢٧٧.
(٣) الأموال ٢٨، الطبري ٧/٤٦٤، الطبقات ٥/٣٥٦.
(٤) الطبقات ٥/٣٥٠.

أسرعوا في الإسلام، وكسروا الجزية! فكتب إليه عمر: أما بعد: فإن الله بعثَ محمداً ﷺ داعياً ولم يَبْعثه جابياً، فإذا أتاك كتابي هذا، فإن كان أهل الذمة أسرعوا في الإسلام وكسروا الجزية؛ فاطْوِ كتابك وأَقْبِلْ»[1].

* * *

هكذا أسرع الناس للدخول في دين الله، والاستظلال بظلال الرحمة والعدل والحياة الكريمة التي انتشرت بفضل الله على يدي هذا الخليفة المبارك. فلنصغِ إلى رأي الأئمة والعلماء بعهده وأعماله وإنجازاته في خلافته.

(١) الطبقات ٥/٣٨٤، سير أعلام النبلاء ٥/١٤٧، وفيه «أشرعوا في الإسلام».

الفصل الخامس
كلمة مجملة وأقوال العلماء في خلافته

كلمة مجملة:

لم تصل الدول إلا في العصر الحديث للقيام برعاية شعوبها إيجابياً، كنشر التعليم، وتشجيع طلب العلم، وكالاضطلاع بكفاية العاجزين عن الكسب والإنفاق. وهذا كله بلغته الدولة بفضل الإسلام، بل تجاوزت ذلك في التطبيق العملي إلى: عمارة المدارس والمكتبات، والمستشفيات والمراصد، ومعاونة المؤلفين والباحثين والمترجمين، وفتح الترع، ومدّ الأقنية، وإقراض المزارعين، وغير ذلك من الخدمات العامة وسائر أسباب التقدم الإنساني والحضاري، مما شهدته البشرية في عصر الراشدين والأمويين والعباسيين وغيرهم[1].

●● ولقد حققت الدولة الإسلامية في عهد عمر بن عبد العزيز أشياء هي معجزة من المعجزات التاريخية على مستوى التطبيق، إذا ما قورنت بالمدة التي لبث فيها خليفة، وهي تكاد تكون لحظة عابرة في عمر الأمم إذا ما وضعت بجانب الإنجازات الضخام التي حققها خلالها.

ومردُّ ذلك ـ في رأينا ـ إلى أمرين:

أولهما: عبقرية الإسلام ونظمه ومبادئه وتشريعاته في سياسة الناس وإصلاح أحوالهم على جميع المستويات.

---

(١) نظام الإسلام ٩٦.

ثانيهما: عبقرية الحاكم الذي يستطيع أن يفهم روح تلك التشريعات والمبادىء السامية، ويحيلها واقعاً حياً مشهوداً.

وتتجلى عظمة ابن عبد العزيز بانسجام مظاهر الفضيلة والتقوى والورع والتبتل، مع عبقرية العلم والفهم والمعرفة والتنظيم والإدارة؛ ذانك الجانبان اللذان إذا اجتمعا كانت المعجزة، وهذا ماحدث عند هذا الخليفة الفذ، والذي قدّم الإسلام للبشرية كأنموذج جديد، ليثبت أن منهج الله لا يزال ينجب البررة الشاهقين، الذين احتشدت طاقاتهم الموّارة لتتفجر في ميقات معلوم، وتصنع في البشرية الأعاجيب في الزمن القصير واللحظة العابرة.

ومظاهر الإعجاز والإعجاب في شخصية عمر تكمن في ثلاثة جوانب:

أن عمر في صورته الخارقة لم يكن من أوساط الناس في معيشته ورزقه، فيقال إن زهده وورعه ومعاناته وتجاربه قد أدت به إلى هذا الإنجاز الكبير الهائل؛ بل إنه ولد في القصور، وتربى في بيوت الملك، وتقلب في النعيم، وعبّ من الملذات والمباهج الهاطلة بغير حساب ودونما انقطاع.

- ثم إنه لما تسلم منصب الخلافة لم يكن شيخاً طاعناً تقدمت به السنّ، وولّت عنه مطامع الدنيا وشهواتها، بل هو في ريعان الشباب، ومقتبل الرجولة، وأوج الطموحات، فلقد كان في السابعة والثلاثين من عمره. ومع ذلك فقد ودّع أمنيات الشباب، ليوجه كل إمكاناته وفضائله إلى العمل الرهيب في خدمة الأمة والإسلام.

- وثالث الأمور أن الانقلاب الهائل في حياته من يوم كان واحداً من الرعية إلى أن أضحى خليفة؛ لم يستغرق سنوات ولا شهوراً، بل دام لحظة واحدة هي التي اختير فيها خليفة للمسلمين وخطب خطبة الخلافة

وبايع الناس، فحدث التغيير المفاجىء العجيب في حياته، وانعكس ذلك على مدى أيام خلافته وإنجازاته العظام[1].

●● إن هذه الأمور الثلاثة لتضعنا وجهاً لوجه أمام معجزة باهرة حقاً، لا يمكن أن نفسرها إلا بأن عمر كان منحة لهذه الأمة، وأن الذي حدث له هو توفيق تام متكامل من الله تعالى لهذا الخليفة، كان سببه الأول: ولاؤه المطلق لدين الله، الذي آمن به، وعمل بمقتضى أوامره، ولما صار خليفة كان الحارس والمنفذ لتشريعاته، وترجمة مبادئه إلى طريق عام تسير فيه الدولة والمجتمع.

وثانياً: ولاؤه المطلق للأمة الإسلامية، ذلك الولاء الباهر الذي جعل عمر يحمل مسؤولياته في مزيج من الإرهاق والإشفاق: الإرهاق لنفسه حتى لا يكاد يستريح لحظة من أيام خلافته، والإشفاق على نفسه خشية أن يأتيه الموت قبل أن يفرغ من واجباته الكثار الجسام.

وثالثاً: تلك السريرة النقية، والنية الصادقة الخالصة، في كل عمل يؤديه، أو أمر يبرمه.

ورابعاً: تلك الموروثات الطيبة الطاهرة من جده العظيم عمر بن الخطاب.

وخامساً: التربية الصالحة الصافية التي نشأ عليها، والعزيمة الماضية التي تحلّى بها.

وأخيراً: النظرة الحصيفة، العالمة الكاملة، التي تمتع بها، رضي الله عنه وأرضاه.

●● لقد قدم عمر حياته كلها للإسلام وللناس أجمعين، وفجّر طاقاته الكامنة الهائلة في رحلة سريعة، لبثت نحواً من سنتين ونصف السنة، كان

---

(١) خلفاء الرسول ٦٩٦ - ٦٩٩.

فيها كشعلة من شمع، تتوهج وتتقد وتحترق بأقصى قوة الاحتراق، في الليل والنهار، حتى وافاه الأجل، فانطفأ الضياء وهو في ريعان الشباب، فمات وهو مطمئن راضٍ بأنه حكم بالعدل، وقدّم للأمة كل ما بوسعه، وما أعظمه!

فمن اللحظات الأولى لاستخلافه أعاد للحكم قداسته وبهاءه وأصالته، فأعلن أن بيعة أهل الحل والعقد، ثم بيعة الأمة بعامة؛ أساس في قيام الخليفة على رأس الدولة، وجلوسه على كرسي الحكم. وأن طاعته ليست مطلقة، بل مشروطة مقيدة بالتزام كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ. وجعل الخليفة مسؤولاً عن كل شيء في الدولة.

والتزم الحق، وطبق الشرع، واتبع السنّة، وعظّم السلف، واهتدى بهدي الخلفاء الراشدين، وألزم نفسه بالشورى، واختار لذلك مجلساً من الأمناء المخلصين والأئمة العارفين العالِمين. ونشر العدل والحرية والمساواة بين كل المسلمين، وقرَّب العلماء والزهاد والناصحين، وأقصى الشعراء والمتملِّقين.

وجعل الدولة بكل أجهزتها قدوة لكل أفراد الأمة، ووضع المسؤولين موضع المساءلة في كل شيء، وسلّط الأمة على رقابة الولاة والأمراء. فالخليفة والوالي كآحاد الناس من حيث المأكل والمشرب والملبس والمسكن والمركب، غير أنهم أكثر الناس أعمالاً، وأثقلهم حملاً، وأعظمهم مسؤولية. وحرَّم الهدية للحاكم والأمير، واعتبرها لهم رشوة.

وتشدَّد على أسرته وعشيرته، وألزمهم جادة الحق، وساءلهم، ونزع ما في أيديهم مما ليس لهم بحق، وردّه إلى بيت مال المسلمين، ولم يؤمّر واحداً منهم.

وتخيّر الولاة الأكفاء الأمناء المقتدرين ذوي السيرة الحسنة، وألزمهم السير على هدي الإسلام، وأن يقيموا الحق وينشروا العدل والطمأنينة

والمساواة بين الناس، وألا يقتلوا أحداً حتى يؤامروه في ذلك، وأن يفتحوا أبوابهم للرعية، ولا يحجبوا أحداً عن مسألة أو مظلمة. ووجه لهم كتبه وأوامره وتوجيهاته، ومنعهم من التجارة حتى لا يستغلوا مناصبهم، فيعنتوا الرعية، وتابعهم وحاسبهم، وعزل من بدر منه ما لا يليق به كوالٍ وأمير.

وأقام القضاة العلماء، وحثّهم على الحكم بين الناس بالقسط، وعدم المحاباة، وحضهم على العمل في الليل والنهار.

وصان الدماء، وأقام الحدود، واعتبرها كإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

ودأب على ردّ المظالم حتى وصل الليل بالنهار، ولم يخفْ في ذلك أحداً، وأول من بدأ به نفسه وأهل بيته وعشيرته. وأعلن في الناس الجوائز القيمة لكل من يدل على مظلمة، أو يشير بنصيحة، أو يرشد إلى حق.

وأصدر أوامره بإصلاح أحوال السجون، والعناية بالسجناء، وتقديم الطعام والشراب لهم، والفصل بين الرجال والنساء في السجن.

واهتم بالتعليم ففرض المرتبات المجزية للعلماء وطلبة العلم، حتى يتفرغوا لذلك.

وأصلح سياسة الدولة المالية، فلا يدخل بيت المال إلا الحلال الطيب، ولا ينفق منه إلا في وجه مشروع فيه مصلحة للأمة. وحافظ على كل درهم من أموال الأمة، واعتبر بيت المال للإنفاق لا للتخزين، فسدّ بذلك حاجات المحتاجين، وأشبع الجياع، وكسا العراة، وأغنى المساكين، وزوّج من لا يملك الصَّدَاق، وأعطى الأعطيات الجزيلة لكل الناس، وفرض الخدم للمرضى والزمنى والمُقْعَدِين والعميان والأيتام. وبقي في بيت المال الكثير، فنادى مناديه في الناس أنه من كان بحاجة للمال فليقدم، فلم يجدوا من يأخذ الصدقة.

وأعاد للإنسان حقوقه كاملة، وأعلى من كرامته، وردّ له حرمته،

وفادى الأسرى. وخرج في الطرقات مع مولاه مزاحم يتحسس أخبار الرعية، ويسأل الركبان عن سير الولاة في الأمصار، واعتبر نفسه مسؤولاً عن شاة تعثر على شاطىء الفرات إن لم يصلح لها طريقها!

واعتنى بالتجارة والزراعة والاقتصاد، والبناء والعمـران، وألغى المكوس والضرائب، ووضع الجزية عمن أسلم، وأقام الخانات على طريق المسافرين، ينالون فيها الطعام والراحة وإصلاح شأنهم ومراكبهم.

وناظَرَ أرباب الطوائف والمذاهب كالقدرية والخوارج، وأكثر من رسائله إليهم، ومقابلة وفودهم، حتى ردّ معظمهم إلى الصواب، ومن شذّ منهم حاربه وأراح البلاد منه، وأنصف أهل الذمة والحربيين، حتى انتشر الأمن وعمّت الطمأنينة، وساد السلام بالإسلام.

وتابع الفتوحات وحركة الجهاد، مع الرفق بالجيش وعدم إلقائه في المهالك، أو تركه بلا إمداد ولا زاد ولا رفد.

ودعا الملوك والزعماء والناس من غير المسلمين إلى الدخول في دين الله، وأمر ولاته أن يهتموا بذلك، فاستجاب له الكثير من أولئك، حتى دخل الناس في الإسلام أفواجاً، في بلاد المغرب والهند والسند.

كل هذه الأعمال الكبيرة حققها الخليفة الباهر في أيام خلافته القصيرة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ومع ذلك يسأل الله المغفرة إن قصّر بعمله:

ومع كل تلك الأعمال الشامخة، والإنجازات الهائلة، والإصلاحات الواسعة، والرخاء العميم الذي شمل أرجاء الدولة وكل فئات الشعب ـ فإن أمير المؤمنين لم يغترّ بعمله، ولا امتنَّ به على الناس، فهو يرى أنه قام بواجبه، وأدى الحق الذي عليه، والواجبات المناطة به.

فكان يقول: «. . . فما كان من خير أتيته فبعون الله ودلّيلاه، وإليه

أرغب في بركته. وما كان غير ذلك، فأستغفر الله لذنبي العظيم»[1].

وبعث محمد بن كعب غلامه سالماً إلى عمر، فدخل عليه، فقال له أمير المؤمنين: «إني قد ابتليتُ بما ترى، وأنا والله أتخوَّف أن لا أنجوا! فقال له سالم: إن كنتَ كما تقول فهذه نجاتك، وإلا فهو الأمر الذي تخاف»[2].

وكان عنده رجل فقال: «عَدَلَ والله عُمر بن عبد العزيز في الأمة. فبكى عمر، وقال: وددتُ ـ والله ـ أنه كما قلتَ، ومن لعمر بالذي قلتَ رحمك الله»[3]؟!

لقد كان يرى أنه في كل يوم يجب عليه أن يفتش عن الكروب فيكشفها، وعن المظالم فيردها، وعن الجَوْر فيقتلعه ليزرع العدل مكانه. لذا يقول: «واللهِ لوددتُ لو عدلتُ يوماً واحداً وأن الله توفّى نفسي»[4]. ويقول: «لو أقمتُ فيكم خمسين عاماً ما استكملتُ فيكم العدل»[5].

أقوال العلماء في خلافته وعدله:

مكث أمير المؤمنين عمر خليفة في الناس سنتين وخمسة أشهر وأياماً[6]، حقق فيها من الأعمال ما تضيق به السنوات الطوال، ولقد أثنى الأئمة الثقات، والعلماء الصادقون ـ ممن عاصره ومن جاء بعده إلى زماننا هذا ـ على خلافته وعدله، وأجمعوا قاطبة على أنه من أئمة العدل، وأحد الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين.

قال وهب بن منبه: «إن كان في هذه الأمة مهدي، فهو عمر بن عبد

---

(١) الطبقات ٥/٣٧٩.

(٢، ٣) المناقب ١٦٥، ٢٢٧.

(٤) الطبقات ٥/٤٠٠.

(٥) تاريخ الإسلام ١٩٧، البداية والنهاية ٩/٢٠٠.

(٦) الطبقات ٥/٤٠٧، الطبري ٧/٤٦٩ ـ ٤٧٠، المناقب ٣٢٧ ـ ٣٢٨، سير أعلام النبلاء ٥/١٤٥، تاريخ الإسلام ١٨٨، البداية والنهاية ٩/١٩٢. وغير ذلك.

العزيز». ونحو هذا قال ابن المسيب والحسن البصري ومحمد بن علي وغيرهم[1].

وقال ميمون بن مِهْران: «إن الله كان يتعاهدُ الناس بنبيّ بعد نبيّ، وإن الله تعاهَدَ الناسَ بعمر بن عبد العزيز»[2].

وقال الأئمة سفيان الثوري والشافعي وأبو بكر بن عياش: «الخلفاء الراشدون خمسة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعمر بن عبد العزيز»[3].

وقال الإمام أحمد بن حنبل: «يروى في الحديث (أن الله تبارك وتعالى يبعث على رأس كل مائة عام من يجدِّد لهذه الأمة دينها). فنظرنا في المائة الأولى فإذا هو عمر بن عبد العزيز، ونظرنا في المائة الثانية فإذا هو الشافعي»[4].

وقد تكلم الحافظ ابن حجر على هذا الحديث، ولم يسلِّم اجتماع الصفات اللازمة للمجدِّد في أحد على انفراده إلا لعمر بن عبد العزيز فقال: «لا يلزم أن جميع خصال الخير كلها في شخص واحد، إلا أن يُدَّعى ذلك في عمر بن عبد العزيز، فإنه كان القائم بالأمر على رأس المائة الأولى، باتصافه بجميع صفات الخير وتقدمه فيها، ومن ثم أطلق أحمد

---

(١) الطبقات ٥/٣٣٣، الحلية ٥/٢٥٤، ٢٥٧، المناقب ٧٢، سير أعلام النبلاء ٥/١٣٠، تاريخ الإسلام ١٩٧، البداية والنهاية ٩/٢٠٠.

(٢) سير أعلام النبلاء ٥/١٢٧، تاريخ الإسلام ١٩٥، المناقب ٧٤.

(٣) المناقب ٧٣، صفة الصفوة ٢/١١٣، مختصر ابن عساكر ١١٣، البداية والنهاية ٩/٢٠٠، سير أعلام النبلاء ٥/١٣٠ ـ ١٣١.

(٤) صفة الصفوة ٢/١١٣، المناقب ٧٣ ـ ٧٤، البداية والنهاية ٩/٢٠٧، توالي التأسيس ٤٥ ـ ٤٩، فتح الباري ١٣/٢٩٥.

والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي، انظر: المستدرك ٤/٥٢٢، جامع الأصول ١١/٣٢٠ ـ ٣٢٤، صحيح الجامع ١/٣٨٢، حديث رقم ١٨٧٤.

أنهم كانوا يحملون الحديث عليه. وأما من جاء بعده: فالشافعي وإن كان متصفاً بالصفات الجميلة، إلا أنه لم يكن القائم بأمر الجهاد والحكم بالعدل»[1].

وقال الإمام النووي: «وكانت خلافة عمر سنتين وخمسة أشهر ـ نحو خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ـ فملأ الأرض قسطاً وعدلاً، وسنّ السنن الحسنة، وأمات الطرائق السيئة»[2].

وقال محارب بن دثار[3]:

لو أعظمَ الموتُ خَلْقاً أن يواقِعَهُ ... لعدلِه، لم يُصِبْكَ الموتُ يا عمرُ

كَمْ من شريعةِ حقٍّ قد نعشتَ لهمْ ... كادت تموتُ وأخرى منكَ تنتظرُ

يا لهفَ نفسي ولهف الواجدينَ معي ... على العدولِ التي تغتالُها الحُفَرُ

●● ولقد شهد لعمر بعدله وأعماله الجليلة رعاةُ الشاء في الجبال، الذين استدفؤوا بحنانه، واستظلوا بعدله وإنصافه.

بل إن الوحوش الكواسر قد تخلّت عن عدوانها، فأصبحت تعيش مع فرائسها من الشاء والأنعام في سلام ووئام!!

حدَّث مالك بن دينار فقال: «لما استُعمل عُمر بن عبد العزيز على الناس، قال رعاء الشاء في رؤوس الجبال: من هذا العبد الصالح الذي قام على الناس؟ قيل لهم: وما علمكم بذاك؟ قالوا: إنه إذا قام على الناس خليفةُ عدلٍ كفَّت الذئاب عن شائنا»!!

وعن جسر القصاب قال: «كنت أحلب الغنم في خلافة عمر بن عبد العزيز، فمررت براعٍ وفي غنمه نحو من ثلاثين ذئباً، فحسبتها كلاباً ـ ولم أكن رأيت الذئاب قبل ذلك ـ فقلت: يا راعي، ما ترجو بهذه الكلاب

---

(١) لأنه لم يكن خليفة ولا سلطاناً.

(٢) تهذيب الأسماء واللغات ٢/١٨.

(٣) الحلية ٥/٣٢١، المناقب ٣٣٥.

كلها؟ فقال: يا بني، إنها ليست كلاباً، إنما هي ذئاب!! فقلت: سبحان الله، ذئب في غنم لا يضرّها؟! فقال: يا بني، إذا صلح الرأس فليس على الجسد بأس! وكان ذلك في خلافة عمر بن عبد العزيز».

ويحدث موسى بن أعْيَن ـ راعٍ كان لمحمد بن أبي عُيينة ـ فيقول: «كنا نرعى الشاء بكرْمان في خلافة عمر بن عبد العزيز، فكانت الشاء والذئاب والوحوش ترعى في موضع واحد، فبينا نحن ذات ليلة إذ عرض الذئب لشاة، فقلنا: ما نرى الرجل الصالح إلا قد هلك. فحسبوا، فوجدوه هلك في تلك الليلة»[1]!!

* * *

هذه هي سيرة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز وهَدْيه، وصفاته وأخلاقه، وعبادته وتقواه وورعه، وشهامته ونبله، وطيب أصله وأصالة أرومته وعراقة محتده.

وتلكم هي الملامح البارزة للمنهج الفذ، والأعمال الجليلة، والإنجازات الباهرة، التي قدمها للبشرية إبّان خلافته المباركة.

وها هي شهادة الأئمة العدول الصادقين لعمر بأنه أحد أبرز أئمة العدل والخير والهدى والرشاد.

ونحسب أننا قدمنا في الصفحات السابقة الدليل القاطع الناصع على صدق ذلك الوصف الذي وصف به عمر بأنه «خامس الخلفاء الراشدين». وبرهنا بالأمثلة والشواهد والمواقف والشهادات من الأكابر؛ بأن عمر حقيق بهذه التسمية، وأهل لها.

---

(١) الطبقات ٥/٣٨٦ـ٣٨٧، الحلية ٥/٢٥٥ـ٢٥٦، صفة الصفوة ٢/١١٨، المناقب ٨٧، مختصر ابن عساكر ١١٩، البداية والنهاية ٩/٢٠٣، تاريخ الخلفاء ٢٣٣.

والمتتبع لهذه الصفحات يجد تشابهاً كبيراً بين سيرة هذا الإمام العظيم وسيرة جده الفاروق عمر، ولعل من حِكَم القدر أن يكون ابن عبد العزيز من نسله الطاهر، ويواطىء اسمُه اسمَه، وكنيتُه كنيتَه! ولو أننا لم نذكر اسم ابن عبد العزيز في هذه الصفحات، وقرأها قارىء؛ لما حسب هذه السيرة إلا لعمر بن الخطاب، وتلك ذرية بعضها من بعض.

* * *

ولنتابع طرفاً جديداً وأخيراً من سيرة هذا الرجل المبارك، فنقرأ بعض أقواله وحِكَمه ومواعظه وخطبه، ثم نستمع لأقوال الأئمة فيه، وثنائهم عليه، رضي الله عنه وأرضاه.

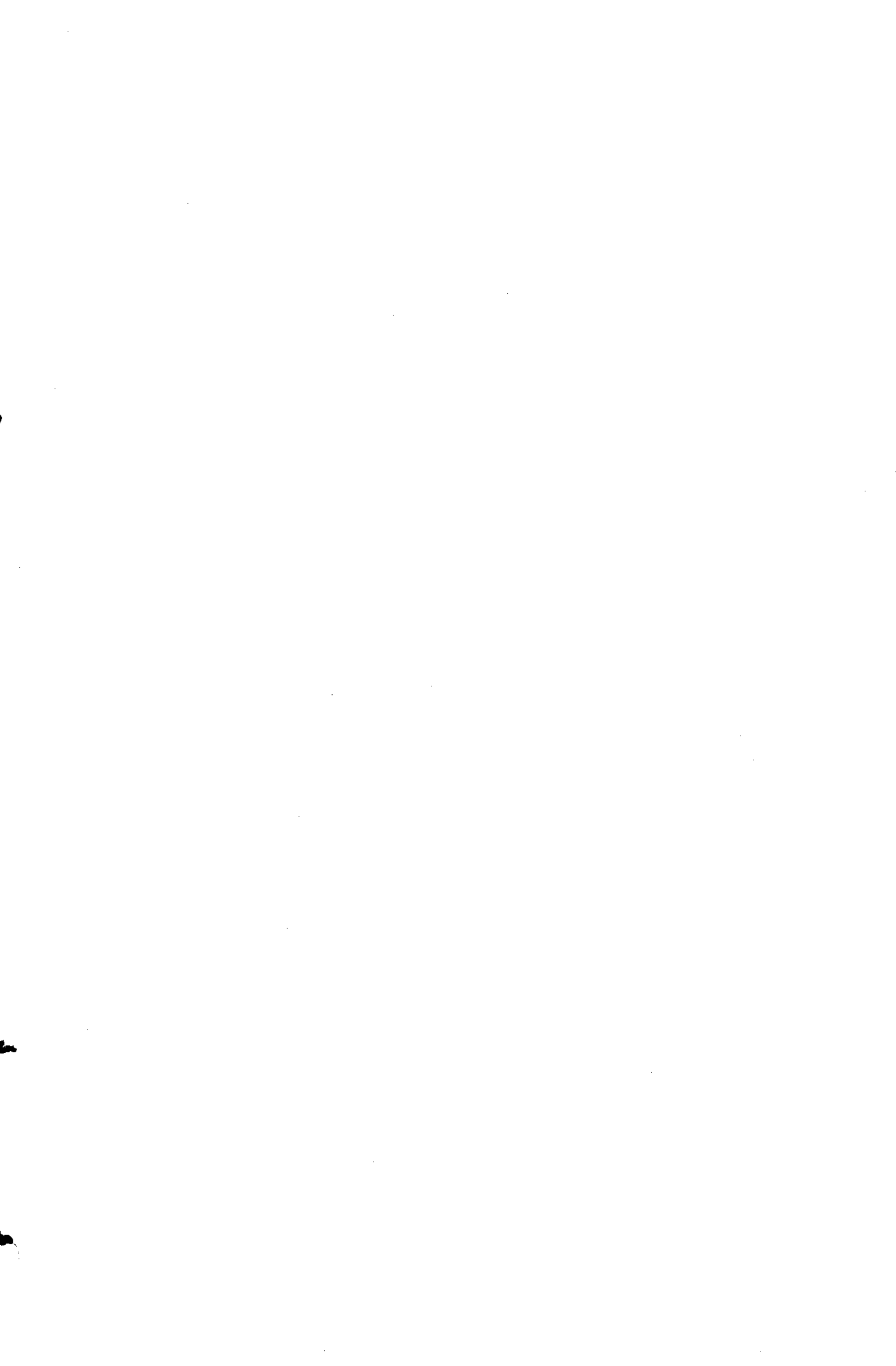
الباب الخامس
مكملات السيرة

وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول ـ من أقواله وخطبه ومواعظه

الفصل الثاني ـ مكانته والثناء عليه

الفصل الثالث ـ وفاته ومراثيه



الفَصلُ الأوَّل
مِنْ أَقْوَالِهِ وَحِكَمِهِ وَخُطَبِهِ وَمَوَاعِظِهِ

لقد أوتي أمير المؤمنين عمر من البيان سحراً، فكان فصيح اللسان، ناصع البيان، بليغ الكلام. حديثه مختار الكلمات، واضح السمات، نيِّر النسمات، قدِّرت ألفاظه قدر معانيه، وقرِّرت قواعده، وشيِّدت مبانيه. وكان مِدْرَه كلام: إذا خطب مَلَكَ قلوب السامعين، وإذا وعظ حرك الأفئدة، وشوّق الأرواح، وأبكى الحاضرين. وإن تكلم نطق بالحِكَم والدرر من الكَلِم الموجز المعبر، وأفرغ ذلك في قالب الانسجام، وأتى به الخاطر بغير تكلف، وجاء لفظه تابعاً لمعناه، منقاداً له غير مستكره ولا منافر.

ونسوق في هذا الفصل طرفاً من أقواله وحِكَمه، ومواعظه وخطبه، ونصائحه ووصاياه.

نماذج من أقواله وحكمه ووصاياه[1]:

يقول: «كنا نحن وبنو عمنا بنو هاشم مرة لنا ومرة علينا، نلجأ إليهم ويلجؤون إلينا، حتى طلعت شمس الرسالة؛ فأكسدتْ كل نافق، وأخرستْ كل منافق، وأسكتتْ كل ناطق».

---

(١) الطبقات ٥/٣٧٢، ٣٩٨، الحلية ٥/٢٦٥ ـ ٢٦٧، ٢٧٨، ٢٨٧ ـ ٢٨٨، ٢٩٢، ٣٠٧، ٣٢٥، ٣٤٥، صفة الصفوة ٢/١٢٣، المناقب ٧٩، ١١٤، ٢٣٦، ٢٣٩، ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٤٦، ٢٥٠، ٢٥٢، ٢٥٤، ٢٥٩ ـ ٢٦٠، ٢٧٣، ٢٨٧ ـ ٢٨٨. =

ومر برجل وفي يده حصاة يلعب بها وهو يقول: اللهم زوّجني من الحور العِين! فمال إليه عمر فقال: «بئس الخاطب أنت، ألا ألقيت الحصاة، وأخلصت إلى الله الدعاء»؟!

وعن الأوزاعي قال: «كتب إلينا عمر بن عبد العزيز رسالة، لم يحفظها غيري وغير مكحول: أما بعد: فإنه من أكْثَرَ ذكرَ الموتِ رضيَ من الدنيا باليسير، ومَنْ عدَّ كلامه من عمله قَلَّ كلامُه إلا فيما ينفعه. والسلام».

ويقول: «إن الله لا يعذّب العامة بعمل الخاصة، فإذا المعاصي ظهرت فلم يغيِّروا، أُخذت العامة والخاصة».

«أعجبُ ممن عرف الله فعصاه، وممن عرف الشيطان فأطاعه، وممن عرف الدنيا فركن إليها».

«لا ينفع القلب إلا ما خرج من القلب».

«القلوب أوعية السرائر، والألسن مفاتيحها؛ فليحفظ كل امرئ منكم مفتاح وعاء سرّه».

«إن العلم والعمل قرينان، فكن عالماً بالله عاملاً له، فإن أقواماً علموا ولم يعملوا؛ فكان علمهم عليهم وبالاً».

«ما قُرِنَ شيء إلى شيء أحسن من حلم إلى علم، ومن عفو إلى مقدرة».

«كفى بالقدر حاجزاً، وبالأجل حارساً».

«مَنْ عملَ على غير علم كان ما يُفْسِدُ أكثرَ مما يُصْلح، ومَنْ لم يعدّ كلامَه من عمله كثرتْ خطاياه، والرضا قليل، ومعوّل المؤمن الصبر».

= الطبري ٤٧٥/٧، مختصر ابن عساكر ١١٠، ١١٦، البداية والنهاية ١٩٨/٩ - ١٩٩، ٢٠٣، وغير ذلك.

وكتب إلى رجل يعزيه بابنه: «أما بعد: فإنّا قوم من أهل الآخرة، أسكنّا الدنيا، أموات أبناء أموات؛ والعجب لميت يكتب إلى ميت يعزيه عن ميت. والسلام»!

ومن وصاياه:

كتب إلى رجل: «أوصيك بتقوى الله الذي لايقبل غيرها، ولا يرحم إلا أهلها، ولا يثيب إلا عليها، فإن الواعظين بها كثير، والعاملين بها قليل».

وكتب إلى بعض عماله: «أما بعد: فإذا دعتك قدرتك على الناس إلى ظلمهم؛ فاذكر قدرةَ الله تعالى عليك، ونفادَ ما تأتي إليهم، وبقاء ما يأتون إليك».

وقال لابنه عبد العزيز: «يا بني، إذا سمعتَ كلمة من امرىءٍ مسلم فلا تحملها على شيء من الشر ما وجدتَ لها محملاً من الخير».

وقال لميمون بن مهران: «يا ميمون، لا تدخل على هؤلاء الأمراء وإن قلتَ آمرهم بالمعروف. ولا تخلونّ بامرأة وإن قلتَ أُقْرِئها القرآن. ولا تصلنَّ عاقّاً، فإنه لن يصلك وقد قطع أباه».

وكتب إلى أخ له: «يا أخي، إنك قد قطعتَ عظيم السفر، وبقي أقلُّه؛ فاذكرْ ـ يا أخي ـ المصادرَ والمواردَ، فقد أُوحي إلى نبيِّك ﷺ في القرآن أنك من أهل الورود، ولم يُخْبَر أنك من أهل الصدور والخروج. وإياك أن تغرَّك الدنيا، فإن الدنيا دار مَنْ لا دار له، ومال من لا مال له، يا أخي، إن أجلك قد دنا، فكن وصيَّ نفسك، ولا تجعل الرجال أوصياءك».

وكتب إلى عامل له يوصيه: «أما بعد: فالزم الحقَّ، ينزلك الحقُّ منازل أهل الحقِّ، يوم لا يُقضى بين الناس إلا بالحقّ، وهم لا يُظلمون».

وقال: «إن استطعت فكن عالماً، فإن لم تستطع فكن متعلماً؛ فإن لم تستطع فأحبّهم ـ أي العلماء ـ فإن لم تستطع فلا تبغضهم».

ومن خطبه الجليلة العظيمة:

«يا أيها الناس اتقوا الله، فإن في تقوى الله خَلَفاً من كل شيء دونه، وليس لتقوى الله خلف. يا أيها الناس اتقوا الله وأطيعوا من أطاع الله، ولا تطيعوا من عصى الله».

وصعد المنبر ذات يوم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس، إنما يُراد الطبيب للوجع الشديد، ألا فلا وجع أشد من الجهل، ولا داء أخبث من الذنوب، ولا خوف أخوف من الموت». ثم نزل.

وخطب الناس فقال: «أيها الناس، لا يبعدنّ عليكم ولا يطولنّ يومُ القيامة، فإنه من وافته منيَّتُه فقد قامتْ عليه قيامتُه، لا يستطيع أن يزيد في حسن، ولا يعتب من سيىء. ألا لا سلامة لامرىءٍ في خلاف السنّة، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. ألا وإنكم تسمُّون الهارب من ظلم إمامه: العاصي، ألا وإن أولاهما بالمعصية الإمام الظالم»!

وخطب بالشام على منبر من طين، فحمد الله وأثنى عليه، ثم خَنَقَتْهُ العَبْرة، ثم تكلم بثلاث كلمات:

«أيها الناس، أصْلِحُوا آخرتكم، تَصْلُحْ لكم دنياكم. وأصلِحوا سرائرَكم، تصْلُح لكم علانيتكم. والله إن عبداً ليس بينه وبين آدم أب له إلا قد مات؛ إنه لمُعْرَقٌ له في الموت»!

وكانت آخر خطبة له أنه صعد المنبر فقال: «أيها الناس، إنكم لم تُخلقوا عبثاً، ولن تتركوا سدىً، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه للحكم فيكم، والفصل بينكم، وقد خاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء، وحُرم الجنة التي عرضها السموات والأرض. ألا واعلموا أنما

الأمان غداً لمن حذر الله وخافه، وباع نافداً بباقٍ، وقليلاً بكثير، وخوفاً بأمان. ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين، وسيخلفها بعدكم الباقون، كذلك حتى تُرَدّ إلى خير الوارثين. وفي كل يوم تشيِّعون غادياً ورائحاً إلى الله، قد قضى نَحْبَه، وانقضى أجلُه، فتغيِّبونه في صدع من الأرض، ثم تَدَعُونه غير موسَّدٍ ولا ممهَّدٍ، قد فارق الأحباب، وخلع الأسباب، فسكن التراب وواجه الحساب، فهو مرتهن بعمله، فقير إلى ما قدَّم، غنيٌّ عما ترك. فاتقوا الله قبل نزول الموت وانقضاء مواقعه. وايمُ اللهِ إني لأقول لكم هذه المقالة، وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما عندي، فأستغفر الله وأتوب إليه. وما منكم من أحد تبلغنا عنه حاجة إلا أحببتُ أن أسدّ من حاجته ما قدرتُ عليه. وما منكم أحد يسعه ما عندنا إلا وددتُ أنه سُدَاي ولُحمتي، حتى يكون عيشنا وعيشه سواء. وايمُ اللهِ لو أردتُ غير هذا من الغضارة والعيش؛ لكان اللسان مني به ذلولاً، عالماً بأسبابه، ولكنه مضى من الله كتاب ناطق وسنّة عادلة، يدلّ فيها على طاعته، وينهى عن معصيته».

ثم رفع طرف ردائه فبكى حتى شهق، وأبكى الناسَ حوله. ثم نزل فكانت إياها، لم يخطب بعدها حتى مات رحمه الله.

ومن مواعظه البليغة التي تعبّر عن نفسه الأوّاهة، وروحه المتبتلة، وقلبه الخاشع المنيب[1]:

«إن لكلّ سفر زاداً لا محالة، فتزوّدوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة، وكونوا كمن عاينَ ما أعدّ الله تعالى من ثوابه وعقابه، ترغبون وترهبون. ولا يطولنَّ عليكم الأمد فتقسو قلوبكم، وتنقادوا لعدوّكم، فإنه

---

(١) الطبقات ٥/٣٧١، الحلية ٥/٣٢٩ - ٣٣٠، المناقب ٢١٧ - ٢١٨، ٢٣٢، ٢٥١، مختصر ابن عساكر ١٢٠، البداية والنهاية ٩/٢٠٣ - ٢٠٤، ٢١٦ - ٢١٨.

ـ والله ـ ما بسط أمل من لا يدري، لعلّه لا يصبح بعد مسائه، ولا يمسي بعد صباحه، وربما كانت بين ذلك خطفات المنايا؛ فكم رأينا ورأيتم مَنْ كان بالدنيا مغترّاً، وإنما تقرُّ عينُ من وثق بالنجاة من عذاب الله، وإنما يفرح مَنْ أمِنَ من أهوال يوم القيامة، فأما من لا يبرأ من كَلْم إلا أصابه جرحٌ من ناحية أخرى!! أعوذ بالله أن آمركم بما أنهى نفسي عنه، فتخسر صفقتي، وتظهر عيلتي، وتبدو مسكنتي، في يوم يبدو فيه الغنى والفقر، والموازين منصوبة. لقد عُنيتم بأمر، لو عُنيتْ به النجوم لانكدرتْ، ولو عُنيت به الجبال لذابتْ، ولو عُنيتْ به الأرض لتشققت! أَمَا تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة، وأنكم صائرون إلى إحداهما»؟!

وذهب يوماً ليعزي أهل صديق له قد مات، فكان منه هذه الموعظة التي يرويها علي بن الحسين فيقول: «كان لعمر بن عبد العزيز صديق، فأخبر أنه قد مات، فجاء إلى أهله يعزيهم، فصرخوا في وجهه، فقال لهم عمر: مَهْ! إن صاحبكم هذا لم يكن يرزقكم، وإن الذي يرزقكم حي لا يموت. وإن صاحبكم هذا لم يَسُدّ شيئاً من حفركم، إنما سدّ حفرة نفسه. وإن لكل امرىء منكم حفرة لا بد ـ والله ـ أن يسدّها. إن الله تعالى لما خلق الدنيا حَكَم عليها بالخراب، وعلى أهلها بالفناء، وما امتلأتْ دار حَبْرَة، إلا امتلأتْ عَبْرة، ولا اجتمعوا إلا تفرّقوا، حتى يكون الله هو الذي يرث الأرض ومن عليها. فمن كان منكم باكياً فليبكِ على نفسه؛ فإن الذي صار إليه صاحبكم اليوم، كلكم يصير إليه غداً»!!

وكان شديد التأثير فيمن يستمع إليه، لأن كلامه يخرج من قلبه فيقع في قلوب سامعيه، وما خرج من القلب وقع في القلب.

فعن ميمون بن مهران قال: «إني لعند عمر بن عبد العزيز، إذ فُتح له منطقٌ حسن، حتى رقَّ له أصحابه. قال: ففطن لرجل منهم، وهو يحذف دمعته! فقطع منطقه، فقلتُ له: امضِ في منطقك، فإني لأرجو أن يمنَّ

الله به على مَنْ سمعه، فانتهى إليه. فقال بيده إليك عني، فإن في القول فتنة، والفعال أَوْلى بالمرء من القول».

وعن عبد الأعلى بن عبد الله الغزي قال: «رأيت عمر بن عبد العزيز خرجَ في يوم جمعة في ثياب دسمة، ووراءه حبشي يمشي، فلما انتهى إلى الناس رجع الحبشي، فكان عمر إذا انتهى إلى الرجلين قال: هكذا رحمكما الله[1]، حتى صعد المنبر، فخطب، فقرأ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ. وَإِذَا النَّجومُ انْكَدَرَتْ﴾ حتى إذا انتهى إلى ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ. وَإِذا الجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾[2] ـ فبكى، وأبكى أهلَ المسجد، حتى ارتجّ المسجدُ بالبكاء، حتى رأيتُ حيطانَ المسجد تبكي معه»!!

* * *

(١) أي يباعد بينهما ليمرّ.

(٢) سورة التكوير: الآيات ١ ـ ١٣.

الفَصل الثاني
مَكانَتُهُ وَالثَّناءُ عَلَيْهِ

لقد شهد له الأئمة الثقات، والعلماء العاملون، والفقهاء والزهاد؛ بأنه من أئمة العدل، وأحد الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، والعلماء الأفذاذ، والزهّاد العبّاد، وأنه المجدِّد لهذه الأمة دينها على رأس المائة الأولى.

ولنذكر طرفاً مما أثنى به عليه أولئك الأجلّة الصادقون، لنرى المكانة الشاهقة التي كان يتبوأها رضي الله عنه في قلوب الأمة عامتها وخاصتها.

عن عمرو بن قيس المُلَائي قال: سُئل محمد[1] بن علي بن الحسين عن عمر بن عبد العزيز، فقال: «أَمَا علمتَ أن لكل قوم نجيبة، وأن نجيبة بني أمية عمر بن عبد العزيز، وإنه يبعث يوم القيامة أمة وحده»[2].

وأثنت فاطمة بنت علي بن أبي طالب على عمر؛ وقالت: «لو بقي لنا ما احتجنا بعْدُ إلى أحد»[3].

---

(١) هو أبو جعفر الباقر وَلَدُ زين العابدين، كان إماماً مجتهداً، تالياً لكتاب الله، كبير الشأن. وهو أحد الأئمة الاثني عشر الذين تبجلهم الشيعة الإمامية وتقول بعصمتهم، وهو ضلال؛ فلا عصمة إلا للملائكة والنبيين.

(٢) الحلية ٥/٢٥٤، المناقب ٧٤، تاريخ الإسلام ١٩٠، تهذيب التهذيب ٧/٤١٩.

(٣) سير أعلام النبلاء ٥/١٣١، تاريخ الإسلام ١٩٧، الكامل في التاريخ ٤/١٦٤ ـ ١٦٥.

وقال عبد الله بن طاوس: «رأيت أبي تواقف هو وعمر بن عبد العزيز من بعد صلاة العشاء حتى أصبحنا، فلما افترقا قلت: يا أبَهْ، من هذا الرجل؟ قال: هذا عمر بن عبد العزيز، وهو من صالحي هذا البيت ـ يعني بني أمية ـ»[1].

وقال الإمام الفقيه عالم أهل الشام مكحول الدمشقي: «لو حلفت ما استثنيت، ما كان في زمانه أخوف لله ـ عز وجل ـ من عمر، ولو حلفت ما استثنيت ما كان في زمانه أزهد في الدنيا من عمر»[2].

وقال الإمام أحمد بن حنبل: «إذا رأيت الرجل يحب عمر بن عبد العزيز، ويذكر محاسنه وينشرها؛ فاعلم أن من وراء ذلك خيراً، إن شاء الله»[3].

وقال الحافظ الحجة ابن سعد: «وكان ثقة مأموناً، له فقه وعلم وورع، وروى حديثاً كثيراً، وكان إمام عَـدْلٍ رحمه الله ورضي عنه»[4].

وقال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني: «كان واحدَ أمته في الفضل، ونجيبَ عشيرته في العدل، جمع زهداً وعفافاً، وورعاً وكفافاً. شغله آجلُ العيش عن عاجله، وألْهَاهُ إقامة العدل عن عاذِله. كان للرعية أمناً وأماناً، وعلى مَنْ خالفه حجة وبرهاناً. كان مفوَّهاً عليماً، ومفهَّماً حكيماً»[5].

وقال الإمام النووي: «وأجمعوا على جلالته وفضله، ووفور علمه، وصلاحه وزهده، وورعه وعدله، وشفقته على المسلمين، وحسنِ سيرته فيهم، وبذلِ وسعه في الاجتهاد في طاعة الله، وحرصه على اتباع آثار رسول الله ﷺ والاقتداء بسنّته وسنة الخلفاء الراشدين. وهو أحد الخلفاء الراشدين، ومناقبه أكثر من أن تُحصر»[6].

---

(١) البداية والنهاية ٩/١٩٤ ـ ١٩٥.
(٢، ٣) المناقب ٣٧، ٧٤.
(٤) سير أعلام النبلاء ٥/١١٥، تهذيب التهذيب ٧/٤١٨.
(٥) الحلية ٥/٢٥٤.
(٦) تهذيب الأسماء واللغات ٢/١٧.

وقال الإمام الذهبي: «الإمام الحافظ، العلاّمة المجتهد، الزاهد العابد السيد، أمير المؤمنين حقاً».

وقال أيضاً: «يُعَدُّ في حسنِ السيرة والقيامِ بالقسط مع جده لأمه عمر، وفي الزهدِ مع الحسن البصري، وفي العلم مع الزهري»(١).

وقال الحافظ المؤرخ المفسر ابن كثير: «وكان حَكَماً مقسِطاً، وإماماً عادلاً، وورعاً ديِّناً، لا تأخذه في الله لومة لائم. رحمه الله تعالى»(٢).

* * *

(١) سير أعلام النبلاء ٥/١١٤، تذكرة الحفاظ ١/١١٩.
(٢) البداية والنهاية ٩/١٩٢.

الفَصل الثالث
وَفَاتُهُ وَمَرَاثِيه

مرضه ووفاته وسببها:

لقد نجح عمر بن عبد العزيز فيما عقد عليه عزمه نجاحاً باهراً قَلَّ نظيره، وسار على طريقة جده الفاروق، ونقل الدولة والأمة لتحيى في امتداد عصر الوحي والنبوة، وبذل في سبيل ذلك جهداً خارقاً كان على حساب كل ذرة من جسمه النحيل! كان يبذل جهد رجل يرى نفسه مسؤولاً مسؤولية مباشرة وكاملة عن كل فرد في الأمة، ويعيش المشكلات الطاحنة في استغراق رهيب، فيعالجها بيد الزاهد الأريب، وعقل العالم البصير، وفكر الحاكم المجرّب الخبير.

لقد عاش في الخلافة تسعة وعشرين شهراً حقق خلالها ما يعجز عن تحقيق مثله جماعة من الخلفاء في أعصر متوالية، وغيَّر وجه الدولة والحياة في زمن يسير تغييراً هائلاً يتطلب عند غيره جيلاً أو جيلين، فأبى هو إتمامه إلا في نيِّف وعامين، فكان بكل جزيئات جسمه يعمل ويحترق ليعطي في اليوم جهد عام!!

وراح مع وزرائه ومستشاريه وأنصاره وولاته يضاعف الجهد لينجز العمل المناط به، قبل أن يأتيه الأجل، فيسلّم الراية ليُبحرَ إلى العالم الآخر. وما جاءه أجله إلا والتبعات الجسام، والأعمال العظام، والتغييرات الهائلة؛ قد أحدثتْ في جسمه شروخاً تصدِّع الجبالَ الرواسي، لكنها لم

تكسر عزيمة الرجل العظيم، الذي انتقل إلى ربه ويمناه القوية الأمينة حاملة الراية عزيزة كريمة، وهي تقول في صدق وإخلاص:

اللهم هذه الراية لم أسْلِمهْا، وتلك الأمانة لم أخُنْها، وهذه الأمة لم أضيِّعْها!

لقد أثقلت كاهله المسؤوليات، وسيطر عليه الاهتمام بشؤون الرعية، فملأت عليه ليله ونهاره، وساعات عمله ولحظات راحته، وقام بذلك كله خير قيام، لكنه أشفق على نفسه من الوقوف الطويل بين يدي اللطيف الخبير، والمساءلة العريضة والعميقة عن كل صغيرة وكبيرة؛ فأدخلَه ذلك في المرض.

سأل سائل فاطمةَ بنت عبد الملك ـ امرأة عمر ـ: «ما تُرَينَ بَدْيَ مرضِ عمر الذي مات فيه؟ قالت: أُرى بَدْيَه أو جلَّه: الوَجَل».

وعن عبد المجيد بن سهيل قال: «رأيتُ الطبيب خرج من عند عمر ابن عبد العزيز، فقلنا: كيف رأيتَ بوله اليوم؟ فقال: ما ببوله بأس، إلا الهمّ بأمر الناس»[1].

وبينا عمر في عنائه وأعماله وأعبائه، إذ بإرهاصات الآخرة ترسل أنوارها وبشائرها إلى الرجل البطل، تستدعيه إلى حيث السرور الخالد، والخلود السارّ، الذي لا تعكر صفوه شائبة من شوائب الدنيا، وما أكثرها وأمرها!

والمحزن حقاً أن تكون نهايته بسمٍّ يُدَسُّ له في الطعام، فيمرض بعد ذلك أياماً، ثم يلحق بالرفيق الأعلى.

أَفَهذا رجل يستحق السمّ؟! أَوَهـكذا جزاء الإحسان والإصلاح والنجاح؟! أَوَ بَلَغَ العقوق لهذا الخليفة الميمون أن تُستثقل حياته المباركة،

---

(١) الطبقات ٥/٤٠٤، الحلية ٥/٣١٥، المناقب ٣١٦.

ويُستعجل موته؛ فتُنهى أيامه، وتُقتل روحه، على هذا النحو المفظع؟!

إن هذا الأمر لم يكن عن ملأٍ من الأمة وتشاور، ولا ائتمار وتآمر في الخفاء منها عليه؛ كيف وهي تفديه بالمهج والأرواح، وتتمنى أن لو طالت به الحياة وطالت؟! إنما كان ذلك من شرذمة ضاقت بالحق والعدل والرحمة، لأن مكاسبها الموقوتة، وامتيازاتها الظالمة، قد داسها هذا الرجل العظيم ليس برجله بل بحوافر بغلته التي لم يكن له مركب سواها.

لقد طُلب إليه أن يتحفظ في طعامه، وأن يضع حارساً يناوش من يهمّ باغتياله؛ فأبى ذلك. عن أرطاة بن المنذر قال: «قيل لعمر بن عبد العزيز: لو جعلتَ على طعامك أميناً لا تُغتال، وحرساً إذا صليتَ لا تُغتال، وتَنَحَّ عن الطاعون. قال: اللهم إن كنتَ تعلم أني أخاف يوماً دون يوم القيامة، فلا تؤمنْ خوفي»[1].

وتآمر عليه نفر من بني أمية، كانوا قد تبرَّموا به، لكونه شدّد عليهم، وانتزع كثيراً مما في أيديهم مما قد غصبوه. وكان هو قد أهمل التحرُّزَ، فأغروا به غلاماً له، فدسّ السمّ في طعامه. وعندما جاءه الطبيب قال له: «هل أحسستَ بذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، قد عرفتُ حين وقع في بطني. قال: فتعالجْ يا أمير المؤمنين، فإني أخاف أن تذهب نفسك! فقال: ربي خير مذهوب إليه، والله لو علمتُ أن شفائي عند شحمة أذني، ما رفعتُ يدي إلى أذني فتناولته! اللهم خِرْ لعمر في لقائك. فلم يلبث أياماً حتى مات»[2].

ثم دعا غلامه فقال له: «ويحك، ما حملك على أن سقيتني السمّ؟! قال: ألف دينار أُعطيتُها، وعلى أن أُعْتَق. قال: هاتِها. فجاء بها، فألقاها في بيت المال، وقال: اذهبْ حيث لا يراك أحد»[3].

---

(١) المناقب ٢٢٦، سير أعلام النبلاء ٥/١٣٩.

(٢، ٣) المناقب ٣١٦ ـ ٣١٧، سير أعلام النبلاء ٥/١٣٩ ـ ١٤٠، تاريخ الإسلام=

هكذا أيها الظالم لنفسه! مقابل ألف دينار تنهي هذه الرحمة المهداة للبشرية، التي طالما استدفأ بحنانها وشفقتها وعدلها: الأيامى والثكالى، والجياع والمساكين، والفقراء والمحاويج، والزمنى والعميان، والمظلومون والمقهورون، والمقعدون والخائفون؟!

إن مسلسل الاغتيالات الأسود الذي جاء به العجم إلى ديار الإسلام، لا تزال كل حلقة منه تأخذ برقبة الأخرى، منذ عهد عمر الفاروق وحتى قيام الساعة، تغتال كل أمّارٍ بالمعروف، فعّالٍ للخير، ناهٍ عن المنكر، محارِبٍ للباطل.

واشتكى عمر من المرض الذي نزل به، ومكث فيه عشرين يوماً، والسم يسري في أوصاله، ويقتله قتلاً بطيئاً.

وتأججت أشواقه إلى لقاء الله، وراح يضرع بهذا الدعاء المتأوِّه: «اللهم إنك قد قبضتَ سَهْلاً وعبد الملك ومُزَاحماً، وكانوا أعواني على ما قد علمتَ، فلم أَزْدَدْ لك إلا حُباً، ولا فيما عندك إلا رغبة؛ فاقبضني إليك غير مضيَّع ولا مفرِّط».

وأرسل إلى ذِمّي بدَيْر سِمْعَان ـ من أرض المَعَرَّة ـ فساومه موضع قبره، فقال الذمّيّ: يا أمير المؤمنين، والله إنها لخيرة أن يكون قبرك في أرضي، قد حلّلتُكَ! فأبى عمر حتى ابتاعه منه بدينارين، ثم دعا بالدينارين فدفعهما إليه[1].

وقد أشاروا عليه بأن يقترب من المدينة المنورة، فإن مات دُفن بالقرب من رسول الله ﷺ، فأبى ذلك. روى ابن سعد وغيره: «قيل لعمر

= ٢٠٣، تذكرة الحفاظ ١/١٢١، البداية والنهاية ٩/٢٠٩ ـ ٢١٠.

(١) الطبقات ٥/٤٠٤، ٤٠٨، الطبري ٧/٤٧٠، الحلية ٥/٢٥٩، المناقب ٣١٦، ٣٢٣، سير أعلام النبلاء ٥/١٤٤، ١٤٦، تاريخ الإسلام ٢٠٥، البداية والنهاية ٩/٢١٠.

ابن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين، لو أتيتَ المدينة، فإن قضى الله موتاً دُفنتَ في موضع القبر الرابع مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر. قال: واللهِ لأن يعذّبني الله بكلّ عذاب إلا النار ـ فإني لا صَبْرَ لي عليه ـ أحبّ إليَّ من أن يعلم الله من قلبي أني أُراني لذلك أهلاً»[1].

وصاياه:

وقبل أن يفارق الدنيا كانت له وصايا ومواقف تدل على علّو نفسه، وتعلّقه بربه، ورحمته لهذه الأمة، وإشفاقه على مصيره، رغم عدله الذي ملأ عبيرُه السهولَ والجبال، وعمَّ الإنسان والحيوان.

كتب إلى وليّ العهد من بعده: «بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين، إلى يزيد بن عبد الملك، سلام عليك، فإني أحمدُ إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فإني كتبتُ إليك وأنا دَنِفٌ[2] من وجعي، وقد علمتُ أني مسؤولٌ عما وليتُ، يحاسبني عليه مليك الدنيا والآخرة، ولستُ أستطيع أن أخفي عليه من عملي شيئاً؛ يقول تعالى فيما يقول: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بعلمٍ وَمَا كُنّا غَائِبِينَ﴾[3]. فإن يرضَ عني الرحيم فقد أفلحتُ ونجوتُ من الهوانِ الطويل، وإن سخط علي، فيا ويحَ نفسي إلى ما أصير. أسأل الله الذي لا إله إلا هو أن يجيرني من النار برحمته، وأن يَمُنَّ عليَّ برضوانه والجنة. فعليك بتقوى الله، والرعيةَ الرعيةَ، فإنّكَ لن تبقى بعدي إلا قليلاً، حتى تلحق باللطيف الخبير. والسلام»[4].

وأوصاه أيضاً فقال: «أما بعد: فإياك أن تدركك الصَّرْعَةُ عند الغِرّة،

---

(١) الطبقات ٥/٤٠٤، الحلية ٥/٣٣٥، المناقب ٣٢٣ ـ ٣٢٤، سير أعلام النبلاء ٥/١٤١، تاريخ الإسلام ٢٠٣ ـ ٢٠٤.
(٢) دَنِفَ المريضُ: اشتدّ مرضُه وأشفى على الموت. فهو دَنِفٌ.
(٣) سورة الأعراف: الآية ٧.
(٤) الحلية ٥/٢٧٤ ـ ٢٧٥، المناقب ٣١٧ ـ ٣١٩.

فلا تُقال العَثْرة، ولا تُمَكّن من الرجعة. ولا يحمدك من خَلَّفْتَ، ولا يعذركَ مَنْ تَقْدَمُ عليه. والسلام»[1].

وحين حضره الموت كتب إليه يوصيه: «سلام عليك، أما بعد: فإنيّ لا أُراني إلّا لِمَا بي، ولا أُرى الأمرَ إلا سيُفضي إليكَ، واللهَ اللهَ في أمةِ محمد النبي ﷺ، فَتَدَعُ الدنيا لمن لا يحمدك، وتُفضي إلى مَنْ لا يعذرك. والسلام عليك»[2].

وأوصى أن يُكَفَّن في خمسة أثواب منها قميص وعمامة، وقال: «هكذا كان ابن عمر يكفن من مات من أهله». ودعا بشَعَر من شعر النبي ﷺ وأظفار من أظفاره، وقال: «إذا متُّ، فخذوا الشعر والأظفار ثم اجعلوه في كفني». ففعلوا ذلك. وأوصى إذا حُضر أن يوجَّه إلى القبلة على شقه الأيمن[3].

ودخل مسلمة بن عبد الملك على عمر في مرضه الذي مات فيه، فقال: «من توصي بأهلك؟ فقال: إذا نسيتُ الله فذكّروني! فعادَ له، فقال: من توصي بأهلك؟ قال: ﴿إنَّ وَلِيّيَ اللهُ الَّذي نَزَّلَ الكتابَ وَهُوَ يَتَوَلّى الصَّالِحينَ﴾[4].

ولما كانت الصرعة التي هلك فيها عمر، دخل عليه مسلمة بن عبد الملك فقال: «يا أمير المؤمنين، إنك أَقْفَرْتَ أفواه ولدك من هذا المال، فتركتَهم عالةً لا شيء لهم، فلو أوصيتَ بهم إليَّ أو إلى نظرائي من أهل بيتك؟! فقال: أسندوني، ثم قال: أما قولك: إني أقفرت أفواه ولدي من هذا المال، فإني ـ والله ـ ما منعتهم حقاً هو لهم، ولم أعطهم ما ليس لهم. وأما قولك: لو أوصيتَ بهم إليّ أو إلى نظرائي من أهل بيتك، فوصيي ووليي فيهم الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين. بَنيَّ أحد

(١، ٢) الطبقات ٥/٤٠٥ ـ ٤٠٦.

(٣) الطبقات ٥/٤٠٦، المناقب ٣٢١ ـ ٣٢٢. (٤) سورة الأعراف: الآية ١٩٦.

رجلين: إما رجل يتقي الله، فسيجعل الله له مخرجاً. وإما رجل مكِبٌّ على المعاصي، فإني لم أكن لأقوّيه على معصية الله. ثم بعث إليهم - وهم بضعة عشر ذكراً - فنظر إليهم، فذرفتْ عيناه، فبكى، ثم قال: بنفسي الفتية الذين تركتهم عَيْلى لا شيء لهم؛ بلى بحمد الله قد تركتهم بخير! أي بَنِيَّ، إنكم لن تلقوا أحداً من العرب، ولا من المعاهَدين، إلا كان لكم عليهم حقاً. أي بني، إن أمامكم ميل بين أمرين: بين أن تستغنوا ويدخل أبوكم النار، وأن تفتقروا ويدخل أبوكم الجنة؛ فكان أن تفتقروا ويدخل أبوكم الجنة أحبَّ إليه من أن تستغنوا ويدخل النار. قوموا عصمكم الله»[1].

آخر عهده بالدنيا:

وودع أبناءه بنظرة حانية، وابتسم لهم ولأمّهم العظيمة وزوجته الوفية الشامخة، وأذن لهم بالانصراف، فخرجوا وخرج مسلمة، وجلسوا على الباب. وصوَّب عمر عينيه تجاه الباب، كأنه يلمح ضيوفاً أعزاء قد قدموا عليه، وما كانوا إلا بعثة شرف من الملأ الأعلى!! لقد جاءت الملائكة الكرام ليأخذوا الخليفة الراشد والرجل المعجزة، ليشهدوا معه هناك حفل تتويجه في سجل الخلود وفي الفردوس الأعلى.

تقول زوجته - وهي بالباب - : «فجعلت أسمعه يقول: مرحباً بهذه الوجوه التي ليست بوجوه إنس ولا جانّ!! ثم قرأ: ﴿تِلْكَ الدارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذينَ لا يُريدونَ عُلُوّاً في الأرضِ وَلا فَساداً وَالْعَاقِبَة لِلْمُتَّقِينَ﴾[2] مراراً، ثم أطرق. فلبثتُ طويلاً لا يسمع له حس، فقلت لوصيفٍ: ويحك، انظر! فلما دخل صاح، فدخلتُ فوجدتُه ميتاً، قد أقبل بوجهه

---

(١) الطبقات ٥/٤٠٥، الحلية ٥/٣٣٣ - ٣٣٤، صفة الصفوة ٢/١٢٥ - ١٢٦، المناقب ٣٢٠ - ٣٢١، سير أعلام النبلاء ٥/١٤٠، تاريخ الإسلام ٢٠٣، البداية والنهاية ٩/٢١٠.

(٢) سورة القصص: الآية ٨٣.

على القبلة، ووضع إحدى يديه على فيه، والأخرى على عينيه»[1].

وفاته، ومكان دفنه، وعمره يوم مات، وتركته:

توفي رضي الله عنه بخُناصرة، في شهر رجب سنة إحدى ومائة، وله تسع وثلاثون سنة ونصف! ودفن بدَيْر سِمْعَان، وصلّى عليه مَسْلَمة بن عبد الملك[2].

وفاضت الروح الطاهرة إلى بارئها، إلى جنات ونَهَرٍ في مقعدِ صدقٍ عند مليك مقتدر، حيث لا فناء ولا شقاء، ولا أحزان ولا عناء، بل خلود أبداً، وسرور سرمداً، ورضى من الله دائماً وأبداً.

وأشاع بعض الشانئين لأمير المؤمنين عمر، فرية ظالمة آثمة، راجتْ على عمر بن الوليد بن عبد الملك، الذي ظن أن لعمر حياةً في السرّ غير ما يشهده الناس ويعرفونه: حياة مترعة بالمناعم والأطايب والرفاه! فأراد أن يسوّد تلك الصفحات الناصعة في سيرة الخليفة الراحل، وأن يحجب ضياء الشمس بيد قاصرة ـ فحرّض الخليفةَ الجديد على تركة عمر رضي الله عنه. يقول رجاء بن حَيْوَة:

«لما مات أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، وقام يزيد بن عبد الملك بعده في الخلافة، أتاه عمر بن الوليد بن عبد الملك، فقال ليزيد: يا أمير المؤمنين، إن هذا المرائي ـ يعني عمر بن عبد العزيز ـ قد خان من المسلمين كلَّ ما قدر عليه من جوهر نفيس ودرّ ثمين، في بيتين في داره مملوءين، وهما مقفولان على ذلك الدرّ والجوهر!

---

(١) الطبري ٧/٤٧٧، الحلية ٥/٣٣٥، المناقب ٣٢٥ ـ ٣٢٦، صفة الصفوة ٢/١٢٦، سير أعلام النبلاء ٥/١٤١، تاريخ الإسلام ٢٠٤، البداية والنهاية ٩/٢١٠. وغير ذلك.

(٢) الطبقات ٥/٤٠٧ ـ ٤٠٨، الطبري ٧/٤٦٩ ـ ٤٧٠، صفة الصفوة ٢/١٢٧، المناقب ٣٢٧، ٣٢٨، سير أعلام النبلاء ٥/١٤٤ ـ ١٤٥، تاريخ الإسلام ٢٠٥ ـ ٢٠٦، البداية والنهاية ٩/٢١٢.

فأرسل يزيد إلى أخته فاطمة بنت عبد الملك ـ امرأة عمر ـ : بلغني أن عمر خلَّف جوهراً ودرّاً في بيتين مقفولين.

فأرسلت إليه: يا أخي، ما ترك عمر من سَبَدٍ ولا لَبَدٍ[1]، إلا ما في هذا المنديل، وأرسلتْ إليه به. فحلَّه، فوجد فيه قميصاً غليظاً مرقوعاً، ورداء قَشِيباً[2]، وجبّة محشوة غليظة واهية البطانة.

فقال يزيد للرسول: قل لها: ليس عن هذا أسأل، ولا هذا أريد، إنما أسأل عما في البيتين!

فأرسلت تقول له: والذي فجعني بأمير المؤمنين، ما دخلتُ هذين البيتين منذ ولي الخلافة؛ لعلمي بكراهته لذلك، وهذه مفاتيحهما، فتعالَ فحوِّل ما فيهما لبيت مالك.

فركب يزيد ومعه عمر بن الوليد، حتى دخل الدار، ففتح أحد البيتين فإذا فيه: كرسي من أَدَم، وأربع آجرّات مبسوطات عند الكرسي، وقُمْقُم[3]! فقال عمر بن الوليد: أستغفر الله. ثم فتح البيت الثاني، فوجد فيه: مسجداً مفروشاً بالحصا، وسلسلة معلقة بسقف البيت، فيها كهيئة الطوق بقدر ما يدخل الإنسان رأسه فيها إلى أن تبلغ العنق، كان إذا فَتَرَ عن العبادة أو ذكر بعض ذنوبه؛ وضعها في رقبته، وربما كان يضعها إذا نعس لئلا ينام!! ووجدوا صندوقاً مقفلاً، ففتح فوجدوا فيه سَفَطاً، ففتحه فإذا فيه دُرَّاعة وتُبَّان، كل ذلك من مُسُوح غليظ!!

فبكى يزيد ومن معه، وقال: يرحمك الله يا أخي، إن كنتَ لنقيّ السريرة، نقي العلانية! وخرج عمر بن الوليد وهو مخذول، وهو يقول: أستغفر الله، إنما قلت ما قيل لي»[4]!!

---

(1) يُقال: ما لَه سَبَد ولا لَبَد: لا شَعْرَ له ولا صوفَ، أي ما لَه قليلٌ ولا كثير.

(2) القَشِيب: من الأضداد، والمراد هنا: رداءً بالياً.

(3) ما يُسَخَّن فيه الماء.

(4) البداية والنهاية ٩/٢١٤ ـ ٢١٥.

إذاً فكم كانت تركة هذا الخليفة العظيم، الذي كان قبل الخلافة مضرب المثل في التنعم وكثرة المال والخدم والحشم والضياع والعقارات؟!

لنصغِ إلى عمر بن حفص المعيطي يحدثنا فيقول: «حدثنا عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، قال: قلت: كم ترك لكم عمر من المال؟ فتبسم فقال: حدثني مولى لنا كان يلي نفقته، قال: قال لي عمر حين احتضر: كم عندك من المال؟ قال: قلت: أربعة عشر ديناراً. قال: فقال: تحتملوني بها من منزل إلى منزل؟! فقلت: كم ترك لكم من الغلّة؟ قال: ترك لنا غلة ستمائة دينار؛ كل سنة ثلاثمائة دينار ورثناها عنه، وثلاثمائة دينار ورثناها عن أخينا عبد الملك، وتركنا اثني عشر ذكراً وست نسوة، اقتسمنا ماله على خمس عشرة»[1].

فماذا تفعل هذه التركة الضئيلة مع هذه الذرية الكبيرة؟ وماذا حدث لهؤلاء الأبناء الأبرار بعد أبيهم؟ وكيف كانت حياتهم ومعاشهم، وما مدى قرب الفقر والبؤس أو بُعْده منهم؟ لقد قال الله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذينَ لَوْ تَركُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خافوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾[2].

إن خير ما يورثه الأب لبنيه هو التقوى، فهي التي تحرس المال وتنمِّيه وتزكّيه، وكم شهدت الأيام أناساً ورَّثوا الأموال الطائلة، فبدَّدَتْها الذرية بسوء عملها وخبث سريرتها! وكم عاين الناسُ ذرياتٍ لم ترث إلا الكفاف مع التقوى؛ فبورك لها في القليل، وَرَبَا ذلك المال، حتى سابقوا به الأغنياء!! وهذا بعض إيحاءات تلك الآية الكريمة.

ولنستمع لبقية خبر ذرية أمير المؤمنين، وماذا حلّ بهم:

قال أبو جعفر المنصور لعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي

---

(١) الحلية ٥/٣٣٤، المناقب ٣٣٧. (٢) سورة النساء: الآية ٩.

بكر رضي الله عنه: «عِظْني. قال: بما رأيتُ أو بما سمعتُ؟ قال: بما رأيتَ. قال: مات عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ وخلّف أحدَ عشر ابناً، وبلغتْ تركتُه سبعةَ عشر ديناراً، كُفِّن منها بخمسة دنانير، واشتُري له موضع قبره بدينارين، وقُسم الباقي على بنيه، فأصاب كلُّ واحد من ولده تسعةَ عشر درهماً. وماتَ هشام بن عبد الملك وخلَّف أحدَ عشر ابناً، فقُسمت تركتُه، فأصاب كلّ واحد من تركته ألف ألف. ورأيتُ رجلاً من ولد عمر بن عبد العزيز قد حمل في يوم واحدٍ على مائة فرس في سبيل الله عز وجل، ورأيتُ رجلاً من ولد هشام يُتصدق عليه»[1]!!

أقوالهم عندما توفي:

جاء الفقهاء إلى زوجته فاطمة يعزونها فقالوا لها: «جئناكِ لنعزّيكِ بعمر، فقد عمَّتْ مصيبتُه الأمة، فأخبرينا ـ يرحمك الله ـ عن عمر كيف كانت حاله في بيته، فإن أعلم الناس بالرجل أهله؟ فقالت: والله ما كان عمر بأكثركم صلاةً ولا صياماً، ولكني ـ والله ـ ما رأيتُ عبداً لله قطّ كان أشدَّ خوفاً لله من عمر؛ والله إن كان ليكون في المكان الذي ينتهي إليه سرور الرجل بأهله، بيني وبينه لحاف، فيخطر على قلبه الشيء من أمر الله، فينتفض كما ينتفض طائر وقع في الماء، ثم ينشج، ثم يرتفع بكاؤه، حتى أقول: والله لتخرجنَّ نفسُه! فأطرح اللحاف عني وعنه، رحمةً له، وأنا أقول: يا ليتنا كان بيننا وبين هذه الإمارة بُعْدُ المشرقين، فوالله ما رأينا سروراً منذ دخلنا فيها»[2].

ولما وقف مَسْلَمةُ بن عبد الملك عليه بعد أن أُدْرِجَ في كفنه، قال: «رحمكَ اللهُ يا أمير المؤمنين، فقد أورثْتَ صالحينا بك اقتداءً وهدىً،

---

(١) المناقب ٣٣٨. والتركة المذكورة هنا هي (١٧) ديناراً من المال، غير غلّة الأرض.
(٢) المناقب ٣٣٠.

وملأتَ قلوبنا بمواعظك وذكرِك خشيةً وتقىً، وَأَثَّلْتَ لنا بفضلك شرفاً وفخراً، وأبقيتَ لنا في الصالحين بعدك ذِكْراً»[١].

ولما بلغ نعيه الحسنَ البصري، قال: «مات خير الناس»[٢].

وقال عبد الملك بن عمير: «رحمك الله يا أمير المؤمنين، إن كنتَ لغضيضَ الطَّرْف، أمينَ الفرج، جواداً بالحق، بخيلاً بالباطل، تغضبُ في حين الغضب، وترضى في حين الرضى، وما كنتَ مزّاحاً ولا عيّاباً، ولا بهّاتاً ولا مغتاباً»[٣].

بكاؤهم عليه، ومراثيه:

ولقد عمَّ الحزن كل الناس داخل أقطار الدولة الإسلامية، فبكاه اليتامى والأيامى، والأغنياء والفقراء، والعلماء وطلاب العلم، والنساء والرجال، والصغار والكبار. بل حتى خارج حدود دولة الإسلام، يحزن عليه امبراطور الروم، ويرسل له طبيباً كبيراً، يأمره أن يعالج الخليفة العظيم، ويستنقذه من السمّ الذي جرى في عروقه!

قال شاعر زمانه جرير بن عطية التميمي البصري[٤]:

ينعى النُّعاة أميرَ المؤمنين لنا ... يا خيرَ من حجَّ بيتَ اللهِ واعْتَمرَا
حملتَ أمراً عظيماً فاضطلعتَ به ... وسرتَ فيه بحكم الله يا عُمرا
الشمسُ كاسفةٌ ليستْ بطالعةٍ ... تبكي عليك نجومُ الليلِ والقمرا

---

(١) الأغاني ٩/٣٠٣ ـ ٣٠٤، المناقب ٣٢٩.
(٢) المناقب ٣٥، ٣٢٩، مختصر ابن عساكر ١٢٧، سير أعلام النبلاء ٥/١٤٢، تاريخ الإسلام ٢٠٥.
(٣) المناقب ٣٣٠.
(٤) الحلية ٥/٣٢١، المناقب ٣٣٥، مختصر ابن عساكر ١٢٧، البداية والنهاية ٩/٢١١ ـ ٢١٢.

وقال كُثَيِّر عَزَّة يرثيه[1]:

عَمَّتْ صنائعُهُ فَعَمَّ هلاكُهُ ... فالناسُ فيهِ كلّهم مأجورُ
والناسُ مأْتَمُهُمْ عليهِ واحدٌ ... في كلِّ دارٍ رنَّةٌ وزَفيرُ
يُثني عليكَ لسانُ مَنْ لمْ تُولِهِ ... خيراً لأنكَ بالثناءِ جديرُ
رَدَّتْ صنائِعُهُ عليهِ حياتَهُ ... فكأنَّهُ مِن نَشْرِها مَنْشُورُ

وقال أيضاً[2]:

سَقَى ربُّنا من ديرِ سِمْعانَ حفرةً ... بها عُمر الخيراتِ رَهْناً دفينُها
صوابحَ من مزنٍ ثقالٍ غوادياً ... دوالحَ دُهماً ماخضات دُجونها

وأنشد ابن أبي عائشة يرثي عمر[3]:

أقولُ لمّا نعى الناعونَ لي عُمرا ... لا يَبعدَنَّ قوامُ الحقِّ والدينِ
لم تُلْهِهِ عمرَه عينٌ يفجِّرها ... ولا النخيلُ ولا ركضُ البراذينِ
قد غيَّب الرامِسون اليوم إذ رَمَسُوا ... بدَيْرِ سِمْعان قِسطاسَ الموازينِ

بل إن امبراطور الروم ـ العدو اللدود للإسلام ودولته ـ قد حزن لموت أمير المؤمنين عمر! يروي محمد بن معبد «أن عمر بن عبد العزيز أرسل بأُسارَى من أسارى الروم، ففادَى بهم أسارى من أسارى المسلمين. قال: فكنتُ إذا دخلتُ على ملك الروم فَدَخَلَتْ عليه عظماءُ الروم؛ خرجتُ. قال: فدخلتُ يوماً فإذا هو جالس في الأرض مكتئباً حزيناً، فقلت: ما شأن الملك؟ قال: وما تدري ما حدث؟ قلتُ: وما حدث؟

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥/١٤٤، البداية والنهاية ٩/٢١١.
(٢) معجم البلدان ٢/٥١٧.
(٣) الطبري ٧/٤٧٦، الحلية ٥/٣٢٠ ـ ٣٢١، المناقب ٣٣٦، معجم البلدان ٢/٥١٧.

قال: مات الرجل الصالح! قلتُ: مَنْ؟ قال: عمر بن عبد العزيز. قال: ثم قال ملك الروم: لأحسبُ أنّه لو كان أحدٌ يحيي الموتى بعد عيسى ابن مريم عليه السلام؛ لأحياهم عمر بن عبد العزيز. ثم قال: لستُ أعجب من الراهب أغلق بابه ورفض الدنيا وترهّب وتعبّد، ولكن أتعجّب ممن كانت الدنيا تحت قدميه فرفضها ثم ترهب»(١).

وروى الإمام مالك «أن صالح بن علي حين قدم الشام سأل عن قبر عمر بن عبد العزيز، فلم يجدْ أحداً يُخبره، حتى دُلَّ على راهبٍ، فأتى فسأل عنه، فقال: قبرَ الصِّدِّيقِ تريدونَ؟ هو في تلك المزرعة»(٢)!

ويقول الإمام الأوزاعي: «شهدتُ جنازةَ عمر بن عبد العزيز، ثم خرجتُ أريد مدينة قِنَّسْرين، فمررتُ على راهبٍ يُثير على ثورَيْن له، فقال: يا هذا، أحسبك شهدتَ وفاة هذا الرجل؟ قلتُ له: نعم. فأرخى عينيه فبكى سِجاماً! فقلتُ له: ما يبكيكَ ولستَ من أهل دينه؟! قال: إني لستُ عليه أبكي، ولكن أبكي على نورٍ كان في الأرض، فطُفىء»(٣)!!

رؤى وبشائر:

ولنختم هذه السيرة الطيبة ببعض الرُّؤَى التي تبشر بالخلود في الجنان لأمير المؤمنين عمر، إن شاء الله تعالى.

عن فاطمة بنت عبد الملك ـ امرأة عمر ـ قالت: «قمتُ في جوف الليل، فانتبه لي عمر بن عبد العزيز، فقال: لقد رأيتُ رؤيا مُعْجِبة! قالت: قلتُ: جُعِلْتُ فِداكَ، فأخبرْني بها. قال: ما كنتُ لأخبرك حتى أصبح. قالتْ: فلما طلع الفجر، جاءه آذنه بالصلاة، فخرجَ فصلى بالناس، ثم

---

(١) الحلية ٥/٢٩٠، المناقب ٣٣٠ ـ ٣٣١، سير أعلام النبلاء ٥/١٤٢ ـ ١٤٣.
(٢) مختصر ابن عساكر ١٢٧، المناقب ٣٣١، سير أعلام النبلاء ٥/١٤٣.
(٣) الحلية ٥/٣٣٦، المناقب ٣٣١. يثير: يحرث.

عادَ إلى مجلسه. قالت: فاغتنمتُ خلوتَه، فقلتُ: أخبرني بالرؤيا التي رأيتَ. قال: رأيتُ فيما يرى النائم كأني دُفعت إلى أرض خضراء واسعة، كأنها بساط أخضر، وإذا فيها قصر أبيض، كأنه الفضة، أو كأنه الَّلبَن، إذ خارجٌ قد خرج من ذلك القصر، فهتف بأعلى صوته يقول: أين محمد بن عبد الله بن عبد المطلب؟ أين رسول الله ﷺ؟ إذ أقبل رسول الله ﷺ حتى دخل ذلك القصر. ثم خرج آخر من ذلك القصر، فنادى: أين أبو بكر بن أبي قُحَافة؟ إذ أقبل أبو بكر فدخل ذلك القصر. ثم خرج آخر فنادى: أين عمر بن الخطاب؟ فأقبل حتى دخل القصر. ثم خرج آخر فنادى: أين عثمان بن عفان؟ فأقبل عثمان حتى دخل ذلك القصر. ثم إن آخر خرج فنادى: أين علي بن أبي طالب؟ فأقبل حتى دخل ذلك القصر. ثم إن آخر خرج فنادى: أين عمر بن عبد العزيز؟ قال عمر: فقمتُ حتى دخلتُ القصر. قال: فَدُفِعْتُ إلى رسول الله ﷺ، والقوم حوله، فقلت بيني وبين نفسي: أين أجلس؟ فجلست إلى جنب أبي: عمر بن الخطاب. فنظرتُ فإذا أبو بكر عن يمين رسول الله ﷺ، وإذا عمر عن يساره، فتأمَّلْتُ رسول الله ﷺ، فإذا بين رسول الله ﷺ وبين أبي بكر رجل، فقلت: أي أبَهْ، من هذا الرجل الذي بين رسول الله وبين أبي بكر؟ قال: هذا عيسى ابن مريم. فسمعت هاتفاً يهتف ـ وبيني وبينه حجب من نور ـ: يا عمر بن عبد العزيز، تمسَّكْ بما أنتَ عليه، واثبتْ على ما أنت عليه»[١].

ورأى مسلمة بن عبد الملك عمر بعد موته، فقال: «يا أمير المؤمنين، ليتَ شِعْري إلى أي الحالات صرتَ بعد الموت؟ فقال: يا مسلمة، هذا أوان فراغي، واللهِ ما استرحتُ إلاّ الآن! قال: فقلتُ: أين أنتَ يا أمير المؤمنين؟ قال: مع أئمة الهدى في جنات عدن»[٢].

---

(١) المناقب ٢٨٣ ـ ٢٨٤.
(٢) المناقب ٢٨٧.

وعن اللَّيث بن سعد أنه قال: «استُشهد رجل من أهل الشام، فكان يأتي إلى أبيه كل ليلة جمعة في المنام، فيحدِّثه ويستأنس به! قال: فغاب عنه جمعة، ثم جاءه في الجمعة الأخرى، فقال له: يا بنيِ، لقد أحزنني وشَقَّ علي تخلُّفك! فقال: إنما شغلني عنك أن الشهداء أُمروا أن يتلقَّوا عمر بن عبد العزيز. وذلك عند وفاة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه»[1].

* * *

(١) المناقب ٢٩٥.

الخاتمة

يستشعر الباحث في سيرة عمر بن عبد العزيز قوة خفية في حياة هذا الخليفة العظيم، والمصلح الكبير، هي أرفع في معناها الدافع من القوى المشهودة فيه كعبقري فذ من أساطين عباقرة الإسلام الكبار.

وليس من الحق أن يزعم زاعم أن عمر كان أذكى وأحكم، وأقوى وأحزم، وأقدر وأحلم، وأخبر وأعلم، ممن سبقه من الخلفاء؛ فكل ذلك كان لكثير ممن سبقه منه حظ لا يقل ـ إن لم يزد ـ على ما أوتيه ابن عبد العزيز.

والميزة التي امتاز بها عمر على أقرانه هو إيمانه العميق بالإسلام على نحو فريد، وإدراكه للانحرافات التي اعتورت مسيرة الحكم، وشوّهت صورته السماوية التي جاء بها الوحي، وعاشها الناس في عصر النبوة والخلافة الراشدة. وفهمه العميق لمسؤولية الحكم، وحقوق الأمة، وتفانيه واستغراقه للقيام بذلك العبء الكبير الرهيب.

وسيرة عمر كتاب منير من أسلوب الإسلام ومنطقه في تربية الرجال العظماء، يجب على الأمة أن تمعن الفكر فيه، وهي تتلو فصوله وصفحاته وسطوره؛ ففيه القدوة الصالحة والأسوة الفذة للخليفة والأمير والوزير، والعالم والمتعلم، والابن والأب والزوج، والعابد والزاهد.

وهو حجة على كل حاكم يقصّر في حق دينه وأمته ورعيته، أو يحيف عليها، أو يتنكر لعقيدتها ويحكم بغير شرعها.

فإذا قال: قد عجزتُ. قال الله له: لماذا قدر عمر؟!

وإذا قال: يا رب قصرتْ مدةُ حكمي. أجيب: فمدة خلافة عمر أقصر!

وإذا قال: قَلَّ أعواني، وكثُر أعدائي. قيل له: كذلك كان عهد عمر!

وإذا قال: كثر الظلم وانتشرت المظالم، وازداد عدد المحرومين واليتامى والأيامى والمظلومين. أُجيب: مثل ذلك كان في عهد عمر!

وإذا قال: قَلَّ المالُ وضاق الحالُ. قيل له: أَصْلِحهُ كما فعل عمر!

لقد عمل ابن عبد العزيز بجهد دؤوب متواصل، فكان كالغيث أينما وقع نفع، وكانت روحه وأعصابه وعافيته تعمل وتنجز في اليوم جهد عام؛ فأحدث تغييراً هائلاً في مدة قصيرة، ونجح بتشييد صرح المجتمع الإسلامي على أصول الإسلام الصافية، وأعاد للدنيا عهد الراشدين من جديد ـ فاعتُبِر بحقّ خامس الخلفاء الراشدين، والمجدِّد الأول لأمر هذه الأمة على رأس المائة الأولى. وعاش الناس في ظلال خلافته وعدله في أمن وأمان وسلام، وأحبه القاصي والداني، وتمنوا دوام ذلك.

حياة عريضة حافلة ملء سمع الدنيا وبصرها، ونهاية محزنة موحشة، استعجلت موته بقطرات سمّ آثمة، فتلقاها البطل بروح مطمئنة، وهو ينظر إلى الملائكة الأبرار الذين قدموا لتشييعه، وهو يتلو قول الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدارُ الآخِرةُ نَجْعَلُها لِلَّذينَ لا يُريدونَ عُلُوّاً في الأرضِ وَلا فَساداً والْعَاقبةُ لِلْمُتّقينَ﴾.

رضوان الله وسلامه على عمر في الصديقين والشهداء والصالحين.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

عبد الستار الشيخ

الاثنين ٢١/ ذو القعدة/ ١٤١١ هـ ـ ٣/ ٦/ ١٩٩١ م.

المـــراجع

١ ـ الأحكام السلطانية والولايات الدينية، للماوردي، خرج أحاديثه وعلق عليه خالد عبد اللطيف العلمي، دار الكتاب العربي ـ بيروت.

٢ ـ أصول الحديث «علومه ومصطلحه»، للدكتور محمد عجاج الخطيب، دار الفكر ـ بيروت.

٣ ـ الأعلام، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين ـ بيروت.

٤ ـ الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، دار الفكر ـ بيروت.

٥ ـ الأموال، للقاسم بن سلّام، مؤسسة ناصر للثقافة ـ بيروت.

٦ ـ البداية والنهاية، للحافظ ابن كثير، مكتبة المعارف ـ بيروت.

٧ ـ تاريخ الإسلام، حوادث ووفيات (١٠١ ـ ١٢٠ هـ)، للحافظ الذهبي، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي ـ بيروت.

٨ ـ تاريخ الأمم والملوك، للإمام الطبري، دار الفكر ـ بيروت.

٩ ـ تاريخ الخلفاء، للحافظ السيوطي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.

١٠ ـ تذكرة الحفاظ، للحافظ الذهبي، دار الباز للنشر والتوزيع ـ مكة المكرمة.

١١ ـ تقريب التهذيب، للحافظ ابن حجر، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، دار المعرفة ـ بيروت.

١٢ ـ التلخيص الحبير، للحافظ ابن حجر، دار المعرفة ـ بيروت.

١٣ ـ تهذيب الأسماء واللغات، للإمام النووي، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١٤ ـ تهذيب التهذيب، للحافظ ابن حجر، دار الفكر ـ بيروت.
١٥ ـ توالي التأسيس لمعالي محمد بن إدريس، للحافظ ابن حجر، تحقيق عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية ـ بيروت.
١٦ ـ جامع الأصول من أحاديث الرسول، لابن الأثير، تحقيق الشيخ العلامة عبد القادر الأرناؤوط، دار الفكر ـ بيروت.
١٧ ـ جامع بيان العلم وفضله، للإمام ابن عبد البر، دار الفكر.
١٨ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم الأصبهاني، دار الكتاب العربي ـ بيروت.
١٩ ـ خلفاء الرسول، لخالد محمد خالد، دار الكتاب العربي ـ بيروت.
٢٠ ـ الدراية في تخريج أحاديث الهداية، للحافظ ابن حجر، دار المعرفة ـ بيروت.
٢١ ـ الدولة الأموية، للدكتور يوسف العش، دار الفكر ـ دمشق.
٢٢ ـ رجال من التاريخ، للشيخ علي الطنطاوي، دار المنارة ـ جدة.
٢٣ ـ سنن الدارمي، تحقيق فؤاد زمرلي وخالد العلمي، دار الكتاب العربي ـ بيروت.
٢٤ ـ سير أعلام النبلاء، للحافظ الذهبي، مؤسسة الرسالة ـ بيروت.
٢٥ ـ سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، دار الكتب العلمية ـ بيروت.
٢٦ ـ شذارت الذهب، لابن العماد الحنبلي، دار الفكر ـ بيروت.
٢٧ ـ صحيح الجامع الصغير وزيادته، للعلامة ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي ـ دمشق بيروت.
٢٨ ـ صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
٢٩ ـ صفة الصفوة، لابن الجوزي، تحقيق محمود فاخوري، دار المعرفة ـ بيروت.

٣٠ ـ طبقات الحفاظ، للحافظ السيوطي، دار الكتب العلمية ـ بيروت.
٣١ ـ الطبقات الكبرى، لابن سعد، دار الفكر، مصورة عن طبعة دار صادر ـ بيروت.
٣٢ ـ عمر بن عبد العزيز، لعبد الرحمن الشرقاوي، دار الكتاب العربي ـ بيروت.
٣٣ ـ عمر بن عبد العزيز، للدكتور وهبة الزحيلي، دار قتيبة ـ دمشق.
٣٤ ـ العواصم من القواصم، للإمام ابن العربي، تحقيق وتعليق العلامة محب الدين الخطيب، دار الجيل ـ بيروت.
٣٥ ـ فتح الباري، للحافظ ابن حجر، المكتبة السلفية.
٣٦ ـ الفضل المبين على عقد الجوهر الثمين «شرح الأربعين العجلونية» للشيخ محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق عاصم بهجة البيطار، دار النفائس ـ بيروت.
٣٧ ـ فقه السنة، للشيخ سيد سابق، دار الكتاب العربي ـ بيروت.
٣٨ ـ القاموس المحيط، للفيروزابادي، مكتبة النوري ـ دمشق.
٣٩ ـ الكامل في التاريخ، لابن الأثير، دار الكتاب العربي ـ بيروت.
٤٠ ـ مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، لابن منظور، الجزء «١٩» اختصره على نهج ابن منظور: إبراهيم صالح، دار الفكر ـ دمشق.
٤١ ـ المرتضى «سيرة أمير المؤمنين علي»، لأبي الحسن الندوي، دار القلم ـ دمشق.
٤٢ ـ المستدرك على الصحيحين، للحاكم، دار الكتاب العربي ـ بيروت.
٤٣ ـ مسند أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، للحافظ الباغندي، خرج أحاديثه وعلق عليه محمد عوامة، دار ابن كثير ـ دمشق.
٤٤ ـ مع الرعيل الأول، لمحب الدين الخطيب، المكتبة العلمية ـ بيروت.

٤٥ ـ معجم البلدان، لياقوت الحموي، دار الفكر، مصورة عن طبعة دار صادر ـ بيروت.
٤٦ ـ المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، لمجموعة من المستشرقين، دار الدعوة ـ استانبول.
٤٧ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضعه محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر ـ بيروت.
٤٨ ـ المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بمصر، دار الدعوة ـ استانبول.
٤٩ ـ المنهج المسلوك في سياسة الملوك، لعبد الرحمن بن عبد الله الشيزري، تحقيق علي عبد الله الموسى، مكتبة المنار ـ الأردن.
٥٠ ـ موطأ الإمام مالك، تحقيق وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
٥١ ـ نظام الإسلام «الحكم والدولة»، لمحمد المبارك، دار الفكر.
٥٢ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، تحقيق طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، المكتبة العلمية ـ بيروت.

الفهرس

الباب الثاني ـ ما قبل الخلافة

الباب الثالث ـ استخلافه ونظرته للحكم ومنهجه فيه

الباب الرابع ـ سياسته الحكيمة وأعماله العظيمة وإصلاحاته الواسعة الكبيرة

الباب الخامس ـ مكملات لسيرته

انتهى الكتاب بحمد الله وعونه وتوفيقه

أعلام المسلمين

سلسلة تراجم إسلامية تجمع بين العلم والفكر والتوجيه، وتتناول أعلام المسلمين في شتى الميادين.

صدر منها:

١ ـ عبد الله بن المبارك
تأليف محمد عثمان جمال.

٢ ـ الإمام الشافعي
تأليف عبد الغني الدقر.

٣ ـ مصعب بن عمير
تأليف محمد حسن بريغش.

٤ ـ عبد الله بن رواحة
تأليف د. جميل سلطان.

٥ ـ أبو حنيفة النعمان
تأليف وهبي غاوجي الألباني.

٦ ـ عبد الله بن عمر
تأليف محيي الدين مستو.

٧ ـ أنس بن مالك
تأليف عبد الحميد طهماز.

٨ ـ سعيد بن المسيب
تأليف د. وهبة الزحيلي.

٩ ـ السلطان محمد الفاتح
تأليف د. عبد السلام فهمي.

١٠ ـ الإمام النووي
تأليف عبد الغني الدقر.

١١ ـ الشيخ محمد الحامد
تأليف عبد الحميد طهماز.

١٢ ـ السيدة عائشة
تأليف عبد الحميد طهماز.

١٣ ـ الإمام البخاري
تأليف د.تقي الدين الندوي المظاهري.

١٤ ـ عبادة بن الصامت
تأليف د. وهبة الزحيلي.

١٥ ـ عبد الله بن عباس
تأليف د. مصطفى الخن.

١٦ ـ جابر بن عبد الله
تأليف وهبي غاوجي الألباني

١٧ ـ أحمد بن حنبل
تأليف عبد الغني الدقر.
١٨ ـ كعب بن مالك
تأليف د. سامي مكي العاني.
١٩ ـ أبو داود
تأليف د. تقي الدين الندوي المظاهري.
٢٠ ـ أسامة بن زيد
تأليف د. وهبة الزحيلي.
٢١ ـ معاوية بن أبي سفيان
تأليف منير الغضبان.
٢٢ ـ عدي بن حاتم الطائي
تأليف محيي الدين مستو.
٢٣ ـ مالك بن أنس
تأليف عبد الغني الدقر.
٢٤ ـ عبد الله بن مسعود
تأليف عبد الستار الشيخ.
٢٥ ـ معاذ بن جبل
تأليف عبد الحميد طهماز.
٢٦ ـ الإمام الجويني
تأليف د. محمد الزحيلي.
٢٧ ـ القاضي البيضاوي
تأليف د. محمد الزحيلي.
٢٨ ـ عبد الحميد بن باديس
تأليف مازن مطبقاني.
٢٩ ـ تميم بن أوس الداري
تأليف محمد محمد حسن شراب
٣٠ ـ السلطان عبد الحميد الثاني
تأليف د. محمد حرب.
٣١ ـ السيدة خديجة
تأليف عبد الحميد طهماز.
٣٢ ـ زيد بن ثابت
تأليف: صفوان داوودي.
٣٣ ـ الإمام أبو جعفر الطبري
تأليف: د. محمد الزحيلي.
٣٤ ـ أبو موسى الأشعري
تأليف: عبد الحميد طهماز
٣٥ ـ أبو عبيد قاسم بن سلام
تأليف: سائد بكداش
٣٦ ـ أبو جعفر الطحاوي
تأليف: عبد الله نذير أحمد
٣٧ ـ سفيان بن عيينة
تأليف: عبد الغني الدقر
٣٨ ـ الحافظ ابن حجر العسقلاني
تأليف: عبد السّتار الشيخ
٣٩ ـ العز بن عبد السلام
تأليف: الدكتور محمد الزحيلي
٤٠ ـ عمر بن عبد العزيز
تأليف: عبد السّتار الشيخ